

للمغفور له صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ علي محفوظ

عضو هيئة كبار العلماء

الطبعة التاسعة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اختار لنا الإسلام ديناً ، وجعل السعيد من وقف عند حدوده وتأدب بآدابه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وشموس العرفان (أما بعد) فهذا مختصر نفيس فى الوعظ والخطابة جعلته نبراساً للدعاة الناصحين ، وسراجاً يضىء للخطباء الراشدين . وضعته طبق منهج الدراسة لقسم إجازة الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين ، من كليات الجامع الأزهر الشريف والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يديم به النفع العميم ، إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب .

مقدمة الطبعة الرابعة

اعلم أن الكمالات ثلاثة : نفسية كالعلم والعفة والشجاعة والعدالة ، وبدنية كالصحة والقوة والجمال وطول العمر فى ذلك مع اللذة والبهجة ، وخارجية كالمال والأهل والعز وكرم العشيرة . وأشرفها الكمالات النفسية ، وأوسطها البدنية ، وأدونها الخارجية . والكمالات النفسية محصورة فى أمرين : العلم اليقينى ، وصالح العمل . ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله عز وجل والإيمان به . ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيما فى الوسط غير مائل إلى طرفى الإفراط والتفريط . فهذا هو الصراط المستقيم . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » أى قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى ، وإقراراً بوحدانيته ، وعملوا على وفاق ما قالوا . فليس يراد منه القول باللسان فحسب ، لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فإن ذكر الاستقامة عقب ذلك القول دال على أنه كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية .

وأن للكمال مرتبتين ، كاملة وأكمل ، فالأولى أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة ما يصير به كاملا فى نفسه . والثانية أنه إذا بلغ هذه المرتبة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين ، ولا ريب أن ذلك فوق الكمال . وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا نال هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهى الاشتغال بإصلاح الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » وفى هذه الآية الكريمة إشارة إلى أنه ينبغى للداعى إلى الله تعالى أن يكون صحيحاً فى دينه مهذباً مستقيما عاملا بعلمه ليكون الناس إليه أسكن ، وإلى قبول دعوته أقرب . والحاصل أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين كما قال تعالى : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فأقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمَّل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بصالح العمل ، وكمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه . فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما .

المؤلف

مقدمة الطبعة الخامسة

قبل أن يلقى المغفور له صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ على محفوظ ربه أوصانا فى حديث خاص لا يزال بما حوى من توجيهات ، المصباح الوهاج الذى يضىء لنا الطريق ، أوصانا أن نحافظ على أن تظل الكتب التى ألفها ينتفع بها المسلمون .

وها نحن اليوم نقدم الطبعة الخامسة من كتابه (هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة) منقحة ومزيدة بيده الكريمة من نسخته الخاصة ، فهى بهذا خلاصة ما قدم الفقيد الكريم الذى أفنى عمره فى الوعظ والإرشاد .

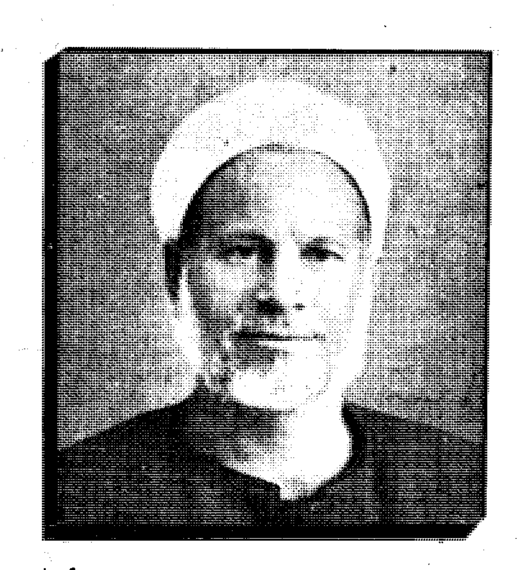
فإلى تلاميذه الكرام ، وعارفى فضله ، وإلى حاملى لواء الإسلام و إلى المشتغلين بالوعظ والتربية والإرشاد ، و إلى المصلحين الاجتماعيين والخطباء والدعاة الناصحين .

و إلى العالم الإسلامى قاطبة ، وأخيراً إلى روح الفقيد الطاهرة نقدم هذا السفر النفيس

ولعلنا بهذا نكون قد أدينا بعض الأمانة التى فى أعناقنا ؟

رمضان ١٣٧١ هـ
يونيه ١٩٥٢ م

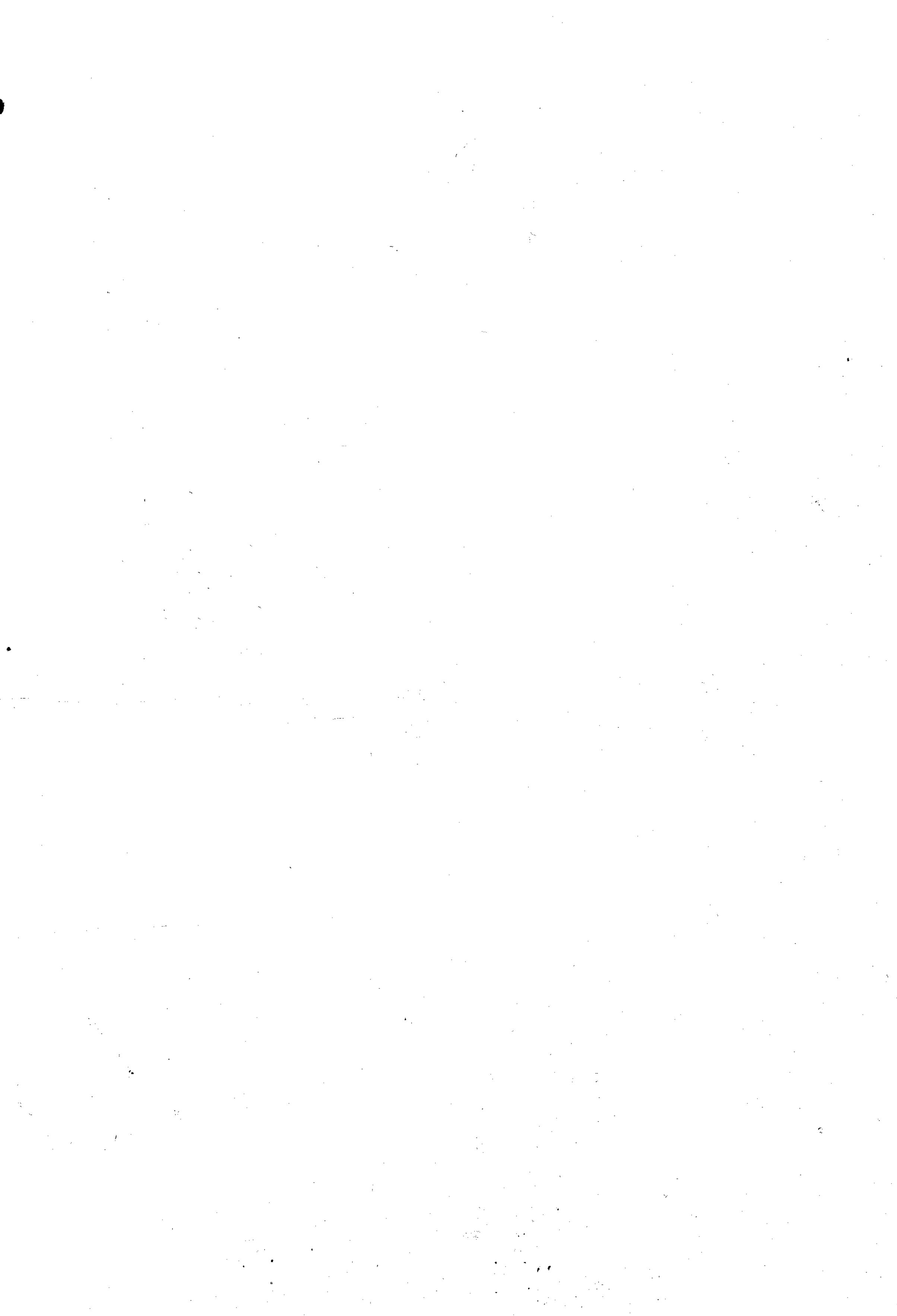
أنجال المؤلف



المغفور له بحضرة صاحب الفضيلة الواعظ الأشهر

الشيخ علي محفوظ

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف



ترجمتـــه

فى محلة روح مركز طنطا غربية ، كانت تقيم أسرة « محفوظ » وهى أسرة طيبة يتصل نسبها بالحسن بن على رضى الله عنهما .. فى تلك القرية ولد وفيها نشأ ، وحفظ القرآن الكريم واستوعب حفظ بعض المتون .

وفى عام ١٣٠٦ هـ التحق بالجامع الأحمدى بطنطا واشتغل بتجويد القرآن الكريم على بعض الفقهاء ، ثم بدأ يتلقى العلم على كبار شيوخه ، فكان من أساتذته الشيخ عبد الرحمن الدماطى والشيخ محمد الشبينى الكبير ، والشيخ على المنوفى والشيخ قطب بكر . وكان فى أثناء طلبه العلم مثلاً حسناً للطالب الجد ، واستمر بالجامع الأحمدى نحواً من عشر سنوات ظهر فيها نبوغه وتفوقه على أقرانه .

ثم رأى شيخه الأكبر الشيخ الدماطى أن ذلك النبوغ يجب أن يفيد منه الأزهر الشريف ، فحبب إليه طلب العلم فيه فتوجه فى عام ١٣١٧ هـ إلى مصر ونزل بالأزهر المعمور ، ثم مالت نفسه إلى مذهب أبى حنيفة بعد أن كان شافعى المذهب فتتلمذ على صفوة علمائه من أمثال الشيخ : محمد الحلبى ، والشيخ بكر الصدفى والشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد بخيت ، والأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده . وفى عام ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٧ م حصل على شهادة العالمية ، ثم اشتغل بالتدريس .

ولما أدخل النظام فى الأزهر عام ١٩١١ سار فيه حتى بلغ القسم العالى .

وفى عام ١٩١٨ أنشىء قسم الوعظ والإرشاد فى الأزهر ، فكان أول من تعهده بالتأسيس والتوجيه ، وفى هذا القسم وجد ضالته ، فجاهد فيه بكل قواه ، ووقف عليه فكره ووقته ، وسرعان ما أنجب على يديه رجالا دعاة خير ورسل إصلاح ، أشربوا حب الفضيلة ونمت فيهم نازعة الخير .

وفى عام ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م أوفد على رأس أول بعثة أزهرية إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج .

وفى مايو عام ١٩٣٩ قدرت هيئة كبار العلماء مزاياه وعلمه وفضله ، فقررت ضمه إلى عضويتها ، وصدر بذلك الأمر الملكى رقم ١٦ لسنة ١٩٣٩ .

وفى فبراير ١٩٤١ منح كسوة التشريفة العالمية من الدرجة الأولى .

ثم لقى مولاه فى يوم الأربعاء الثالث من ذى القعدة ١٣٦١ هـ ، الموافق ١١ نوفمبر ١٩٤٢ .

نشاط :

نظر الفقيد بفكره الثاقب إلى العلم والعلماء ، فوجده أشبه بصناعة خاصة بين طائفة خاصة فى مكان خاص لا يعدو العالم والمتعلم ، قد دأب الأزهر على ذلك جيلا بعد جيل ، وسواد الأمة عن هذا النور محجوب باحتجاب العلماء عنهم ، اللهم إلا بصيص من النور يظهر فى بعض البلاد التى ينبت فيها العلم بوجود عالم من العلماء أو طالب من الطلاب فى ليالى شهر رمضان من كل عام . . فأخذ على نفسه المواثيق أن يجدد عهد السلف الصالح ، وأن يقوم بنشر الدعوة الصحيحة بين طبقات الشعب المصرى الكريم .

وضع أساس فن الوعظ والخطابة :

ولقد أحب فن الوعظ والإرشاد حباً لا يعدله حب ، وأخلص له إخلاصاً ، ما بعده إخلاص ، وامتزج هذا الحب وهذا الإخلاص بإيمان قوى لا حد له ، ثم سكن هذا المزيج المبارك فى قلب كريم فى نفس طيبة راضية مطمئنة .

وبهذا القلب عقد اللواء وتأهب للغزو ، فأخذ يبث فكرته بين طبقات الأزهر من علماء وطلاب ، فكان من ثمرات هذا الجهاد إنشاء قسم الوعظ والإرشاد فى كلية أصول الدين .

الوعظ فى المساجد والمجامع العامة :

ثم انتقل إلى الناحية العملية ، فكان يغشى المساجد كل أسبوع والمجامع العامة ناشراً الفضيلة داعياً إلى التمسك بحبل الله المتين ، فظهر نجمه وسطع نوره ، ورمقته العيون

وأسكنته القلوب فى سويدائها لما عرف فيه من علم وما أوتيه من قوة البيان ودقة الأسلوب وسلاسة التعبير . وقد أنتجت قريحته الفذة فى هذا الفن كتاب « سبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة » ثم أعقبه بكتاب « هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة » وهو يعتبر أول كتاب حديث من نوعه.

وكان أهم ما يلاحظ عليه ذوقه الرفيع فى الوعظ ، ومراعاته لشعور الحاضرين وعواطفهم ، يستميلهم بالفكاهة النادرة برقة تملك المشاعر ، ويلقى إليهم بالحجج والحكم فى دعة تفتح لها الطريق إلى القلوب قبل الأسماع .

الوعظ فى القرى :

رأى — طيب الله ثراه — أن كثيراً من القرى الريفية قد حرم من العلم فكان يذهب إليها مرشداً وداعياً إلى الله بإذنه . مضحياً فى ذلك بماله وراحته ووقته فكان يقضى العطلة الصيفية متنقلا بالوعظ والإرشاد فى شتى البلاد . وقد كان يسجل خطبه فى سجل خاص حتى بلغ مجموعها نحو (١٠٠٠) خطبة .

محاربة البدع والخرافات :

رأى — رحمه الله — أن كثيراً من البدع والخرافات قد استحكم فى نفوس الشعب حتى أبعدهم عن طريق الدين المستقيم ، فأخذ يكافح ويجاهد ويذكر القوم بمحاسن الدين وقبائح البدع ولم يثنه عن سبيله ما أقامه دعاة هذه البدع من عراقيل وعقبات . . وظل ثابتا على عزمه حتى اقتلع الأوهام من القلوب وعاد بالناس إلى حظيرة الدين ، وقد ألف فى هذا كتابه العظيم « الإبداع فى مضار الابتداع » .

الجمعيات الإسلامية العامة :

أيقن أن الجمعيات الإسلامية خير معين على نشر الفضائل بين الأمة فساهم فى تأسيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

وكان من أعضائها العاملين البارزين .

وساهم فى تأسيس جمعية الهداية الإسلامية

وقد انتخب وكيلا لها فى أول جلسة عقدت لتأسيسها فى عام ١٣٤٦ هـ .

وكذلك ساهم فى تأسيس جمعية تحفيظ القرآن بالعباسية وكان من أعضائها المخلصين .

وقبل الحرب العالمية الأولى كانت جمعية الرد على المبشرين بالخرنفش تناهض المبشرين فكان رحمه الله خطيبها وحامل لوائها .

وفازت جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية بالكثير من نشاطه ولما تكونت جماعة أنصار الحج ساهم فى جهادها بكل قواه .

الجمعيات الخاصة:

لم يكتف الفقيد بكل هذه الأعمال الجليلة بل نظر فى صفوف الأمة ، فوجد طائفة من عظمائها المخلصين قد عكفوا على ما لديهم من الأعمال ، فتلطف فى الدخول إليهم ، واستعمل ذكاءه وفطنته فى استمالتهم وهمس فى آذانهم بأحكام الدين الحنيف فوصلت دعوته إلى قلوبهم ، ووجد التربة صالحة للغرس ، والجو ملائما للانبات ، فكون جمعية قوامها العظماء وعنصرها :

الطبقة الراقية مثل المرحوم الدكتور سالم هنداوى باشا والدكتور سليمان عزمى باشا والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا وغيرهم من طبقتهم ، واشتغل معهم بتفسير القرآن الكريم فى ليلة معينة من كل أسبوع ، واتخذ لذلك عيادة الدكتور سالم باشا بعابدين حتى أتمه ، فى بضع سنين ، ثم انتقل إلى السنة الشريفة فقرأ معهم كتاب البخارى حتى أتمه ، فى بضع سنين ، وقد كان من آثار هذا الغرس أن طلع المرحوم الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل على العالم الإسلامى بكتابه العظيم « الإسلام والطب الحديث » .

كذلك كون رحمه الله جمعية أخرى قوامها الدكتور عبد السلام العيادى ونخبة من خيرة المتعلمين ما بين مهندس وتاجر وموظف وجعل مقرها عيادة الدكتور العيادى بالدرب الأحمر ، وقد ابتدأ فى تفسير القرآن الكريم حتى أوشك على إتمامه ولكن المنية عاجلته قبل ذلك بقليل .

وأنشأ جمعية ثالثة قوامها جماعة من أرباب المعاشات فغرس فيهم الروح الدينية الحقة ، وكان مقرها منزل صاحب العزة أحمد بك فهمى المهندس ، فى المغربلين ثم بالعباسية .

وامتد نشاطه إلى الطبيبات والممرضات داخل المستشفيات ،فتعهدهم فى مستشفى فؤاد الأول للولادة بالموعظة الحسنة والنصائح الغالية مما كان له أثر محسوس فى قيامهم بواجبهم الإنسانى على خير الوجوه .

إلقاء دروس دينية فى الإذاعة اللاسلكية

وفى حوالى عام ١٩٣٩ نبتت فكرة إلقاء دروس دينية على أمواج الأثير ، فكان أول من وقع عليه الاختيار لهذا العمل الجليل ، فكان يلقى درساً فى كل شهر تقريباً حتى لقى ربه .

دروس شهر رمضان فى الأزهر الشريف

وكان من عادته رحمه الله أن يلقى درساً فى الجامع الأزهر بعد صلاة العصر من كل يوم من أيام رمضان المبارك ، وقد ظل محافظاً على هذه العادة الجليلة وكان فيها مخلصاً متفانياً ، ولا أدل على ذلك من حرصه عليها وهو فى مرض الموت .

التأليف

ألف الفقيد الكتب الآتية :

١ — الأخلاق — وكان يدرس فى المعهد الابتدائى بالأزهر .

٢ — سبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة .

٣ — هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة . وهو مقرر للدراسة فى كلية أصول الدين .

٤ — الإبداع فى مضار الابتداع . وهو مقرر للدراسة فى كلية أصول الدين .

٥ — الخطابة . (لم يطبع) وقد ظهرت منه مذكرة مختصرة فى ١٠٠ صفحة

خاتمة

وهكذا كان الفقيد الكريم شعلة من نور وعلم ، تفرقت أشعتها فى كل ناحية من نواحى الأمة ، فكانت السراج الذى يهتدى به المهتدون . . .

كان رحمه الله يرى أن العلم ثروة وزكاتها الوعظ والارشاد ليكون علماً مباركا طيباً يزيده الله من فضله .

ولقد كان واعظاً بسمته وهيئته ووقاره ووقفته ومشيته قبل أن يكون واعظاً بقوله ومنطقه ، فكان فى ذلك مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : — (خياركم من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ، ويرغبكم فى الآخرة عمله) رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

رحم الله الفقيد الجليل ، وأحله مقامه بين الصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

* * *

الفصل الأول

التعريف بالدعوة

أرسل الله عزت قدرته وجلت حكمته رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، عامرة بالخير والهدى ، وكان فى دعوته وعبادته ، وفى حربه وسلمه ، وفى أسرته و بين أصحابه ، وفى كل مظهر من مظاهر حياته مصداقا لقول الله تعالى فيه : « و إنك لعلى خلق عظيم » ، وتحقيقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . رواه ابن ماجه . وقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . رواه العسكرى عن على وهو ضعيف لكنه صحيح المعنى ، صححه أبو الفضل بن ناصر من طريق آخر . حتى اضطرت دعوته الصادقة القوية ، وأخلاقه السامية كثيراً من العقلاء الذين هداهم الخلق النبوى ، والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين إلى نبذ معبوداتهم والإصغاء لداعى الحق والاستماع لآيات الله البينات ، عاملين بها مخلصين دينهم لله ، وصاروا نوراً يهتدى به إلى طريق التدين الصحيح ، فزاد عدد المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ، ولم يترك الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها ، وأمر أصحابه رضى الله عنهم بالتأسى به والسير على نهجه — وكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة فى المجامع والأسواق ، وهجرة أصحابه فى سبيل الله و إعلاء كلمته و إرسال كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء ، بل كانت حياة الصحابة يومئذ فى ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساساً لهداية الناس إليه . ذلك بأنهم رضوان الله عليهم فهموا سنة الرسول وتأثروا بهديها وفهموا غايتها الشريفة ، فتحملوا الأمانة بجدارة وأدوها حق التأدية ، فكانوا

فى رسالتهم العلمية مثل رسالتهم العملية ، فى تأدية الواجب على أكمل وجه وأعلى مثال ، فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة ، وأئمة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

ومن أمعن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان . وأنه ما قام دين من الأديان ، ولا انتشر مذهب من المذاهب ، ولا ثبت مبدأ من المبادىء إلا بالدعوة . وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد إحكامها ، إلا بترك الدعوة . فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب ، سواء أكان ذلك الأمر حقاً أم باطلا .

ولقد علّمنا التاريخ ، أنه ما قام أحد يدعو إلى شىء إلا وجد له أنصاراً وأتباعا — وها نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة ، والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة تتضاءل — ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته ، لأنه الحق ، لما فرضت علينا الدعوة إليه ، ولما كان ثَمَّ حاجة إلى الأنبياء والمرسلين ، وورثتهم من العلماء العاملين والمرشدين الناصحين ، الداعين إلى الهدى ودين الحق ، ولما وصف الله عز وجل الدعوة إليه بأنها أحسن القول ، ولما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر للناس أن طريقته التى يسلكها هو ومن كان على قدمه ، إنما هى الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة .

وللدعوة إلى الله مراتب : (الأولى) دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه : (١) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا والدعوة بالسيف ثانياً ، حماية لها ودفاعاً عن الحق وأهله ، لا قهراً على الدخول فى الدين . فما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة ومنع الاعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم وعقيدتهم ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين . (٢) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء والسابق بإظهار الأمر الشريف أفضل (٣) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً ، فكانت تأثيراتها فى إحياء القلوب الميتة ، وإنارة النفوس

المظلمة أكمل (٤) أن نفوس الأنبياء حصل لهما مزيتان : الكمال فى الذات والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل (المرتبتان الثانية والثالثة) دعوة العلماء والملوك بطريق الخلافة عن أنبياء الله تعالى ، وذلك أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام صفتين : العلم والقدرة ، والعلماء نواب الأنبياء فى العلم ، والملوك العادلون نواب الأنبياء فى القدرة . والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد . فالعلماء خلفاء الأنبياء فى عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء فى عالم الأجساد .

وبهذا علم أن أكمل الدرجات فى الدعوة إلى الله عز وجل بعد الأنبياء درجة العلماء . ثم هم على ثلاثة أقسام : العلماء بالله وهم الحكماء الذين قال الله تعالى فيهم : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » والعلماء بصفات الله تعالى وهم أصحاب الأصول ، والعلماء بأحكام الله تعالى وهم الفقهاء . ففى القرن الثانى كان الدين شغل العلماء الشاغل ، فقد عكف قوم على مواعظ الدين وحكمه وآدابه وما يحض على مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، وهم الزهاد والنساك . وقوم على تعرف أصول الدين ومعرفة وجود الله تعالى وصفاته ، وإرسال الرسل ، وإمكان المعجزات ، وما إلى ذلك ، وهم المتكلمون ، وقوم على تخريج أحكام الفروع ومعرفة الحلال والحرام ، واستنباط ذلك من الكتاب والسنة وهم الفقهاء .

والكل كانوا على جانب عظيم من العلم والعمل والتقوى والورع ، والكل بحاله هذا كان داعياً إلى الله تعالى . وأما الملوك العادلون فهم أيضاً يدعون إلى دين الله تعالى بالسيف بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه بمحاربة الكفار المعاندين المعتدين على أهله ، وإما بالمحافظة عليه عند وجوده بنحو قتل المرتدين وقمع العابثين به ، والضرب على أيدى المتمردين عليه المفسدين فى الأرض .

وبالجملة فالدعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد الخلق إلى الصراط السوى وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يخلفهم فيها كبار أتباعهم

والعظماء من أولى العلم وذوى القدرة على ضبط الأمور والتأثير فى الأرواح وجذب النفوس إلى الخير ممن يسلكون سنتهم و يهتدون بهداهم .

وأن الداعى إلى الله تعالى خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه فى تبليغ شرائعه ، وفى بيان هديه وسنته ، وفى بيان عقائده وأحكامه ، وأخلاقه الكريمة ، وعظاته البالغة ، وأسرار التشريع .

إن الدعوة إلى الخير تربية ، والتربية المفيدة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة . ذلك أن التقليد عريق فى بنى الإنسان يميل إليه بفطرته ، والمثل العليا أمامه تزيد فى شوقه وتضاعف همته وتهيب به إلى الاحتذاء بل المنافسة ، ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة الكاملة النافعة ضعف عقله وأظلمت بصيرته ، وخرج عن ماتقتضيه الفطرة السليمة ، ولم يكن فى عداد الصادقين الذين أمر الله أن يكون فى زمرتهم : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » . ولا ريب أن مقصود الدعوة إلى الله تعالى نشر الهداية الإسلامية بتصحيح العقائد واستقامة الأعمال وتهذيب النفوس وتوثيق عرى الوحدة والإخاء بين المسلمين ، ومقاومة الالحاد ودفع الشبهات عن الدين . وأقرب طريق لبلوغ هذا المقصد الأسمى الوسائل الآتية : —

(١) بث الدعاة إلى الإسلام بقدر الطاقة (٢) انتشار المرشدين الناصحين بين المسلمين ولاسيما القرى النائية وأهل البوادى منهم (٣) نشر رسائل وكتب دينية تشتمل على أصول الإسلام وفروعه وفضائله وآدابه وأسرار التشريع فيه . (٤) إلقاء المحاضرات والخطب الدينية فى الأندية والمجتمعات العامة ونشر المقالات فى الصحف (٥) إنشاء صحف ومجلات باللغة العربية وغيرها فى الأقطار المختلفة ، تعنى بالشئون الإسلامية (٦) العمل على إصلاح منهج الخطب المنبرية ودروس الوعظ والارشاد فى المساجد (٧) السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية ومدارسها

الأهلية لأجل العناية بالتعليم الديني والتربية الإسلامية ، وبهذا وحده تسعد الأمم الاسلامية وتسلم من خطر الشقاء فى العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

معنى الدعوة

الدعوة من الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده ، ومنه قول الله تعالى : « قال رب السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه » من مواتاتها والوقوع فى الفاحشة التى تذهب بخيرى الدنيا والآخرة ، وقوله جلّ ثناؤه : « والله يدعو إلى دار السلام » السلامة من كل المكاره والأمن من جميع المخاوف وهى الجنة ، ومثلها الدعاية . وفى كتاب هرقل « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته وهى كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

وفى العرف حث الناس على الخير والهدى ، والأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل — وهى ثلاثة أنواع : (النوع الأول) : دعوة الأمة المحمدية جميع الأمم إلى الإسلام ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من الهدى ودين الحق وهذا واجب هذه الأمة بمقتضى جعلها خير أمة أخرجت للناس مقيداً بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبحكم وصف المؤمنين الذين أذن لهم فى القتال فى قوله تعالى : « الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ، فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

(النوع الثانى) : دعوة المسلمين بعضهم بعضا إلى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ، ويقوم بهذا النوع كالذى قبله خواص الأمة العارفون بأمور الدين ، وأسرار التشريع ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »

(النوع الثالث) : ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فى ذلك الخاصة والعامة بالدلالة على الخير والترغيب فيه ، والنهى عن الشر والتحذير منه ، كل

(٢)

بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين أخاه على منكر هو يعلمه تصدى لنصحه و إرشاده و بيان ما يأمر به الدين الحنيف وما ينهى عنه فى هذه الواقعة ، كل ذلك برفق ولين فذلك من التواصى بالحق والتواصى بالصبر الذى جعله الله عزّ وجل آية الإيمان الصحيح ، وسبباً للنجاة من الخسران المبين فى قوله تعالى : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

الحاجة إلى الدعوة

إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وركبه فى أحسن صورة ، وكرمه وعظمه ، وعلى كثير من خلقه فضله ورفعه ، كرمه بالفكر والعقل يميز به الحسن من القبيح ويفرق بين الحق والباطل ، ولكن العقول البشرية وحدها لا تستقل بإدراك المصالح الدنيوية فضلا عن الأخروية ، ولا تهتدى وحدها إلى تمييز الخير من الشر ، والمعروف من المنكر ، وليس من غرائزها الوقوف على حقائق الأمور ، ولا أن تدبر شئونها على نظام محكم عادل لا خلل فيه ولا انحراف فإنها — وإن وصلت إلى الغاية القصوى من الإدراك — قد تميل عن الحق إلى الباطل ، وتنحرف عن الصلاح إلى الفساد ، ويخفى عليها وجه المصلحة ، ولا تهتدى إلى مغبة الأعمال ، وكثيراً مايبدو لها الشر فى لباس الخير فتقع فيه ، وكثيراً ما ظهر لها الخير فى صورة الشر فأعرضت عنه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ».

و إن اهتدت العقول البشرية إلى إدراك الخير أو الشر ، فقد تتغلب عليها الشهوات ، أو يشتد بها الغضب والحسد ، فيصرفها ذلك عن النافع أو تقع فى الضار — و إن خلصت العقول من أسر الشهوات ، أو تسلط الغضب والحسد ، فقد لا تسلم من غوائل الخلاف والنزاع ، لاختلاف المدارك والمشارب فى أصل الفطرة والجبلة ، فترى الإنسان يستحسن عين ما يستقبحه غيره ، بل الإنسان الواحد قد يظهر له الشىء حسناً فى وقت فإذا لم يلائم غرضه فى وقت آخر عده قبيحاً ، وكثيراً

مايكون الشيء الواحد مشتملا على مصلحة ومفسدة ، فيحب إنسان جلب مصلحته فيبادر إليه ، ويميل آخر إلى درء مفسدته فيفر منه .

فلما كانت العقول البشرية قاصرة عن إدراك مصالحها فى هذه الحياة وفى تلك الحياة وعاجزة عن الإطلاع على الحقائق ؛ وكانت عرضة لتغلب الأهواء والشهوات وما إليها من الرذائل النفسية عليها ، وكان من طبائعها اختلاف المدارك والميول .

لما كانت كذلك اشتدت حاجة البشر إلى الهداة المصلحين ، والدعاة الناصحين ، يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ويدعونهم إلى مافيه الخير والسعادة ، ويحذرونهم من السقوط فى مهاوى الشرور والشقاء ، ويحررون العقول من رق الأهواء والشهوات ، ويطهرون النفوس من أدران النقائص والرذائل ، ويعرفونهم كيف يتقون الفتنة عند الاختلاف ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وبهذه الدعوة الرشيدة التى استنارت بها البصائر واهتدت العقول سلك المجتمع الإنسانى طريقاً قويماً وصراطاً مستقيما ، فسلم من مخاطر الشقاء ، وفاز بحياة طيبة ، ثم مازال الاجتماع بعد انقضاء عهد النبوة والرسالة فى أشد الحاجة إلى دعاة مرشدين ، وناصحين صادقين أمناء يحمون دين الله من عبث العابثين ، ويحرسون عقائد الاجتماع ، ويراقبون الأعمال والأخلاق ، ويرشدونه إلى الخير ويحذرونه من عواقب الشر ، وينيرون السبيل إلى مافيه الخير والسعادة .

وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال أثر تفريط عظيم فى طاعة الله ورسوله ، بعد ماعظم التساهل والتواكل فى أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكثر التهاون وإهمال التناصح ، وردٌ مايتنازع فيه المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله ، حتى خوت القلوب من الحياء واحترام الدين ، فلم يبق له سلطان على النفوس ، بل صار كل إنسان أسير شهوته وهواه : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين » .

وجوب تبليغ الدعوة

قد علمت مما تقدم أن الحاجة إلى الدعوة إلى الله تعالى شديدة ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، والمهم الذى بعث الله له النبيين والمرسلين ، ولو أهمل أمره لاضمحل الدين وفشا الضلال وعم الفساد ، وهلك العباد ، وساء حال الجمعية البشرية ، لهذا جاء وجوبه فى الكتاب والسنة ، وعليه انعقد الإجماع ، قال الله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) فقد أوجب على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدون ، وصونا لاحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات ، ويخلوا بنظامها ، وتحرفهم عن العمل بها الأهواء الفاسدة إذا هم تركوا وشأنهم ، فالمخاطب بهذا كافة المسلمين ، فهم المكلفون أن يختاروا منهم طائفة تقوم بهذه الفريضة ، فهنا فريضتان إحداهما على جميع المسلمين ، والثانية على الجماعة التى يختارونها للدعوة — والدعاء إلى الخير الدعاء إلى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى — فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام ، إظهارا لفضلهما وشرفهما على سائر الخيرات ، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذى أمر الله عباده بالدعاء إليه ، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام . فى آية (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) : وقال جل ثناؤه : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أوجب جل شأنه على كل جماعة كثيرة من المسلمين كأهل بلدة ، أو قبيلة عظيمة ، أن تقوم منهم جماعة قليلة ليتعلموا الدين ، ويجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من العلم إرشاد قومهم ، وإسداء النصيحة لهم .

وبالجملة فقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه يجب على كل أمة أن يكون منها

جماعة بقدر الحاجة تقوم بالتفقه فى أمر الدين ، وأن يكون المقصود منه دعوة الخلق إلى الحق ، و إرشاد الناس إلى الدين القويم والصراط المستقيم — ولا ريب أن من تعلم لهذا الغرض العظيم ، كان على المنهج القويم ، وفاز مع الفائزين ، كما قال تعالى : (وأولئك هم المفلحون) وقال جل ثناؤه : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) أى لا تدع التذكير والموعظة فانها تؤثر فى الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو الذين آمنوا بالفعل ، فانها تزيدهم بصيرة فى الدين ، وقوة فى اليقين .

ولقد شدد بالانكار على قوم أغفلوا هذه الفريضة ، وأهل دين أهملوها فقال جل ثناؤه :(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ماعنون الله به عن مقته وغضبه ، فالملعون منه تعالى هو المحروم من لطفه وعنايته ، المطرود عن باب رأفته ورحمته . وقد كان داود عليه السلام لعن المعتدين عامة والذين اعتدوا فى السبت خاصة ، ثم لعنهم عيسى عليه السلام . وكان سبب ذلك اللعن الذى طال أمده عصيانهم لله تعالى واعتداءهم المستمر — وقد بين جل ثناؤه ذلك العصيان ، وسبب استمرارهم على الخروج عن حدود الله ، بأنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبحه ، وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر حفاظ الدين وسياج الآداب والكمالات ، فاذا أهمل تجرأ الفساق على إظهار الفسوق والفجور بلا مبالاة ، ومتى صار العامة يرون المنكرات بأعينهم و يسمعونها بآذانهم تزول عنهم وحشتها وقبحها من نفوسهم ، ثم يتجرأ الكثيرون على ارتكابها — ذلك كان شأن القوم ودأبهم الذى اعتادوه ، وأصروا عليه ، ذكره الله للمؤمنين عبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونون مثلهم ، و يحل بهم من لعنة الله وغضبه ما حل بهم . روى أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل

يلقى الرجل فيقول ياهـذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحـل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: «لعن الذين كفروا — إلى قوله فاسقون» ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف وَتَنْهَوُنَّ عن المنـكر ثم لتأخُذُنَّ على يد الظالم ولتأطِرُنه على الحق أطراً ، ولتقصُرُنَّهُ على الحق قصراً ، أو ليضرب الله على قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم » لتأطرنه : بكسر الطاء وضم الراء لترُدنه وبابه ضرب ، وأصل الأطر العطف ، ولتقصرنه بضم الصاد والراء تمنعنه من مجاوزته ، وبابه نصر . وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ؛ فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .
وفرق بين تغيير المنكر وبين النهى عنه ، فإن النهى عن الشيء يكون قبل فعـله ، وإلا كان رفعاً للواقع ، فإذا علمت إنساناً ينقص المكيال والميزان ، أو يغش اللبن مثلا ، وجب عليك تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل إن استطعت — والاستطاعة هنا شرط بالنص — فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان ، وهو غير قاصر على نهى الغاش ووعظه ، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى هو أقدر منك..
أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضا بفعله ، بل ومقاطعته وترك مجالسته ، ومعاملته ، وإقرائه السلام ، والرد عليه ، يدل على هذا ما فعله صـلى الله عليه وسلم وأصحابه مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . ومعنى كون ذلك أضعف الإيمـان أنه أقل آثاره وثمراته فى النفع ، لأن مجرد كراهته له بقلبه لايحصل بها زوال مفسدة المنكر المطلوب إزالته ، فهو قاصر بخلافه باليد واللسان فإنه متعد لأنه كراهة وإزالة وفى خبر آخر : « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وهو كناية عن نهاية القلة ، لأن الرضا بالعصيان الناشىء عن غلبة الشهوة نقصان من الإيمان أى نقصان

والمراد أن آخر خصال الإيمان المتعينة على العبد وأضعفها الإنكار بالقلب وكراهة المنكر ، ولم يبق بعدها مرتبة أخرى . ويؤخذ منه أن عدم إنكار قلب المسلم للمنكر دليل على ذهاب الإيمان منه . وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «: والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ولا ينافى الوجوب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » لأن معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم ، مثل قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . ومما وجب علينا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتديا مع تركه لهذه الفريضة ، فإذا قام بها ولم يمتثل المخاطب فلا جناح عليه بعد ذلك ، لأنه أدى ما عليه ، والذى عليه القول لا القبول ، وهذه شبهة قديمة العهد عرضت للناس فى الصدر الأول . روى أحمد والترمذى وأبو يعلى وغيرهم من حديث قيس بن حازم قال : قام أبو بكر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرءون هذه الآية : « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم » وإنكم تضعونها على غير موضعها أى يتوهمون منها أن الإنسان إذا فعل ما أمر به ، وترك مانهى عنه فى نفسه ، ورأى غيره بضد ذلك فلم يأمره ولم ينهه ، لا حرج عليه ، وليس كذلك ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وشرط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قدرة وتجويز فائدة وإن لم تكن الامتثال مثل كسر جاه الفاسق وخشية أن يعتاد النشءُ فعل المنكر ، وترغيب الطائعين فى امتثال الأمر واجتناب النهى ، ومثل رجاء أن يتعظ فلا يقع المكروه بعد ذلك ، وألا يخاف مكروها يناله ، وألا يترتب عليهما محظور آخر ، فإذا لم تتوافر

هذه الشروط سقط الوجوب وبقى الجواز . وقد استوفينا الكلام على هذا المبحث فى كتاب « الإبداع » فى الفصل السابع فارجع إليه إن شئت والله الهادى إلى سواء السبيل .

حكم من لم تبلغه الدعوة

وأما حكم من لم تبلغه الدعوة بأن نشأ فى شاهق جبل ؛ فليس بمكلف على الأصح خلافا لمن قال إنه مكلف لكفاية العقل فى وجوب معرفته تعالى عندهم وإن لم تبلغه الدعوة — وعلى القول بأن بلوغ الدعوة شرط فى التكليف لا يكفى بلوغ دعوة أى رسول ولو سيدنا آدم ، بل لابد من بلوغ دعوة الرسول الذى أرسل إليه . فالمذهب الحق أن أهل الفترة (وهم من كانوا بين أزمنة الرسل أو فى زمن الرسول الذى لم يرسل إليه) ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان — وماورد من أنه صلوات الله وسلامه عليه أخبر بأن جماعة من أهل الفترة فى النار كامرىء القيس وحاتم الطائى ، وبعض آباء الصحابة ، فإن أحد الصحابة سأله وهو يخطب فقال أين أبى ؟ فقال : فى النار . فهى أحاديث آحاد لاتعارض القطعى وهو قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ويجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبهم منهم لأمر يختص به يعلمه الله تعالى ورسوله . وإذا علمت أن أهل الفترة ناجون على المذهب الحق ، علمت أن أبويه صلوات الله وسلامه عليه ناجيان لكونهما من أهل الفترة — والقول باشتراط بلوغ الدعوة فى التكليف هو مذهب الأشاعرة وجمع من غيرهم ، فمعرفة الله تعالى وجبت عندهم بالشرع وكذلك سائر الأحكام إذ لاحكم قبل الشرع لاأصليا ولافرعيا — وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل بمعنى أنه يستقل بإدراك الأحكام وإن لم يرد الشرع ، ويقولون إن الشرع جاء مقويا ومؤكداً للعقل — وبنوا كلامهم على التحسين والتقبيح العقليين ، فالحسن عندهم ما حسنه العقل ، والقبيح ماقبحه العقل ، فإذا أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يمدح على فعله ويذم على تركه حكم بوجوبه ، وهكذا . وأما مذهب الأشاعرة فالحسن ماحسنه الشرع والقبيح ماقبحه الشرع — ومذهب

الماتريدية أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل استقلالا — لوضوحه لابناء على التحسين العقلى — كما قالت المعتزلة ، والحق أن العقل لايستقل بشىء أصلا .

فتلخص أن المذاهب ثلاثة : مذهب الأشاعرة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع لـكن بشرط العقل — والثانى مذهب الماتريدية ، وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام — والثالث مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل — وقد علمت الفرق بين قول الماتريدية بوجوب المعرفة بالعقل ، وقول المعتزلة بثبوت الأحكام بالعقل ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

الفصل الثانى

السنن العامة فى دعوة الرسل إلى الدين

من أنعم النظر فيما قصه الله تعالى فى كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين من انباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يرى أنهم قد اتفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية وإخلاص العبادة والخضوع له تعالى (توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وتوحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله تعالى رب العالمين المتصرف فى أمورهم) والإيمان باليوم الآخر ومافيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والإيمان بالرسل من غير تفريق بين رسول ورسول ، والترغيب فى طاعة الله جل وعلا ، والترهيب من مخالفته وعصيانه ، والحث على التحلى بالأخلاق الحسنة ، والتحذير من الأخلاق السيئة — ويرى أيضاً أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية الفاشية فى أممهم — فترى نوحا وهوداً وصالحا وإبراهيم عليهم السلام يهتمون كثيراً بالتوحيد والقضاء على الشرك بشتى الوسائل ، لأن الوثنية كانت متسلطة على عقولهم ، وترى لوط عليه السلام جعل همه فى القضاء على الفاحشة (اللواطة) لافتتان القوم بها ، وترى

شعيبا عليه السلام بعد دعوة قومه إلى التوحيد ينهاهم عن نقص الكيل والوزن ويأمرهم بايفائهما لانتشار الغش بينهم ، وترى موسى عليه السلام يعمل على انجاء الشعب الاسرائيلي من فرعون وآله الطغاة الظالمين ، لأن حال ذلك الشعب كانت حينذاك تستوجب الاسعاف أولا . كل هذا قام به الرسل مع الصبر واحتمال الأذى فى سبيل إقامة الدين . ومن هذا كله نعلم أن الداعي إلى الله تعالى ينبغي له أن يوجه همته إلى معالجة الشرور والمفاسد الفاشية فى قومه ، ويبدأ بأشدها خطراً وأكبرها ضرراً كما سيأتي بسطه . فهذه هي السنن العامة على وجه الاجمال فى دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وعلى الدعاة والمرشدين ، بل على كل ذي غيرة على دينه أن يرجعوا فى تعرف ذلك تفصيلا إلى كتاب (دعوة الرسل) لصاحب الفضيلة أخينا الأستاذ العلامة الشيخ محمد العدوى فهو العمدة فى هذا المقام وبالله تعالى التوفيق .

هدى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه فى نشر الدعوة

الأصول التى أقام الدعوة عليها هى : الأصل الأول الحجج البالغة

فكانت دعوته صلوات الله وسلامه عليه تقوم على الآية البينة والحجج المحكمة ، فقد اعتمد فى تبليغها ونشرها على ما يتقبله العقل السليم ويألفه الذوق ويتلمسه الوجدان ، ولا تقف دونه البديهة ولا تنكره الحقيقة — ولذا لم يعتمد فى ذلك على الخوارق ، بل كان يوجه العقول إلى الحقائق ويهيب بها إلى التأمل فى الكون وما حوى من مظاهر الابداع والاتقان ، وفى كل شىء له آية ناطقة بلسان حالها على أنه واحد لا شريك له : موجود كامل الوجود ، ومن كان كذلك فهو واهب الوجود لكل موجود ، يدعوهم إلى النظر فى الكائنات ليصلوا من طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح ، والبرهان القاطع ، إلى أن خالق الأكوان على هذا الإحكام والاتقان ، ومدبرها على هذا النظام البديع ، لا بد قوى قادر وعليم حكيم ، لا يعجزه شىء ولا يعزب عن علمه مقدار ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، منزه عن مشابهة المخلوقين ، غنى عن العالمين ،

فلا صاحبة ولا ولد « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » على يدى هذا الرسول الأمين ، هكذا آمن الناس بالله عن بينة ، وأشربوا فى قلوبهم عقيدة التوحيد الخالص عن عقل وروية ، وهذه هى طريقة القرآن الحكيم ، فقد جعل العقل حكما ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنّب من يتبع الظن وقال : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » وعاب تقديس ما كان عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها — ولم تكن معجزته صلوات الله وسلامه عليه القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية — كان صلوات الله وسلامه عليه يدعو إلى الله تعالى بهذه الطريقة الواضحة ، وجدير بها أن تكون مسلكه فى الدعوة، وجدير به أن يكون سبيله الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . نقول هذه هى طريقة القرآن وسبيله الحكيم ، التى أرشد إليها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى الدعوة إليه تعالى ، وسار فيها علماء السلف الصالح من بعده رضوان الله عليهم أجمعين .

فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع وبدائع الإحكام والاتقان ، للوصول إلى هذا الغرض الأسمى ، فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم . فقال جل وعلا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »

وقال جل شأنه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض» وقال: « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » أى فيستدلوا به على قدرة صانعه ووحدانيته .

وقال جل وعلا فى التوحيد و إنكار الشرك : « فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، و إن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » وقال تعالى : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وقال جل وعلا : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم و بث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين » وما إلى ذلك من الآيات البينات على التوحيد و إنكار الشرك .

وقال فى تقرير عقيدة البعث :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . وقال : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد

إلى أرذل العمر ليكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ور بت وأنبتت من كل زوج بهيج : ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » قال الحسن البصرى رضى الله عنه : جاء أمية بن خلف بعظم نَخِر قد صار رميما ففركه حتى صار كالرماد ثم قال : يا محمد أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا ؟ لقد قلت قولا عظيما ما سمعناه من غيرك ، من يحيي العظام وهى رميم ؟ فقال : « يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء و إليه ترجعون » فانصرف مبهوتاً . وقال عزت قدرته وجلت حكمته « قٓ والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » وما إلى ذلك من الحجج البالغة ، والبراهين القاطعة ، مما يسلكه فى تقرير العقائد الإلهية ، وتوجيه الناس إلى الحقائق الواقعة ، و إثبات البعث والجزاء .

وعلى الجملة فقد أحكم الله تعالى ما شرعه بأوضح دليل ، وأبين تعليل ، وعلم رسوله الصادق الأمين ما يسلكه فى هداية الناس إلى الصراط المستقيم . ومن تتبع أخبار الداخلين فى الإسلام ، وجد الكثير منهم كان يعتنق الإسلام بمجرد

أن يعرض عليهم الإسلام ، ويتلى عليهم شيء من القرآن — أما اقتراح المعجزات والإخبار بالغيب من بعض المتعنتين فإنهم يريدون به التهكم واللجاج ، لأنه كان يطالبهم بما تقتضيه الفطرة ويقبله العقل ، وهم يطالبونه بما ليس من شأنه ، ولا من حدود وظيفته . من ذلك ما حكى الله عنهم: « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا : أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتىَ بالله والملائكة قبيلا . أو يكونَ لكَ بيتٌ من زُخرفٍ أو ترقى فى السماء ولن نؤمِنَ لرقيِّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحانَ ربى هل كنتُ إلا بشراً رَسولًا » ومنه.. « بل قالوا أَضغاثُ أحلامٍ بل افتراهُ بل هوَ شاعرٌ فليأتنا بآيةٍ كما أُرسلَ الأولون » كالناقة والعصا واليد و إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . ومنه « يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها ، قُلْ إنَّما عِلْمها عندَ ربِّى لا يجْليهَا لِوَقْتِها إلا هوَ ثَقُلَت فى السَّمٰواتِ والأَرْضِ لاتأْتِيكُمْ إلا بغْتَةً ، يَسْأَلونَكَ كأنكَ حَفِيٌّ عنها ، قُلْ إنَّما عِلْمها عنْدَ اللهِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايعلَمُون » ولهذا رد عليهم بقوله « قُلْ لا أَمْلكُ لِنَفْسِى نَفْعاً ولا ضرًّا إلا ماشاءَ الله ، ولو كنت أعلم الغَيْبَ لاستكثرت مِنَ الخيرِ وَما مَسَّنى السُّوء ، إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمِنُون » .

الثانى الأساليب الحكيمة

إن للحق والفضيلة نوراً وجمالا ساحراً جذاباً تشعر به النفوس بأصل فطرتها ، غير أن نفوساً قد انحرفت عن سنن الفطرة السليمة لسوء المنبت ، أو فساد التربية بحكم الوراثة والبيئة الرديئة ، فصارت لاتبصر نور الحق ، ولا يروقها جمال الفضيلة ، يظهر أمامها الحق واضحاً فتراه باطلا ، وتتجلى بين يديها الفضيلة فتراها رذيلة .

وأصحاب هذه النفوس القذرة تراهم بالحشرات أشبه ، يتعذر إقناعهم ويستعصى على الدعاة الناصحين علاجهم (فمن العناء سياسة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب) لأن أمثال هؤلاء لايميلون إلى الرشد والهدى ، بل يألفون الغىّ والضلال ،

ومن هذا النوع الخبيث عصابات كثيرة مُنى بها الإسلام ، ورسول السلام صلوات الله وسلامه عليه أثناء قيامه بالدعوة ، فلم ييأس من إصلاحهم ، وكان يعالجهم وكل الطوائف بالحكمة البالغة ، والعظة النافذة ، فى الأسلوب الذى يجعلها مألوفة للعقول ، خفيفة على القلوب ، فيدعو بالبرهان الجلى ، والحجة القاطعة طلاب الحقائق ، وهم خواص القوم ذوى النفوس القوية ، و بالخطابيات المقنعة ذوى النفوس الضعيفة ، ويدعو المعاندين المجادلين بالباطل بأحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين ، تلبية لأمر مولاه « ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بالتى هىَ أحْسنُ » فكان صلوات الله وسلامه عليه يسلك الطرق الكفيلة بنجاح دعوته ، ويورد لكل مقام مقالا يليق به ، ويخاطب كل طبقة بما يناسبها، كما سيأتى بيانه .

فمن أساليبه الحكيمة فى الدعوة — أنه كان يُسأل عن الشىء الخاص فيجيب بما يتناوله وغيره ، حتى يكون ما أجاب به قاعدة عامة للسائل وغيره كقوله : « إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله » فى جواب من قال له : استغفر لى . وهو رجل من بنى محارب كان يؤذى رسول الله أيام كان يعرض نفسه على القبائل ، فلما جاء ذلك الرجل فى السنة العاشرة فى وفد بنى محارب مسلماً ذكّر النبىّ بما كان يصنعه معه من الأذى ، واستعطفه بطلب المغفرة عن صنيعه ، فأجابه بما يفيد عدم المؤاخذة عن كل من اعتنق الإسلام ، أياً كانت سيئاته التى أسلفها قبله ، وقد كان يكفيه فى الجواب أن يقول له « غفرت لك » .

ومنها — الإيجاز إذا اقتضى الحال ذلك كما فى مكاتباته للملوك والأمراء ، والأطنابُ عند مقتضى الحال كما فى خطبه فى الحث على التزام الأحكام أو التحريض على القتال ، وتوجيه النفوس إلى التجميل بالفضائل . كما يعلم ذلك بالنظر فى خطاب الله تعالى لمشركى العرب قبل الهجرة ، وخطابه تعالى لليهود بعدها كما سيأتى إيضاحه .

ومنها — إعطاء الوسائل صورة ماتفضى إليه ، كما فى قوله صلوات الله وسلامه عليه : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » : رواه مسلم ، وأبو داود والترمذى

من حديث ابن مسعود . فقد صور للسامع الدلالة على فعل الخير فى صورة الفعل نفسه ، لأنهما فى الأجر سواء . وكقوله : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » . رواه مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو . فقد أعطى من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه لأنه تسبب فى سبهما .

ومنها ضرب الأمثال وصوغ التشابيه التى تهدى إلى الحقيقة ، فإن للتمثيل أثراً كبيراً فى إظهار الحقائق الخفية ، وتقريب المعانى البعيدة ، حتى تصير واضحة مألوفة ، كقوله صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى . وقوله : « ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وراه البخارى من حديث النعمان بن بشير . فقد مثل المؤمنين فى تبادل المودة والرحمة والعطف بالجسد فى روابطه العضوية ، إذا اعتل عضو اعتلت باقى الأعضاء . وهكذا تكون المؤمنون الكاملون . فهو يرشدنا بهذا الأسلوب الحكيم إلى ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين من الاتحاد والوئام لتقوية أواصر الروابط والمحبة .

الثالث الآداب السامية

قد تكون الدعوة قوية الحجة حكيمة الأسلوب . ولكن يعوزها شىء من الأدب الراقى وحسن التصرف ، إذ لا يكفى فى الدعوة إلى الحق أن يطرق الداعى بها الأندية والمجتمعات أو يعرضها على الأفراد فى مختلف الأوقات ، دون أن يكسوها من جمال الأدب ما يجعلها حسنة السمت ، بعيدة الأثر فى نفوس السامعين ، فكم من خطيب مصقع وفصيح مُفوَّه ، يغشى المجالس ويزاحم الدعاة الناصحين فى الدعوة إلى الحق والفضيلة فلا يكون نصيبه إلا أعراض الناس

عن دعوته كما يعرضون عن البضاعة المزجاة ، ولو علموا العلة فى ذلك لأصلحوا أنفسهم أولا وألبسوها حلة الأدب وخلعوا على دعوتهم من هذه الحلل النفيسة ، فإن كل من يتصدى لتكميل الناقصين ، وإصلاح النفوس ، لابد أن يكون مثلا أعلى فى الاستقامة والخلق الفاضل ؛ لهذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه داعياً إلى الله بأخلاقه وأعماله قبل أن يكون داعياً بقاله . وهذه هى الطريقة المثلى التى شيد عليها صرح الإسلام ، وأحكم بها دعائم الإيمان ، فكان صلوات الله وسلامه عليه قدوة حسنة ، وشخصية ممتازة بكل مزايا الأدب والكمال ، التى تكون فى الدعاة إلى الخير والفضيلة ، أدبه مولاه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته كما قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » متفق عليه . وأثنى عليه بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » وكثيراً ما كان يظهر أدبه فى أقواله وفي أعماله كالأمثلة الآتية :

١ — أنه كان يأخذ فيها بالرفق والحلم والثبات والصبر ، فكثيراً ما كان يلحقه الأذى من سفهاء المشركين فيتلقاه بالصبر الجميل ، امتثالا لقول ربه : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) . وكان يرميه بعض الجفاة من الأعراب بالكلمة الغليظة الخبيثة فيقابلها بالصفح والابتسام والإنعام ، تلبية لقول مولاه (فاصفح الصفح الجميل) وهو الذى لا عتاب بعده ، ثم هو بعد ذلك يعرض عليهم دعوته فى لين من القول ، معرضا عن جهل الجاهلين ، وعنت المشاغبين — وكان فى استرساله فى دعوة إلى الله تعالى مع ثباته واحتماله مثلا يحتذى وإماما يقتدى .

٢ — تنزله مع المدعوين إلى حد أنه كان يتقدم إليهم بأجمل عبارات التلطف والمجاملة كقوله : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم » . رواه ابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه .

٣ — أنه كان لا يواجه أحداً بعينه عندما يريد أن يؤدبه أو يزجره ما دام يجد فى الموعظة العامة كفاية ، وهذا من الأدب الراقى البالغ منتهى الحكمة ، قالت

عائشة رضى الله عنها : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم فبلغه ذلك فخطب فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . متفق عليه . إلى غير هذا من المثل العليا فى أدبه الذى كان من أكبر الأسباب فى نجاحه فى دعوته .

الرابع السياسة الحكيمة

لقد كان لسياسته الحكيمة عظيم الأثر فى نجاح دعوته ، وإنشاء دولته ، وقوة سلطانه ، ورفعة مقامه ، إذ لم يعرف فى تاريخ السياسات البشرية أن رجلا من الساسة المصلحين فى أية أمة من الأمم ، كان له مثل هذا الأثر العظيم ومَن مِن المصلحين المبرزين سواء أكان قائدا محنكا أو مربياً حكيما ، اجتمع لديه من رجاحة العقل وأصالة الرأى وقوة العزم وصدق الفراسة ، ما اجتمع فى رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ ولقد برهن على وفور ذلك كله فيه صحة رأيه ، وصواب تدبيره ، وحسن تألفه ، وأنه ما استغفل فى مكيدة ، ولا استعجز فى شديدة ، و إليك أمثلة من سياسته الحكيمة فى الدعوة إلى الله تعالى :

١ — كان صلوات الله وسلامه عليه يتحرى بالموعظة أوقات الحاجة والفراغ والنشاط إلى استماعها ، حتى لا يجعل الوعظ على الناس ركاما فيتثاقلوا عن سماعه ويفوتهم كثير من إرشاداته النافعة ، ونصائحه الغالية . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا — أو قال يتحيننا — بالموعظة كراهة السآمة علينا » . متفق عليه . وقريب من هذا تشويقهم إلى العلم بالشيء الذى يريد بيانه بالاستفهام عنه ، كقوله لابن مسعود رضى الله عنه : « هل تدرى ما حق الله على عباده ؟ فقال : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » . متفق عليه .

٢ — أنه كان يفعل الشيء فى بعض الأحيان مسايرة لمن يعلم أنه يريد فعله ، كاتخاذه خاتما من فضة نقشه (محمد رسول الله) لتوقيع رسائله إلى بعض الملوك ،

حينما أراد أن يدعوهم إلى الإسلام ، وقيل له : إنهم لا يقرءون إلا كتابا مختوما وهذا فيما يرجع إلى العادات ، ولم يكن فى فعله جناح يستدعى تركه .

٣ — أنه قد يترك الأمر الذى لا ضرر فيه اتقاء للفتنة : كما ترك هدم الكعبة و بناءها على أساس إبراهيم ، اجتنابا لفتنة قوم كانوا حديثى عهد بجاهلية ، وقال لعائشة رضى الله عنها : « لولا قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه و بلغت به قواعد إبراهيم » . متفق عليه .

٤ — تأليفه القلوب بالمال ، فكان يؤثر بعض حديثى العهد بالإسلام بجانب من المال ، للاحتفاظ بالبقاء على الهداية بالإسلام ، وهذا إذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ فى قلوبهم رسوخاً لا تزلزله الفتن . و إلى أمثال هؤلاء أشار صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « ياسعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ منه ، خشية أن يكبه الله فى النار » . أخرجه البخارى . وفى رواية مسلم من حديث ابن شهاب « خشية أن يُكَبَّ فى النار على وجهه » — كبه الله لوجهه من باب رد : صرعه — أما ما كان يعطيه بعض أشراف قريش قبل الدخول فى الإسلام فليس لنشر الدعوة ، لأنها كما تعلم تعتمد قبل كل شىء على البرهان والحجة ، و إنما كان إعطاؤهم لتلافى أحقادهم ، لأن الهدايا تذهب بالأحقاد ، وتجمع القلوب إلى القلوب . وغايتها أنها تجعل النفوس متهيئة للنظر فى صدق الدعوة ، وصحة العقيدة ، فإنها تتصل بالقلوب من ناحية الآيات البينات ، والبراهين الواضحة ، وهذا النوع وما قبله هم المؤلفة قلوبهم ، وهم صنف ممن شرع الله لهم إعطاء الزكاة بآية « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم »

٥ — تألفه بالجاه ولطف الكلام ، كما كان فى موقفه مع الأنصار حين منَّ على رجال من قريش بكثير من المال . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال : « أفيكم أحد من غيركم ؟ فقالوا : لا ! إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن أخت القوم منهم .

فقال : إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، و إنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » متفق عليه .

٦ — تألفه بالعفو فى موضع الانتقام ، والإحسان فى مكان الإساءة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلا قِبلَ نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندك يا ثُمامة ؟ فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، و إن تنعم تنعم على شاكر ، و إن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر . فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندى ما قلت لك . فقال : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نَجْل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ! يامحمد ! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى — أو قال الأديان — والله ما كان بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ » . متفق عليه . النجل : قليل الماء . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبى صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يامحمد مُرْ لى من مال الله الذى عندك . فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء » . متفق عليه .

٧ — تألفه باللين وترك الشدة فى موضع المؤاخذة — كثيراً ما كان يصادف مخالفة لأمره ، أو جحوداً لفضله ، فيقابل المخالف بالتسامح ، ويجزى الجاحد بالمزيد ،

فيحصل التآلف ، ولا يكون هناك مجال للتقاطع . فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم قال : « إنا قافلون إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ وقالوا مرة نقفل . فقال : اغدوا على القتال فأصابهم جراح فقال : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فأعجبهم ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم » . متفق عليه . ومن هذا القبيل ماوقع فى غزوة أحد من مخالفة الرماة لأمر الرسول بالا يبرحوا مكانهم ، ثم برحوا المكان الذى أوصاهم بملازمته ، وكان ذلك سبباً فى هزيمة جيش المسلمين ، أترى أن النبى صلوات الله وسلامه عليه آخذهم وأغلظ عليهم ؟ كلا بل قابلهم باللين والرفق ، فعفا عنهم ، ولم يقابلهم بالشدة والعنف فأثنى الله عليه لذلك بقوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين) فظاً : سىء الخلق . غليظ : قاسى القلب . وجملة الأمر أن القوم لما انهزموا أولا يوم أحد لم يعامل هؤلاء الرماة بالشدة والقسوة ، بل باللين والرفق فكان هذا تحقيقاً لقوله تعالى فى مدحه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وكيف لا يكون كذلك وهو يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخُرْقه » وهو بالضم ضد الرفق . وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » . رواه مسلم . فلما كان صلوات الله وسلامه عليه إمام الداعين ، وسيد المصلحين ، وجب أن يكون أوفرهم حلماً وأحسنهم خلقاً .

وبمثل هذه المعاملة الحسنة اجتمع قلوب أصحابه حوله فتفانوا فى محبته والدفاع عن دعوته بمؤازرته ومناصرته — وليس مايبدو من مخالفة الأصحاب إلا أمور نادرة صورية يبعد كل البعد أن يقصد بها المخالفة ، بل مثارها ، على مايظهر من

فحواها ، إنما هو الرأى والاجتهاد ، كتوقفهم عن التحلل من عمرة الحديبية إلى أن تحلل منها الرسول أمامهم فتابعوه ! وكادوا يقتتلون من تهافتهم على متابعته — وكاستعظامهم لبعض شروط المعاهدة ، حتى قال الفاروق رضوان الله عليه : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ ثم تبين لهم حسن تصرف النبي وصواب عمله فتابعوه وأثنوا عليه .

وأما مجازاته لمنكر الإحسان بالمزيد ، ومعاملته باللين وعدم التعنيف ، فلأن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : « أحسنت إليك يا أعرابى ؟ فقال الأعرابى : لا ! ولا أجملتَ . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئا ثم قال . أحسنت إليك ؟ قال نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب مافى صدورهم عليك . فلما كان العشى جاء فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟ قال الأعرابى : نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً » ذكره فى الشفاء وعن الحسن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايؤاخذ أحداً ولا يَقْرِف أحداً ولا يصدق أحداً على أحد — أى لايسمع وشاية الواشين — و يقرف : يعيب ، من قَرَفه إذا عابه .

٨ — تألفه بالصبر على الأذى واحتماله له من أعدائه ، حتى كان فيه المثل الأعلى الدعاة إلى الخير . أوذى فى الله فى نفسه وأصحابه فلم يلحقه جزع ، بل كان شجاعا حكيما ، وصبوراً كريماً ، فكم ناله من أذى المستهزئين وكيد المنافقين ؟ فما لج بالشكوى ، بل كان دأبه الصبر مع التفويض لله تعالى ، حتى جعل له من أمره فرجا وصار يمهد لأصحابه سبيل المهاجرة ، حتى أذن له فيها ، فهاجر وقيض الله له من الأنصار المخلصين من استعان به على نشر دعوته ، وإقامة دينه — نعم أوذى فى

سبيل الدعوة إلى الله حين لم يؤذ أحد فى الله إذ ذاك ، فكان يقابل الأذى بالصبر الجميل ، ويعامل أعداءه بالمداراة ، ويتألفهم بحسن المصانعة ، وكان يقابل الحمق ، والخرق بالحلم والرفق ، والصلف واللجاج بالوداعة والأناة ، وما كان ذلك ليضعف من عزمه فيثنيه عن تبليغ أمر الله والمضى فى سبيله السلمى ؛ بل مافتىء يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتى هى أحسن ، حتى ظهر أمر الله وانتصر عليهم ببدر حين وعده الله إحدى الطائفتين العير أو النفير ، وأمده ربه بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين — بكسر الواو وفتحها معلمين — فقتل منهم نحو السبعين من بينهم عتبة بن ربيعة داهية الحرب ، وابنه الوليد ! وأخوه شيبة ، وأبو جهل ، وابن مُعَيط ، وغيرهم ممن كانوا يؤذون الرسول وأصحابه ، ويعنون ويحرضون ولا يستحون — أتظن أنه تشفى منهم بعد ذلك بالتمثيل ؟ كلا : فما جدع لهم أنفاً ، ولا صلم لهم أذنا ، ولا بقر لهم بطنا ، ولا لاك لهم كبدا . وكان كل هذا فى استطاعته — بل أمر بهم فدفنوا فى القليب ، ثم وقف وقفة الآسف يناديهم بأسمائهم : يا عتبةُ بنَ ربيعة ! ياشيبةُ بن ربيعة ! يا أبا جهل ! إلخ ، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » . متفق عليه . وقد أسر منهم نحو هذا العدد — أترى أنه فتك به ليستريح من عنائه والسيوف لم ترد إلى أغمادها ، وقد كانت أرواحهم على شفراتها ؟ كلا ! بل أخذته العاطفة عليهم فقبل الفداء من بعضهم ومنّ على الآخر بغير فداء ؛ حتى عاتبه الله فى شأنهم . وهذا لعمرك من الرحمة والحكمة . أجل ، إن فى صنيعه هذا لسياسة رشيدة ، وحكمة بالغة وعبرة يدق — إلا على من نظر بنور الله — الاعتبار بها .

ذلك أن أتباع الرسول وإن تحمسوا فى ذلك الوقت للانتقام إلا أن منهم من كان يمت للأسرى بالعصبية النسبية . أو بالمصاهرة ، أو بالصداقة القديمة ، وإن مزق الإسلام وقطع كل هذه الصلات ، إلا أن الأتباع كانوا حديثى العهد بالجاهلية فكان من الحكمة ألا يستثير النبى حفيظتهم . وحسبك موقفه صلوات الله وسلامه

عليه فى العفو عن سادة قريش وقد أمكنه الله من رقابهم عند فتح مكة ، فقد انتصر عليهم ووقعوا فى أصفاد الأسر ، ومع هذا منّ عليهم باطلاق سراحهم فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومن سياسته الحكيمة تألفه أصحابه بحسن المعاملة ، ويتجلى هذا فيما نعته به أصحابه من أنه صلوات الله وسلامه عليه كان أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، يؤلف الناس ولا ينفرهم ، ويكرم كريم القوم ويوليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ، ويعطى كل أحد من جلسائه نصيبه — من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول . وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، حتى صار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء . وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخاب (صخب من باب تعب ورجل صخِب وصاخب وصخاب كثير اللغط والجلبة) ولا فاحش ولا عياب ، ولا مداح : فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لبيك » متفق عليه . وعن أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لطفاً ، والله ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده صلى الله عليه وسلم إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزع » رواه أبو نعيم . وهذا غاية فى حسن المعاملة . وفى أثر آخر عن أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : « يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ » أى ما شأنه وما حاله . متفق عليه . ولا يخفى ما فى المخالطة من دفع الوحشة وتوفر أسباب الألفة — والنغير تصغير نُغَر وهو طائر صغير كالعصفور كان ذلك الصبى

يلعب به فمات . فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يواسيه و يمازجه . وعن الصعب ابن جثامة قال : أهديت إلى رسـول الله حماراً وحشياً فرده على ، فلما رأى ما فى وجهى قال : « إنا لم نرده عليك إلا لأنا حرم » . متفق عليه . فأى لطف أحسن من هذا ؟ وأى شعور أرق من هذا ؟ وعن جرير بن عبد الله : « ما حجبنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم منذ أسلمت ولا رآنى إلا ابتسم فى وجهى ، ولقد شكوت إليه أنى لا أثبت على الخيل فضرب بيده فى صدرى وقال اللهم ثبته واجعله هادياً مهديا » . متفق عليه . ما حجبنى أى منعنى من الدخول على مجلسه المختص بالرجال . بل كان يرجع عن رأيه إلى رأى بعضهم و يشاورهم فى الأمر فينزل على رأى أقلهم ، كما هو معروف فى غزوة بدر ، أنه نزل منزلا للقتال فقال له الُحباب بن المنذر إن كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة . فقال : « باجتهاد ورأى » ثم ارتحل عنه كما هو مبسوط فى السير — وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولا يخفى مافى مشاورتهم من تطييب نفوسهم وتأليف قلوبهم ، لأنه صـلوات الله وسلامه عليه لم يكن بحاجة إلى مشاورتهم بما ينزل عليه من الوحى ، و بما وهبه الله تعالى من نور البصيرة ورجحان العقل ، ولما كان استقلال الولى بالرأى يشعر باستبداده وترفعه وعدم المبالاة بالرعية ، ومن شأن هذا أنه يورث الغضاضة ، و يستثير الحفيظة. ولا سيما من النفوس العربية ، اقتضت شرعته الحكيمة أن يعامل أصحابه بمبدأ الشورى ، ولا سيما فى أمور الجهاد ، إذ أن ذلك يشعرهم بمكانتهم عنده واعترافه بصحة رأيهم وشدة إخلاصهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (وشاورهم فى الأمر) قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها رحمة فى أمتى ، فمن شاور منهم لم يعدم رشدا ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » . وقال الحسن رضى الله عنه : قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة . ولكن أراد أن يستن من بعده — وعلى الجملة فالشورى

ركن عظيم من أركان الاجتماع ، فإن الأمة إذا اختارت من بين أفرادها رجالا عرفوا بالفضل وسداد الرأى وحسن تصريف الأمور . وعهدت إليهم بمعاونة الحكام فى سن القوانين ومراقبتهم فى تدبير الشئون ، كان ذلك أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ فيها ، وأضمن لرعاية مصالح الرعية وحفظ حقوقهم وعدم الاستبداد فيهم ، ولذا جعل الله الشورى أساساً للحكم فى الإسلام ، وأمر نبيه بها ، وامتدح القائمين بها فى قوله : « وأمرهم شورى بينهم » بل كان يسوسهم بالتنزل معهم إلى أبعد من هذا . روى أنه عليه الصلاة والسلام « كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر علىّ سلخها . وقال آخر علىّ طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىّ جمع الحطب . فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال علمت أنكم تكفوننى ولكننى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وكان يباسط أصحابه ويمازحهم ، فقد كان رجل يسمى زهيرا يهاديه بما يستطرف من البادية ، وكان الرسول يكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، ويقول « زهير باديتنا ونحن حاضرته » وجاء يوما إلى السوق فوجد زهيرا قائما فجاءه من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه الرسول فجعل يمسح ظهره فى صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول يقول : « من يشترى العبد ؟ قال زهير : إذن تجدنى كاسدا . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت عند الله غال » .

ومن حسن المعاملة أنه كان يدعو أصحابه بكناهم وأحب أسمائهم ، وإذا أتى قوما جلس حيث ينتهى به المجلس ، لا يحب مظاهر التفخيم من القيام والتزلف إليه بزخرف القول ، يؤثر اهل الفضل ويحذر الناس ويحترس منهم دون أن يمنع أحدا منهم بشاشته وبشره ، وكثيراً ما كان يتغافل عما يعافه ويعرض عمن يتكلم بغير الجميل ، ولا يواجه أحداً بما يكره ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأكثرهم نفعا للناس، مجلسه مجلس هدى وعلم وحياء وحلم وأدب وخير ، لا مجال فيه للوشاة والسعاة بالنميمة ،

كما لا تذكر فى مجلسه العيوب — ومع رفقه بجلسائه ونزوله إلى مستواهم كان مهيبا جليلا ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا فيما ينفع . ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثه ، إلى غير ذلك مما لا يتفق مثله للقياصرة والأكاسرة وأكبر الناس رهبة وهيبة . توافرت عنده الأموال فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ، بل كان ينفقها فى وجوه الخير والإصلاح ويغنى بها الفاقة من الناس ، وما أكثر ما كان ينفقها فى مصالح المسلمين وكف عدوان المشركين وكسر شوكة المعتدين ، وكثيراً ما كان يبيت على الطَّوَى وعنده الكثير من المال ، فما ينام ولا يهدأ له بال إلا أن يقوم فيقسمه على المستحقين ، ومن لهم فيه أمل ، ثم يعود فينال حظه من النوم — روى أن عمر رضى الله عنه قال فى جمع من الصحابة : إن الله قد كان خص لرسوله فى هذا الفيء شيئاً لم يعطه أحدا غيره ، فقال جل وعز « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الآية ، فكانت خالصة لرسول الله ، والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، ولقد أعطاكموها حتى بقى منها هذا المال . وثبت أن ابنته فاطمة سألته خادما مما أتى به من الرقيق ، وقد أثرت فى يدها الرحى من شدة العمل ، فلم يجبها إلى ما طلبت باعتبارها واحدة من نساء المؤمنين ، وما كان عنده من الرقيق لا يكفى لجميع نساء المؤمنين . ولم يقف فى معاملة أصحابه عند حد القول ، بل كان يقول ويفعل معهم كما يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلىّ وعلىّ » رواه مسلم . الضياع بالفتح : العيال — إلى غير ذلك مما حقق به مبادىء الفضيلة والعدالة والمساواة ، وراهم عليه حتى اجتمعت قلوبهم إليه وملّكوه أعنّتها ، بل وهبوه أرواحهم وأموالهم ، يجاهدون بها فى سبيل نشر دعوته وإعلاء كلمة ربه ، صابرين مخلصين .

هديه فى تربية أصحابه على الأخلاق السامية

وذلك يتجلى بكل معانيه فى معاملته لهم على النحو الذى قدمنا ، لأن لهم به أسوة يحرصون عليها الحرص كله ، والأسوة خير مرشد ، على أنه لم يكلهم إلى ذلك فحسب ، بل كان يتعهدهم بالإرشاد إلى الخلال الحميدة . ويمرنهم على الأخذ بها ويشجع المحسن منهم ولو بالكلمة الطيبة حتى تصير ملكة وخلقا ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون . من إرشاده إلى الأخلاق الفاضلة قوله : « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان : خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل » . أخرجه البزار من حديث أنس . وقوله : « إن أحبكم إلىَّ وأقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » . أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة . وعن عبد الله ابن عمرو رضى الله عنه أنه قال : أراد معاذ بن جبل سفراً إلى جهة فقال : يا نبى الله أوصنى ، قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً قال : زدنى . قال : إذا أسأت فأحسن . قال زدنى . قال : استقم وليحسن خلقك » . أخرجه ابن حبان فى صحيحه . وقوله : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما ، ولاتكثر الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة . وقوله : « عفوا تعفّ نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » رواه الطبرانى من حديث عائشة . وقوله « مامن شىء بأثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذى » . أخرجه الترمذى عن أبى الدرداء : البذى بفتح فكسر ثم تشديد الذى يتكلم بالفحش وردىء الكلام . وقوله : « خيار عباد الله الذين إذا رؤا ذكر الله ، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرءا العيب » رواه أحمد وغيره من حديث عبدالرحمن ابن غنم : « إن خياركم أحسنكم أخلاقا » متفق عليه « إن لله خلقا خلقهم لحوائج

الناس يفزع الناس إليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » رواه الطبرى وغيره « أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تطرد عنه جزعاً ، أو تقضى عنه دينا » رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا وإذا كان عليهم لم يَمْطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » رواه البيهقى من حديث معاذ رضى الله عنه . مطل من باب نصر وعسر غريمه طلب منه الدين على عسرته ، بابه ضرب ونصر ، وعن ابن عباس قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر رضى الله عنهما كلام فقال عمار : لقد هممت بأن لا أكلمك أبداً . فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ياخالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا وقال لعمار : إن خالدا ياعمار سيف من سيوف الله على الكفار ، قال خالد : فمازلت أحب عمارا من يومئذ » . « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . « من سعادة المرء حسن الخلق ، ومن شقاوته سوء الخلق » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر ابن عبد الله . « إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد الله به خيراً منحه خلقاً حسناً ، ومن أراد به شراً منحه خلقاً سيئاً » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة . « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ، ولايعطى الدين إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لايُسلم عبدٌ حتى يَسلم قلبه ولسانه ، ولايؤمن حتى يأمن جارهُ بوائقه ، قلت يارسول الله ومابوائقه ؟ قال : غَشْمُهُ وظلمه » أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . الغشم بفتح فسكون الظلم فالعطف تفسير . « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا » رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح . « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله

مابينه و بين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه » أخرجه الحاكم عن ابن عمرو . وقال أنس رضى الله عنه : « لقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى قط أُفٍّ ، ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ، ولا لشىء لم أفعله ألا فعلت كذا » . متفق عليه — هذا إلى ماغرسه فى نفوسهم من ملكة النظر والبحث والاستنباط ، إذ لم يكن همه على المعجزات بل توجيه النفوس إلى النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق — كماسبق .

فنشأ من ذلك (١) معرفة الخالق التى هى رأس المعارف والعلوم اليقينية ، (٢) تقوية غريزة حب النظام والجمال ، وناهيك بجمال الطبيعة . (٣) تربية ملكة تقدير الجمال والنظام والبحث فى الروابط والأسباب ، وفى ذلك تربية الأفكار وتنمية العقول لأن شأنها الميل إلى التعليل والاستنتاج ، وناهيك بتربية العقول والأفكار وما ينشأ عنها من الآثار الحسنة ، ولهذا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح من الشخصيات اليقظة التى لا تخدعها الشعوذة والخرافات والأوهام ، بل قل أن تجد للكهانة بين أبناء الأمة الإسلامية سوقا نافقة كما تجدها فى سائر الديانات ، ذلك أن الإسلام قام على النظر فى البرهان (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) — (٤) غرس مبادىء قوة العزم والرأى واستقلال الفكر والاعتماد على النفس ، ولهذا لم يجد النبى صلوات الله وسلامه عليه فى أصحابه ضعفا فى مواقف الجد ، فلم يجد هممهم فاترة وعقولهم قاصرة ، كما وجد موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل ذلك الخور الفاضح حين ذهب بهم إلى العدو إذا بهم ينكصون على أعقابهم ويخاطبونه بلسان الخائر الجبان (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ألا بعداً لقوم لايؤمنون ، ألهذا كانوا يقترحون الآيات و يمعنون فى طلب المعجزات ؟ كلا لم يجد من أصحابه مثل هذا .

أثر هديه العظيم فى تربية أصحابه

لقد كان لهذه التربية الحكيمة أثرها البالغ فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين — فهذا المقداد بن عمرو يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه

حين أخبرهم عن عزمه على لقاء الأعداء فى غزوة بدر : يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغماد لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير — وبرك الغماد موضع فى أقصى أراضى هجر

وهذا سعد بن معاذ سيد الأوس يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثل ذلك حين قال النبى فى هذا الموقف الرهيب « أشيروا على أيها الناس — يريد الأنصار — لأن العدد فيهم ولأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لاتجب عليهم نصرته إلا مادام بين أظهرهم ، فإن فيها (يارسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا) فقال سعد بن معاذ : كأنك تريدنا يارسول الله . فقال أجل . فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام وسر بذلك . نعم قالوا ذلك للرسول عن عقيدة ثابتة وعزيمة صادقة ، لأنهم كانوا مؤمنين عن نظر فى الدليل وتفكير فى البراهين ، فضلا عن نظرهم فى قوة إعجاز البيان ، والنظم الذى جاء به القرآن ، فلهذا وقالوا الإيمان يملأ نفوسهم ، والعقيدة تملك عليهم مشاعرهم وحواسهم « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فامض يارسول الله لما أمرت » ذلك بعزيمة ماضية لاتهاب الموت ، وأقوى ماتكون العزيمة إذا مازجتها العقيدة وخالطتها بشاشة الإيمان ، ولذلك جاهدوا مع نبيهم حق الجهاد ابتغاء رضوان الله الذى اهتدوا إلى معرفته بعقولهم السليمة ، وكانوا

مخلصين فى جهادهم ، وكانوا صادقين فى إخلاصهم ، وكانوا مؤمنين بحقهم وباطل عدوهم ، وكانوا واثقين بنصرهم لأنهم نصراء الله ، وكان لسان حالهم يقول (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) : النصر أو الشهادة ، ولذا كانوا كالجبال الراسيات التى لاتزلزلها العواصف ، بل كانوا كالصواعق على أعداء الله ورسوله ، ولهذا خطوا أول خطوات النصر فى موقفهم هذا يوم بدر ، ثم تتابع النصر وما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم من القرح ، ولا سيما بعد أن آساهم الله فى كتابه بقوله (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس) القرح بالفتح والضم الجراح والقتل ولذا ساروا إلى الأمام حتى أعز الله بهم الإسلام وظهرت كلمته على سائر الأديان . وحسب الرسول صلوات الله وسلامه عليه من آثار هديه العظيم هذا الأثر البالغ الذى تجلى بأكمل معانيه فى عزم أصحابه وعلو همتهم ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على مبدأ العدالة والمساواة ماتجلى أيضا بأكمل معانيه فى الفاروق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على قوة الثقة بالله تعالى بالتوكل عليه ورجاء المثوبة عنده ، ماتجلى بأكبر معانيه فى الناسك عثمان رضى الله عنه ، « أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ماخلفت وراءك لأهلك ياعمر ؟ قال خلفت لهم نصف مالى . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ماخلفت وراءك لأهلك ياأبا بكر ؟ فقال عدة الله وعدة رسوله فبكى عمر رضى الله عنه وقال : بأبى أنت وأمى ياأبا بكر والله مااستبقنا إلى باب خير إلا كنت سابقنا » . رواه ابن أبى حاتم من حديث عامر الشعبى . وعن عبدالرحمن بن خباب قال : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العُسرة « فقال عثمان بن عفان : يارسول الله علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حض على الجيش فقال عثمان : يارسول الله علىّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حض على الجيش فقال عثمان : يارسول الله علىّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، فنزل

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ماعلى عثمان ماعمل بعد هذا » . أخرجه أحمد والترمذى . والأحلاس جمع حلس : وهو كساء يُجعل على ظهر البعير تحت رحله — والقتب غطاء يوضع على ظهر البعير كالإكاف لغيره وما إلى هذا مما لا نطيل به والله الهادى إلى سواء السبيل .

كتبه صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك والأمم

لقد سن لنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سنة حسنة بمكاتبته الملوك والأمراء ، وأمرهم أن يبلغوا أممهم ، فنذكر كتبه إلى الملوك والأمراء لتكون عوناً للدعاة العاملين ، ونبراساً للهداة المرشدين ، فنقول : بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة من الهجرة ، كاتب صلوات الله وسلامه عليه ملوكَ الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبى بكتاب إلى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك ، وكان فى الكتاب على ماثبت فى الصحيحين :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم . سلام عَلَى من اتّبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِم تَسْلَمَ : أَسْلِم يؤتك الله أجرك مرّتين . فإن توليتَ فإن عليك إثم الأريسيِّين ، ويا أهل الكتاب تَعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تَوَلّوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

سلام عَلَى من اتبع الهدى . معناه سلم من عذاب الله من أَسْلم ، فليس المراد به التحية ، وإن كان اللفظ يشعر به ، لأنه لم يُسْلم فليس هو ممن اتبع الهُدَى : الأريسيِّين جمع أريسى نسبة إلى أريس كفعيل وهو الفلاح ، بصده إياهم عن الإسلام (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى عليك مثل إثمهم .

حديث أبي سفيان

ولما وصل هـذا الـكتاب قيصر قال انظروا لنـا أحداً من قومه نسأله عنه — وكان أبوسفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة — فجاءت رسل قيصرَ لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمـانه : سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبوسفيان : أنا — لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره — فقال قيصر : أدن منى ، ثم أمر بأصحابه فجعلُوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتـكم خلفه كى لا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تـكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال لا ، قال هل كنتم تتهمونه بالـكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال لا ، قال فأشراف الناس يَتّبعُونَه أم ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . قال هل يزيدون أم ينقصون ؟ قال بل يزيدون . قال هل يرتد أحد منهم سَخْطَةً لدِينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال لا ، قال : هل يغْدِر إذا عاهد ؟ قال لا ، ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : فهلْ قاتلتموه ؟ قال نعم ، قال فـكيف حربكم وحربه ؟ قال الحرب بيننا و بينه سِـجَال مرة لنا ومرة علينـا . قال فبم يأمركم ؟ قال : يقول اعبـدوا الله وحده ولا تشركوا به شـيئاً وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصـلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهـد وأداء الأمانة ، فقال الملك : إنى سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالـكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقلتُ ما كان ليذر الـكذب على الناس ويكذبَ على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ،

فذكرت أن لا ، فقلتُ لو كان من آبائه ملك لقلتُ رجل يطلب مُلْكَ أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتَّبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتُك هل يزيدون أم ينقصون ، فذكَرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سَخْطَةً لدينه ، فقلتَ لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب ، وسألتُك هل قاتلتموه ، فقلتَ نعم ، وإن الحرب بينكم وبينه سِجَال ، وكذلك الرسل تُبْتَلى ثم تكونُ لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمركم ، فذكرتَ أنه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرتَ أن لا ! وكذلك الرسلُ لا تَغْدِرْ ، فعلمتُ أنه نبي ، وقد علمتُ أنه مبعوث ولم أظن أنه منكم ، وإن كان ما كلمتني به حقاً فَسَيَمْلِكُ موضع قَدَمَيَّ هاتين ، ولو أعلم أني أخلُصُ إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنتُ عنده لغسلت قدميه . قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلتُ موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام » . ولما سار قيصر إلى حمص جمع عظماء الروم في قصر له فيها ، وأمر بالأبواب فأغلقت ، ثم أطل عليهم فقال : يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي . فحاصوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم ويئس من الإيمان قال ردوهم عليَّ ، فقال لهم إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان هذا آخر شأن هِرَقْل ، فغلبه حب الملك على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته ، ولكنه رد دحْيَة رداً جميلا — حاصوا . نفروا —

وكتب إلى النجاشي : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، أسلم أنتَ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشْهدُ أن عيسى بنَ مريمَ روحُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريم

البتول[١] الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، و إنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، و إنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلّغتُ ونصحتُ فاقبَلُوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى » .

وقد بعث صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكتاب مع عمرو بن أمية الضمرى فقال للنجاشى : يا أصحَمَةُ إن علىّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شىء قط إلا أمنّاه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا و بينك شاهد لا يُردّ ، قاضٍ لايجور ، وفى ذلك الموقع الحزُّ و إصابة المفصل ، و إلا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم ، وقد فرّق النبى صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمّنك على ما أخافهم عليه ، بخيرٍ سالفٍ وأجرٍ يُنتظر . فقال النجاشى : أشهد بالله إنه النبى الأمىُّ الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر . ثم كتب النجاشى جواب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم : إلى محمد رسول الله من النجاشى أصْحَمَة ، سلامٌ عليك يانبى الله من الله ورحمة الله و بركات الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرتَ تَفرُوقا ، إنه كما ذكرتَ وقد عرفْتُ ما بعثتَ إلينا ، وقد عرفنا ابن عمِّك وأصحابَه فأشْهَدُ أنك رسول الله صادقاً مصَدّقاً . وقد بايعتُك و بايعتُ ابنَ عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . والتّفروق غلافة بين النواة والقشر .

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على من اتَّبع الهدى وآمن بالله

---

(١) البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج وقيل المنقطعة إلى الله تعالى عن الدنيا

ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » ، أسْلِمْ تَسْلَمَ فإن أبيت فعليك إثمُ المجوس . فلما قرأ عليه الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مزق الله ملكه . وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً ، وقد بدأ هذا الشقى بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتى به إليه ، فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ، ثم أرسل لعامل اليمن ينهاه عما أمره به أبوه — وكان الحامل لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمى .

وكتب صلوات الله وسلامه عليه إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ؛ فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وبعث به صلوات الله وسلامه عليه مع حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب : ندعوك إلى الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به . فقال المقوقس : إنى نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر

بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبأ ، والأخبار بالنجوى ، — الخبأ : ما خفى فى غيره ، وإخراجه : إظهاره . والنجوى : السر . — وسأنظر . وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم فجعله فى حُق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك » ؛ ولم يسلم . وإحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام جاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاها لحسان بن ثابت رضى الله عنه . والبغلة دُلْدل بقيت إلى زمن معاوية رضى الله عنه .

روى أن المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان عظيم القبط أرسل بعثة إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية فلما رجعوا إليه عنهم كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم رغبة فى الدنيا ولا بهجة أميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم ، وهنا قال المقوقس والذى يحلف به : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد هذا وصف المسلمين أيام كانوا فى عزة الإسلام عاملين به واقفين عند حدوده فسادوا العالم برسائلهم .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى المنذر بن ساوى

بعث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العلاء بن الحضرمى بكتاب إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ،

أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فعليه الجزية » . فأسْلَمَ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلى في ذلك أمرك .

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، (أما بعد) فإني أذكِّرُكَ اللهَ عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتَّبعْ أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنَوْا عليك خيراً ، وإني قد شَفَّعْتُكَ في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوتُ عن أهل الذنوب فاقبَلْ منهم . وإنك مهما تُصْلِح فلن نَعزِلَكَ عن عملك ، ومَن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى مَلِكَيْ عُمَان

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى مَلِكَيْ عُمان كتابا وبعثه مع عمرو بن العاص وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جَيفرَ وعبْدِ ابْنَي الجلَنْدِي سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام اسْلِما تَسْلَمَا فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين إنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما . وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائلٌ عنكما وخيلٌ تحلُّ بساحتكما وتظهرُ نبوتي على ملككما » كتبه أبي بن كعب وختم الكتاب . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عُمَانَ ، فلما قدمتها عَمَدت إلى عَبْدٍ — وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا — فقلتُ : إني رسولُ رسولِ الله صلى الله

عليه وسلم إليك و إلى أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالسنِّ والملك، وأنا أُوَصلك إليه حتى يقرأ كتابَك . ثم قال : وماتدعو إليه ؟ قلتُ أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتَخلَع ما عُبِدَ من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : ياعمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووددْت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال فمتى تَبِعْته ؟ قلت : قريباً . فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت عند النجاشى ! وأخبرته أن النجاشى قد أسلم ، قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال : انظر ياعمرو ما تقول إنه ليس من خصلة فى رجل أفضَحَ له من الكذب . قلت : ما كذبت وما نَسْتَحله فى ديننا . ثم قال : ما أرى هِرَقْلَ علم بإسلام النجاشى . قلت بلى ! قال بأى شىء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يُخْرِجُ له خَرْجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال : لا والله لو سألنى درهماً واحداً ما أعطيته . فبلغ هرَقْلَ قوله فقال له النَّيَّاق أخوه : أتدَع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل ؟ رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال انظر ما تقول يا عمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ؟ لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنَباً . قلت : إنه إن أسلم ملَّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم ، قال إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل ، قال ياعمرو :

تؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ! فقال : والله ماأرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عدوهم يطيعون لهذا . قال فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بِضَبْعَىَّ — الضبع وسط العضد أو ما تحت الابط — فقال دعوه ، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه قال تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحداً بقى غيرك فى هذه الحرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه نُوطِّئْكَ الخيل وتَبيدُ خضْراك ، فأسلم تَسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال . قال : دعنى يومى هذا وارجع إلى غداً . فرجعت إلى أخيه فقال : ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله هنا ، وإن بلغَت خيله ألفَت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غداً . فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه . فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً . وصدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى ملك اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هَوْذَة بن على ، سلام على من اتبع الهدى واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر — الخف للبعير والحافر للفرس ويطلقان عليهما ، والمراد إلى غاية ما تصل إليه قوتى — . فأسلم تسلمَ

وأجعل لك ما تحت يديك » . وقد بعث بهذا الكتاب مع سليط بن عمرو العامرى فأكرم هوذةُ وفادتَه وكتب إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسَنَ ما تدعو إليه وأجملَه ، وأنا شاعر قومى وخطيبُهم ، والعرب ، تهاب مكانى ، فاجعل إلىَّ بعض الأمر أتَّبِعْك . وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر . فقدم بذلك كله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره . وقرأ النبى صلوات الله وسلامه عليه كتابه فقال : « لو سألنى سيَّابة من الأرض ما فعلتُ ، بادَ وبادَ ما فى يديه » فلم يلبث أن مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة . وكان صلوات الله وسلامه عليه يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمَّر

وقد وجه صلوات الله وسلامه عليه شجاع بن وهب إلى أمير دمشق من قِبَل هِرقلَ الحارث بن أبى شَمَّر الغسَّانى ، وكان يقيم بغوطتها ، وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك » فلما قرأ الكتاب رمى به وقال : من ينزع ملكى منى . واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين ، وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى . ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه فى ذلك وصادفَ أن كان دحية عنده فكتب قيصر إليه يَثْنيه عن هذا العزم ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرفَ شجاعَ بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال — ثم بعث بعد ذلك علىَّ بن أبى طالب إليهم ووافاه بمكة فى حجة الوداع — وبعث المهاجرَ بن أبى أميةَ المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى باليمن ، فقال : سأنظر فى أمرى — وبعث جرير بن عبد الله البَجَلىّ إلى ذى الكلاع الحميرى وذى عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وتوفى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وجرير عندهم .

الفصل الثالث

أشهر الدعاة من عهد الرسول وما بعده وهديهم فيها

لقد كان المسلمون فى الصدر الأول ، ولا سيما على عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، يهتمون بأمر الدين ، فقد كانت خاصة الصحابة رضى الله عنهم ، الذين عاشروا النبى صلوات الله وسلامه عليه وتلقوا عنه ، متواصلين متكاتفين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلى نشر الإسلام وحراسته ، ومقاومة كل ما يمس شيئاً من عقائده وأحكامه وآدابه ، ومصالح أهله . فخطبهم فى التحريض على القتال دعوة إلى الله تعالى ورفع دينه وإعلاء كلمته ونشر دعوته ، وخطبهم فى الحث على الاعتصام بحبل الله وعلى الألفة والأخاء دعوة إلى الله تعالى ، وخطبهم فى الشورى مظهر لفهم الدين ، كل يدلى برأيه ويؤيد دعواه بالقواعد الدينية . والكل كان مرجعه فى هذا كتاب الله وسنة رسوله ، والمبادىء الإسلامية المعلومة من الدين ، وهكذا فى كل أغراضهم كان الدين فيها هو الأساس الذى تقوم عليه دعوتهم إلى الله تعالى ، ذلك أن الدين الحنيف كان هو المسيطر على ضمائرهم ، والقانون الذى إليه يحتكمون ، والشرع الذى على مقتضاه يسيرون ، فى كل ما يأتون وما يذرون ، كما يعلم هذا بالوقوف على خطبهم فى قواد الجيوش ووصاياهم فى عمال الولايات ، ونصائحهم فى جمهور الأمة — وكانت عامتهم من ورائهم يراقبون القائمين بالأعمال العامة ، حتى كان الصعلوك من رعاء الشاء يأمر مثل عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين وينهاه فيما يرى أنه الصواب . ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم ورفعة مقامهم ليسوا بمعصومين — وقد صرح عمر رضى الله عنه بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . وقد كان فى صدر الإسلام وما يليه يتصدر للدعوة والإرشاد فى المساجد العامة والمجتمعات العامة أجلاء العلماء المشهود لهم بالفضل ، وكان يختلف إلى مجالسهم الأمراء والعظماء ، ويتبعهم العدد الكثير من

عامة الأمة ، فكان لهم أحسن الآثار وأعظم الفوائد فى تصحيح العقائد وإصلاح الأعمال ، وتهذيب النفوس ، والإرشاد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

وممن أحرز قصب السبق فى هذا المضمار الحسن البصرى ، وهو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى . كان أبوه يسار من سبى ميسان — بلدة بالعراق — سباه الأمير المغيرة بن شعبة مع سيرين أبى محمد بن سيرين ، حينما افتتحها فى عهد عمر بن الخطاب ، ثم صار يسار هذا مولى لزيد بن ثابت الأنصارى وكانت أم الحسن — وتسمى خيرة — مولاة لأم سلمة زوج النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وفى بيتها ولد الحسن سنة ٢١ هـ . وربما غابت فى حاجة فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجىء أمه ، فدر عليه ثديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة اللتين عرف بهما كانتا من بركة ذلك . ونشأ الحسن بوادى القرى ، وتلقى الفصاحة عن الأعراب ، وسمع عثمان ، وروى عن عمران ابن حصين وأبى موسى الأشعرى ، وابن عباس ، وجندب وزيد بن ثابت الأنصارى ولما أتم علومه ومعارفه ، وظهرت مخايل النجابة عليه ، عين كاتباً للربيع بن زياد الحارثى والى خراسان ، وأحد فاتحيها لعمر بن الخطاب ، ثم شاع فقه الحسن وفضله وتناقل الخلق ورعه ونبله ، فتقلب فى الأعمال والولايات ، مع انتياب مسجد البصرة يعقد فيه مجلسه ليفقه الناس ويذيع فيهم موعظته وحكمته ، ويبثهم معارفه وفلسفته ، وينشر بينهم دعوته السياسية فى تثبيت دعائم الدولة ، إلى أن اختاره عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لقضاء البصرة سنة ٩٩ هـ . وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين . وحقاً لقد كان سيد التابعين ، وإمام أهل العلم والحكمة والرأى فى عصره ، وكان من الفصاحة والبلاغة فى أعلى مقام مع الزهد والورع ، والنسك والتقى ، حتى كانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن ، وإنه سيد سمح ، وإنه أخطب الناس وأفصحهم ، وإن علانيته أشبه بسريرته ، وسريرته بعلانيته ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، ناهيك من

رجل استغنى عما فى أيدى الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما فى يديه من أمر دينهم قيل ليونس بن عبيد : هل تعرف رجلا يعمل بعمل الحسن البصرى ؟ فقال : رحم الله الحسن ، والله ما أعلم أحداً يقول بقوله : ، فكيف يعمل بعمله ، كأن والله إذا ذكرت عنده النار كأنه لم يخلق إلا لها ، وما رؤى قط إلا وكأن النار والجنة بين عينيه ، خشية ورجاء ، لا يغلب أحدهما صاحبه — وسمعته السيدة عائشة رضى الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين ؟ وقيل لعلى ابن الحسن رضى الله عنهما : إن الحسن البصرى يقول : ليس العجب لمن هلك كيف هلك ، وإنما العجب لمن نجا كيف نجا . فقال على : سبحان الله هذا كلام صديق . وروى عن الأعمش أنه كان يقول : ما زال الحسن البصرى يعنى بالحكمة حتى نطق بها . وسمعه آخر وهو يعظ فقال : لله درك إنك لفصيح إذا تلفظت ، ناصح إذا وعظت وكانت مجالس الحسن مجالس الذكر يخلو فيها مع أصحابه وأتباعه من النساك والعباد فى بيته مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى ومحمد بن واسع وفرقد السبخى وعبد الواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصرى . إلى غير ذلك من الصفات التى ألبسه إياها شيوخ عصره . وقد روى أبو حيان التوحيدى وصفاً جامعاً له قال :

كان الحسن بن أبى الحسن البصرى من درارى النجوم علماً وتقوى وزهداً وورعاً وعفة ورقة وتألماً وتنزها ، وفقهاً ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانياً ، لا قريباً ولا مدانيا ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته — عاش تسعين سنة لم يُقْرَف بمقالة شنعاء ، ولم يُزَنّ بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقى الأديم ، محروس الحريم ، يجمع مجلسه ضروباً من الناس ، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث . وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه

الحلال والحرام ، وهذا يجود له المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة ، وهو فى جميع هذا البحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنيه لائمة فى الله ، ولا تُذهله رائمة عن الله . يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير . وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ، ومن ذا يجرى مجراه ؟ ولم يمنع الحسن زهده وورعه ونسكه وتقاه أن يخوض غمار السياسة ، وأن يكون له فيها سهم صائب ، ولسان عاضب ، وأن يكون من دعاة الدولة والذائدين عن كيانها ، الموطدين لدعائمها وأركانها بما أوتى من فصاحة و بيان ، وقوة لسَن وافتنان . ومهما أغفل التاريخ من الكلام عن مذهبه السياسى فإن مما لا شك فيه أن الدولة المروانية مدينة له بقوة حكمته و بليغ بيانه . كما هى مدينة للحجاج بقوة سياسته وشدة جنانه وأنت عليم بأثر الدعاية السياسية فى بسط نفوذ الدولة وقيام سلطانها فى الأقطار ، وانبعاث هيبتها فى الصدور . فلما كانت الدولة المروانية قد نشأت فى عصر لا يزال الدين غضاً ، كان لا بد للقائم للدعوة لها من الالتجاء إلى الدين للاستعانة ببعض ما يتصل به من الفكر والآراء والأقيسة ، يشد بها جوانب دعوته السياسية وقد كان ذلك المزيج من السياسية . وقد كان ذلك المزيج من السياسة والدين مذهب الحسن فيما هو بسبيله من هذه الناحية ، من حياته السياسية .

فلولا الحسن وسيف الحجاج ، لوئدت الدولة المروانية فى مهدها ، ألم تر إلى الحسن وقد جلس فى مجلسه و بين يديه صنوف من الناس على اختلاف الملل وفيهم حتى اليهود والنصارى ، يصغى كل منهم إلى أقواله ، وهو يخرج بهم فى أساليب الكلام من باب ويدخل معهم فى كل باب ، ثم يقول لهم فيما يحدثهم به : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الولاة فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، و إن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، و إنما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء ، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع وفى أزمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا يستفتونه فى حلها ، فقال لهم : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : يا رسول الله ألا تسعر لنا ؟ فقال : إن الله هو المسعر ، إن الله هو القابض . إن الله هو الباسط . و إنى والله ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه . بهذا وأمثاله كان يزرع هيبة الملوك والولاة فى صدور الناس ، و بهذا وأمثاله كان يبعث الرضا فى النفوس ، غير مصانع ولا مخادع ولكنه الصدق واليقين والثقة بما يحدث و يقول . ولم يكن يهاب أحداً فى قول الحق مهما علا قدره وعزت شوكته .

لما ولى يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة العراق وخراسان سنة ١٠٣ ﻫ استدعى ابن هبيرة إليه الحسن ومحمد بن سيرين ، وعامر الشعبى ، فلما حضروا إليه قال لهم : إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة له ، وقد ولانى ماترون فيكتب إلى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون ؟ فاستكان ابن سيرين والشعبى تقيَّة ولم يجرؤ واحد منهما على معارضته ، فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وأوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدينه وعباده . فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله . فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فأكبر ابن هبيرة ذلك منه وأجازهم وأضعف جائزته ، فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا . وهذا يدل على ما كان له فى الدولة من مكانة وفى النفوس من جلالة .

ومحصل هذا أن الأمير كان يكتب إلى ابن هبيرة كتباً يرى فى تنفيذها معصية الله . فيخاف إن أطاعه غضب الله و إن عصاه لم يأمن سطوته فعرض أمره على هؤلاء فهون الشعبى وابن سيرين عليه الأمر ميلا منهما إلى هوى الأمير . أما الحسن فقد أنكر عليه طاعة الأمير فيما فيه معصية واشتد فى الإنكار . وأن هذا الوالى اتعظ بقوله وانقاد له وأجزل له فى العطاء لشجاعته فى الجهر بالحق كما ترى .

أما مذهبه الاعتقادى فيظهر أنه كان يرى رأى القدرية كأكثر زعماء المعتزلة وأكابرهم . قال أبو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، كما فى قوله تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » وقال داود بن أبى هند : سمعت الحسن يقول : كل شىء بقضاء الله وقدره إلا المعاصى . وهذا هو بعينه رأى المعتزلة فى القدر — وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ رحمه الله . وتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا بشأنه حتى لم تقم صلاة العصر بالجامع فى ذلك اليوم ، وكانت هذه أول مرة وقع فيها هذا الحادث منذ كان الإسلام ، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك . هذا قليل من كثير من مناقبه رحمة الله تعالى عليه .

وأبو إدريس الخولانى عائذ الله بن عبد الله أحد من جمع بين العلم والعمل ، أخذ عن معاذ بن جبل وكثير من الصحابة ، كان واعظ أهل دمشق وقاصهم وقاضيهم قال الزهرى : كان أبو إدريس من فقهاء الشام ، توفى سنة ثمانين — وطاوس بن كيسان اليمانى الجندى من الأبناء سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم ، وكان رأساً فى العلم والعمل والوعظ ، قال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاوس . وقال الذهبى : كان طاوس شيخ أهل اليمن و بركتهم وفقيههم ، له جلالة عظيمة ، وكان جريئاً فى وعظ الملوك والأمراء ، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة .

وعمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمدانى المرحبى الكوفى وكان يكنى أبا ذر

وهو ثقة فى الحديث ، روى له البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه.
ووالده أبا ذر بن عبد الله يكنى أبا عمر ثقة أيضاً من أقران النخعى وسعيد بن جبير روى له الجماعة . كان عمر هذا قاصاً بليغاً مؤثراً إذا وعظ بكى وأبكى الناس . قال ابن السماك : لما دفن عمر ابنه ذر وقف على قبره فبكى . وقال : اللهم إنى أشهدك أنى قد تصدقت بما تثيبنى عليه من مصيبتى فيه عليه . فأبكى من حضر ، ثم قال : شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، ثم ولى وهو يقول : انطلقنا وتركناك ، ولو أقمنا ما نفعناك ، ولكن أستودعك أرحم الراحمين . مات سنة ثلاث وخمسين ومائة رحمة الله عليه .

وابن السماك وهو أبو العباس محمد بن صبيح مولى بنى عجل المعروف بابن السماك القاص الكوفى ، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ جمع كلامه وحفظ ، ولقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم ، مثل هشام بن عروة والأعمش . وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره . قدم بغداد زمن هارون الرشيد ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ثلاث وثمانين ومائة ، ومن كلامه : خف الله كأنك لم تطعه ، وأرج الله كأنك لم تعصه . ومنه : من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . ومنه أيضاً : خير الإخوان أقلهم مصانعة فى النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف السلطان ، مالا يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها على الورع ، وإنما يختبر ذل الرجال عند الفاقة والحاجة ، وأخباره ومواعظه كثيرة .

وسفيان الثورى وهو أبو عبد الله سفيان بن سعد الثورى الكوفى كان إماما فى الحديث وغيره ، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وتقاه وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين والهداة للرشدين ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ، ورغبهم فى ثوابه ويحذرهم من عقابه . وكان الناس يختلفون إليه للانتفاع به فى

دينهم ودنياهم ، وله مع الأمراء مواقف مشهودة كما سيأتى . توفى رحمه الله بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة . وثورى نسبة إلى ثور بن عبد مناة من أجداده .

وابن سمعون وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل الواعظ البغدادى المعروف بابن سمعون ، كان وحيد دهره فى الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ولطف العبارة ، وكان لأهل العراق فيه اعتقاد عظيم ، وتعلق شديد . توفى رحمه الله ببغداد سنة سبع وثمانين وثلثمائة .

وشذْيلةَ الواعظ ، وهو أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك بن منصور الجيلانى المعروف بشذْيلة الفقيه الشافعي الواعظ ، كان فقيها فاضلا واعظاً ماهراً . فصيح اللسان حلو العبارة ، كثير المحفوظات ، صنف فى الفقه وأصول الدين والوعظ . توفى رحمه الله ببغداد سنة أربع وتسعين وأربعمائة — وشذيلة — بفتح فسكون ففتح الياء واللام — لقب له .

والامام ابن الجوزى عالم الآفاق وواعظ العراق ، وهو أبو الفرج عبد الرحمن ابن على بن محمد الجوزى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ . كان علامة عصره و إمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ . صنف فى فنون عديدة ، وله فى الوعظ المؤلفات المفيدة ومحاسنه يطول شرحها . وسيأتى بيان طريقته فى نشر الدعوة . توفى رحمه الله عليه ببغداد سنة سبع وتسعين وخمسمائة . والجوزى نسبة إلى فرضة الجوز موضع مشهور .

هؤلاء الذين سميناهم أجل الذين كانوا يروون الحديث ويفتون الناس ويدعونهم إلى الخير . وأمثال هؤلاء ممن برعوا فى الدعوة إلى الله و إرشاد العباد إلى الحق . وستقف إن شاء الله تعالى على شىء من مواعظ هؤلاء الأجلاء ومواقفهم لدى الأمراء .

هديهم فيها

والكثير منهم كان يسلك فى دعوة الناس وهدايتهم طريق الكتاب والسنة ، وبعضُهم كان كثيراً ما يستعين فى التذكير بضرب الأمثال وقصص الأولين ،

سيراً على نهج القرآن الحكيم استرعاء للسامعين . وقد غلب ذلك على هذا البعض حتى عرفوا باسم القصاص ، وحتى استسهله طائفة من الدخلاء واسترسل فيه إلى أن نسى معه المقصود الأسمى من الإرشاد ، فكان بعض من أوتى ذلاقة فى اللسان وقوة فى البيان يعتمد على هذا الطريق ، ويتصدى للوعظ مع قلة بضاعته العلمية وعدم تمكنه فى الحقائق الدينية ، فيختلس من العامة إجلالا وتعظيما لاحق له فيه . وكان ذلك يثير عليه من معارضة المنافسين له مايكشف خبيئته ، ويبين غور مقدرته بل كان منهم من يفتضح أمره ويظهر جهله .

وكان عاقبة هذا التنافس انصراف كثير من كبار العلماء عن التصدى إلى إرشاد الناس ، وعكفوا على تحقيق المسائل العلمية ، قانعين بما كانوا يجدون من اللذة العقلية فى الوقوف على دقائق العلوم ، مكتفين بمن يعرف فضلهم ويغترف من بحار علمهم ، بقلوب سليمة ورغبة صادقة من خواص الطلاب ، فأصبح العلم صناعة محصورة بين طبقة خاصة ، وتركوا جمهور الأمة لمن يتصدى لإرشادهم من ذوى البضاعة المزجاة ، وياليتهم مع هذا أحسنوا العمل وأخلصوا فى القيام بهذه الوظيفة الخطيرة ، بل قاموا يريدون بها الارتزاق . فجرّ ذلك إلى سقوط المنزلة وانحطاط القيمة وانصراف الناس عنهم وضياع روح التأثير والانتفاع . ومن هنا أفلت العامة من أيدى العلماء ، وترفع السادة العلماء عن مخالطتهم ، وأصبح الفريقان يتلاومون ويتناكرون ، فهؤلاء يقولون : مابال الناس قد ثقل عليهم أمر الدين وانصرفت نفوسهم عن الهدى والرشد ! ؟ وأولئك يقولون : أين العلماء العاملون يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟ أين حماة الدين يصلحون الفاسد ويقوّمون المعوجّ — وزاد الخرق اتساعا بميل الأمراء والحكام إلى إقصاء ذوى الغيرة من العلماء فرارا من قيودهم الضيقة « فى زعمهم » ولكيلا يزاحموهم فى المكانة التى استأثروا بها ، فأبعدوا المخلصين الصادقين فى التمسك بالدين ، وقربوا المتزلفين المتساهلين المسهلين لهم رغائبهم ، المسارعين إلى هواهم ، فزاد هذا

فى انزواء العلماء العاملين منكبين على ممارسة العلوم ، منهمكين فى أنواع العبادة ، واجدين لذلك من اللذة الروحية ماأنساهم زخرف هذه الحياة ، وشغلهم عن التعلق بحطام الدنيا ، حتى استلانوا ما استوعره المترفون . وأنسوا بما استوحشه المنعمون . قال قائلهم: « نحن فى لذة لوعلمتها الملوك لجادلونا عليها بالسيوف » .

ولقد كان الاقبال على الدعاة والتعلق بالمرشدين موجوداً فى كل عصر ، على قلته وعدم وفائه بحاجة الأمة ، وكان الناس يعززون العلماء ويوقرونهم ويقرون لهم بمنزلة خاصة لما يعرفون لهم من علم وعمل ، ويعتقدون فيهم أنهم حفظة الدين وحراسه — ولازال أمر الإرشاد يتراجع إلى الوراء حتى لم يبق منه اليوم إلا اسمه ، ولم يعرف منه الآن إلا رسمه ، والأمة تتدهور فى أخلاقها وتتأخر فى معلوماتها ، حتى ضلت سواء السبيل ، وجارت من حيث لاتدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى . وتاهت فى تيه الهوى وتردت فى مهاوى الردى . وأصبح المعروف منكراً ، وصار المنكر معروفا . كل ذلك من سكوت رجال الدين وتساهل الأمراء وإهمال الحكام فى تنفيذ أوامر الدين ، إلا من رحم الله .

ولو أن رجال الدين وجهوا شطراً من عنايتهم إلى النظر فى أمراض الأمة وساروا فى العمل على مداواتها بحزم وحكمة ، لكانت الأمة اليوم صحيحة فى عقائدها ، صالحة فى أعمالها . قويمة فى عاداتها . متينة فى أخلاقها . بصيرة فى أمر دينها . سليمة من الزلل . بعيدة عن مواقع الخطر . وإذا كانت علل تدهور الأمة فى آدابها وتأخرها فى أمر دينها إنما نشأت من إغفال تعليمها وتهذيبها ، وإهمال إرشادها إلى الخير وتحذيرها من الشر ، فسبيلُ إنقاذها من سقطتها وخلاصها من ورطتها بيِّن واضحٌ ، وسهل قريب — وهو أن يبصر السادة العلماء هذا الخطر المحدق بالأمة ويدركوه كما هو ، ثم ينشطوا فى الدعوة إلى الخير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويغرسون الفضيلة فى نفوس الأمة ، خصوصاً الناشئة من أبنائها وبناتها — فهذا وحده هو سبيل سعادتها وفلاحها إذا أحببنا أن نكون

من السعداء المفلحين . وهذا — دون سواه — طريق خلاصها من الشقاء ونكد العيش إن رغبنا أن نكون سادة آمنين .

ولا يغنى رجالَ الدين عذراً عند الله أو عند الناس أن يلقوا كل التبعة على ولاة الأمور إذا هم لم ينصروا الدين . أو على الأغنياء إذا هم قبضوا أيديهم عن المساعدة بالمال أو الجاه . . أو على الفاجرين والملحدين إذا هم تعدوا حدود الأدب مع الله ، وتمردوا على شرع الله . فقد علَّمهم الله كيف يدعون إلى الخير ، وعلّمهم أن العلم النافع متى اقترن بالإخلاص لابد أن يحدث فى القلوب (ولو قاسية) والنفوس الغافلة (ولو طاغية) أثرا لا يستهان به . وعلمهم أن الحق لابد ظافر منصور و إن قل أهله ، وأن الباطل لا يثبت فى وجه الحق أبداً و إن كثرت أشياعه وأنصاره . قال الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه « لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق » .

أى لا بقاء للباطل إلا فى غفلة الحق عنه ، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت بإهمالها ، و ينمو بإغفالها ، فإذا وجه الزارع إليها عنايته غلبه الخصب وذهب به النبات النافع .

وقال بعض الحكماء قليل الحق يدفع كثير الباطل كما أن قليل النار يُحرِق كثير الحطب .

واجب العلماء

لا يظلم السادة العلماء من يقول لهم : أنتم ورثة الأنبياء فى العلم والحكمة ، وخلف لهم فى وظيفتهم ، وما كان من طريقتهم أن ينزووا فى مساجدهم ، و يلزموا أماكنهم ويُلزموا الناس أن يقبلوا عليهم بل كانوا يتعرضون لهم و يسعون وراءهم يدعونهم إلى الخير ، ويرشدونهم إلى طرق الهدى والرشد بالجد والجهد ، بل جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كان محفوفاً بالمكاره والمخاوف ، وكم قتل

فى سبيل ذلك منهم نبى وصديق ، فكانوا أفضل الشهداء . روى أبو داود فى سننه عن أبى سعيد مرفوعاً « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » وقد ورد أن علماء السلف تصدوا لنصيحة الملوك والأمراء الظالمين على ماسيأتى إن شاء الله .

لايظلم العلماء من يقول لهم قوموا بواجبكم وأدوا الأمانة التى فى أعناقكم إلى أهلها ، بعد إيمانهم بقول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) و بعد قول الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا[1] قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) و بعد قول إمام المرشدين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه : « والذى نفسى بيده لتأمُرن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه . ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال حديث حسن . و بعد قول سيد الداعين إلى الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً » رواه مسلم . و بعد قول أمير المؤمنين على كرّم الله وجهه : ما آتى الله تعالى عالماً علما إلا أخذ عليه الميثاق لا يكتمه . وقوله كرّم الله وجهه : ماأخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا .

لايمس كرامة السادة العلماء من يصوب نحوهم سهام اللوم فى تخليهم عن إرشاد الأمة حتى غلبهم عليه الدخلاء ، وبرز فيه الأدعياء ، ممن لايحسنون تهذيب الأخلاق ، وتثقيف العقول ، وهداية الناس ، بل هو محتاج إلى أن يهدى لتصحيح عقائده و إحكام دينه ، و إصلاح نفسه .

لايمس كرامة العلماء من يقول لهم : أنتم رعاة الأمة فى تصحيح عقائدها وصيانة دينها وكل راع مسئول عن رعيته .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة   ونام عنها تولى رعيها الأسد

(١) الإنذار الإعلام بالخوف للاحتراز عنه وكل منذر معلم ولا عكس والمراد التعليم والإرشاد .

— أجل فقد تصدر لقيادة الجمهور غير الأكفاء . وأولو الأهواء . وتمادوا فى باطلهم حين تخلى رجال الدين عن واجبهم . وتنحوا عن وظيفتهم . فكانت العاقبة ماترى مما يحتاج إلى أزمنة طويلة . وجهود عظيمة ، يقوم بها جمع عظيم من أولى الغيرة على الدين وذوى الشجاعة فى إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى طاعة الله بعد إحكام العدة والحصول على كامل الذخيرة والخبرة التامة بأساليب الاقناع ووسائل التأثير ، مع صدق النية والإخلاص فى العمل ، والتحلى بالرفق والتجمل باللين وسعة الصدر .

فهذا هو سبيل الحكمة لايضل من سلكه . ولا يزل من تمسك به . فإنه نعم السبيل الذى يوصل إلى الغاية المقصودة ، والطريق القويم الذى يرشد إلى الضالة المنشودة . قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفصل الرابع

فى الوعظ والإرشاد

تعريفه : اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء : وعظ . وتذكير . وقَصص . فالوعظ والموعظة والعظة النصح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب ، أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيده : هو تذكيرك الإنسان بما يُلين قلبه من ثواب وعقاب . يقال وعظته فاتعظ إذا أثرت فيه الموعظة وأفادت .

وفى الاصطلاح يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة . ويزيد النفوس المهذبة إيمانا وهداية .

والتذكير : تعريف الخلق نعم الله عز وجل عليهم ، وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته .

والتذكر يقال على الاتعاظ ومنه قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » وقوله « سيذكّر من يخشى » ومثله الادكار « فهل من مدكر » .

(والقَصَص) تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها . والقَصاص من يفعل ذلك . وهو فى الغالب عبارة عمن يروى أخبار الماضين — وكثير من الناس يطلق على الواعظ اسم القاصّ — وعلى القاصّ اسم المذكر . والتحقيق ما ذكرنا .

وأما الإرشاد : فهو الهداية إلى الطريق الموصل إلى المطلوب — والرشاد والرشد بضم فسكون ، والرشد بفتحات ، كما فى القاموس ، الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . يقال استرشد الشخص إذا طلب الرشد أو اهتدى . وقديطلق الوعظ والإرشاد فى عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية الاعتقادية أو العملية أو الخلقية ، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار .

وإجمالا فالوعظ هو النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذى يرق له القلب ويبعث على العمل . والإرشاد الحث على الخير والتحذير من الشر على الوجه المتقدم وهو الترغيب والترهيب .

وغايته : صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين . وفضله عظيم . وشرفه جسيم . فإنه متعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة .

ولما كان الإنسان مركبا من الجسم والروح ، وكان كلاهما عرضة للأمراض والعلل ، لا جرم كان محتاجا إلى طبين ومتشوفا إلى علاجين . علاج الجسم وعلاج الروح ، ولا شك أن أفضل الطبين ما أصلح أشرف الجزأين ، ولا يخفى أن طب الأجسام قد يصادف ذا روح شِرِّيرة ونفس خبيثة ، فتكون صحتها فساداً وشرا على المجتمع . ومحال أن يكون مثل هذا فى طب الأرواح فهو دائما مفض إلى الخير والصلاح

ويشرف فن الوعظ والإرشاد على بقية فنون الخطابة بأمور : (الأول) أنه وظيفة الأنبياء والمرسلين ، ومن على سنتهم من العلماء العاملين والهداة الراشدين والعظماء المجاهدين : فانهم إنما بعثوا لهداية العالم وسن طريق السعادة للناس فى الدارين بتعليمهم عند الجهالة ، وإيقاظهم من الغفلة ، ووقفهم عند حدود الأدب ،

عند التمرد لينقذوهم من حضيض الجهل والرذيلة ، إلى ذروة العلم والفضيلة (الثاني) من حيث إنه يتعلق بأشرف الأمور وأخطرها — أعني الأمور الروحية — (الثالث) من حيث الغاية أي سعادة الحياة بالتحلي بالفضيلة والتخلي عن النقيصة ثم الفوز بالسعادة الدائمة .

أثره في تهذيب النفوس

معلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها . وكثيراً ما تودى بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها . والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفىء نورها ، وقد يفقدها حياتها ، وذلك بورودها موارد الغي والضلال . وانهما كها في اللذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهي ، وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور ، وسيئات البدع ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية ، وارتكاب كل مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح .

فمن هذه الأفعال تتكون أمراض القلوب وعللها ، قال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ركبها كما يركب الصدأ وغلبها ، وهو أن يصر على المعاصي ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه : ولا دواء لها إلا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح ، من الكتاب والسنة ، فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس . وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوى — وبالوعظ والتذكير تتهذب النفوس وتتنبه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي . قال بعض الحكماء : الموعظة موقظة للقلوب من سِنة الغفلة . ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة . ومحيية لها من موت الجهالة . ومستخرجة لها من ضيق الضلالة .

وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به ، ولا ريب أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء ، وساء حال المجتمع الإنسانى .

والبرهان الحسى قائم على أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم ، وأن المعنى الذى يتناولونه فى نصحهم و إرشادهم يكون أكثر انتشاراً وأشد رسوخاً فى نفوس تلك الأمة . وأن الأمة إذا فرطت أو أفرطت فى شىء يستعان دائماً على اعتدالها بوعاظها وخطبائها .

فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة . وقاطع الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، و ينبه العقول من غفلتها و يطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل . و ينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال . وتتحلى بالفضائل والكمال . و بالله تعالى التوفيق .

الفصل الخامس

القَصَص والقصاص فى الصدر الأول

القصاص هم الذين يقصون على الناس و يكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم . ينقلون ذلك موعظة واعتبارا ، وكانوا فى القرن الأول يقدمونهم فى حروب بنى أمية ليقصوا على المقاتلين أخبار الشهداء وفضائلهم ، وما وعدوا به فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليُحمِّسوهم بذلك قبل لقاء العدو ، حتى لا تستولى عليهم رهبة ، ولا يملكهم فزع ، ولا ترد وجوهَهم

آمال الحياة . وهو ضرب من السياسة وحسن النظر فى التدبير ، وكان ذلك دأب الحجاج الثقفى أمير العراق لبنى أمية فى حروبه ، لأن أكثر من قاتلهم كانوا من المستميتين ديانة أو حمية ، كالخوارج ، والناقمين عليه وعلى بنى أمية من العرب .

أما قبل هذه الدولة فكانت الموعظة فى الحروب ، والتذكير بوعد الله تعالى للمجاهدين فى إعلاء كلمته من شأن القواد ، يخطبون بذلك الناس ، ولا يتجاوزون الكتاب والسنة وكلمات لهم بين ذلك ، ولم يكن القصص فى زمن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، ولا أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لاجتماع كلمة المسلمين ، وقرب عهدهم بالنبوة ، وإنما أحدث فى عهد معاوية رضى الله تعالى عنه حين كانت الفتنة بين الصحابة وكان قاصراً على الموعظة الحسنة والتذكير ونحوه . قال السيوطى وأخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا : لم يقص فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ولا زمان أبى بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص محدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة . وأخرج ابن أبى شيبة والمروزى عن ابن عمر قال : لم يقص على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد أبى بكر ، ولا عهد عمر ، ولا عهد عثمان ، إنما كان القصص حين كانت الفتنة . وفى التخريج الكبير للعراقى من رواية الزهرى عن السائب فيما أخرجه أحمد والطبرانى إلى قوله ولا زمن أبى بكر ثم قال : وأول من قص تميم الدارى استأذن عمر بن الخطاب أن يقص قائماً فأذن له اه ومنه عرفت اختلاف الرواية فى زمن حدوث القصص ، ولعله كان قليلا فى زمن عمر وعثمان ثم كثر بمقتله رضى الله عنهم أجمعين . وأول من قص من الصحابة الأسود بن سريع ، وكان يقول فى وعظه إذا ذكر الموت وخاطب الميت:

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمة　　وإلا فأنى لا إخالُك ناجيا

وأول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثى ، وقد حضر مجلسه عبدالله ابن عمر وسمع منه فكان ذلك داعياً إلى إقبال الناس ورغبتهم فى استماع القص ، لمكان ابن عمر من الدين والورع — وقد أقرته كذلك عائشة رضى الله تعالى عنها

ولم تنكر عليه ، حدث عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير عليها ، فقالت : من هذا ؟ فقال أنا عبيد بن عمير ، قالت رضى الله عنها : قاص أهل مكة ؟ قال : نعم ، قالت : خفف فإن الذكر ثقيل . وقد اتخذ معاوية رضى الله عنه قاصاً كان يجلس إليه إذا فرغ من صلاة الفجر ، ولعل هذا من دهائه فى السياسة رضى الله عنه . وأول من لزم القص فى مسجد المدينة مسلم بن جندب الهذلى إمام أهل المدينة وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من سَرَّه أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب . ثم كان أول من قص فى مسجد البصرة جعفر بن الحسن رضى الله عنه ، وأول من أقرأ القرآن فيه .

ولم يكن القص فى القرن الأول مرذولا لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى القرآن والحديث . ولم يكن يشوبه شىء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية ، وأكثره يأخذونه عمن أسلم من أهل الكتاب ، وبعض هؤلاء كان غزير العلم واسع الحيلة فى قصص الأولين كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة — وكعب الأحبار الذى أسلم فى خلافة عمر وتوفى سنة اثنتين وثلاثين ، وعن هذين الرجلين ، ووهب بن منبه المتوفى سنة أربع عشرة ومائة أخذوا سواد قصصهم مما يتعلق بالأمم ، وأحوال الأنبياء ، والنذر الأولى ، وما يجرى مع ذلك — وكان وهب من الأبناء « أبناس الفرس » لأن جده جاء إلى اليمن فيمن بعثهم كسرى حين استنجدوه على الحبشة ، وقد أخذ آباؤه عن اليمن أخبار اليهود ، وأخذوا عن الحبشة أخبار النصارى ، ثم كان وهب يعرف اليونانية أيضاً ، فاتسع بذلك علمه حتى قالوا عنه إنه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، وهو أول من صنف قصص الأنبياء فى الإسلام ، وممن أخذوا عنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعى ، وهو من الأبناء ، وتوفى سنة ست ومائة ، ثم ورث الرواية عنه ابنه عبد الله بن طاوس .

ولما كان القرن الثانى وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين

لقصاصهم الحسن البصرى رضى الله عنه نشأت بعده الطبقة التى أخذت عنها العامة ، وقد اضطربت الفتن ، وكثر الكلام ، وفشت الأكاذيب فى الحديث ، وأخبار العرب والشعر ، فصارهمّ القاص أن يجىء بالغرائب ، ويكثر من الرقائق ، لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية ، ولم يبق فى حلقات القصاص إلا العامة ، فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما سبق ، وصار القاص عند أولى العلم أحمق مخرفاً ، إلا قليلا ممن استوعبوا ، وتبينوا وساروا فى مذهب الرواة (وهو نقل الكذب[1] الذى لا بأس به واسناده إلى أهله) وامتازوا مع ذلك بالفصاحة والبيان .

ويبتدىء تاريخ هؤلاء بعد الحسن البصرى رحمه الله بموسى بن سيار الأسوارى ، قال الجاحظ وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار ، ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى — ثم قص فى مسجده (بالبصرة) أبو على الأسوارى[2] وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، وابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان ربما يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، كأن تكون الآية قد ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث الكثيرة ، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك — وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ، ويحتج به ،

---

(١) المراد المكذوب من الحكايات المرغبة فى الطاعة المحذرة من المعصية أو الداعية إلى فضيلة والتخلى عن رذيلة .

(٢) بضم الهمزة نسبة إلى الأساورة بطن من تميم

وخصاله المحمودة كثيرة — يقولون إن أبا على هـذا لم يُسمع منه كلمة غيبة قط ، ولا عارض أحداً من المخالفين والحساد والبغاة بشيء من المكافأة — ثم قص من بعده القاسم بن يحيى وهو أبو العباس الضرير ولم يدرَك فى القصاص مثله .

وكان يقص معهما و بعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . فأما صالح المرى فإنه كان يكنى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس ، قال الجاحظ فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار من أصحاب الحديث ، كان فى أواخر القرن الثانى قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه . فأتاه على تكره لأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقه وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة ، وحدث قتادة عن الحسن . رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم فقال : ليس هذا قاصاً هذا نذير . ولما نضجت العلوم فى القرن السادس ذهب القصاص وخلفهم الوعاظ من المتصوفة والزهاد ، إذ كان اسم القاص قد أصبح لقباً عامياً مبتذلاً ، وأكثر المتصدرين فى الوعظ إنما يكون من أهل الحديث ، والمتسعين فى العلوم ، ولم يزد المتصوفة فى الأخبار إلا ما يزعمون أنهم احتووه بعلم خاص والله أعلم بغيبه .

وقد اختلف السلف فى مدح القصاص وذمهم فبعضهم يحرض على الحضور عندهم وبعضهم ينهى عنه ، فنذكر لك فصلا يكون فصلا لهذا الأمر فنقول : القَصَصُ قسمان : مذموم ومحمود ، والأول نوعان : « أحدهما » الاشتغال بالقِصص والحكايات عن الأمم السابقة التى يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن الحكيم ، وتزيد عليها ، فإن ذلك مما يندر صحته ، خصوصاً ما ينقل عن بنى إسرائيل مما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل ، كاسرائيليات الخازن ، و بدائع الزهور ، فكان هذا مذموما لما فيه من الكذب ، وعلى فرض خلوه عنه الأسلم البعد عنه ، فإن من فتح الباب على نفسه اختلط عليه

الصدق والكذب ، والنافع والضار ، فمن هنا نهى عنه — ولذا قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم ، وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى به بأساً .

وثانيهما الاشتغال بحكاية أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة الوقوع ، ومردفة بما يكفرها ومتداركة بحسنات تغطى عليها كما هو المعهود فى حضرات السلف ، فإن العاصى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيها ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن المشايخ وبعض الأكابر ، وكلنا بصدد المعاصى ومن الذى عصم منا فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى مقاما وأحسن حالا ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لايدرى ، فكان هذا أيضاً مذموماً لافضائه إلى إفساد حال السامعين . .

فى الروض الفائق فى المواعظ والرقائق : أن بعض الأولياء أراد أن يزور صديقاً له فذهب إليه وكان عند المزور خادمة وكانت طريرة حسناء فأعجب بها ذلك الولى الزائر وشغفته حباً ولم يزل كذلك حتى وقع عليها فى زمن يسير — ولما أدرك أن صديقه قد ينزل به من صاب العذاب والأذى ما لاتحمد عقباه فر هاربا . فأتى صديقه وعلم بما كان فعدا خلفه فلما أدركه وكان بالقرب من البحر وجده قد مشى فوق الماء فسأله فى ذلك فقال له ذلك قضاؤه وهذا رضاؤه فسر بذلك وخلى سبيله — وما إلى ذلك من الحكايات التى لاحقيقة لها إلا فى خيال هؤلاء القصاص المفتونين وينبذها الدين الصحيح والعقل السليم .

ولذا لما دخل على رضى الله عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول : لايقص فى مسجدنا . ذلك أنه سمع من كلامهم مالا ينطبق على الدين فرأى أن المصلحة فى إخراجهم ، وفى تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها حتى انتهى

إلى الحسن البصرى رحمه الله وهو يعظ الناس فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجه[1]، إذ كان يتكلم فى علم الآخرة ، والتذكير بالموت ، والتنبيه على عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وخواطر الشيطان ، ووجه الحذر منها ، ويذكر بآلاء الله ونعمائه ، وتقصير العبد فى شكره ، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ، ونكث عهدها ، وخطر الآخرة وأحوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذى ورد الحث عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه . أخرج السيوطى فى الجامع الكبير والحاكم فى التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أبا ذر لأن تغدو لتعليم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » هذا .

والقصص المحمود ماخلا عن هذين المحذورين ، ورجع إلى ما اشتمل عليه القرآن الحكيم ، وما صح فى الكتب الصحيحة ككتب السنة ، والتفاسير الموثوق بها . أخرج ابن أبى شيبة والمرزوى عن ابن سيرين قال : بلغ عمر أن قاصا يقص بالبصرة فكتب إليه (الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص) إلى آخر الآيات فعرف الرجل فتركه — أى نخبرك ونحدثك أحسن الحديث لما فيه من العبر والحكم والعجائب التى ليست فى سواه مع المطابقة للواقع ومتانة الأسلوب — ومقصود سيدنا عمر رضى الله عنه تنبيه ذلك القاص إلى السير فى القصص على طريق القرآن ، وتحرى الصدق واجتناب الأخبار التى لايعلم صحتها — فعرف الرجل مقصوده وعجز نفسه عن تحقيقه فترك القص . وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره عن قيس بن سعد قال : جاء ابن عباس حتى قام على عبيد بن عمير وهو يقص فقال : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . واذكر فى الكتاب إسماعيل) الآية (واذكر فى الكتاب إدريس) الآية . ذكرنا بأيام الله ، وأثن على من أثنى الله عليه . يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التى وقعت فيها . والمراد عظنا بالترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . فالترغيب بأن يذكرهم نعم الله عليهم وعلى من قبلهم

ممن آمن بالرسل فى سائر ماسلف من الأيام ، والترهيب بأن يذكرهم عذاب الله وانتقامه ممن كذب بالرسل من الأمم فيما سلف من الأيام ، كالذى نزل بعاد وثمود ، ليزداد الطائع ، ويقلع العاصى ، فهذا محمود لأن فيه عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر قال تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) قال الإمام ابن الجوزى رحمه الله كان الوعاظ فى قديم الزمان علماء فقهاء ، وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبد الله ابن عمر رضى الله عنه ، وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ، ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم ، وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع فى هذا الفن ، فمن القصاص من يستبيح وضع الحكايات المرغبة فى الطاعة المزهدة فى الدنيا وآفاتها ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذا من نزغات الشيطان ، فإن فى الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكره الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه غنية عن الاختراع فى الوعظ والإرشاد .

وللخلاص من خطر القص : قال العلماء لايجوز لقاص أن ينقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير معرفة بالصحيح والسقيم وإن اتفق أنه نقل حديثا صحيحا كان آثما فى ذلك لأنه ينقل مالا علم له به ، ولا يحل له النقل من كتب التفاسير لأن فيها الأقوال المنكرة والصحيحة ، ومن لايميز الغث من السمين لايحل له الاعتماد على الكتب . وكيف يُقدم مَن هذه حالُه على تفسير كتاب الله تعالى — فلا يحل لأحد بهذا الوصف أن ينقل حديثاً من الكتب بل ولو فى الصحيحين مالم يقرأه على من يعلم ذلك من أهل الحديث ، فقد حكى الحافظ أبو بكر بن خير اتفاق العلماء على أنه لا يصح لمسلم أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا حتى يكون عنده هذا القول مرويا ولو على أقل وجوه الروايات .

فالذى تلخص مما ذكرنا أنه لا ينبغى أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم الحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم العارف بصحيحه وسقيمه ومسنده

ومقطوعه ، العالم بالتواريخ و بسير السلف الحافظ لأخبار الزهاد الفقيه فى دين الله العالم بالعربية واللغة . ومدار كل ذلك على تقوى الله و إخراج الطمع من أموال الناس وحب الثناء والمدح من قلبه . كذا حققه الإمام ابن الجوزى رحمة الله عليه .

وجملة القول أن الإسرائيليات ثلاثة أنواع : نوع مقبول بلاشك وهو ماشتمل عليه الكتاب وصحت به السنة . ونوع مردود بلاشك وهو مالا يصدقه العقل ولا يشهد له النقل . والثالث مجهول الحال ، وهذا يجب علينا قبل الحكم عليه أن نضعه فى ميزان الشرع القويم ، والعقل السليم . فإن أيده الشرع وصدقه العقل قبلناه ونشرناه كعبرة أو دعوة إلى خلق كريم . و إلا تركناه وراء ظهورنا وولينا وجوهنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الكفاية لمن أراد الهداية (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) أى ذلك الرد خير لكم وأحسن عاقبة .

ومن أمثلة النوع الثالث ماروى أن رجلا من بنى إسرائيل وجه ابنا له فى تجارة فمضت أشهر ولم يقف له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم : فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالما فسأله أبوه هل أصابك فى سفرك بلاء ؟ فقال له نعم غرقت السفينة بنا وغرقت مع جملة الناس و إذا بشابين أخذانى فطرحانى على الشط وقالا لى قل لأبيك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بزائد عليهما .

ومنها ما روى أن رجلا جلس يوماً يأكل هو وزوجته و بين يديهما دجاجة مشوية فقرع الباب سائل فخرج إليه وانتهره فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت عنه نعمته وطلق زوجته ثم تزوجت بعده برجل فجلس يأكل فى بعض الأيام هو وزوجته و بين يديهما دجاجة و إذا بسائل يطرق الباب فقال لزوجته ادفعى له هذه الدجاجة . فدفعتها إليه ورجعت باكية فسألها زوجها عن بكائها وأخبرته أن هذا السائل كان زوجها الأول وذكرت قصته مع السائل الذى انتهره فقال لها زوجها أنا ذلك السائل . فهذا وأمثاله لو عرض على موازين الشريعة الغراء

يتقبله والعقل السليم يصدقه فهو يدخل فى مثل قول ابن مسعود رضى الله عنه (صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأً) وأن منع الصدقة عن مستحقها يجعل العزيز ذليلا فالظلم عاقبته وخيمة .

الفصل السادس

الوعظ فى القرن السادس وتقدير الأمراء له

كانت مدينة السلام (بغداد) تمتاز على غيرها من مدن العالم الإسلامى بكثرة فقهائها المحدثين . ووعاظها المذكرين . وكان لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه والتبصير . والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير . مقامات تستنزل لهم من الله تعالى واسع الرحمة وجزيل الإحسان ، وتمنع القارعة الصما أن تحل بدارهم . مقامات خلدت لهم أحسن الذكرى وجميل الأحدوثة . قال أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الأندلسى من أدباء القرن السادس فى رحلته ما محصله — فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . والمشار إليه فى التقديم فى العلوم حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة . فتوّقوا وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مؤثرة — ثم اندفع الإمام المذكور وخطب خطبة سكون ووقار . وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل . وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ، ثم وجهت إليه المسائل من كل جانب فأجاب عنها وما قصر ، ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها فى يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل وافترق الجمع : فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة أرسلت فيه العبرات لا سيما فى آخره فانه سرت حميا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعا وفجرتها دموعا . وبادر التائبون إليه وقوعا على يده .

وشهدنا له مجلساً ثانياً إثر صلاة العصر يوم الجمعة أيضاً حضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية . ورئيس الأئمة الشافعية صدر الدين الخَجَندى دخل المدرسة المذكورة فاهتزت له القلوب . ورمقته العيون . فأخذ الإمام رضى الدين فى وعظه مسروراً بحضوره متجملا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه الأول فأفاد وأجاد .

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقى على اتصال من قصور الخليفة . وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد . وفى جوف الفَرا كل الصيد . آية الزمان . وقرة عين الإيمان . رئيس الحنبلية . إمام الجماعة . وفارس حَلْبة هذه الصناعة . المشهود له بالسبق فى البلاغة والبراعة . مالك أزِمَّة الكلام فى النظم والنثر ومن أبهر آياته أنه يصعد المنبر و يبتدىء القراء بالقرآن وعددهم يربو على العشرين قارئا . فينتزع منهم الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بأدب وخشوع فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية . ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة فاذا فرغوا أخذ الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدرا . وأفرغ فى أصداف الأسماع من الفاظه دررا . وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقرا وأتى بها على نسق القراءة لا مقدماً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أنّ أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ آية آية لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا . و يورد الخطبة الغراء بها عجلا . « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » فحدث ولا حرج عن البحر وهيهات ليس الخبر كالخبر . ثم إنه أتى بعد الفراغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب . وذابت بها النفوس . إلى أن علا الضجيج وأعلن التائبون بالصياح . وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . كل يلقى ناصيته بيده فيجزها و يمسح على رأسه داعياً له . ومنهم من يغشى عليه و يرفع فى الأذرع إليه فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة . و يذكرها أهوال يوم القيامة

— وفى أثناء مجلسه ذلك تطير إليه الرقاع بالمسائل فيجاوب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل — والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ثم شاهدنا له مجلسا ثانيا بكرة يوم الخميس بباب بدر فى ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع فى حرم الخليفة خص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وقد تسطر القراء أمامه على كراسى موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب فبكت العيون لقراءتهم فلما فرغوا منها وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات سطع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات ومشّى الخطبة على فقرة آخر آية منها فى الترتيب إلى أن أكملها وكانت الآية « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس » فتمادى على هذا السين . وحسن أى تحسين . فكان يومه ذلك أعجب من أمسه . ثم سلك سبيله فى الوعظ كل ذلك بديهة لا روية . ويصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون . وأبدت النفوس سر شوقها المكنون . وتطارح الناس عليه نادمين تائبين فطاشت الألباب . واستولى عليها الولَهُ والذهول . واهتزت القلوب ولم تجد للصبر سبيلا ثم فى أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق . تملأ القلوب خشية وزهداً وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام :

أين فؤادى أذابه الوجد ... وأين قلبى فما صحا بعد

يا سعد زدنى جوى بذكرهمُ ... بالله قل لى فديت يا سعد

ولم يزل يرّددها والانفعال قد أثر فيه والبكاء كاد يمنعه من الكلام فنزل عن

المنبر دهشا . وقد أطار القلوب وجلا . وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالدموع . فمن معلن بالانتحاب . ومن متعفر فى التراب . فياله من مشهد ما أهول مرآه . وما أسعد من رآه — وما كنا نحسب أن متكلما فى الدنيا يعطى من ملكة[1] النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل الذى يضيق الوجود عن مثله ، فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من وعاظ الغرب — وكذا قد شاهدنا بمكة والمدينة مجالس لجلة من كبار العلماء من خراسان وغيرها فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ — فسبحان من جعله عبرة لأولى الألباب — فهذا يبين لك كيفية وعظ الأولين ومبلغ اعتناء المتقدمين من كبار العلماء بإرشاد الناس وتذكيرهم و إقبال الأمة والأمراء عليهم . والانتفاع بهم . و يدلك على منزلتهم من العلم . ومكانتهم من النصح والتذكير . وأنهم بحق أحكموا وسائل التأثير فى النفوس . و برعوا فى الاستيلاء على القلوب . وأنهم كانوا يغترفون نصائحهم من مناهل الكتاب والسنة . وقد ساعدهم على هذا الفوز العظيم أنهم كانوا على جانب كبير من التقوى وصالح العمل . متجملين بالعفة والزهد والورع ، ومتكملين بالقناعة ومكارم الأخلاق « إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » .

فبمثل مقامات هؤلاء الأجلاء . المباركين الأولياء ، ترحم العصاة ، وتقلع الجناة وتستدام العصمة والسلامة ، وتسعد الأمم فى الدنيا والآخرة . والله تعالى أسأل أن يجازى كل ذى خير خيراً ، و ينقذ ببركة العلماء العاملين عباده العاصين ، من سخطه وغضبه برحمته وكرمه ، إنه المنعم الكريم الرحمن الرحيم .

---

(١) الملكة محركة مصدر كالملك أى الاستيلاء عليها بقوة روحه فى العظة .

الفصل السابع

آداب الداعى

قد عرفت أن الدعوة إلى الله فى الأصل عمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأن السادة العلماء نواب عن الأنبياء فى هذا الأمر الخطير فهم أمناء الله تعالى على شرعه والحافظون لدينه القويم ، والقائمون على حدود الله ، والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتنزيه .

لذلك كانوا أئمة الناس وقادة الخلق يسيرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم وبما يرشدونهم إليه من التحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة ، اعتقد الناس فيهم ذلك وأملوهم له . فأحلوهم من أنفسهم محلا لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا فى قلوبهم مكانة يغبطون عليها وربحوا منزلة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل ، وناهيك بقوم إذا فعلوا لحظتهم العيون ، وإذا قالوا صغت إليهم الآذان ووعت القلوب وحكت الألسنة . فهم مطمح الأنظار وموضع الثقة ، والحجة البالغة ، والبرهان القاطع ، والنور الساطع للناس أجمعين « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » دعا إلى توحيده وطاعته وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه واتخذ الإسلام دينا ونحلة[1] .

حقاً ليس أحد أعظم شأناً وأسعد حالا ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لله تعالى ، عارفاً به عاملا بالخير داعياً إليه وما هم إلا طبقة العالمين العاملين الدعاة إلى الله عز وجل ، من ذوى القلوب الحية ، والإيمان الصادق والإخلاص الصحيح .

ولا ريب أن الله تعالى ربط سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة بالوقوف عند

---

(١) والآية تشير إلى أنه ينبغى للداعى أن يكون صحيحاً فى دينه مهذباً مستقيما عاملا بعلمه ليكون الناس إليه أسكن وإلى قبول دعوته أقرب .

حدوده — وامتثال أوامره — واجتناب نواهيه — وأنه بمقدار وقوف العبد عند حد الآدب مع مولاه يكون حظه من تلك السعادة — وغنى عن البيان أن السادة العلماء قد انفردوا بفهم الأوامر والنواهى ، ومنهم وحدهم يتعلمها سائر الناس . وأنه بقدر قيام العلماء على حدود الله واتباعهم الأوامر واجتنابهم النواهي يكون اتباع الأمة واجتنابها فاذن سعادة الأمة فى قبضة السادة العلماء إذا صلحوا صلح الناس ، و إذا فسدوا فسد الناس — ومن هنا كانت وظيفتهم خطيرة ومسئوليتهم عظيمة ، وتزداد وظيفتهم خطراً ومسئوليتهم عظما إذا هم تصدوا للدعوة والإرشاد ، لهذا وجب أن تتوافر فى الداعى إلى الله تعالى الصفات الآتية .

الصفة الأولى

إن أول واجب على الداعى العلم بالقرآن والمراد به النظر فيه قبل كل شىء إلى كونه هدى وموعظة وعبرة . وكذلك السنة ، وما صح من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالقدر الكافى من الأحكام ، وأسرار التشريع مع الصدق فى نشرها ؛ فإن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن إلا لمن اتصف بالعلم مع الصدق ، والمرشد وارث لهذه المرتبة وليتمكن من تعليم ذلك على الوجه الصحيح فلا يزيغ فى عقيدة ، ولا يخطىء فى حكم ، ولا يعجز عن إقناع النفوس المتطلعة إلى معرفة أسرار الأحكام الشرعية ؛ فيكون الأذعان له أتم ، والقبول منه أكمل — فأما الجاهل فضال مضل وضره أقرب من نفعه ، وما يفسده أكثر مما يصلحه . بل لا يصلح أصلا إذ لا تمييز لجاهل بين الحق والباطل ولا معرفة عنده ترشده إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس . قال الحسن البصرى رحمه الله : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير ما يفسد أكثر مما يصلح . وفى الحكم : « من سلك طريقاً بغير دليل ضل ومن تمسك بغير أصل زل » ، وأما الكاذب فلا خير فيه ولعنة الله على الكاذبين . لهذا حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم وجعله من أفحش الكبائر فقال تعالى :

« قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله وفى دينه وشرعه . وقال تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ؛ متاع قليل ولهم عذاب أليم » . فقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه ، وقولهم فى شأن ما لم يحله هذا حلال ، وفى شأن ما لم يحرمه هذا حرام . وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام . إلا بما علم أن الله تعالى أحله أو حرمه .

وأصل الآية صد للعرب عن بدع الجاهلية ومذاهبهم الباطلة التى كانوا عليها بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك . ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان رسله . والكذب منصوب بلا تقولوا وهذا حلال وهذ حرام بدل منه واللام بمعنى فى وما موصولة — والمعنى ولا تقولوا الكذب فى شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم : « ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » . من غير استناد ذلك الوصف إلى شرع — وهو تشريع عام لجميع المكلفين فى كل ما يتعلق به الحكم بالحل والحرمة إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فحق المرشد أن يدع التكلف لما لا يحسن فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى إليها ولا حد يقف عنده ، ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل و يضل — وقد روى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » ، وقال بعض الحكماء : من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم .

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . روى أن رجلا قال : يا رسول الله أى البقاع خير وأى البقاع شر ؟ فقال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » . روى من عدة طرق . وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه « من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم » ، وقال سيدنا على رضى الله عنه : وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وأن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله . أى هلك من ترك لا أدرى . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدرى عُلِّم فدرى . ومن انتحل ما لا يدرى أهمل فهوى : اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن إنك الجواد الكريم .

الصفة الثانية

العمل بعلمه فلا يكذب فعلُه قولَه ولا يخالف ظاهرُه باطنَه بل لا يأمر بالشىء ما لم يكن هو أول عامل به ، ولا ينهى عن الشىء ما لم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويثمر إرشاده . فأما إن كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه فهو بحاله هذه عقبة فى سبيل الإصلاح ، وهيهات هيهات أن ينتفع به فإنه فاقد الرشد فى نفسه فكيف يرشد غيره . قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ؛ فإن من حث على التحلى بفضيلة وهو عاطل منها ، أو أمر بالتخلى عن نقيصة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية فى نظر العقلاء : فإن من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس منه واستهزؤا به واتهموه فى دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه

فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به . كذلك الداعى إذا خالف فعله قوله . أما الائتمار بما سيأمرهم به أولا والتخلق بما يدعو إليه فهو أوقع فى نفوس السامعين وأقرب إلى إذعان الراغبين . ولذا كان بعض الدعاة لا يذكر لهم فى فضائل العتق حتى أمكنه الله تعالى من شراء رقيق فأعتقه فذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى يكون له تأثير فى قلوبهم . ومن لم يكابد الليل وسهره وقيامه فكيف يُسمع منه فضل من أقامه وأحياه — لما عرفت أن الدعوة إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق تربية ، والتربية النافعة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لا بمجرد القول يرشدك إلى هذا حديث الحلق فى الحديبية فإن الصحابة رضى الله عنهم لم يمتثلوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم به حتى حلق هو أولا فاقتدوا بفعله أجمعين . وهذا سر عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فالداعى من المدعو يجرى مجرى الطابع من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع نحو الطين على الطابع بما ليس منتقشاً به كذلك محال أن يحصل فى نفس المدعو ما ليس بموجود من الداعى فإذا لم يكن الداعى إلا ذا قول مجرد من العمل لم يكن نصيب المدعو منه إلا القول — وأيضاً — فمثل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل فكما أنه محال أن يعوج العود ويستقيم الظل كذلك محال أن يعوج المرشد ويستقيم المسترشدون — قال حجة الإسلام الغزالى رحمة الله تعالى عليه فيما كتبه إلى أبى حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلا له لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ، وفاقد النور كيف يستنير به غيره . ومتى يستقيم الظل والعود أعوج . ولذا قيل فى المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُسمع ما تقول ويُشتفى   بالقول منك وينفع التعليم

وقال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب

أفلا تعقلون » فهذا توبيخ لأحبار اليهود على سيرتهم المعوجة في الإرشاد فإنه لا شك أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح فى العقول إذ المقصود من أمر الناس بها إما النصيحة أو الشفقة وليس من العقل أن ينصح الإنسان للغير أو يشفق عليه ويهمل نفسه ، فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا القول وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » تعجيب للعقلاء من هذا المسلك المعيب وللتعجيب وجوه .

منها أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إرشاد الغير إلى الخير وتحذيره من الشر وإرشاد النفس إليه وتحذيرها منه مقدم بشواهد العقل والنقل أما العقل فبديهى . وأما النقل فكثيرة ، منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » وعن سيدنا إبراهيم : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» فمن وعظ غيره ولم يتعظ فكأنه أتى بما لا يقبله العقل السليم ولهذا قال أفلا تعقلون .

ومنها أن هذا الوعظ يصير سبباً للمعصية لأن الناس يقولون : لولا أن هذا الواعظ مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات لما أقدم على المناهى فيكون داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعاصى وهذا مناف للغرض من الوعظ فلا يليق بالعقلاء .

ومنها أن غرض الداعى ترويج كلامه وتنفيذ مرامه فلو خالف إلى ما نهى عنه صار كلامه بمعزل عن القبول وهذا تناقض لا يليق بالعقلاء ، وفى مثل هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم فى الصورة أدِلّاء وفى الحقيقة قطاع طرق .

فالآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره

وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الذى لا عقل له فإن أمر الغير بالخير مع حرمان النفس منه مما لا يتفق وقضية العقل — والمراد بها حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتكمل غيرها . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » فهذا وعيد شديد من الله لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو فى نفسه مقصر كمن يكذب فى قوله أو يخلف ماوعد . وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » . متفق عليه — تندلق بالدال المهملة تخرج . والأقتاب الأمعاء واحدها قِتب بكسر فسكون وفيه تغليظ العقاب للمرشد الذى يخالف فعله قوله . وعن أنس رضى الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء ياجبريل فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » رواه ابن حبان فى صحيحه . وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم وأنه قدوة فيزل بزلته كثيرون ولذا قيل : زَلة العالِم زلة العالَم فنى الخبر « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . وذلك أن أتباعهم اقتدوا بهم فى السوء فلزم أن ينالهم مثل عقاب أتباعهم . قال تعالى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » وجملة الأمر أن من فتح لغيره باب الشر وسهل له الدخول فيه فقد عظم عذابه ، وكذلك من دعا غيره إلى خير وأمره بالمعروف وسهل له طريقه فقد عظم قدره وحسن جزاؤه عند الله تعالى » أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مَثل الذى يُعَلم الخير ولا يعمل به مَثَل الفتيلة تضىء للناس وتحرق

نفسها » رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى برزة بسند حسن وقال أبو الدرداء : « ويل للجاهل مرة وويل للعالم سبع مرات » ولذلك قال سيدنا على رضى الله عنه : قصم ظهرى رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه . وقال حكيم : أفسد الناس جاهل ناسك ، وعالم فاجر ، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه ، وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه .

وعلى الجملة فحق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ . ويبصر ثم يبصّر . ويهتدى ثم يهدى ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد . ومِسَنّا يستحد ولا يقطع وسراجاً يضىء للناس ويُحرق نفسه . فمن الحكم المأثورة « مثل العالم الذى يعلم الناس وهو غير عامل كشمعة موقودة تضىء للناس وتُحرق نفسها . بل يكون كالشمس تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده . وكالنار تحمى الحديد ولها من الحَمْو أكثر مما تفيد. وكالمسك يطيب غيره وهو طيب فى نفسه . ويجب ألا ينقض مقالَه بفعاله. ولا يكذب لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » وبالله تعالى التوفيق .

الصفة الثالثة

الحلم وسعة الصدر : فكمال العلم فى الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب فيستطيع أن يعالج أمراض النفوس وهو هادىء النفس مطمئن القلب لا يستفزه الغضب ولا يستثيره الحمق فتنفرُ منه القلوب وتشمئز منه النفوس وحسبك فى هذا قول الله تعالى لإمام الداعين صلوات الله وسلامه عليه « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » فلو كان الداعى سىء الخلق جافياً قاسى القلب فأغلظ لهم فى القول تفرقوا عنه وانصرفوا من حوله فحرموا الهداية بأنوار دينهم فعاشوا وماتوا جهلاء وذلك هو الشقاء وهو سببه وعلته .

الشجاعة حتى لا يهاب احداً فى الجهر بالحق ولا تأخذه فى نصرة الله لومة لائم ففى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » متفق عليه . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُودع منهم » رواه الحاكم وقال صحيح الأسناد وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مراً . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال يرى أن لله عليه مقالا ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول خشيةُ الناس فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى » . رواه ابن ماجه ورجاله ثقات . والمراد بالخشية فيه مجرد رهبتهم مع القدرة .

— فإن كان جبانا ضعيف القلب عجز عن الأخذ بناصر الحق وتغيير المنكر وتقرب إلى الناس بأنواع المداهنة وتودد إليهم بضروب الملق — وما هكذا تكون الأطباء ولا اللائق بقادة الأمم — الطبيب الرحيم هو الذى إذا عرف نوع المرض فى أى شخص كان بادر إلى علاجه بما يستأصله حرصاً على سلامة المريض وهو لا يبالى بكراهة المريض للدواء وتألمه من العلاج . فأما إذا عمل لذلك حسابا وتساهل مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فانه غاش لا ناصح وسفيه لا حكيم .

والمداهنة السكوت على المنكر لداعى الهوى لا الدين فإذا سكت العلماء على المنكرات لداعى الدين كأن يكون فى الإنكار محذور يزيد على محذور السكوت سمى سكوتهم مداراة وهى مطلوبة شرعا فى الحديث المشهور . داروا سفهاءكم

— والملق الود واللطف . وملق من باب طرب ورجل مَلِقٌ يعطى بلسانه ما ليس

فى قلبه ، وتَمَلَّقَه وتملَّق له تملقا وتملّاقا بالكسر تودد إليه وتلطف له .

وعلى الداعى فى مقام الحجة على الخصم أن يذكر حجته خالية من السب والشتم وأنواع الغلظة إذ لو اشتملت على شىء من هذا لجاز أن يقابل بمثله كما قال تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْوا بغير علم » و يشتد الغضب وتقع النفرة .

و يمتنع حصول المقصود من الدعوة — أما ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالى عن السب والشتم و الإيذاء فإنه يجذب القلوب و يستميل الطباع إلى قبول الدين الحق والاستماع إلى النصح . و بذلك يصل الداعى إلى المقصود ألا ترى قوله جل وعلا : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا . » فإنه تعالى أمر المؤمنين على لسان سيد الداعين أن يقولوا عند محاورتهم مع المشركين الكلمة التى هى أحسن ولا يخاشنوهم كقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ثم علل ذلك الأمر بأن الشيطان يفسد بينهم و يُهيِّج الشر والمراء ويُغرِى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشادة وقد يفضى ذلك إلى تأكد العناد وتمادى الفساد . فإن الشيطان عدو قديم للانسان ظاهر العداوة ينتهز الفرص لإثارة الفتن — ومثال الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا لهم ربكم أعلم بحالكم إن يرد الإحسان بكم أحسن إليكم بالتوفيق للايمان وصالح العمل . أو إن يشأ يعذبكم بالإماته على أسوأ الأحوال . يقولون لهم مثل ذلك ولا يصرحوا بأنهم من أهل النار و بئس القرار فإنه مما يثير الشر مع أن العاقبة لا يعلمها إلا الله وحده فيجوز أن يختم لهم بخير — وما أرسلناك عليهم موكولا إليك أمورهم تكرههم على الإيمان و إنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فلاطفهم ومر أصحابك والمؤمنين بالملاطفة والملاينة ولا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم فى القول . والمقصود من كل هذا إظهار اللين والرفق بهم فى مقام الدعوة إلى الله تعالى والإرشاد إلى الخير فإن ذلك أقرب إلى النجاح وحصول المقصود .

الصفة الخامسة

العفة واليأس مما فى أيدى الناس فمن يئس مما عند الناس استغنى عنهم فيبقى سيداً محبوباً جليلا مهيباً ينتفع به — أما إن كان غير عفيف وتطلع إلى ما فى أيدى الناس فقد باع دينه بدنياه وصار لديهم محقراً ممقوتاً ثقيلا مرذولا ، وهان عليه كل ما يلاقيه من أنواع الذلة والإهانة فى سبيل الحصول على ذلك الحطام الفانى . وهذا بلا ريب هو السقوط الذى لا خلاص منه والفقر الذى لا غنى معه فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله أوصنى وأوجز فقال : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه » . رواه العسكرى والحاكم وغيرهما وصحح إسناده وقال أبو سعيد الحسن البصرى رحمه الله : لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع فى دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه . وقال أعرابى لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا الحسن . قال : بم سادكم ؟ قالوا احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو دينارهم . فقال ما أحسن هذا .

وبالجملة فواجب الداعى نزاهة النفس عن شبه المكاسب . والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب . فإن شبه المكتسب إثم . وكد الطلب ذل . والأجر أجدر به من الإثم . والعز أليق به من الذل . وما أحسن قول على بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى :

يقولون فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى[1] ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا مَنْهَلٌ[2] قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

(١) استفزه واستخفه وأخرجه من داره وأزعجه .
(٢) مورد وهو عين ماء ترده الإبل فى المراعى .

أُنَهْنِهُهَا[1] عن بعض مالا يَشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل[2] فى خدمة العلم مهجتى ... لاخدُم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا[3] ... محياه بالأطماع حتى تجهما[4]

على أن العلم عوض من كل ذلة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بداً منه . نسأل الله الكريم أن يغنينا بفضله عمن سواه .

الصفة السادسة

القناعة فى الدنيا والرضا منها باليسير فإن كان حريصاً على الدنيا منهمكا فى طلبها كانت حاله هذه داعية الترغيب فى حبها « وحب الدنيا رأس كل خطيئة » وبذلك يكون مفسداً لامصلحاً وضاراً لانافعاً . وما هكذا تكون الدعاة إلى الله تعالى . كان محمد بن واسع البصرى رحمه الله يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . ولذا قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غماً الحسود وأهنأهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وقال سفيان الثورى العالم طبيب هذه الأمة والمال داؤها فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره ؟ والعِيان أصدق شاهد على ذلك فإنك ترى أنه على قدر قناعة العلماء فى الدنيا تكون مكانتهم فى نفوس الناس والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والانقياد لإرشادهم

---

(1) نهنهه عن الأمر فتنهنه كفه وزجره فكف . (2) الابتذال ضد الصيانة والبذلة بالكسر مالا يصان من الثياب والمهجة الروح . (3) الدنس محركة الوسخ دنس الثوب والعرض والخلق كفرح دنس دناسة فهو دنس اتسخ ودنس ثوبه وعرضه تدنيساً فعل مايشينه به .

(4) رجل جهم الوجه كالح الوجه وجهمه كمنعه لقيه بوجه كالح كتجهمه أو جهم كسهل صار باسر الوجه أى كالح والجهام بالفتح السحاب الذى لاماء فيه .

وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعدم الثقة بهم واتهامهم والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولا ولا يقبلون منهم نصيحة .

الصفة السابعة

قوة البيان وفصاحة اللسان وإلا كان النفع بعيداً بل كان مثال الخزى والعار على الإرشاد وأهله فإن مدار الأمر على البيان والتبيين والإفهام والتفهيم . وكلما كان اللسان أبين كان أقوى وأجمل . كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد وأكمل . وقد سألها موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والافصاح عن أدلته . فقال حين ذكر العقدة التى كانت فى لسانه ، والحُبسةَ التى كانت فى بيانه (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) الحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته . وقال : (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى) وقال (ويضيق صدري ولا ينطلق لسانى) رغبة منه عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة . لتكون الأعناق إليه أميل . والمعقول عنه أفهم . والنفوس إليه أسرع . فان خصمه فرعون كان مشاغباً سباباً مذهب كل جاحد معاند . وشأن كل مختال مكايد كما أخبر الله تعالى عنه بقوله (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى ضعيف حقير لا يكاد يبين الكلام . قاله افتراء عليه وتنقيصاً له فى أعين الناس باعتبار ما كان فى لسانه عليه السلام ؛ من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) وذكر الله عز وجل عظيم منته فى تعليم البيان . وجميل نعمته فى تقويم اللسان . فقال (الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان) أى مكنه من التعبير عما فى ضميره لإفهام الغير ، كما مكنه من فهم بيان غيره ، وضرب لنا مثلا لعى اللسان ورداءة البيان حيث شبه أهله بالنساء والولدان فقال (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) أى أوَ جعلوا له تعالى مَن شأنه أن يربى فى الزينة وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه

وهو مع هذا القصور فى الجدال الذى لا يكاد يخلو عنه إنسان فى العادة غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه لقبح مايحدث عن العى من اختلال الحجة ، وعن الحصَر من فوت درك الحاجة — وأصل البيان جمع الفصاحة فى اللفظ والبلاغة فى المعنى . وقال الزمخشرى : هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، والعى ضد البيان والحصَر كالفرح ضيق الصدر عند النطق ؛ وبالجملة فقوة البيان وفصاحة اللسان من جلائل نعم الله تعالى على الداعى ، بهما يملك القلوب ، وبهما يؤثر فى الأرواح .

الصفة الثامنة الإلمام بما يأتى

١ — العلم بحال من توجه إليهم الدعوة فى شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم أو مايعبر عنه فى العرف بحالهم الاجتماعية . وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة خلافة أبى بكر كونه أنسب العرب ومعناه أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة والجبن والأمانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر . وما كان إقدامه — مع ماعرف به من اللين وسهولة الخلق — على قتال أهل الردة إلا لهذا العلم الذى كان به على بصيرة فلم يهب ولم يخف وقد خاف عمر مع شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين أى خاف أن تضعف شوكة الإسلام بمحاربتهم . حتى قال أبو بكر : والله لو منعونى عقالا مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . فهذه قوة العلم لا قوة الجهل — ولك أن تقول إن العلم الخاص بحال من توجه إليهم الدعوة من هذه الوجوه لابد أن يكون فرعاً للعلم بهذه العلوم فى نفسها كما سيتبين ذلك .

٢ — علم التاريخ العام ليعرف الفساد فى العقائد والأخلاق والعادات فيبنى دعوته على أساس صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير ، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعوين من حال إلى حال . ولهذا كان القرآن

الحكيم مملوءا بعبر التاريخ ، والجاهل به لا يصلح أن يكون داعياً إلى الإسلام ولا مرشدا فى الأمور العامة على الوجه الذى يرجى قبوله ونفعه .

٣ — علم النفس الباحث عن قوى النفس وخواطرها وميولها وتصرفها فى علومها وتأثير علومها فى أعمالها الإرادية . مثال ذلك أن الأصل أن يكون العمل تابعاً للعلم ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أن عمل كذا ضار ويأتونه ، وعمل كذا نافع ويتركونه (والمحرم شرعاً كله ضار والحلال كله نافع) فما سبب ذلك ؟ وهل يُحسن دعوة هؤلاء إلى الخير وإقناعهم بترك الشر من لا يعرف لماذا تركوا الخير وارتكبوا الشر ؟ فهذه المعرفة هى من علم النفس الذى يؤخذ منه أن من العلم ما يكون ملكة راسخة للنفس حاكمة على إرادتها مصرفة لها فى أعمالها ، ومنه ما يكون صورة تعرض للذهن لا أثر لها فى الإرادة فلا تبعث على العمل وإنما يكون مظهره القول أحيانا — وعلم النفس يساوى علم التاريخ فى المكانة والفائدة — وقد كان الصحابة على حظ عظيم من هذا العلم فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم وبما هداهم القرآن بآياته والرسول ببيانه وسيرته على بصيرة من علم النفس وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية ، فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له أو أرسخ — يدل على هذا ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به فى الدعوة وظهروا به فى مواطن الحجة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

٤ — علم تقويم البلدان ليُعد الداعى لكل بلاد عدتها إذا أراد السفر إليها وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان والجغرافية . ولذا أقدموا على الفتوحات ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل ، فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقعاً للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم . ومن درس ما حفظ من خطبهم وكتبهم التى كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم فى تدبير الأعمال يظهر له ذلك جليا .

٥ — علم الأخلاق الذى يبحث فيه عن الفضائل النفسية وكيفية تربية المرء عليها وعن النقائص وطرق توقيه منها وهو لازم لرجال الدين وللدعاة ألزم ، كى يستطيعوا معالجة النفوس وتهذيبها — وما ورد فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار الصحابة والتابعين يغنى بشهرته واستفاضته عن إطالة الكلام فيه .

٦ — معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للداعى بيان ما فيها من الباطل فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، و إن دعاه إليه ، ومن لم يقف على ما عند الناس من المذاهب والتقاليد الدينية لا يستطيع أن يخاطبهم على قدر عقولهم ، كما كان شأن سادة الدعاة ، عليهم الصلاة والسلام .

٧ — العلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها ، وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل اليهود الذين كانوا مجاورين له . فمن زيد بن ثابت « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبى صلى الله عليه وسلم ، كتبه وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه ».وقال أبو جمرة : كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس على أنهم قد استعربوا فما كان معرفة لغتهم الأصلية إلا مزيد كمال فى الفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم ، ولا يقال يمكن أن يستغنى الداعى عن تعلم لغات الأمم بالمترجمين من غير المسلمين ، فأنه إن ظفر بالترجمان الأجنبى الأمين لا يتيسر لها أن تفهم من حقيقة الدين عند الترجمة مايتيسر لهاعند مشافهة الداعى لها بلغاتها ، فالواجب أن يكون فى كل جماعة تبعث للدعوة من المسلمين العارفين باللغات من يكفيها شر الحاجة إلى ترجمة الأجنبى كما تفعل جمعيات الدعوة إلى النصرانية فإن أفراداً منهم يتعلمون لغات جميع الأمم ، فتراهم ينقلون إليها كتبهم ونشراتهم الدينية و يتخاطبون بها مع الناس ليتمكنوا بذلك من بلوغ غايتهم المقصودة .

٨ — علم الاجتماع الذى يبحث فيه عن أحوال الأمم فى بداوتها وحضارتها ،

وأسباب ضعفها وقوتها وتأخرها وتقدمها على نحو ما فى مقدمة ابن خلدون — وهذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الأخلاق ، فمن كان له حظ عظيم منهما ، وكان صحيح العقل واسع الإدراك فإنه قد يستغنى عن هذا العلم فى بناء الدعوة والإرشاد على قواعد الحكمة والسداد ، وإن كانت دراسته مزيد كمال فيه وفى فوائده العظيمة — وعلى الجملة يلزم أن يكون الداعى عالماً بأحوال الناس خبيراً بأمراض الاجتماع ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه ، فإن كان يجهل أحوال الناس وعللهم أخطأ كثيراً فى إصلاح القلوب وعلاج النفوس وكان كمتطبب جرب دواء فى مرض خاص فنجع فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض ، وخطر ذلك على الأبدان جسيم فكذا على القلوب .

الصفة التاسعة

قوة الثقة بالله تعالى فى وعده وكمالُ الرجاء فى حصول الفائدة ، مهما طال به العلاج وعظمت المصاعب ؛ فإنهَ متى تمكن ذلك من نفسه انبعثت همته وقوى نشاطه وتنبه إلى انتهاز كل فرصة بما يناسبها موقناً بأنه لم يظهر تأثيره اليوم ، فغدا يظهر مؤمناً بأن الباطل زهوق ، ولا بد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل ، فإن دولة الباطل مؤقتة لا ثبات لها فى ذاتها وإنما بقاؤها فى نوم الحق عنها ، ودولة الحق هى الثابتة بذاتها فلا يُغلب أنصاره ماداموا معتصمين به مجتمعين عليه . قال الإمام على رضى الله عنه : لاقيام للباطل إلا فى غفلة الحق .

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه سيد الداعين إلى الله تعالى ؛ لم يثن عزمه عن الدعوة إلى الله تعالى عنادُ أهل الغنى والضلال والعناد ، ومقابلتُهم له بالإنكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين المخلصين ، بل ثابروا عليها ، وفى نهاية الأمر كان الظفر لهم . والنصر حليفهم ، وحقق الله تعالى لهم ما وعد ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وجملة الأمر أنه لا يليق بالداعى أن ييأس من الإصلاح إن لم يؤثر عمله لأول مرة ، بل عليه

أن يكرر النصيحة والعظة المرة بعد الأخرى ألا ترى دعاة الباطل يثابرون على نشره بين المسلمين بنشاط لايعرف الملل . ورجاء لايعتريه اليأس . وإن لم يحصلوا من سعيهم الآن على طائل مع مايقاسون من الشدائد ومايتحملون من المشاق فى سبيل الدعوة إلى النصرانية كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض . يصف له الدواء على قدر الداء فإن لم يفد وصف له غيره وهكذا حتى يتم البرء ويصل بالمريض إلى ساحل السلامة . فالقلوب القاسية بتكرير النصيحة والتذكير بالعواقب تلين إن شاء الله تعالى بعد صلابتها قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

الصفة العاشرة

التواضع ومجانبة العُجْب : فذلك بالدعاة والمرشدين أليق ، ولهم ألزم ، لأن التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالمرشدين أقبح ، لأن الناس بهم يقتدون ، وكثيراً ما يداخلهم الإعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجَب العلم لكان التواضع بهم أولى ، ومجانبة العُجب بهم أحرى ، لأن العجب نقص ينافى الفضل ، لاسيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » فلايفى ماأدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب ، وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما إذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه » وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مانقصت صدقة من مال ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزا وماتواضع أحد لله إلارفعه الله » وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ثعلبة حين ذكر آخر هذه الأمة وماتؤول إليه من الحوادث : « إذا رأيت شحا مطاعاً وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك » رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبرانى فى الأوسط . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه

وجدنا الكرم فى التقوى والغنى فى اليقين والشرف فى التواضع . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به . وسُئل الفضيل عن التواضع فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل ، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل .

وعلة إعجابهم التفات نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء ، فإنه ليس متناه فى العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه ، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر ، قال الله تعالى « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » أى فى العلم ، قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى . فينبغى لمن علم أن ينظر إلى نفسه بتقصير ماقصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وفى منثور الحكم : إذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء . قال ابن العميد :

من شاء عيشا هنيئاً يستفيد به فى دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدبا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجباً وبما أدركه منه مفتخراً إلا من كان مقلا فيه ومقصراً ، لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال منه أكثره ، فأما من كان فيه متوجهاً ومنه مستكثراً ، فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصده عن العجب به . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

الصفة الحادية عشرة

أن لا يبخل بتعليم ما يحسن ، ولا يمتنع من إفادة ما يعلم ، فإن البخل به ظلم ولؤم والمنع منه حسد وإثم ، وكيف يسوغ للمرشدين البخل بما مُنِحوه جوداً من غير بخل وأوتوه عفواً من غير بذل ؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما لو بذلوه لزاد ونما ، وإن كتموه تناقص ووهى ؟ ولو استن بذلك من تقدمهم ما وصل العلم إليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم ، ولصاروا على مرور الأيام جهالا ، وقد قال الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فإن فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم . ثم قرأ : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

نزلت فى أحبار اليهود والحكم عام كما تدل عليه الأخبار فقد روى البخارى وابن ماجه وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « لولا آية فى كتاب الله تعالى ما حدثت أحداً بشىء أبداً» ثم تلا هذه الآية . والكتم والكتمان ترك إظهار الشىء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره . والبينات الواضحة الآيات الدالة على الحق ، ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى فى أمر محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، والهدى كل ما يهدى إلى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، وهى الآيات الشاهدة على صدقه عليه الصلاة والسلام ، والعطف باعتبار التغاير فى المفهوم ، ويلعنهم الله يُبعدهم عن رحمته ، ويذيقهم أليم نقمته ، ويلعنهم اللاعنون يدعو عليهم بالابعاد عن رحمة الله كل من يتأتى منه اللعن من الملائكة والثقلين — والآية كما ترى تدل على وجوب إظهار علم الشريعة وحرمة كتمانه .

وفى الصحيح من عدة طرق أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليبلغ الشاهد

منكم الغائب » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار » . أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة وقال حسن . وأخرج أبو يعلى والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » وروى عن على رضى الله عنه أنه قال : ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء : إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وفى منثور الحكم : من كتم علماً فكأنه جاهله .

ثم له بالتعليم نفعان : « أحدهما » ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال : « تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده » . وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا العلم وعلموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء . قيل وما أجرهما ؟ قال مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة » « والنفع الثانى » زيادة العلم و إتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها لما ليس عندك . وقال ابن المعتز فى منثور الحكم : النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطبا . كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فإياك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء : علِّم علمك ، وتعلم علم غيرك ، فإذن أنت قد علمت ما جهلت . وحفظت ما علمت . و بالجملة فنشر العلم أعظم للأجر وأرفع للذكر وأرسخ للمعلوم . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه : « يا على لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس » . رواه غير واحد . والله تعالى ولى التوفيق .

الصفة الثانية عشرة

الوقار والرزانة بالإمساك عن فضول الكلام ، وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه ، والإصغاء عند الاستفهام ، والتوقف عند الجواب وعدم

التسرع والمبادرة فى جميع الأمور ، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والقبيح والمزاح السخيف وخاصة فى المحافل ومجالس المحتشمين ، فلا كرامة لمبتذل ، ولا عظمة لمن يسرف فى المزاح ويفحش فيه ، والإقلال من البروز من غير حاجة والترفع عن الجلوس فى الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة ، فإن الإكثار من ذلك مخل بكرامته وأعظم الناس قدراً عند الخلق من ظهر اسمه وخفى شخصه . وإجمالا يجب على المرشد أن يتحلى بالسكينة والوقار فى جميع أحواله حتى فى مشيته وكلامه فذلك مكسب للهيبة والإجلال لدى الناس وأدعى إلى الانتفاع به .

الصفة الثالثة عشرة

أن يكون كبير الهمة عالى النفس يستصغر ما دون النهاية من معالى الأمور . ويترفع عن الدنايا ويغضب عند الإحساس بالنقص . ويغار لانتهاك الحرمات ليتحقق فيه مقام الوراثة ، فإنه مصلح داع إلى الله تعالى ، ومن كان كذلك انتقلت صفاته هذه إلى نفوس السامعين . ومعلوم أن كل إنسان يجذبه طبعه وتحمله جبلته أثناء عمله إلى ما يميل إليه وينطوى عليه . ومقام الدعوة إلى الله تعالى أحوج شىء إلى ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ، فكلما كان الداعى أقوى نفساً وأعلى همة كان فى ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص فى ذلك نقص من تأثيره فى نفوس السامعين .

الصفة الرابعة عشرة

الصبر فى مقام الدعوة إلى الله تعالى فهو وصف الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومدار نجاحهم فيها ، ولن تسعد بها كما سعدوا وتظفر فيها كما ظفروا إلا بالصبر والثبات ، ومتى فقدت الصبر والثبات كنت كمن أراد السفر فى البحر فى غير مركب .

قال تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

لا يستخفنك لا يحملنك على الخفة والقلق الذين لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها و إيذائهم لك بأباطيلهم فإنهم ضالون جاحدون ولا غرابة فى صدور أمثال ذلك منهم — فانظر كيف أمره تعالى بالصبر على ما يلقاه منهم من الأقوال المؤلمة والأفعال السيئة ، وقد وعده النصر و إظهار الدين و إعلاء الحق ، ولابد من إنجازه والوفاء به ، ونهاه صلوات الله وسلامه عليه عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنهم — و إجمالا أوجب عليه المثابرة على الدعوة إليه سبحانه وحرم عليه القلق والضجر بما يناله منهم .

وقال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون »

رفع منزلتهم وجعلهم قادة يرشدون الشعب الإسرائيلى إلى ما فى التوراة من دين الله وشرائعه ، لما صبروا فى مقام الدعوة إلى الخير على مقاساة الشدائد ، وكانوا على يقين تام وإيمان صحيح بآيات الله تعالى ، فكانوا كاملين فى أنفسهم قائمين بتكميل الناقصين ، جامعين بين العلم والعمل .

وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .

أمره تعالى بالثبات فى مقام الدعوة إليه ، والصبر على ما كان يصيبه فى الله من أذى المكذبين الجاحدين من قومه ، والاقتداء فى هذا الثبات بأرباب الجد والصبر على القيام بأمر الله من رسله الذين لم يضعف من عزائمهم فى مقام الإرشاد ما كان ينزل بهم من ضروب الأذى ، وأنواع الشدائد والمحن — ونهاه عن الدعاء على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة و إن تأخر .

ولا يختص الصبر بعدم استعجال الفائدة قبل وقتها ، بل الصبر على الإيذاء الذى يبتلى به الدعاة دائماً آكد وألزم ، وفضله أعلى وأعظم « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

أى إذا كملت نفسك بعبادة الله فكمل غيرك واصبر على ما ينزل بك من

الشدائد والمحن ، لاسيا فيما أمرت به إذ كل ما ذكر مما عزمه الله وقطعه وأوجبه على عباده من الأمور — ومع هذا فهى من مكارم أهل الأخلاق الفاضلة وعزائم أهل الحزم السالكين طريق الفلاح .

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » مواعيده « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » مايسكن به قلبك . وبالجملة فقد احتمل صلوات الله وسلامه عليه فى دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد والأذى وما كان شىء من ذلك يضعف من عزيمته أو يسبطه من دعوته . فكذلك الداعى إلى الحق يجب عليه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ويواصل السير فى سبيله مهما لاقى من صعاب وناله من أذى .

الصفة الخامسة عشرة

التقوى والأمانة والتحرزُ بطاعة الله تعالى عن مساخطه ، فإنها صفة المورّث الذى هو خلف عنه ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » فالعمل بمقتضى الدين يورث ملكة العلم والحكمة وبهما ينال الخير والسعادة .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : «اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » . رواه مسلم ، فلا يصح أن يكون فاسقاً فى دينه قبيحاً فى سيرته ، فإنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة ، فمتى لم تكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تزَعه[1] عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، بل كان شراً على نفسه وعلى الناس ، وأيضاً فإنه لايقبل قول الفاسق

(١) تزعه تكفه من باب وضع

فى الديانات فتتلاشى على يديه وظيفة الإرشاد ، وناهيك بأنها ولاية شرعية ووظيفة دينية ، والفاسق لا يجوز أن يلى شيئاً من أمور المسلمين ، فلا يكون إماماً ولا قاضياً ولا شاهداً ولا يقدم للصلاة ، ومثله لا يتحامى عن الفتيا بغير علم والعياذ بالله تعالى — رزقنا الله التقوى والاستقامة بمنه وكرمه .

آدابه الكمالية

ويحسن بالداعى أن يتحلى بأمور (منها) الورع باتقاء الشبهات ، والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة ، فإن ذلك أبرأ لدينه وأسلم لعرضه وأهون على الإقبال عليه ، وأدعى إلى الانقياد له لأن حال الداعى يؤثر فى القلوب أكثر من مقاله ، وهكذا كانت صفة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين رضى الله عنهم أجمعين .

فى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بتمرة مسقوطة فقال « لولا أن تكون صدقة لأكلتها » . وقدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال : والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين . فقالت امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك ، قال لا فقالت لم ؟ قال لأنى أخشى أن تأخذيه فتجمليه هكذا « وأدخل أصابعه فى صدغيه » وتمسحى به فى عنقك فأصيب فضلا من المسلمين . وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مسك المسلمين فأخذ بأنفه (سدها بيده) حتى لا تصيبه الرائحة ، وقال : وهل ينتفع منه إلا بريحه قال ذلك لما استبعد ذلك منه وهذا من ورع المتقين . وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه كانت له شاة فأكلت شيئاً يسيراً من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو لشربت ، إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان فهو من المشتبه ،

وقال ابن المبارك رحمه الله لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف .

ومن وقف موقف تهمة فلا يأمن من إساءة الظن به — ولذا منع الشرع من التعرض للتهم . أخرج الزبير بن بكار عن عمر بن الخطاب قال من تعرض للتهمة فلا يلومنّ مَن أساء به الظن ، وأخرج البيهقى فى الشعب عن سعيد بن المسيّب قال كتب لى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ روى عن على بن حسين (زين العابدين) « أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً فى المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال : إنها صفية بنت حيي فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً . فقال إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد و إنى خشيت أن يُدْخِل عليكما » متفق عليه . وفى رواية « إنى خشيت أن يُقْذِف فى قلوبكما شراً » .

فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما من مرور ذلك الوهم فى قلبهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لايتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله فيقول : مثلى لايظن به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه

ومنه يستفاد أنه ينبغى للرجل إذا حدث زوجته أو محرمه على الطريق أن يقول هى زوجى أو محرمى حتى لايتهم ، وأنه ينبغى للإنسان أن يتحرز عن كل ما يوهم نسبته إلى مالا يليق ، وهذا متأكد فى حق العلماء والمرشدين فلا يجوز أن يفعلوا ما يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم مخلص ، لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم وإرشادهم . قال الإمام على رضى الله عنه : إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره . وإن كان عندك اعتذاره .

ومنها محبة الإصلاح والتفانى فى خدمة الدين الحنيف بنشر فضائله بين الناس

ومحاربة البدع والمنكرات بالحكمة والموعظة الحسنة حتى ينهض بهم إلى أوج الفلاح ودرج السعادة ، فإن ذلك من أخلاق الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء والمرسلين ، وصفة قادة الأمم المجاهدين المخلصين — وما أحسن الداعى يحرص على نفع من يريد إرشاده و يبغى الخير له : قال تعالى فى صفة المصطفى صلى الله عليه وسلم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » أى جاءكم رسول من جنسكم عربى مثلكم شديد شاق عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم بالمؤمنين كافة شديد الرحمة — و بقدر امتلاء قلبه بهذا المعنى يكون له من المحبة والقبول فى قلوب الناس ، فالقلوب كالمرايا المتقابلة ينطبع فى أحدها ما ثبت فى الآخر ، أما الخمول المتواكل فانه تكملة عدد وعديم المنفعة .

ومنها التخلق بالخلال الحميدة والشيم المرضية التى أرشد إليها الشرع الشريف . وحث على التحلى بها . كالسخاء ، والجود ، والمروءة ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ ، والسواك ، ونتف الأبط ، و إزالة الروائح الكريهة ، واجتناب الروائح المكروهة ، وتسريح اللحية ، مع المحافظة على أبهة العلم ، ومظاهر العلماء — كل ذلك مما يسهل عليه بلوغ الغاية من الدعوة إلى الله تعالى ، بخلاف التهاون فى هذا ، فانه يقلل من الثقة به و إقبال الناس عليه ، و إمام الدعاة نبينا صلوات الله وسلامه عليه الذى هو وارث له كان على غاية من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

ومنها الإخلاص لله فى العمل ، فلا يطلب على الإرشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا من أحد ، ولا تحصيل جاه أو شهرة أو سمعة ، فان المرشد إنما يكون مقبول النصيحة إذا كان خالياً من الأغراض الدنيوية ، أما إذا كان عمله لشىء من هذه الأغراض فلا أثر لقوله فى قلوب الناس ألبتة ، بل يعمل لوجه الله تعالى وطلبا لمرضاته وحسن مثوبته ، وللتقرب إليه سبحانه بهذه الوسيلة العظيمة اقتداء بإمام المرشدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يرى لنفسه منة على من يرشدهم ،

وإن كانت المنة لازمة عليهم لزوم الأطواق للأعناق ، فانه السبب الأكبر لهدايتهم إلى الحق ، بل يرى الفضل لهم إذ سلموا قلوبهم إليه ليتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة ، فمنفعتك تزيد بها على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك فى إرشاده أكثر من ثوابه عند الله تعالى ، ولولا المسترشد ما نلت هذا الثواب ، وأى عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعقيم لا نسل له ، فيموت ذكره بموته ، ومتى استفيد علمه كان فى الدنيا موجوداً ، وإن فقد شخصه ، كما قال الإمام على رضى الله عنه : العلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة — يريد العلماء العاملين .

وجملة القول أن من قام بالدعوة إلى الله تعالى لشهوة من الشهوات النفسانية فذلك حظه من عمله ، وكان عند الله مذموما قال تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » . أى من كان يقصد بعمله ثواب الآخرة ، شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا نزد له فى ثوابه فنعطه بالواحدة عشرة إلى سبعمائة ، ومن كان يقصد ثواب الدنيا نؤته شيئاً منها على ماقسمنا له مع حرمانه من نعيم الآخرة فالأعمال بالنيات .

وقال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » مدحورا مطرودا ، وسعيها حظها ، من السعى وهو الإتيان بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم ، واللام رمز إلى اعتبار صدق النية ، والأخلاص فى السعى ، ومشكوراً مقبولا عنده تعالى مثابا عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لايتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . يعنى ريحها . رواه الترمذى وغيره بإسناد صحيح : فلايطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال

عز وجل « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله » . فإن المال ومافى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم العلم ، إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الرأس .

يجب علينا أن نؤدى الواجب حباً فى الواجب ، وإطاعة لخالقنا ، وتلبية لضمائرنا وإرضاء لوجداننا ، لا إذعانا لسلطان المادة ، ولا جريا وراء شهوة نحصل عليها أو مغنم نصيبه ، فإن الذين يفعلون الخير لما يرجونه من الخير تجار يبيعون اليوم مايقبضون ثمنه غدا — إنما المثل الأعلى أن يصل المرء من الرقى إلى حد أن يتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلى الناس كما يتلذذ من وصول الخير إلى نفسه — وهذا الشعور الطيب هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الحياة ، وقد حث النبى صلوات الله وسلامه عليه على التخلق به على أبلغ وجه وآكده حيث جعله شرطا للإيمان فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » رواه البخارى — ولنا بالرسل أسوة حسنة فى أن الإنسان يعمل الواجب حبا فى الواجب . فقد أسدى موسى عليه السلام معروفا إلى بنتى الشيخ الكبير : سقى لهما غنمهما وكفاهما مؤنة نزح الماء من البئر ، ولما دعاه الشيخ ليجزيه على معروفه خيراً وقدم إليه طعاما بادره موسى قائلا : نحن أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا . فاعتذر إليه والد البنتين بأن تقديم الطعام لكل قادم إنما هو عادتنا مع أضيافنا ، فقبل موسى عذره ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . (نعم) له كفايته من بيت مال المسلمين عند الحاجة شأن كل من حبس نفسه على مصلحة عامة من مصالحهم .

فينبغى للداعى أن يتحلى بالآداب الشرعية ، والإخلاص فى الدعوة إلى الله تعالى حتى يكون وارثا نبويا ، وعالماً ربانياً ، وأن يعلم أنه لا يجتمع الإخلاص

فى القلب ، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ، إلا كما يجتمع الماء والنار : والضب والحوت — فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا فى الآخرة ، فإذا تم لك ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص ، والذى يسهل عليك ذبح الطمع علمك يقينا أنه ليس من شىء يطمع فيه إلا و بيد الله تعالى وحده خزائنه لايملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه ، والذى يسهل عليك الزهد فى الثناء والمدح ، علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين . ويضر ذمه ويشين . إلا الله وحده ، كما قال ذلك الأعرابى للنبى صلوات الله وسلامه عليه « إن مدحى زين وذمى شين . فقال ذلك الله عز وجل » قطعة من حديث طويل أخرجه ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس . فازهد فى مدح من لا يزينك مدحه ، وفى ذم من لايشينك ذمه ، وارغب فى مدح من كل الزين فى مدحه ، وكل الشين فى ذمه .

ومنها دوام مراقبته لله عز وجل فى سره وعلانيته ، محافظا على الطهارة ، ومواظبا على قراءة القرآن ، ونوافل الصلوات ، والصوم ، وغيرها ، معولا فى كل أموره على الله تعالى ، معتمدا عليه ، مفوضا أمره إليه . قال تعالى « إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » وقال تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وقال تعالى « إن ربك لبالمرصاد » أى لبالمكان الذى يترقب فيه من رصده وهو تمثيل لأرصاده العصاة بالعقاب . وقال تعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » وعن أبى يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » رواه الترمذى وقال حديث حسن . الكيس العاقل المتبصر فى الأمور الناظر فى العواقب ، والعاجز المقصر فى الواجب الذى يأتم بهواه ، فنفسه عبد شهوته ، يقع فى مساخط الله ، و يعلل نفسه بعفوه وسعة رحمته ، وقد كتبها تعالى لغيره ، ودان نفسه حاسبها

وبالجملة يجب على من يتصدى لإصلاح الناس أن يكون حسن الطريقة ، مرضى السيرة ، عنوان الفضيلة ، ومثال الكمال فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، وإلا فهو فتنة فى الأرض وفساد كبير ، حقا لو توفرت فى الداعى صفات الكمال كان من غير شك وارثا نبويا وكوكبا يستضاء به ، حقا لو تحقق الداعى بهذه الصفات سهل عليه أن يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم ، وينقذهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، واستطاع أن يداوى القلوب ، ويهذب النفوس بما أوتى من مهارة وحكمة ، وأمكنه أن يحول بين الأمة وبين الرذائل بسور منيع من زواجره ونصائحه وترغيبه وترهيبه . يقينا لو كان المرشد على ماوصفنا لكان ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به ويهتدون بهديه ، وبحق يستولى على القلوب ويتغلب على الأرواح ويتصرف فيها كما يشاء ، وفى ذلك كفاية والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

آداب الداعى مع السامعين

وهى كثيرة من أهمها ، وهو من دقائق هذه الصناعة ، أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بتلويح فى المقال ، وتعريض فى الخطاب ما أمكن ، فالتعريض فى ذلك أبلغ من التصريح ، فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بالمقصود منه كان أوقع فى نفسه ، وأعظم تأثيرا فى قلبه ، وأدعى إلى التنبه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمة المخاطب بترك المجاهرة بالتوبيخ — وأيضا التعريض لا تُنْتَهَك به سُجُف الهيبة . ولا يرتفع معه ستر الحشمة ، أما صريح التوبيخ والتقريع الشديد العنيف ، فقد يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار والبقاء على ماليم عليه لاسيما النفوس المنطوية على الكبر .

ألا ترى قوله تعالى فى شأن ذلك الرجل الغيور على دين الله والدعاة إليه « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » لما سمع بخبر رسل عيسى عليه السلام ، وإنكار القوم لهم حضر مسرعا ودعاهم إلى اتباع هؤلاء الرسل برفق ولين ، تأليفا لقلوبهم ، واستمالة

لها نحو قبول نصيحته ، ووصف المرسلين بما يرغبهم فى اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوى ، والاهتداء إلى خير الدين والدنيا — ثم أبرز الكلام فى معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » أى أىُّ مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى ، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبىء عنه قوله : « وإليه ترجعون » مبالغة فى التهديد على وجه لطيف — ثم عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد ، وزيادة الإيضاح فقال : « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين » فوجه الإنكار إلى نفسه وهو يريدهم به ، أى لا إتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذى فطرنى ، مبيناً حال هذه الأصنام التى يعبدونها ، من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم ، وبياناً لضلال عقولهم ، وقصور إدراكهم ، لأنى إذا فعلت ذلك أكون ساقطاً فى وهدة الضلال الذى لاشك فيه ، فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع ، ولا دفع الضر ، بالخالق المقتدر الذى لا قادر غيره ، ولا خير إلا خيره ضلال واضح ، وخسران مبين ، وهذا تعريض بهم . هذا سبيل الحكمة فاسلكه والله تعالى الموفق للصواب .

ومنها التلطف فى القول والرفق فى المعاملة مع تحرى الإقناع ، فلهذا شأنه فى نجاح المرشد فى مقام الدعوة إلى الخير ، والقرآن الحكيم يرشد إلى ذلك فى مواضع كثيرة ، تأمل قوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » أى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ، ليسكن شغبهم وتلين عريكتهم ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل كما سيأتى — وقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، أى وإن أحد الفريقين من الموحدين والمشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال الواضح — فإن هذا بعد ما تقدم من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ، ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه

على سنن الإنصاف المسكت للخصم الألد ، ونظيره قول حسان رضى الله عنه :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخير كما الفداء

وقوله : « قل لاتسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » .

وهذا أبلغ فى الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف ، حيث أسند فيه الإجرام إلى أنفسهم ، ومطلق العمل إلى المخاطبين ، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر — فما بعد هذا التلطف طريق يسار فيه ولا وراء هذا الرفق غاية ينتهى إليها .

والسر فى ذلك أن النفوس جبلت على الميل إلى العظمة وحب الكرامة ، وشبت فى الغالب على الأنفة والرعونة ، ونشأت على التقيد بالإلف والعادة ، فمن أراد صرفها عن غيها إلى رشادها ، وحاول الخروج بها عن مألوفاتها وعاداتها ولم يَمْزُج مرارة الحق بحلاوة التلطف ، ولم يسهل صعوبة التكليف بطلاوة الرفق واللين ، كان إلى الانقطاع أقرب منه إلى الوصول ، ودعوته أجدر بالرفض من القبول وكان كمن رام أن يطهر ثوبا من الدنس فأوقد فيه ناراً فأحرقته — ألا ترى قوله تعالى : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » فإنه يفيد أن لين القول محل رجاء التذكر والاتعاظ ، والمعد للنفوس للخوف والانزجار .

وروى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قربوه ، أدن ، فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتحبه لأمك ؟ قال : لا جعلنى الله فداءك ، قال كذلك الناس لايحبونه لأمهاتهم ؛ أتحبه لابنتك ؟ قال : لا جعلنى الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ، وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحدة لا ، جعلنى الله فداءك ، فوضع رسول صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شىء أبغض إليه منه ، يعنى الزنا » رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

فهذه هى الحكمة فى الدعوة ، وبها تجب القدوة . « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ، و إنا لا نكون متبعين له صلوات الله وسلامه عليه حتى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على سنته وطريقته فى اللطف وتحرى الإقناع بالرفق واللين ، ومن أوتى حظه من الرفق فقد أوتى حظه من خير الدنيا والآخرة — ومن هنا تعلم السر فى جعل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أكمل الناس عقولا ، وأصفاهم أرواحا ، وأحسنهم أخلاقا

ومنها أن يذكره بخير ، و يصفه بجميل ، كأن يبين ماله من حسب ، وما فيه من فضل ، وما عليه من نعمة ، ليجذب قلبه إليه ، و يعده بذلك لقبول الموعظة ، إذ لا ريب أن ما يكون للأنسان من شرف ورفعة مُناط التحلى بالفضائل والتخلى عن النقائص ، لأن الذى يرى نفسه مفضلا مكرما ذا شرف ومنزلة يترفع عن الدنايا والخسائس التى تدنس شرفه وتذهب بفضله ، أما الذى يرى نفسه رذلا ساقطا خسيسا ، فإنه لا يبالى ما يفعل — ألا ترى قوله تعالى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » حيث ناداهم باسم أبيهم يعقوب الذى هو أصل عزهم ومجدهم ، ومنشأ تفضيلهم وطلب منهم أن لا ينسوا نعمته عليهم بشرائعه ورسله ، وتفضيله إياهم على العالمين بالنبوة والملك ولم يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم فى هذه المزية إحياء لشعور الكرامة والفضل فى نفوسهم ، ثم حذرهم يوما عظيما سيقع فيه من الأهوال مالا منجاة منه إلا بتقوى الله سبحانه فى كل الأحوال ، ومراقبته تعالى فى جميع الأعمال .

وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا » فإنه تعالى بعد أن امتن على بنى إسرائيل بإيتاء موسى التوراة لهدايتهم به ، ونهاهم عن أن يتخذوا ربا غيره تعالى يكلون إليه أمورهم ، ناداهم بهذا العنوان ليحملهم على التوحيد والطاعة بتذكير إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه

السلام الذى أثنى عليه بأنه كان عبداً كثير الشكر له تعالى فى جميع حالاته وفى ذلك إعلام لهم بأن إنجاء من معه كان ببركة طاعته عليه السلام لربه ، وحث للذرية على الاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذى هو أقبح أنواع الكفران .

وهذا أسلوب حكيم فى الدعوة فينبغى للداعى أن يبدأ باحياء إحساس الشرف وشعور الفضل والكرامة فى نفوس المخاطبين ، لتستعد بذلك لقبول النصيحة وتتغلب بهذا الإحساس ، وذلك الشعور على عوامل الهوى والغواية ، فإن النفس إذا عرفت علوها ، واستشعرت كرامتها ، وسمت ما فى الرذائل من الخسة حملها ذلك الشعور (شعور الرفعة والكرامة) على النفرة من التسفل بارتكاب تلك النقائص ، وكان ذلك من أحكم الوسائل إلى مساعدة المرشد على بلوغ غرضه من نفوس السامعين .

وجملة القول أن فى الوعظ مسا يجرح إحساس الموعوظ ، وحرجا قد يحمله على النفور من سماعه والاستنكاف من قبوله — فإذا كان الداعى حكيما فذكر ما فى المخاطب من فضل ، وماله من منزلة ، ثم أرشده إلى الخير ، وحذره عن الشر ، حمله ذلك على التخلى عما هو فيه من ضلال وشقاء ، وأقبلت نفسه على التحلى بما يدعوه إليه من هدى وسعادة كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ، ويسكن آلامه ، وينقذه من تعب المرض إلى راحة السلامة — فهذا شىء من هداية الكتاب الحكيم لنا ، وكله هدى ورحمة .

ومنها : أن يكون له فراسة يتوسم بها حال السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ، ليعطيهم ما يتحملون ، ويمسك عما لا يطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف أو رأى عليهم مللا وسآمة . من الحكم المأثورة : من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مئونة الاستماع منك : وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا أنا لم أعلم مالم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما : لا عاش بخير من لم ير برأيه مالم ير بعينه . قيل لعمرو

ابن العاص : ما العقل ؟ قال الأصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان و إنما ركب الله العقل فى الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل . وإذا كان المرشد بهذه الصفة لم يضع له عناء ولم يخب على يديه أحد ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم كانوا و إياه فى عناء مكد . وتعب غير مجد . فإنه لا يعدم أن يكون منهم ذكى محتاج إلى الزيادة وقاصر يكتفى بالقليل ، فيضجر الذكى ويعجز القاصر ، ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم ، وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال : قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، يا موسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشو فى وعائك : — وجلس ابن السماك يوما للوعظ وجاريته تسمع كلامه فقال لها كيف سمعت كلامى ؟ قالت هو حسن لولا أنك تردده . فقال أردده كى يفهمه من لم يفهمه . فقالت إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه — وعلى الجملة فخير المرشدين الفطن الذى لا يقل ولا يمل والله الموفق للصواب .

الفصل الثامن

ما يلزم المرشد اجتنابه

مما لا يجوز له الخوض فى دقائق علم الكلام كخلق الأفعال ، ورؤية البارى يوم القيامة ، مخافة اختلال يتطرق إلى عقائد العامة يصعب عليهم الخلاص منه ، بل الصواب لهم الاقتصار فى أمر العقائد وواجب الإسلام على أن يملأ قلوبهم بالتصديق الجازم بكل ما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقبوله ، والإذعان له ، تصديقاً سليما من كل شك بالمقدار الذى نطق به الكتاب وصحت به السنة ، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين — هذا ما أجمع عليه السلف والمحققون من العلماء — فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحداً بسوى

ما ذكرنا ، وكذا الخلفاء الراشدون ، ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول « نعم » لو تشكك إنسان فى شىء من أصول العقائد مما لا بد من اعتقاده ، ولم يزل شكه إلا بتعليم دليـــــل من أدلة المتكلمين وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل —

ونقول فى المتشابه من آيات الصفات وأخبارها خلاصة ما قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه : أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات ، وقد قام البرهان العقلى والنقلى على هذه العقيدة ، فكانت هى الأصل المحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء فى نصوص الكتاب أو السنة شىء ينافى ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقان « إحداهما » طريقة السلف وهى التنزيه الذى أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى « ليس كمثله شىء » وقوله عز وجل « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » وتفويض الأمر إلى الله تعالى فى فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله تعالى يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لخيلاتنا . أى فيقال مثلا نؤمن بـ « الرحمن على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به ، مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزه عن الحلول وسمات الحدوث . فهذه طريقة السلف وهى أسلم إذ لا يطالب العبد بالخوض فى ذلك ، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى المخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه « نعم » إن مست الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء فى هذا « والثانية » : — طريقة الخلف وهى التأويل يقولون إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل ، فلا يخرج شىء منه عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشىء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد فى النقل خلافه يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ، ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه ، فينبغى طلبه بالتأويل ، ولا مانع من السير

على كلا الطريقتين فى فهم و بيان المتشابه ، لأنه لا بد لـكلام الشارع من فائدة . يحمل عليها ، لأنه لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى .

فظهر مما تقدم اتفاق السلف و الخلف على التنزيه ، و صرف النص الموهم عن ظاهره المحال عليه تعالى ، لـكنهم اختلفوا بعد ذلك فى تعيين المراد من ذلك النص وعدم التعيين ، بناء على الوقف على قوله تعالى : والراسـخون فى العـلم : فيكون معطوفاً على لفظ الجلالة وجملة يقولون آمنا به حينئذ مستأنفة لبيان سـبب التمـاس التأويل . أو على قوله إلا الله ، وقوله والراسخون فى العلم استئناف ، وذكر مقابله فى قوله تعالى : فأما الذين فى قلوبهم زيغ ! أى كالمجسمة ، فمنهم من يقول إنه على صورة شيخ كبير ، ومنهم من قال إنه على صورة شـاب حسن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والحاصل أنه إذا ورد فى القرآن أو السنة مايشعر بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح اتفق أهل الحق وغيرهم ماعدا المجسمة والمشبهة على أن ظاهره غير مراد لوجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره ـ فمما يوهم الجهة قوله تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » فالسلف يقولون فوقية لا نعلمها والخلف يقولون المراد بالفوقية التعالى فى العظمة ، فالمعنى يخافون أى الملائكة ربهم من أجل تعاليه فى العظمة ، أى ارتفاعه فيها ، ومنه قوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى» فالسلف يقولون اسـتواء لا نعلمه ، والخلف يقولون المراد به الاستيلاء والملك . كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غـير سيف ودم مهراق

أى فهو تمثيل وتصوير لعظمة الله تعالى ، وسلطانه فى خلقه .

— ومما يوهم الجسمية قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » « وجاء ربك » وحديث الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ويقول من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه

من يستغرنى فأغفر له » فالسلف يقولون مجىء وإتيان ونزول لانعلمها ، والخلف يقولون المراد إتيان رسول عذابه أو رحمته وثوابه ، ومجىء عذاب ربك أو أمره الشامل للعذاب ، وينزل ملك ربنا فيقول عنه — ومما يوهم الصورة ما رواه احمد والشيخان أن رجلاً ضرب عبده فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم : « وقال إن الله تعالى خلق آدم على صورته » فالسلف يقولون صورة لانعلمها ، والخلف يقولون المراد بالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة ، فهو على صفته فى الجملة ، وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الإنسان حادثة — وهذا بناء على أن الضمير فى صورته عائد على الله تعالى كما يقتضيه ما ورد فى بعض الطرق « فان الله خلق آدم على صورة الرحمن » . ومما يوهم الجوارح قوله تعالى « ويبقى وجه ربك . يد الله فوق أيديهم » وحديث : إن قلوب بنى آدم كلها كقلب واحد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فالسلف يقولون وجه ويد وأصابع لانعلمها ، والخلف يقولون المراد من الوجه الذات ، ومن اليد القدرة ، وفوقيتها فوقية عظمة بمعنى أنهم لايخرجون عن تعلقها ، والمراد من قوله بين أصبعين من أصابع الرحمن . بين صفتين من صفاته وهما القدرة والإرادة .

وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معني قد يكون غير مراد له تعالى ، والبعد عن المخاطرة فيما لا ضرورة بل لاحاجة إليه — وطريق الخلف أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم ، وهى أولى فى تعليم الناس وأبعد لأفكار العامة عن توهم التجسيم — والسلف من كانوا قبل الخمسمائة وقيل : القرون الثلاثة : الصحابة والتابعون وأتباع التابعين . والخلف من كانوا بعد الخمسمائة وقيل من بعد القرون الثلاثة — والمشبهة قوم شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلوه بالحوادث . والمجسمة غلاتهم المصرون على التجسيم الصرف ، وأما غير الغلاة منهم فهم مشبهة الحشوية فقالوا هو جسم لا كالأجسام من لحم ودم لا كاللحوم ، وله الأعضاء والجوارح ، والقدرية فرقة تقول إن أفعال العباد مخلوقة لهم من دون الله — وقد استوفينا الكلام على هذه الفرق وغيرها فى كتاب « الإبداع فى مضار الابتداع »

ومما يلزم اجتنابه التحدث مع العوام بما لاتفهمه ولا تعقل معناه . فذلك من وضع الحكمة فى غير موضعها وهو ظلم ـ فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها وهو الغالب ، وهو فتنة تؤدى إلى العمل بالباطل والتكذيب بالحق ، وإما أن لايفهم منها شيئاً وهو أسلم ، ولكن المحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون بل صار فى التحدث بها معهم كالعابث بنعمة الله تعالى — ثم إن ألقاها لمن لايعقلها فى معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من قبيل التكليف بما ليس فى الوسع — وقد جاء النهى عن ذلك : أخرج أبو داود أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « نهى عن الغَلوطات »[1] قالوا وهى صعاب المسائل أو شرارها — وروى الترمذى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أتيتك لتعلمنى من غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام : « ما صنعت فى رأس العلم ؟ قال وما رأس العلم ؟ قال هل عرفت الرب ؟ قال نعم قال فما صنعت فى حقه ؟ قال ما شاء الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأحْكِمْ ما هُنَالِكَ ثُم تَعَالَ أُعَلِّمكَ من غرائب العلم » . فالذى تقتضيه الحكمة ألا تعلم الغرائب إلا بعد إحكام الأصول و إلا وقع السامع فى الفتنة — وقالوا فى العالم الحكيم إنه هو الذى يربى بصغار العلم قبل كباره — وقد ترجم على ذلك الإمام البخارى فقال « باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا » وأخرج موقوفا على علىّ رضى الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ودَعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذَّب اللهُ ورسوله . و يعرفون : ضد ينكرون لا ضد يجهلون أى حدثوهم بما تصل عقولهم إلى فهمه دون ما يعز عليها فتعده منكراً ومحالا وأخرجه بلفظ آخر « قال على حدثوا الناس بما يعرفون » أى يُدركون بعقولهم « ودعوا ما يشتبه عليهم فهمه أتحبون أن يكذب الله ورسوله » . وفى مسلم مرفوعا عن ابن مسعود رضى الله عنه : « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان

---

(١) جمع غلوطة بالفتح قيل أصلها أغلوطة حذفت همزتها المضمومة تخفيفاً والأغلوطة ما يغلط فيه وما يغالط به من صعاب المسائل .

فتنة على بعضهم » وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على غير وجهه ، وهو فتنة تؤدى إلى التكذيب بالحق وإلى العمل بالباطل — وخرج شعبة عن كثير بن مرة الحضرمى أنه قال : إن عليك فى علمك حقاً كما أن عليك فى مالك حقاً ، لاتحدث بالعلم غير أهله فتجهل . ولا تمنع العلم أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك .

ومن حديث ابن عمر مرفوعاً « أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » . وقال على رضى الله عنه : وأشار إلى صدره ، إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة : وصدق كرم الله وجهه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء » ، وفى لفظ آخر من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلا ، فاعط كل ذى حق حقه » ، وفى معنى ذلك ماروى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه سئل عن العالم من هو ! فقال : من يضع العلم موضعه ، ويؤتى كل شىء حقه ، وقال بعض العارفين : من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخسهم حقهم ، ولم يقم بحق الله تعالى فيهم ، ولذا قيل كِلْ لكل عبد بمعيار عقله . وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه ، وينتفع بك ، وإلا وقع الانكار لتفاوت المعيار فليحذر المرشد الشطح بكلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة معجبة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ولا منها فائدة — كالكلام فى مقام الفناء الذى قصرت عباراتهم عن إيضاحه ، ومراتب الشهود التى عسرت التفرقة بين حقائقها ، وكقول القوم فى أقسام الإيمان ، وأنه خمسة أقسام :

الأول : إيمان عن تقليد ، وهو الناشىء عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل ، وهو إيمان العوام (الثانى) إيمان عن علم ، وهو الناشىء عن معرفة العقائد بأدلتها ، وهو لأصحاب الأدلة (الثالث) إيمان عن عيان ، وهو الناشىء عن مراقبة

القلب لله تعالى بحيث لا يغيب عنه طرفة عين ، وهو لأهل المراقبة ، ويسمى مقام المراقبة (الرابع) إيمان عن حق ، وهو الإيمان الناشىء عن مشاهدة القلب وهو للعارفين ، ويسمى مقام المشاهدة (الخامس) إيمان عن حقيقة وهو الناشىء عن كونه لا يشهد إلا الله عز وجل وهو للواقفين ، ويسمى مقام الفناء ، لأنهم يفنون عن غير الله تعالى ، ولا يشهدون إلا إياه — وهناك قسم آخر أسمى من هذه الأقسام ، يسمونه حقيقة الحقيقة ، وهو للمرسلين ، وقد منعنا الله تعالى كشفه فلا سبيل إلى بيانه — وقولهم فى سر السر ، ونور النور — وما إلى ذلك من اصطلاحات الصوفية — فكل هذا خلاف الشرع ، وما كان عليه سلف هذه الأمة فهو بدعة وضلالة كما أوضحناه فى كتاب « الإبداع فى مضار الابتداع » .

وبهذا يعلم أن من تقيد من العامة بقيد الشرع الشريف بحسب حاله ، ورسخ فى نفسه اعتقاد العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل ، وحسنت مع ذلك سيرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده بذكر اصطلاحات المتكلمين ، بل ينبغى أن يخلى وحرفته التى هو فيها ، وطريقته التى هو سالكها ويقتصر معهم على تعليم العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج مع بيان سر مشروعيتها ، كل هذا من غير تدقيق فى مسائلها ولا ذكر اختلاف الآراء فيها ، والحث على الأمانة فى الصناعات ، والإحسان فى المعاملات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من أنواع الرغبة والرهبة بالجنة والنار وبلايا الدنيا وأهوال يوم القيامة ، كما نطق القرآن الحكيم ، وصرحت به السنة الشريفة ، والآثار الصحيحة : ولا يحرك عليهم شبهة من الشبه الكلامية والإشكالات الفقهية ، فإنه ربما تعلقت بقلوبهم ، ويعسر عليهم حلها فيقعون فى الشقاء والهلاك بسوء تصرفه — وبالجملة ينبغى أن لا يفتح للعوام باب البحث والجدال ، فإنه ضياع لهم ، وليس من الحكمة فى شىء : والله الهادى إلى سواء السبيل .

ومما لا يجوز التعرض له صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور

باطنة لا تحتملها الألفاظ ولا فائدة فيها كدأب الباطنية فى التأويلات البعيدة ، وهم جماعة من الملاحدة نسبوا أنفسهم إلى علم الباطن ، ورفضوا الأخذ بظاهر القرآن والأحاديث وقالوا : للقرآن والحديث ظاهر وباطن ، والمراد منهما باطنهما دون ظاهرهما ، وحرفوا الألفاظ إلى معان أخر غير مفهومة إلا لهم بادعائهم فى ذلك ، حتى أنهم تركوا أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج ، زاعمين أن لها معانى غير ما عمل به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه وأجمع عليه المسلمون ، وكغلاة الصوفية الذين ذهبوا فى التأويل إلى ما وراء طور العقل والنقل وأساليب اللغة ، ومثلها دعوى القاديانية الهندية التى يلقب أهلها بالأحمدية أن رئيس نحلتهم ميرزا غلام أحمد القاديانى هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا فى بعض الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم المعتدين على استقلالهم ، ولا يجوز لشعب إسلامى عندهم أن يدافع عن دينه ووطنه — وإنما جعل القاديانى هذا من أصول دينه دعاية لدولة أجنبية — ولا يزال الباب مفتوحاً عند أتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحى النبوة متصل فى خلفائه وأتباعه — فالقول بهذا خروج من ملة الإسلام لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام ، وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع فى باب التأويل .

فهذا أيضاً حرام فى الشرع وضرر على الناس عظيم : فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه وعن أصحابه الذين شاهدوه رضى الله عنهم . ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن ما يسبق منه إلى الفهم إن خرج عن جادة الشريعة لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ولا معول عليه فيما يخالف ظاهر الشرع ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى — وهذا

أيضاً من البدع المنكرة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له .

وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها عن معانيها وتنزيلها على معان أخر على رأيهم الفاسد . من ذلك قول بعض المتصوفة فى تأويل قوله تعالى : « إذهب إلى فرعون إنه طغى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون ، وهو الطاغى على كل إنسان . وكذا فى قوله تعالى : « فاخلع نعليك » أى نفسك ، وفى قوله تعالى : « وأن ألق عصاك » أى كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ، فينبغى أن يلقيه عنه . وفى قوله تعالى : « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » المراد منه تخليص إبراهيم من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة — وفى قوله تعالى : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أنه الحب والعشق إلى غير ذلك مما نقله القاشانى الباطنى الذى ملأ تفسيره بأمثال هذه المصائب .

ومن ذلك ما قالوه فى قوله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا فإن فى السحور بركة » متفق عليه إنه أراد به الاستغفار بالإسحار ، وقولهم فى حديث الإيمان والإحسان : « فإن لم تكن تراه » أى إن أفنيت نفسك تشرفت بالرؤية . مع مخالفته للغة العربية كما لا يخفى إلى غير ذلك حتى يحرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء ، فإن القاعدة عند العلماء (أن الظاهر يجب إقراره على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذا أنه يجب حمل كل لفظ ورد فى الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عنها وبعض هذه التأويلات قطعى البطلان كتنزيل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محس تواتر إلينا النقل بوجوده ، ودعوة موسى له كأبى لهب وأبى جهل من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لا يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه — وكذا حمل السحور على الاستغفار فإنه صلوات

الله وسلامه عليه كان يتناول الطعام مع أصحابه فى ذلك الوقت . روى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا زاد ابن عاصم فى كتاب الصوم « فأكلا تمراً وشربا ماء » فهذه أمور يدرك بطلانها بالتواتر والحس نقلا ، و بعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الأحساس . وكان لواضعى تلك التأويلات من الفرس غرض سياسى من إفساد الإسلام على أهله و إحداث الشقاق بينهم فيه وهو إضعاف العرب والقضاء على دولتهم أو إزالة ملكهم للتمكن من إعادة ملك فارس وسلطان الملة المجوسية — ثم رسخ بالتقليد فى طوائف جهلوا أصله .

فكل ذلك حرام وضلالة و إفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل ذلك عن صاحب الشرع ولا عن أصحابه ولا عن التابعين مع سعة روايتهم وكثرة تلقيهم ، ولا عن الحسن البصرى رحمه الله مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم — ولا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده[1] من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه تقرير أمر فيأتى بالقرآن شاهداً له يحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية . وقوله : فيلتبوأ مقعده . أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من فسر القرآن برأيه وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك . والمقصود الزجر عن القول فى القرآن بالهوى والرأى .

ولا تفهم من هذا أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فى الآيات فلسنا نريد هذا ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والتابعين والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة فأكثر ، ولنعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » رواه الإمام أحمد والحاكم بإسناد صحيح . فهذا جائز لأنها معان

تحتملها الألفاظ بخلاف ذلك كما عرفت لا تحتملها الألفاظ ولا يدل عليها نقل ولا يقرها عقل .

وصفوة القول أن النصوص الشرعية تحمل على ظواهرها وما تدل عليه فى عرف اللسان ، وأن العدول عن ذلك إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد . وما سميت الملاحدة باطنية إلا لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها ، بل لها معانٍ باطنية لا غير ، وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك منها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينهما و بين الظواهر المرادة ، فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان . هذا خلاصة ما فى العقائد النسفية وشرحها للسعد .

الفصل التاسع

السجع والأشعار فى الوعظ

السجع فى الكلام العربى المنثور هو اتفاق فواصل الجمل على حرف واحد نحو فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ، ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ، ويكثر فى كلام بلغاء العرب ومواعظ المتقدمين كالإمام على رضى الله عنه و الحسن البصرى وأبى الفرج بن الجوزى ، وهو نوعان : حسن وقبيح ، فالحسن ما توفرت فيه شروط ثلاثة « الأول » أن يكون بعيداً عن التكلف والتعسف « الثانى » أن تكون كل سجعة دالة على معنى مغاير لمعنى غيرها « الثالث » أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق ، وبهذا يكسب الكلام حسنا وجمالا — والقبيح ما خلا من هذه الشروط .

كقول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض — والبرض القليل وماء برض قليل وهو خلاف الغمر ، والغمر بوزن الجمر الكثير

فمثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ولهذا كرهه النبي صلوات الله وسلامه عليه . قال الأزهري : ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم في جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا بغرة على عاقلة الضاربة قال رجل منهم كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم « إياكم وسجع الكهان » .

وهو مكروه شرعا ثقيل على النفس ولو في الدعاء ، فعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لكاتب : إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يَسجَعون ، رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما بإسناد صحيح . وسجع من باب قطع . وروى البخارى من رواية عكرمة عن ابن عباسّ قال « حدِّث الناس كلَّ جمعة مرة » فذكر الحديث وفيه : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

وكل هذا محمول على التكلف في السجع ، فإن خلا عن التكلف وإعمال الفكر ، وكان لكمال فصاحة الداعى أو لكونه محفوظاً مثلا فلا بأس به ، بل هو حسن كما عرفت . يدل عليه ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنهما من قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم مُنزِلْ الكتاب . ومجرىَ السحاب وهازم الأحزاب إهزمهم وانصرنا عليهم » وروى البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : أعيذكما بكلمات الله التامة . من كل شيطان وهامَّة . ومن كل عين لامَّة » والهامّة كل ذات سم يقتل ، وقد تقال على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالقمل والبق ، والعين اللاَّمة التى تصيب بسوء ففيه جواز استعمال السجع في الدعاء الخالى عن التكلف وسر النهى عن تكلف السجع في الدعاء أنه يذهب الخشوع والخضوع ويلهى عن الضراعة والافتقار وحضور القلب .

ومن أمثلة السجع الحسن قول الإمام أبى القاسم محمود الزمخشرى : يا أبا القاسم

حتام تلهو وتلعب . وغراب البين فوقك ينعَب . وإلام تروح فى التماس الغنى وتغدو . وسائق الردى وراءك يحدو . ألا وإن بذل الاستطاعة . واستقصاء الجد فى الطاعة . أولى بمن يركب الآلة الحدباء بعد ساعة ، كأنى بجنازتك يسرع بها إلى بعض الأجداث . وبأهل ميراثك هجروك بعد الثلاث وغادروك وأنت معفر مطروح . فضمك لحد وضريح . ولم يبق إلا عملك الذى لزمك فى حياتك لزوم صحبك . وهو يستبق صحبتك بعد قضاء نحبك : فيصحبك على التخت مغسولا ويرافقك على النعش محمولا . ويكون معك على الاكفاء فى المصلى . ويحالفك وأنت فى الحفرة مدلى . فإذا راعتك نفخة النشر . وفاجأتك أهوال الحشر . وفر منك أبوك . وأمك وأخوك . وجدته يفد معك أينما تفد . ويرد حيثما ترد . ولعلك ستصحب من هذا القرين صاحب صدق يؤنسك فى وحشتك . ويلقى عليك السكينة فى حين حيرتك ودهشتك . ويمهد لك فى دار السلام المهاد الأوثر ويوردك السلسبيل والكوثر .

وقوله رحمه الله : أرضى الناس بالخسار . بائع الدين بالدينار . قِ فاك مما يقرع قفاك . قد جمع الأصل والفرع . من تبع العقل والشرع . إن صح السِّرُّ صحّ العلَنْ . وإن لم يصح فلن ولن . شِينان شَيْنَان فى الإسلام . الرشوة والشفاعة فى الأحكام . رب زيادة هى نقصان فائدة . والكف تنقصها الأصبع الزائدة . قد يلد مثل الحسن مثل الحجاج . واللؤلؤ يخرج من الماء الأجاج . شعاع الشمس لايخفى . وسراج الحق لايطفا . تقول أنا صائم . وأنت فى لحم أخيك سائم . أعمالك نَيَّة إن لم ينضجها نِية . اطلب وجه الله فيما أنت صانع . وإلا فعملك كله ضائع .

ومنها قول الحريرى يخاطب الغافل المفتون بالدنيا إنكاراً وتوبيخاً .

إلام تستمر على غيك . وتستمرىء مرعى بغيك ؟ وحتام تتناهى فى زهوك ولا تنتهى عن لهوك ؟ أتظن أن ستنفعك حالك . . إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك . أو يغنى عنك ندمك . إذا زلت قدمك . أو يعطف عليك

معشرك . يوم يضمك محشرك ؟ هلا انتهجت محجَّة اهتدائك . وعجلت معالجة دائك . أما الحِمام ميعادك . فما إعدادك . وبالمشيب إنذارك . فما أعذارك وفى اللحد مقيلك فما قيلك . و إلى الله مصيرك . فمن نصيرك .

ومنها فى التحذير من الغرور — ياأيها المغرور بالسلامة . ماأعددت ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة . يوم يجعل الولدان شيبا . يوم يدع المسرور كئيباً . الدنيا دار تجارة فالويل لمن تزود منها الخسارة .

ومنها قول الاصبهانى فى أطباق الذهب — يا أرباب القوة والطاقة . أنظروا بعين الإفاقة . إلى أهل الفاقة . و يا ركبان الناقة . رفقاً بضعفاء الساقة . وياحملة الأوزار وخزنة المال المستعار . لاتجروا ذيل الافتخار . على أرباب الافتقار فقلوبهم خير من قلوبكم . ومطلوبهم أعز من مطلوبكم . شغلكم التجول بالأسواق عن تنسم قبول الأشواق . وألهاكم حب الرزق عن الرزاق . و ياعمار الخراب . وشُرّاب الشراب لاتعمروا هذه القرية الجلحاء . ولا تسكنوا هذه المهلكة الفيحاء . لاتتخذوا الدنيا الفانية سوقا . إن الباطل كان زهوقا .

وقوله أيضاً — يامن يسعى لقاعد . و يسهر لراقد . و يامن يحرس لراصد : ويزرع لحاصد . و يبخل لباذل . ويجمع لآكل . تبنى الإيوان وعن قليل ينهدم ركناك وتبسط الرِّواق وفى الجدث سكناك . قلب كقلوب الكفار وحرص كحرص الفار ، ينقب بالأظفار . ولا يبقى على المأدوم والقفار . قل لى إذا وقعت الواقعة . وقرعت القارعة . وأزف لك الرحيل . واجتمع الطبيب والعليل . واختلف الغسال والغسيل . والعائد يغمز عينيه . والطبيب يقلب كفيه . حتى إذا انقطع نفسك . وخفى جرسك . أينفعك حينئذ حلال أصبته أم حرام غصبته : أم نشب حرشته [1] أو ولد حضنته . أو ربع أسسته . أو نبع غرسته [2] أو حطام حرسته أو قفر حرثته

---

(١) النشب فتحتين المال والعقار وحرشته أحرزته من حرش الصب صاده
(٢) النبع شجر تتخذ من أغصانه السهام

أو وفر أورثته ؟ كلا لاينفعك فيء قد غنمته . ولايضرك شيء عدمته ولاينجيك إلا خير أمضيته . أو خصم أرضيته . فانتبه يانائم واستقم ياهائم . لقد تهت فى بادية لايبلغك ندائى . وترديت فى هاوية لايبلغاها ردائى . يغيم هواؤك ويُصحى [1] حين لاينفعك نصحى . ولا تعص الله فى أولادسوء إذا حضرك الموت غابوا . وما حزنوا لما أصيبوا . بل فرحوا بما أصابوا . وأن تدعهم لايسمعوا دعاك ولو سمعواما استجابوا .

وأما الأشعار [2] — فالاكثار منها فى المواعظ مذموم قال الله تعالى فى وصف عامة الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاوون » جمع غاو ، وهو الضال المنهمك فى ضلاله لايرده شيء « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالايفعلون » والهائم الذاهب على وجهه لامقصد له وهو تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأبخلهم على حاتم .

وقال تعالى « وماعلمناه الشعر وما ينبغى له « ولأن الشعر مقر الكذب قالوا « أحسن الشعر أكذبه » وقال بعض الحكماء لم ير متدين صادق اللهجة مفلقاً فى شعره . — أفلق الرجل وافتلق وشاعر مفلق أتى بالعجيب — ولذا لما أسلم منهم جماعة وكانوا مفلقين ضعف شعرهم كحسان ولبيد ، وقد فطن حسان من نفسه ذلك وقد اختلفوا فى مدح الشعر وذمه ، وأحسن ماقيل فيه قول الإمام الشافعى رحمه الله حين سئل عن ذلك : الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح . وروى مثل ذلك عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

وأكثر مااعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف فى العشق وجمال المعشوق ، وروح الوصال والتشوق إليه ، والتشكى من ألم الفراق كإنشاد قول ابن الفارض : —

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرق من النسيم إذا سرى
عني خذواو لى اسمعوا و بى اقتدوا وتحدثوا بصبابتى بين الورى

---

(١) أصحت السماء انقشع عنها الغيم فهى مصحية وصحو

(٢) الشعر هو الكلام المقفى الموزون قصدا فما وقع موزونا اتفاقا لايسمى شعرا

وقول أبى بكر البصرى من أكابر المحبين :

ولو قيل طأ فى النار أعلم أنه رضا لك أو مدن لنا من وصالك

لقدّمت رجلى نحوها فوطئتها سروراً لأنى قد خطرت ببالك

وقوله :

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح

فلما دعا قلبى هواك أجابه فلست أراه عن فنائك يبرح

رميت ببين منك إن كنتُ كاذبا وإن كنت فى الدنيا بغيرك أفرح

وإن كان شىء فى البلاد بأسرها إذا غبت عن عينى بعيشك يملح

فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل فلست أرى قلبى بغيرك يصلح

والمجلس لا يجمع إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات . وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة . فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ماهو مستكن فيها، فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيصيحون ، ويتواجدون ، ويتراقصون، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع ضعف فى الدين . وفساد فى الأخلاق فلو اقتصر المجلس على الخواص العارفين الكاملين الذين عرفوا باستغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم فلا بأس به إذ أولئك لا يضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق بذكر الأوصاف المناسبة لهم من جمال ووصال وفراق . فإن المستمع ينزل كل مايسمعه على مايستولى على قلبه بحسب المقامات فالألفاظ هى هى والمعانى مختلفة وكل إناء بالذى فيه يرشح — ولذا كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا فإذا كثروا لم يتكلم .

فينبغى للواعظ فى وعظ العامة أن لا يستعمل من الشعر إلا مافيه موعظة ظاهرة يرتدع بها عن خبث الباطن . أو حكمة نادرة يتعظ بها فى كشف السر الكامن كقول الإمام الشافعى رحمه الله :

دع الأيام تفعل ماتشاء وطب نفساً إذا نزل القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالى فما لحوادث الدنيا بقاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

وقول صالح بن عبد القدوس :

واحرص على حفظ القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها شبهُ الزجاجة كسرُها لا يشعبُ
واحذر مُآخاة الدنى لأنه يعدى كما يعدى الصحيح الأجربُ

وقولِ بعضهم :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

وقولِ بعضهم :

وفى قبض كف الطفل عند ملاده دليل على الحرص المركب فى الحى
وفى بسطها عند الممات إشارة ألا فاشهدوا أنى خرجت بلاشىء

وقولِه :

عجبت لمن يشرى الضلالة بالهدى ويحسب أن الخير فى جانب الشر
وما كان يوما طالب الشر رابحا ولا كان يوما راغب الخير فى خسر
ولكن هى النفس الأثيمة دائماً تُزَيِّنُ ما تلقاه أبلغ فى الضر

ولبعضهم فى التحذير من إطلاق النظر إلى النساء .

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها فى أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور جاء بالضرر

ولبعض الأدباء فى حفظ اللسان والعين .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظّك موفورٌ وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلُّكَ عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايباً لقوم فقل ياعين للناس أعين
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

ولبعضهم فى الخلق الفاضل .

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

وقال بعض الصوفية فى الحث على الرضاء والتسليم .

يا هذه النفسُ أعلمى أن الأمور لها انقضاء
والحادثات جليها وحقيرها محضْ ابتلاء
والعالمون صغيرهم وكبيرهم فيها سواء
لا تجزعى يا نفس إن الله يفعل يشاء

ولبعضهم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم تَرصدُ كما كان أرصدا

وأنشد الحسن البصرى فى وعظه .

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْت ميِّت الأحياء

وأنشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى الخطيب البليغ القاص الشجاع فى قصصه .

أرض تخيرها لطيب مقيلها كعبُ بن مَامَةَ وابن أمِّ دُواد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانو على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يُلْهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد

وخطب عبد الله بن الحسن رضى الله عنهما على منبر البصرة فى يوم العيد فأنشد :

أين الملوك التى عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاء وذاق الموت بانيها

وقال موسى بن عبد الله الخزاعى : بلغنى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لايجف فوه من هذا البيت :

ولا خير فى عيش امرىء لم يكن له مع الله فى دار القرار نصيب

كل ذلك على سبيل استشهاد لكلامه ، واستئناس لما يورده من أحكامه فقد روى البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « : إن من الشعر لحكمة » وبالله تعالى التوفيق .

الفصل العاشر

مراجع الوعظ

مراجعه على قسمين أولية وثانوية « فالأولية » هى العلوم الدينية التى أساسها التوحيد وينبوعها الصافى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعلم العقائد مبناه آيات التوحيد ، ولا تزال آيات التوحيد قائمة إلى يوم القيامة صالحة لتخاطب جميع العالم على اختلاف العقول والمشارب والملل والنحل ، وهى بحقيتها وقوتها داحضة لكل شبهة رغم إلحاد الملحدين وزيغ المارقين ، وما على المرشد إذا تعرض للعقائد إلا أن يرجع إلى كتاب الله تعالى ويستخرج للمسترشدين درر العقائد من بحره الفياض ويكسوها بالثوب اللائق بها فى مقام التخاطب ، ثم يورد الآية والآيات دليلا على قوله ، فلهذا تأثير فى النفوس يشهد له العيان : أو يسلك من أول الأمر طريق القرآن الحكيم فى عرض الكائنات على الأنظار وتنبيهها إلى وجه الدلالة فيها على وحدانية مبدعها وقدرته وعلمه وحكمته . وهذا أمثل الطرق وأفضلها .

وعلم التكاليف العملية التى سرها حفظ نظام العالم وإصلاح حالى المعاش والمعاد ، وأيضاً الابتلاء والاختبار . فإن كان من العبد الامتثال فالمثوبة . وإن كان

الاباء فالعقوبة . مرجعهُ أيضاً آيات الأحكام والسنة الغراء « وعلم الأخلاق » الذى غايته إصلاح النفوس و إعداد الإنسان لأن يكون إنسانا حقيقيا يصلح للخلافة عن الله عز وجل فى أرضه هو معظم آيات الكتاب الحكيم والسنة الشريفة « وقسم السمعيات » كذلك مرجعهُ الكتاب والسنة .

و بهذا علمت أن بحرك الزاخر ومنهلك الصافى الذى لاينضُب ماؤه ، وأستاذك الذى لاريب فيه هو الكتاب والسنة . ثم بعدهما كل كتاب فى العقائد أو الأحكام أو الأخلاق لايبعد بك عن طريق الكتاب والسنة — و إن هذا المعنى لتجده كثيراً فى كتب الفحول من العالمين العاملين . والدعاة المرشدين الذين قنعوا فى الدنيا . ورضوا منها بالقليل ، وعلقوا قلوبهم بالله تعالى ، وكل هذا نتيجة التحقق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبراً بشبر وذراعاً بذراع .

فهذه مراجع الوعظ الأولية التى منها يستمد . لهذا أرشدك إلى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة ، وحفظ القرآن الكريم مجوداً ، وحفظ كثير من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة الوجيزة القريبة المعنى ، لتكون أسرع إلى التأثير عند سماعها فللآيات والأحاديث طلاوة تهش لها النفوس وحلاوة تبتهج عندها القلوب — وناهيك بكتاب رياض الصالحين للامام النووى رحمه الله تعالى ، وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء علوم الدين للامام الغزالى بتخريج الحافظ العراقى ، فإنها نعم العدة والبضاعة الثمينة للمرشد . كذلك أرشدك إلى الرجوع كثيراً إلى كتب المتحققين لتستقى منها ماينعش روحك و يغذى نفسك و يملأ قلبك ثقة بالله تعالى ، ولايتجافى مع أغراض الدين الحنيف الواضحة مثل كتاب منازل السائرين للامام الهروى بشرحه مدارج السالكين للامام ابن القيم ودعهم فى شطحاتهم ومعمياتهم فلاحاجة للناس بها ، بل هى رموز وضعوها لأنفسهم وأمثالهم والله تعالى يقول : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين » .

هى العلوم الوضعية سواء أكانت آلة للعلوم الدينية . ومنها التاريخ والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء التابعين والأئمة المجتهدين نتعرف منها أعمالهم الجليلة وأخلاقهم الفاضلة التى كونت عظمتهم والتى هى سر نجاحهم ، أم لا كالعلوم الدنيوية التى يتوقف على كثير منها نظام الحياة الاجتماعية من الرياضة والطبيعة بل الفنون والصنائع لقربهـا من فهم السامعين تفيد المرشد تشبيهات ومقابلات وأمثالا يستعين بها فى التعاليم الدينية ويتوصل بها إلى المغازى الأدبية . يرشدك إلى هذا إمعان النظر فى قول الله تعالى : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . فإن الجهاد يتوقف على علوم دقيقة وصنائع كثيرة إذا جهلتها الأمة أو قصرت فيها ضعفت شوكتها وذالت دولتها . وكانت عرضة لأذلال الفاتحين . واستعباد المستعمرين ولو راجعنا تاريخ الأمم الغابرة ، وتأملنا أحوال الأمم الحاضرة . لعلمنا كيف عزت الأمم التى شمرت فى هذه الفريضة وسعدت ، وكيف ذات الأمم التى قصرت فيها وشقيت .

ومما تقدم تعلم أن مهمة الواعظ من أكبر المهمات ، ووظيفته من أعظم الوظائف. وموقف المرشد فى الحياة موقف القواد المجاهدين ، والعظماء العاملين وكما أنه لا بد للقائد من إحكام العدة و بعد النظر ، وأصالة الرأى ، كذلك لا بد للواعظ الدينى أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية والأخلاق الدينية ، ملما بعلوم الاجتماع والعلوم الـكونية مما تعرضت له النصوص الشرعية كشئون السموات والأرض والظواهر الجوية ، لئلا يعرض له من ذلك ما قد يعجز عن الجمع بينه و بين النصوص الشرعية ، أو يكون ظاهر الجهالة به ، وقد علمه صغار المتعلمين ، فيتخذ عجزه أو جهله ذريعة إلى ضعف الثقة به وعدم الاذعان له .

كما أنه لا بد أن يكون محيطاً تمام الاحاطة بما يريد أن يبينه للناس ملماً بجميع أطرافه مستحضرا لما جاء فيه من الآيات القرآنية ، وصحيح الأحاديث النبوية وآثار

السلف الصالح والحكم النافعة ، ليستطيع أن يوفى الموضوع حقه فتعظم فائدته ويأمن من الخلط والزلل ، كما يأتى بسطه — وبعد تمام الاستحضار يلقيه على السامعين مع التأنى والسكينة ، وإجابة السائل عن كل ما يحتاج إليه ، وتفهيمه على قدر استعداده باللطف والبشاشة والحلم ، وكل هذا لا يغنى عنه من الوعظ والارشاد شيئاً ما لم يكن ماهراً فى طرق الارشاد ، عالماً بوسائل التأثير فى النفوس واستمالة القلوب ، وهى المهمة التى نحن بصددها ، وسيأتيك من وسائل التأثير ما فيه الكفاية والله تعالى ولى التوفيق .

الفصل الحادى عشر

أنواعـــــه

هو باعتبار العرف نوعان : تعليم وتأديب « فالتعليم » يكون ببيان عقائد التوحيد مراعى فيه ما يناسب كل طبقة — وبيان الأحكام الشرعية الخمسة من الواجب والحرام والمسنون والمكروه والمباح ، مقرونة بحكمة التشريع ، ومشفوعة بالحث على التمسك بها ، والتحذير من التهاون فيها — فان من تدبر أسلوب القرآن الحكيم علم أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغى أن تساق إلى الناس مساق الوعظ الذى يُلين القلوب ويبعثها على العمل ، لا أن تسرد سرداً خالية من وسائل التأثير .

ألا ترى قوله تعالى « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله » فإن الأمر بالتقوى بعد النهى عن إتيان النساء فى المحيض ، والأمر بإتيانهن فى موضع الحرث ، والأمر بالتقديم لأنفسنا تحذير من مخالفة هذا الهدى الإلهى . وقوله تعالى « واعلموا أنكم ملاقوه » إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم فى الآخرة كما يلاقونها فى الدنيا بفقد

منافع الطاعة والامتثال . وتجرع مرارة مغبة المخالفة والعصيان وقوله تعالى « وبشر المؤمنين » تبشير للطائعين الذين يقفون عند الحدود ، ويتبعون هدى الله تعالى فى أمر النساء والأولاد ، والمبشر به عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة وقوله تعالى « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه وعيد شديد وتهديد عظيم بعد الأمر بالعدة ونهى المطلقات عن كتمان الولد أو الحيض فى قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » كأنه تعالى يقول : إن تحقق إيمانهن بالله الذى شرع الحلال والحرام لمصلحة الناس ، وبيوم الجزاء ، فلا يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات لا بما شرع الله ولا بيوم الحساب — وقوله تعالى : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه يفيد أن الذى تقدم من الأحكام والحدود المقرونة بالحكم والمشفوعة بالوعد والوعيد[1] يوعظ به أهل التصديق بالله وبيوم الجزاء على الأعمال ، فهؤلاء هم الذين يتقبلونه فتخشع له قلوبهم ، ويسارعون إلى العمل به قبولاً لتأديب ربهم ، ورجاء الانتفاع به فى العاجل والآجل — أما سواهم فلا * وقوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » فإنه ختم به أحكام الرضاع والفطام ، ونفقة المرضع ترغيباً وترهيباً ، ليبعث النفوس على التزام هذه الأحكام والمحافظة عليها ، أى أنه تعالى يحصى لكم أعمالكم ويجازيكم عليها ، فإذا راعيتم حقوق الأولاد بالتراضى والتشاور واجتناب المضارة ، جعلهم قرة أعين لكم فى الدنيا وسبباً لمثوبة الآخرة ، وإن أهملتم واجبهم وعمد كل منكما إلى الإضرار بصاحبه بسبب الولد ، كان الولد بلاء وفتنة لكما فى الدنيا وكانا بالإساءة إلى أنفسهما وولدهما عرضة لعذاب الآخرة * وقوله تعالى : « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » فإنه تحذير راجع إلى الأحكام السابقة عليه من التعريض بخطبة النساء وغيره ، أى فى قوله تعالى : « ولا جناح عليكم

(١) وهو من أول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » الى هذه الآية الكريمة .

فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفا ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » تحذير — جاء على سنة القرآن الحكيم فى قرن الأحكام بالعظة ترغيباً وترهيباً : للمحافظة عليها والالتفات إليها . وأما قوله تعالى : « واعلموا أن الله غفور حليم » بعد ما ورد من الوعيد والتشديد فى الآيات السابقة ، فإنه يفيد أن للعبد مخرجاً بالتوبة إذا هو تعدى شيئاً من الحدود ، وأراد الرجوع إلى مولاه فإنه غفور له حليم لا يعاجله بالعقوبة ، بل يمهله ليصلح بحسن العمل ما أفسد بما سبق من الزلل ، ولا ريب أن المرشد إذا سلك فى هذا النوع طريقة القرآن الكريم التى ذكرنا شيئاً منها استرعى الأسماع وأخذ بمجامع القلوب .

(والتأديب) يكون بتحديد الأخلاق الحسنة كالحلم والشجاعة والوفاء وبيان آثارها فى المجتمع الإنسانى والحث على التخلق بها ، وتعريف الأخلاق السيئة كالغضب والجبن والغدر وشرح مضارها ، والتحذير من الاتصاف بها من طريق الترغيب والترهيب . وينبغى للمرشد أن يستشهد فى كل من النوعين بما جاء فيه من الكتاب والسنة الصحيحة ، وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأحوالهم فى ذلك رضى الله عنهم أجمعين ، فإن لهذا شأنا عظيما لا يستهان به فى الوصول إلى الغاية المقصودة متى صدر من قلب سليم نقى طاهر من الأدناس ، متخلق بما يدعو إليه ، فإن الموعظة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإن خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان — وإنك لترى فى لهجة القائل وهو يدعو إلى معنى متمكن فى نفسه مالا تجده وهو يتصنع فى الدعوة مهما كان فصيح اللسان بليغ الأسلوب ، فكل كلام يبرز عليه كسوة من القلب الذى عنه صدر ، وقد سئل الحسن البصرى رحمه الله : ما بالنا نعظ الناس فنبكيهم وأنت تعظ الناس فتبكى ؟ فقال : ليست النائحة كالثكلى ! والله الهادى إلى سواء السبيل .

الفصل الثانى عشر

إعداد الموعظة

من أراد العظة البليغة ، والقولة المؤثرة ، فليعمد إلى المنكرات الفاشية ولا سيما ما كان منها قريب العهد ، وحديثه على ألسنة الناس أو ذائعا فى الصحف . ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضررا وأسوأها أثرا ، فيجعله محور خطابته وموضع عظته ، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية ، ويحصى هذه المضار فى نفسه أو بقلمه ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار السلف ، ثم يأخذ فى كتابة الموضوع إن شاء كتابته ، مُضمنَهُ ما فيه من تلك المضار ، وما ورد فيه عن الشارع محذراً من الوقوع فيه حاثا على التوبة منه — هذا إذا أراد الاقلاع عن جريمة أو التنفير من رذيلة — فإذا أراد الحضّ على عمل صالح أو مشروع نافع ، أو الحث على خلق فاضل ، فليفكر فى مزاياه وآثاره الحسنة تفكيرا عميقا ، وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، ثم يسلك فى الكتابة المسلك الذى بينا متجنبا السجع المتكلف والمحسنات الثقيلة التى كثيرا ما تخفى الأغراض وتحجب المعانى — وينبغى أن يكون تفكيره فى جو هادىء بحيث لا يحول بينه وبين حديث النفس ومراجعة العقل أى حائل ، كما ينبغى له أن يكون عند التفكير والإلقاء فارغا من الشواغل النفسية مقللا من الطعام والشراب حتى لا تذهب بطنته بفطنته ، ويكون نشطا خفيف الروح حاضر الذهن سريع الخاطر حاضر البديهة .

ثم إذا كتب الموضوع فان شاء حفظه وألقاه ، وإن شاء ذكر مضمونه ، وليحذر جهده من قراءته على الناس فى ورقة فذلك يضعف قوته ويذهب بتأثيره فى النفوس كما هو مشاهد — والثانى أحسن الأمرين حتى لا يكون مقيدا بعبارة خاصة فإذا عرض له أمر جديد أثناء الخطابة أمكنه القول فيه . وكثير من الحفاظ

إذا نسوا جملة تلعثموا أو أرتج عليهم فيفقدون هيبتهم من نفوس السامعين : وما أحوج الخطيب إلى الهيبة والجلال ! فكان من الأحسن والمصلحة ألا يتقيد بعبارة يحفظها بل يتخير من العبارات ما يؤدى المعانى التى حصل عليها ببحثه وتفكيره — هذا إذا كتب الموضوع — وإن شاء عدم الكتابة واكتفى برسم الموضوع فى مخيلته وتسطيره فى ذاكرته التى قواها بالمران والممارسة ، كان ذلك أحسن وأكمل — ومن النافع فى مثل هذا الحال تقسيم الموضوع بحسب نقطه إلى أقسام كى يسهل عليه استحضاره عند إلقائه ، ويسير فيه بانتظام مستوفيا كل مايحتاج إليه ، وبإعداد الموضوع على هذا الطريق الذى رسمنا يكون الخطيب فى مأمن من الزلل والاضطراب ، وتبقى للموضوع صورة ثابتة فى نفوس سامعيه وتعظم الفائدة . أما بدون إعداد الموضوع ، واستحضاره تماما ، وتقسيمه قبل الدخول فيه فلا يأمن أن يتخبط فيه ويسير فى التأدية مشوشاً مضطربا ، ولا يبقى له مثال فى نفوس السامعين ، ولا يحصلون منه على الغاية المقصودة ويسرع إليهم نسيانه .

ثم بعد ذلك ينبغى له أن يراعى حال التأدية استعداد السامعين ، فيتنزل فى العبارة مع العامة على قدر عقولهم متجنبا الألفاظ اللغوية البعيدة عن مداركهم ويتوسط مع الأوساط ، ويتأنق مع الخاصة ، فيكون مع جميع الطبقات حكيما يضع الأشياء فى مواضعها . وفى كل حال يتجافى فى كلامه عن كل زخرف باطل لأن مقصوده لا يتوقف على الرونق الظاهر والبهرجة الكاذبة ، بل على اختيار المعانى النفيسة وتنسيقها وشرحها بالدقة ، وصوغها فى قالب لطيف ، وإلباسها ثوبا شفافا حسناً ، مستعينا فى إبلاغها أذهان السامعين وإنفاذها فى قلوبهم ودفع السآمة والملل عنهم ، بإيراد الشواهد عليها من الحكم النثرية والشعرية ، والملح[1] التاريخية ، والفكاهات الأدبية .

فمِنَ الحكم النثرية قولُ الإمام الشافعى رحمه الله : أظلم الظالمين لنفسه من

---

(١) الملح من الأحاديث واحدها ملحة كسبحة ماح الشىء من باب ظرف حسن فهو مليح .

تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب فى مودة من لاينفعه ، ومدح من لايعرفه . وقوله أظلم الناس لنفسه اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف وتكبر على ذوى الفضل — وقوله من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه — وقولُه التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث الراحة ، وأرفع الناس قدراً من لايرى قدره ، وأكثرهم فضلا من لايرى فضله . وقولُ ابن شبرمة : العجب ممن يحتمى من الحلال مخافة المرض ، ولايحتمى من الحرام مخافة النار — وقولُ بعضهم من سمع بأذنه صار حاكيا ، ومن أصغى بقلبه كان واعياً ، ومن وعظ بفعله كان هادياً — وقولُهم اجتمعت حكماء العرب والعجمُ على أربع كلمات : لاتُحمِّل بطنك مالاتطيق ، ولا تعمل عملا لاينفعك ، ولاتثق بامرأة ، ولاتغتر بمال وإن كثر . وقولُهم : ثروة العاقل فى علمه ، وثروة الجاهل فى ماله ، وهمُّ السعيد آخرته ، وهم الشقى دنياه .

وقولهم : إرفع عَلَم الحق يتَّبِعْك أهلُهُ — العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل التوفيق ، وقرينُ الهوى الخذلان ، والنفسُ طالبة فبأيهما ظفرت كنت فى حزبه . أحَق مَن عطفت عليه بحلمك ، مَن لم يستشفع إليك بغيرك — يسارُ النفس أفضلُ من يسار المال ، ومن أحسنَ وهو على ظهر الأرض لن يُساء إليه فى بطنها — مَن كساه الحياء ثوبه ، خفى على الناس عيبهُ .

ومن حكم سيدنا على رضى الله عنه

أدبُ المرء خيرٌ من ذهبه — بشر نفسَك بالظفر بعد الصبر — خَفِ الله تأمنْ غيره — خليلُ المرءِ دليلُ عقله — صاحِبِ الأخيار تأمن الأشرار — عِشْ قَنِعاً تكن ملِكا — وِحْدَةُ المرء خير من جليس السوء — شرُّ الناس من لايُبالى أن تراه الناس مُسيئاً — كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان — الحازم من حفظ مافى يده ولم يؤخر شغل يومه لغده . وقال حكيم : اجتنب سبع خصال يسترح جسمك ، وقلبك ، ويسْلَم لك عرضك ودينك : لاتحزن على مافاتك ، ولاتحمل هم مالم ينزل

بك ، ولاتلُم الناس على مافيك مثله ، ولا تطلب الجزاءَ على مالم تعمل ، ولا تنظر بشهوة إلى مالم تملك ، ولا تغضب على من لم يضرَّه غضبك ، ولا تمدح من لم يعلم من نفسه خلاف ذلك — وقال الأحنف بن قيس : لا مروءة لكذوب ، ولا سؤدد لبخيل ، ولا ورع لسيىء الخلق . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ذهب حياؤه مات قلبه — من كذب فجر ومن فجر هلك — ثلاث خصال من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يحجزه عن المحارم ، وخلق يدارى به الناس — أقلل من الدَّيْنِ تعش حراً ، وقال حكيم : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها . وقال آخر : إذا جالست الجهال فأنصت لهم ، و إذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم . وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه — ومن الحكم المأثورة : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم و إن كان عليه أمسك ، وقلب الأحمق من وراء لسانه : يتكلم بكل ماعرض له . وقال معاذ رضى الله عنه : أنت سالم ماسكت ، فإذا تكلمت فمليك أو لك . وقال بعض الحكماء : إلزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة . ويؤمنك سوء المغبة ، و يلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤنة الاعتذار — وقال حَمَمَة بن رافع الدوسى من حكماء العرب : أجدر الناس بالصنيعة من إذا أعطى شكر . و إذا منع عذر ، و إذا مطل صبر . و إذا قدم العهد ذكر . وقال : أكرم الناس عشرة من إذا قُرِّب منح . و إذا ظُلم صفح . و إن ضويق سمح . وقال : ألأمُ الناس من إذا سأل خضع . و إذا سئل منع . و إذا ملك كنع[1] ظاهره جشع و باطنه طمع — وقال : أجل الناس من عفا إذا قدر . وأجمل إذا انتصر . ولم تطغه عزة الظفر — وقال : أنعم الناس عيشاً من تحلى بالعفاف . ورضى بالكفاف . وتجاوز مايخاف إلى مالايخاف .

---

(١) قبض . يقال : تكنع جلده إذا تقبض . يريد أنه ممسك بخيل .

وقال : أشقى الناس من حسد على النعم . وسخط على القِسَم ، واستشعر الندم على ما انحتم — وقال : أغنى الناس من استشعر اليأس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم .

ومن الحكم الشعرية قصيدة أبي الفتح البستي وهاهي مشروحة بإيجاز .

زيادة المرء في دنياه نقصان ۞ وربحه غير محض الخير خسران

الزيادة النمو ، يجيء لازماً ومتعدياً ، وهذا لازم لوقوعه في مقابلة النقصان ، وهو لازم . الربح اسم ماربحه ، ويجيء مصدراً أيضاً ، وضده الخسران . المحض الخالص الخير ضد الشر والمعنى : زيادة كل امرئ في دنياه زيادة تشغله عن الله تعالى نقصان في الحقيقة ، وما ربحه من المال في الدنيا خسران في الحقيقة ، إلا إذا كان خيراً محضاً ، وهو ما يبتغى به الدار الآخرة ، والجمع بين الزيادة والنقصان والربح والخسران طباق .

وكل وجدان حظ لاثبات له ۞ فان معناه في التحقيق فُقدان

وِجدان مصدر وجدت الشيء وجدانا بالكسر ووجوداً مقابل فقده . الحظ النصيب . التحقيق : مصدر حققت الأمر وأحققته إذا صرت منه على يقين . وفي بمعنى عند . فقدان بضم الفاء وكسرها . فقد الشيء إذا عدمه . لاثبات له : لابقاء له والمعنى كل نصيب من دار الدنيا أصابه المرء لادوام له ، فانه عند إمعان النظر عدم فلا يعول عليه ، ولا يركن إليه ، والذى يعول عليه عند أولى النهى الحظوظ الأخروية لأنها الباقية ، ولو ذكرت الفاء بدل الواو ليكون تعليلا لما تضمنه البيت الأول لكان أوجه .

ياعامراً لخراب الدهر مجتهداً ۞ بالله هل لخراب العمر عمران

الخراب ضد العمران ، والدهر الزمان . الاجتهاد بذل الوسع لنيل المقصود . العمر بضم العين عيش الإنسان ، والعمران مصدر كغفران . المعنى ياعامراً لما خربه مرور الزمان باذلا طاقته في كل أوان ، أخبرني هل عامر لخراب عمرك موجود ؟ والجمع بين

العمارة والخراب طباق . و بين العمر والعمران تجنيس تام .

ويا حريصاً على الأموال يجمعها أُنْسيتَ أن سرور المال أحزان

الحرص : الجشع — النسيان خلاف الذّكر والحفظ أُنسيت مبنى للمجهول وفاعله الأصلي إما الحرص أو الجمع الدال عليهما أول الكلام . المعنى ياجشعاً فى جمع الأموال أنساك الحرص والجمع كون سرور المال هموما وأحزاناً ، أما فى الدنيا فكما ترى ، وأما فى الآخرة فلأنه يحاسب عليه من أين جمعه ، وفيم أنفقه . والجمع بين السرور والحزن طباق .

دع الفؤاد عن الدنيا وزينتها فصفوها كدر والوصل هِجْران

دع . بعِّد بقرينة استعماله بعن ، ويُروى زع مكان دع ، من وزع يزع وزْعا مثل وضعه يضعه وضعا . أى كفه — زينتها : زخرفها — صفوُ الشيء خالصه . الوصل : الالتقاء ، والهجران بالكسر كالهجر ضد الوصل . المعنى : لما كان سرور المال يوجب الأحزان ينبغى أن تُبعد قلبك عن حب الدنيا والافتتان بزينتها لأن ماتصورت صفوه منها فهو بخلافه ، ووصلك إياها هو فى الحقيقة قطيعة .

وأرْعِ سمعك أمثالا أفصّلها كما يفصل ياقوت ومرجان

الإرعاء : الأصغاء — السمع : الآذان — والمراد بالأمثال الأبيات التى تذكر بعد — التفصيل : التبيين — الياقوت : الحجر المشهور — المرجان : الخرز الأحمر المعروف . ومعناه واضح .

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

استعبد الإنسانَ اتخذه عبداً والفاء للتعليل — ومافى طالما وقلما كافة ، عن طلب الفاعل ، وتكتب موصولة كما فى ربما وإنما ، هذا إذا كانت كافة أما إذا كانت مصدرية فليس إلا الفصل . وهنا يصلح لكل واحد منهما . المعنى يشبه أن يكون مأخوذاً من كلام الإمام على كرم الله وجهه إذ يقول « بالبر يستعبد الحر » معناه : المرء ببره يسترق الحر و يستحق الشكر .

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران

الجسم : الجسد وكذا الجسمان والجثمان . كم للاستفهام ، منصوب على الظرفية أو على المصدر حسب تقدير المميز ، أى كم زماناً تسعى ، أوكم سعيا تسعى . والهمزة للاستفهام التوبيخى ، أى لا ينبغى لك أن تطلب الربح فى غير محله المعنى : يامن يخدم جسمه ويطلب إرادته كثر سعيك لخدمته . وينبغى للعاقل ألا يسعى وراء شهوته ، فليس فى ذلك ربح له ، بل فيه خسرانه ، لأن فى خدمته تقويته ، وهى توجب استيلاء القوة الشهوية والغضبية ، ومن غلبت عليه هذه القوة التحق بالبهائم .

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

الإقبال : ضد الإدبار ، والنفس : الروح — والاستكمال : طلب الكمال والفضائل جمع فضيلة وهى المزية ، كالتحلى بالأخلاق الحميدة . والمعنى : لما زجر عن خدمة الجسم لسوء مغبتها ، أمر بتربية النفس ، وذلك بتحليتها بالأخلاق الكريمة ، والشمائل المرضية ، وتنزيهها عن المكدرات الطبيعية ، والعلائق البدنية فإن الإنسان إنسان بروحه لا بجسمه .

وإن أساء مسيء فليكن لك فى عروض ذلته صفح وغفران

أساء إليه نقيض أحسن إليه — عروض : مصدر عرض الأمر إذا ظهر — الصفح : الإعراض عن الذلة ، والغفران : التغطية والستر — صدر البيت فى معنى الإنشاء أى لا تشتغل بإساءة من أساء إليك ، بل أعرض عنه واستر زلته — ولو كان مكان الواو فاء ليكون تفريعاً على البيت قبله لكان أقرب ولم يحتج إلى هذا التكلف .

وكن على الدهر معواناً لذى أمل يرجو نداك فإن الحر معوان

معوان المبالغة من المعونة — الأمل : الرجاء — الندى : العطاء — الحر : كناية عن الكريم : المعنى من كان يرجو منك عطاء يستعين به على نوائب الزمان فحقق أمله ، لأن ذلك دأب الكريم .

واشدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

الشد : العقد ، يقال شد يشد بضم الشين وكسرها إذا عقد . الحبل : الرسن ويستعمل فى العهد مجازاً ، وفى بعض النسخ بحبل الدين مكان بحبل الله . والدين الإسلام . الإعتصام : طلب العصمة ، وهى الحفظ : ركن الشيء جانبه الآخر ، وقد يطلق على العز والمنعة كقوله تعالى « أو آوى إلى ركن شديد » المعنى استمسك بعهد الله ودينه الذى رضيه لسعادة النـــاس ، فإن من استمسك به فقد استمسك بالركن الذى لا يشقى أبداً من لجأ إليه واعتصم به فى دينه ودنياه .

من يتق الله يحمد فى عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا

التقوى : امتثال الأوامر واجتناب النواهى . والحمد : الثناء بالجميل على الجميل . عواقبه : عاقبة كل شيء آخره — يكفه : من الكفاية بمعنى الوقاية — العز : خلاف الذل . والهوان خلاف العز . والمعنى : من يطع الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهى كان محموداً فى عواقب ذلك . ويدفع الله عنه شر جميع النـاس . سواء أكانوا أعزاء أم أذلاء .

من استعان بغير الله فى طلب فإن ناصره عجز وخـــذلان

الاستعانة طلب الإعانة . فى طلب أى شيء مقصود له . العجز : الضعف . الخذلان : ترك العون والنصر . وقوله فإن ناصره عجز ، من قبيل قولهم رجل عدل . وفيه ثلاثة أوجه : فإن قيل يشترط فى الجملة الشرطية أن يكون الأول سبباً للثـانى وطلب الإعانة من الغير ليس سبباً لأن يكون ناصره عاجزاً : قلنا تقدير الكلام من استعان بغيره تعالى فى طلب مقصوده يكن ذلك سبباً للإخبار بأن ناصره عجز وخذلان . فجواب الشرط محذوف ، نظير قوله تعالى « إن كان قميصه قد من قبل فصدقت » أى يكون سبباً للإخبار بأنها قد صدقت . والمعنى يفهم مما ذكر

من كان للخير مناعا فليس له على الحقيقة إخوان وأخدان

مناع : مبالغة مانع . الحقيقة : من حق إذا ثبت ، والمراد الواقع والخدن

الصديق . المعنى : من كان دأبه وديدنه منع الناس من الخير فليس له فى الواقع صاحب ولا صديق ، وكان شريراً عدواً لنفسه ولغيره ، ومن أظهر له المحبة فإما لدفع شره أو لغرض آخر ، وليس فى الواقع محباً ولا صديقاً له .

من جاد بالمالِ مالَ الناسُ قاطبة إليه والمـال للإنسان فتان

جاد بالشيء : سخابه وسمح . قاطبة : جميعاً . فتان مبالغة من الفتنة ، وهى الامتحان والاختبار . والمراد هنا السحر والجذب . والمعنى : من سخا بالمال أحبه الناس جميعا وانقادوا له ، فان طبيعة المال سحر النفوس وجذب القلوب إلى صاحبه .

من سالم الناس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جذلان

المسالمة المصالحة . يسلم : مضارع من السلامة . الغوائل جمع غائلة من الغول وهو الإهلاك فجأة ، يقال غاله الشيء واغتاله إذا قتله من حيث لا يدرى وعن الكسائى أن الغوائل هى الدواهى . والمراد هنا الشرور . عاش من العيش وهو الحياة . قرير العين : قرت عينه تقَرُّ بكسر القاف وفتحها ضد سَخِنَت . والمراد الاطمئنان ، الجذل بالتحريك : الفرح . يقال جذل بالكسر يجذَل فهو جذلان . المعنى من دار مع الناس ولم يعاند معهم سلم من شرورهم وعاش مطمئنا هادىء البال فرحاً مسروراً .

من كان للعقل سلطان عليه غدا وما على نفسه للحرص سلطان

يقال للقوة المفكرة عقل ، وللعلم المستفاد بتلك القوة أيضاً عقل . السلطان : الوالى والحجة والبرهان أيضاً . وعلى الثانى يجرى مجرى المصدر . المعنى : أن من كانت أعماله صادرة عن سلطان الدين والعقل لم تغلب عليه الشهوة ولا الحرص والطمع ، وكان محبوبا لدى الله والناس أجمعين .

من مد طرفا لفرط الجهل نحو هوى أغضى عن الحق يوماً وهو خَزيان

المطرف : العين . الفرط : أفرط فى الأمر إذا جاوز فيه الحد ، والاسم منه الفرط . الهوى : مقصوراً ميل النفس إلى الشيء ، من هواه يهواه إذا أحبه . والنحو الجانب . الخزى الهوان . أغضى عن الحق أعرض عنه . المعنى : من مدعينه إلى جانب هوى

نفسه الأمارة بالسوء لتجاوز جهله الحد ، وأغمض عينيه عن رؤية الحق ، وأعرض عنه في يوم أي يوم ، والحال أنه خزيان في ذلك اليوم ، مهان حيران ، فالعاقل من لا يجعل زمام عقله في يد نفسه وهواه .

من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهـر برهان

صروف الدهر : حوادثه ونوائبه ، والطبع والطبيعة : السجية التي خلق الإنسان عليها . البرهان : الحجة . المعنى من رجع إلى حوادث الزمان ونوائبه ونظر إليها بالعين السليمة ، ظهرت له الحجة القاطعة على طبيعة الزمان ، وأنه لا يؤمن غائلته . ويقرب من هذا البيت قول بعض الأدباء :

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت له عن عـدو في ثياب صديق

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصـــد الزرع إبان

الزرع : البذر على الأرض ، والمراد العمل . يحصد : حصْدُ الزرع جذاذه وقطعه والمراد يجد . إبان الشيء بكسر الهمز وتشديد الباء وقته وللعقوبة وقتها ، كما قال تعالى « وأملي لهم إن كيدي متين » فالظلمة والأشرار إن لم يندموا في العاجل فلهم ندامة في الآجل ، وكان الظاهر أن يقال من يزرع الشر يحصد الشر ، إذ أن المحصود لا يكون إلا من جنس المزروع ، إلا أنه من قبيل إقامة المسبب مقام السبب ، وهي سائغة شائعة .

من استنام إلى الأشرار نام وفي قميصه منهم صِـلٌّ وثعبان

استنام إليه : سكن واطمأن ، والمراد ركن إليهم . الأشرار : جمع شر كزند وأزناد ، وقيل جمع شرير ، وهو كثير الشر ، مثل يتيم وأيتام . الصل بالكسر الحية التي لا يفيد معها علاج . والثعبان ضرب من الحيات . المعنى : من صاحب الأشرار وخالطهم وصل شرهم إليه من حيث لا يدرى ، ولا يقدر على دفعه . وفي ذكر القميص لطيفة تدرك بالتأمل .

كن ريّق البشر إن الحر همتهُ صحيفة وعليها البشر عنوان

الريق بالتشديد من كل شيء أفضله ، ومنه ريق الشباب ، وريق الثياب ،

وقد يخفف . البشر — بكسر الباء — طلاقة الوجه . الهمة : ما يبعثك من نفسك على طلب المعالى . الصحيفة : القرطاس . وقيل الأوراق المكتوبة ، وهو المراد هنا بقرينة قوله : وعليها البشر عنوان . المعنى : كن طلق الوجه بشاشاً ولا تكن منقبضاً عبوسا . فإن عادة الكريم إدخال الفرح ابتداء على أخيه خصوصاً عند اللقاء كصحيفة جاءت من قريب أو حبيب تحمل البشارة ، فإن مَن وصلت إليه تلك الصحيفة يحصل له الفرح والنشاط بمجرد النظر فى عنوانها ، بخلاف ما إذا كانت معنونة بضدها ، فإنه يتألم لمجرد رؤيتها . كذا من دأبه العبوس والانقباض عند لقاء الناس كما قال بعض الأدباء :

بشاشة وجه المرء خير من القِرَى وكيف إذا جاء بالقرى وهو ضاحك

ورافق الرفق فى كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذممه إنسان

الرفق ضد العنف . الأمور : جمع الأمر وهو الشأن — الرفيق : اللين الهين . المعنى : صاحب اللين فى كل الشئون ، فإن اللّيِّن من بنى الإنسان لا تلحقه ندامة ولا يذمه أحد من الناس ، وإنما يُذم الشديدُ المعاند . وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه » . وقال بعض الحكماء : عليك بالصدق فى مقالك ، والرفق فى أفعالك ، فمن صدق فى مقاله جل قدره ، ومن رفق فى أفعاله تم أمره .

ولا يغرنك حظ جره خَرَق فالُخرق هدم ورفق المرء بنيان

غرته الدنيا غروراً من باب فقد خدعته بزينتها ، واغتر بالشىء خُدع به . الحظ النصيب — الْخَرَق بفتحتين مصدر والاسم الخرق بالضم ، والأخرق ضد الرفيق وبابه طرب . المعنى : لما أمر بالرفق واللين حذر من الغرور بنصيب جره إليه العنف والشدة لأنهما كالهدم والرفق كالبنيان ، والأول مستلزم للعدم ، والثانى مستلزم للوجود .

أحسن إذا كان إمكان ومقدُرة فلن يدوم على الإحسان إمكانُ

يقال : أمكنه إذا جعله قادرا . المقدُرة بالضم اليسار ، وحذف معمول أحسن يفيد العموم أى أحسن إلى كل أحد لأن من أحسنت إليه إذا كان أهلاً له فالإحسان إليه واجب ، و إن لم يكن أهلا له فأنت أهل له . ومعنى البيت واضح .

فالروض يزدان بالأنوار فاغِمَةً والحر بالعدل والإحسان يَزدان

الروضة : الموضع المعجب بالزهور والروضة : العشب والبقل . يزدان من الزين بمعى يتزين الأنوار : جمع نور بفتح فسكون ، ونور الشجرة زهرها — فغِم الورد : انفتح . المعنى : أحسن ما دمت متمكناً من الإحسان قادراً عليه ، لأن زينة الحر الكرم بالعدل والإحسان إلى الناس ، كما أن الروض زينته بالأنوار المتفتحة . فنزل الحر منزلة الروض ، والعدل والإحسان منزلة الأنوار المتفتحة ، والأصل فى هذا الكلام تقدم المصراع الثانى على الأول ليكون تمثيلاً له إلا أنه قدم لضرورة النظم .

صن حُرَّ وجهك لا تهتك غلالته فكل حر لحُر الوجه صوّان

حُر وجهك المراد به ماء الوجه — الهتك : مصدر هتك الستر هتكا من باب ضرب خرقه أو شقه حتى يظهر ما وراءه . وهتك الله ستر الفاجرة : فضحه . الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب والدرع ، والمراد من الحر الكريم . المعنى : صن ماء وجهك لا ترقه لأمر دنيوى لأن الكريم هو الذى يصون ماء وجهه ويحفظه عن كل لئيم كما يصون عرضه كما قال ابن عبد القدوس .

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه

حياءك فاحفظه عليك فإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

دع التكاسل فى الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلانُ

التكاسل إظهار الكسل مع عدم إرادته كالتجاهل . والمراد به هنا الكسل والتثاقل عن الأمر و بابه طرب . السعادة : خلاف الشقاوة . ومعنى البيت جلى .

ولا ظل للمرء يعرى من نهى وتقى وإن أظلته أوراق وأفنان

النُّهى جمع نُهية وهو العقل سمِّى بها لأنه ينهى صاحبه عند القبيح ، وإنما جمعه لأنه أراد به العقل العملى والنظرى ، فالعملى قوة للنفس الإنسانية بها يقتدر على تحصيل الآراء فى الأمور التى تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس والبدن ، والنظرى قوة يتمكن بها من تحصيل العقائد والآراء فى الموجودات التى لا تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس الإنسانية وإطلاق الجمع على الاثنين سائغ . التقى والتقوى بمعنى ، وهو امتثال الأوامر واجتناب النواهى . الأوراق جمع ورق الشجرة والكتاب واحده ورقة . الأفنان جمع فنن وهو الغصن . الواو من وإن أظلته للعطف على محذوف كقولك « أتيتك إن أتيتنى وإن لم تأتنى » وعند البعض الواو للحال وعلى كلا المذهبين معنى الشرطية منسلخ عنها ، إذ المراد التسوية . المعنى : أن من لم ينتفع بالعقل بنوعيه ولم يمتثل الأوامر ويجتنب النواهى فليس يعد فى زمرة الإنسان وإن كانت تظله أوراق الأشجار وأغصانها ، وإن كانت صورته صورة الآدمى ، فإنه فى الحقيقة ليس بآدمى ، لأن كل شىء خلق لغاية ولم تحصل عنه تلك الغاية كان فى حكم المعدوم ، ولذا كثيراً ما يسلب عن الشىء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الردىء هذا ليس بفرس ، وللانسان البذىء ليس هذا بانسان ، ويقال فلان لاعين له ولا أذن إذا بطل فعل عينه وأذنه وإن كان شبحهما باقيا ، وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يبصرون » فى من لم ينتفع بهذه الأعضاء . وعبر بانتفاء الظل وأراد انتفاء الإنسان لأن الظل من لوازمه وانتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم .

والناس أعوان من والته دولته ... وهم عليه إذا عادته أعوان

العون إذا استعمل باللام كان معناه المحبة وإذا استعمل بعلى فمعناه البغض الموالاة ضد المعاداة وهى المصادقة من قولك وليه يليه إذا أحبه وصادقه ، ومنه الولى ضد العدو . الدولة فى الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال كانت لنا عليهم الدولة ، والجمع الدول بكسر الدال . الدُّولة بالضم فى المال يقال صار الفىء

دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . والجمع دولات ودول . والادالة : الغلبة يقال اللهم أدلنى على فلان وانصرنى عليه . ودالت الأيام دارت . والله يداولها بين الناس . وتداولته الأيدى أخذته ، هذه مرة وهذه مرة . والمعنى واضح

سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بَاقِلٌ حَصِرٌ وباقلٌ فى ثَراء المـال سَحْبانُ

سحبان رجل من بلغاء العرب يضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة يقال هو أفصح من سحبان بن وائل وباقل : رجل مشهور بالعى حتى يضرب به المثل فيقال أعيى من باقل — الحصَر : العى وعدم البيان . الثراء : كثرة المال . والمعنى أن الرجل الفصيح البليغ مع الفقر لا يؤبه به ولا يسمع له . والرجل العيِىُّ الذى لايكاد يُبِين مع الغنى موقر محترم وهذا من فساد الزمان .

لا تودع السر وشاء به مذِلا فما رعى غنما فى الدَّوِّ سِرحان

أودعه مالا دفعه إليه ليكون وديعة عنده واستودعه وديعة استحفظه إياها . وشى فى كلامه وشيا : كذب ، ووشى به عند السلطان وشيا : سعى به . وبابه وعد مذل بسره كعلم ونصر وكرم فهو . مذل ومذيل أفشاه الغنم : اسم جنس لا واحد له من لفظه — الدو والدَّوية : المفازة والسرحان بالكسر الذئب جمعه سراحين والأنثى سرحانة — المعنى لا تقل سرك عند من هو معروف بإفشاء الأسرار لأنه لايؤتمن عليه كذئب فى فلاة لايؤمن على الغنم بل الغالب أنه يمزقها ويفرقها . شبه السر بالغنم والوشىَ بالذئب فكما أن صاحب الغنم يريد حفظها كذلك صاحب السر ينبغى له أن يحفظه من واش يفشيه بين الناس كتفريق الذئب الغنم .

لاتحسب الناس طبعا واحدا فلهم غرائز لست تحصيهن ألوان

الطبع : السجية التى جبل عليها الإنسان وهو فى الأصل مصدر والطبيعة مثله . الغريزة الطبيعة والقريحة — اللون : النوع والهيئة كالسواد والبياض وهو صفة الغرائز وكذلك الجملة الفعلية بعدها قدمت للضرورة . المعنى : لا تظن أن الناس

طبيعة واحدة وغرائز متحدة ، لأن غرائزهم متنوعة وطبائعهم مختلفة ، فإذا اقتضت طبيعة بعضهم حفظ السر فلا تظن أن كل أحد أمين عليه . ولتحقيق هذا أورد مثلين . سائرين فقال :

ما كل ماء كصدّاء لوارده نعم ولا كل نبت فهو سعدان

صداء ككتان أعذب عين عند العرب ، السعدان نبت من أفضل مراعى الإبل . أصل المثل الأول أنه لما قتل لقيط بن زرارة من بنى دارم تزوج امرأته رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنتِ من لقيط ؟ فقالت : كل أموره حسنة ، ولكنى أحدثك أنه خرج مرة إلى الصيد فلما رجع إلى وبقميصه نضح من دم الصيد والمسك تضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه فضمنى ضمة وشمنى شمة ، فليتنى مت ثمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ فقالت : ما كل ماء كصداء لوارده . فأرسلته مثلا يضرب للشيء يفضل على أقرانه ويعلو على أشكاله . وأصل المثل الثانى ما رواه أبو عبيد عن المفضل أنه لامرأة من طىء كان تزوجها امرؤ القيس وكان مفرطا ، فقال لها أين أنا من زوجك ؟ فقالت : مرعى لا كسعدان . فأرسلته مثلا : نعم حرف يقرر به ما سبقه مثبتا كان أو منفيا ملفوظا أو مقدراً كقولك لمن يقول أقام زيد ؟ نعم أى قام أو يقول لم يقم زيد : نعم . أى لم يقم . وهنا يقرر بها ما تقدم تقديراً لأن الشاعر لما قال المصراع الأول تخيل سائلا أأى أصادق أنت فيما قلت ؟ فقال : نعم . أى أنا صادق فيه — المعنى : ليس كل إنسان من دأبه إخفاء سر صديقه بل إخفاء أسرار الأحرار شيمة الكرام الأبرار ، كما قيل صدور الأحرار قبور الأسرار كما ليس كل ماء كماء صدّاء فى السلامة والعذوبة لوارده ولا كل نبت كنبت سعدان فى التسمين والمنفعة لراعيه .

لا تخدشن بمطل وجه عارفة فالبر يخدشه مطل وليان

خدشه خدشا من باب ضرب جرحه فى ظاهر الجلد خرج منه دم أولا —

المطل التسويف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى ، وبابه قتل . العارفة . المعروف . الليان بفتح اللام أكثر من كسرها وتشديد الياء المطل فى الدين فهو مرادف لما قبله . المعنى لا تجرحن بأظفار مطلك وجه معروفك وإحسانك لأن المماطلة تشين البر والمعروف . قال بعض الحكماء : خير المعروف من لم يتقدمه مطل ولم يتبعه منّ فخير البر عاجله ، وأفضل الإحسان ما سلم من المن والأذى .

لا تستشر غير ندب حازم يقظ قد استوى فيه إسرار وإعلان

شاوره فى الأمر واستشاره بمعنى ، أى أخذ رأيه فيه ، ندب خفيف فى الحاجة . الحزم ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة . يقظ حذر متحذر : الأسرار : الكتمان . الإعلان : الإظهار . فيه أى عنده . المعنى : لا تستشر فى أمورك إلا من توفرت فيه هذه الخصال الأربعة الخفة فى الحاجة وضبط الأمور والتيقظ والصراحة فى الحق .

فللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان

التدابير جمع تدبير وهو النظر فى الأمر الذى تؤول إليه عاقبته . فُرسان جمع فارس كصحبان جمع صاحب ركض الفرس برجله استحثه ليعدو — أبر الرجل على أصحابه علاهم وغلبهم من الأبرار وهو الغلبة والعلو — المعنى : لما نهى عن استشارة من لم تتوفر لديه شروط الاستشارة تخيل أن المخاطب يحسب أن أهل التدبير انعدموا وأهل الاستشارة فُقِدوا ، فأزال هذا التوهم بقوله : فللتدابير . أى أن أهل الاستشارة باقون ولها رجال إذا ركضوا فى ميزان الرأى نفعوا من يرجع إلى رأيهم ، كما أن للحرب فرسان إذا جالوا فى ميدان القتال غلبوا على أعدائهم وظفروا بهم .

وللأمور مواقيت مقدرة وكل أمر له حد وميزان

المواقيت جمع ميقات وهو الوقت . محددة حد الشيء نهايته ومعناه واضح .

فلا تكن عجلا فى الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران

العجل صفة مشبهة من العجلة وهى خلاف البطء . والنضج بضم النون وفتحها

الإدراك . البحران : عند الأطباء شر المقاومة و الموافقة التى تكون بين الطبيعة والمرض وتلك إنما تكون فى كل ثلاثة أيام ونصف يوم . ثم هذه المقاومة إن وقعت بعد نضج مادة المرض فهى علامة غلبة الطبيعة وآية الصحة ، و إن وقعت قبل نضجها كانت غالباً علامة الهلاك فلذا قالُ فليس يحمد قبل النضج بحران — المعنى : لما كان للأمور أوقات مقدرة وأزمان معينة ، فيكون لها نهاية عينها الله تعالى لحصولها ولا تحصل قبل بلوغها فإذن لا فائدة فى العجلة فليس تحمد كما لا يحمد البحران قبل نضج مادة المرض . وأورد المصراع الثانى على سبيل التمثيل والفاء فى المصراع لأول للتعليل .

كفى من العيش ما قد سد من عوز   ففيه للحر قِنيـــان وغُنيان

المراد من العيش ما يحصل بسببه العيش — سددت الثلمة : أصلحتها وأرتقتها عوز الشىء عوزاً من باب تعب عز فلم يوجد وعزت الشىء أعوزه من باب قال احتجت إليه فلم أجده ، وأعوزنى المطلوب مثل أعجزنى وزناً ومعنى ، وأعوز الرجل إعوازاً افتقر ، وأعوزه الدهر أفقره . وفى بعض النسخ رمق مكان عوز . والرمق بقية الروح . قنيان : مال يتخذ قنية تقول قنوت الغنم و غيرها قنوة و قنيتها قنية بكسر القاف وضمها فيهما إذا اقتنيتها لنفسك لا للتجارة ، واقتناء المال وغيره اتخاذه وقنى الرجل بالكسر قنى كرضى صار غنياً وراضياً وأقناه الله أعطاه ما يقتنى من القنية والنشب . وأقناه أيضا : أرضاه . والقنى الرضا و يقال أيضا أغناه وأقناه : أعطاه ما يسكن إليه . غنيان : مصدر غنيت بكذا عن غيره من باب تعب إذا استغنيت به ، والاسم الغنية بالضم فأنا غنى وغنيت المرأة بزوجها غنيانا بالضم استغنت عن غيره . المعنى : كفاك من المال ما أزال فقرك فلا تطلب كثرة المال لأن بذلك القدر راحة للحر وغنى عن الكثرة مع التعب .

وذو القناعة راض من معيشته   وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان

قنع قناعة من باب سلم رضى بالقسم — الثراء بالمد كثرة المال ومن فى من

معيشته بيـان لمحذوف أى راض بما قسم الله له من أسباب عيشه بخلاف الحريص فهو غضبان غير راض عن الله تعالى و إن أكثر عليه نعمته وماله لأنه غير راض بالمقسوم وما أعطاه الله تعالى بالنسبة إلى حرصه قليل .

حسب الفتى عقله خلا يعاشره إذا تحاماه إخوان وخلان

حسب الفتى كاف له عن غيره . الخل بكسر الخاء : الخليل كالحب والحبيب المعاشرة : المخالطة — تحاماه الناس . توقوه واجتنبوه . المعنى : إذا اجتنب الفتى إخوان سوء وأحباب زور فعقله يكفيه عنهم ، فالرجوع إليه عند الحاجة أولى .

هما رضيعا لبـان حكمة وتقى وساكنا وطن مال وطغيان

اللبان بالـكسر لبن المرأة خاصة . الحـكم : القضاء وأصله المنع يقال حكم عليه بكذا إذا منعه من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك . والحـكمة وزان قصبة للدابة سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه ومنه اشتقاق الحـكمة لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال . وهى لغة كمال العلم قال ابن الأعرابى حكم يحكم إذا تناهى فى علمه .. واصطلاحا استكمال النفس الإنسانية بالعقل النظرى والعمل على قدر الطاقة البشرية . وعند القوم إصابة الصواب فى القول والعمل أو هى نور يقذفه الله تعالى فى قلب المؤمن يدرك به الأشـياء كما يدركها بعينى رأسه . التقى والتقوى بمعنى وهو ترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس . الطغيان مجاوزة الحد — الاعراب هما ضمير مبهم مبدأ يفسره الخبر كما تقول هى العرب تقول كما شاءت . وفائدة هذا الصنيع تشويق السامع أولا بذكر المبهم ثم تفسيره ثانياً ليكون أوقع فى ذهنه . خبره رضيعاً لبان أى لبان ثدى واحد بمعنى أخوان . حكمة بدل من رضيعاً . والمعنى الحـكمة والتقوى أخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر والمـال والطغيان يسكنان فى وطن واحد لا يفارق أحدهما صاحبه . والحـكم باعتبار الأغلب

إذا نبـا بكريم موطن فـله وراءه فى بسـط الأرض أوطان

يقال نبا بفلان منزله إذا لم يوافقه وراء بمعنى خلف ويجئ بمعنى أمام فهو من

الاضداد . والمراد هنا الثانى . بسيط واسع . المعنى : إذا لم يوافق الكريم مسكنه لحصول الهوان له من الأرذال فأرض الله واسعة أمامه فليرتحل إلى بلد موافق وفى هذا المعنى يقول بعض الأدباء .

فأقم بدار ما أصبت كرامة وإذا نبا بك منزل فتحول

ياظالماً فرحا بالعز ساعده إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

الظلم وضع الشيء فى غير موضعه — العز خلاف الذل . ساعده أعانه . السنة : بالكسر النوم الخفيف والمراد هنا النوم وهو غشية ثقيلة تقع على القلب فتمنعه معرفة الأشياء . والسنة مايتقدمه من النعاس . الدهر الزمان والمراد خالقه . المعنى : يامن يظلم الناس مستعيناً بعزه إن كنت فى نوم وغفلة فالله تعالى ليس بنائم ولا غافل فيجازيك ويحاسبك على ظلمك حسابا عسيرا فى هذه الحياة وفى تلك الحياة .

ما استمرأ الظلم لو أنصفت آكله وهل يلذ مذاق المرء خطبان

مرُؤ الطعام من باب ظرف ومرِئ بالكسر صار مريئاً سائغاً هنيئاً تحمد عاقبته واستمرأه وجده مريئاً . الظلم المراد به ما أخذه ظلماً . الإنصاف : العدل . لذ الشيء يلذ من باب سلم لذاذاً ولذاذة بالفتح صار شهياً فهو لذ ولذيذ . ولذذت الشيء وجدته لذيذاً يتعدى ولايتعدى . المذاق الفم أو العصب المفروش على سطح اللسان المودع فيه القوة الذائقة . أخطب الحنظل إذا صار خطباناً وهو أن يصفر وتصير فيه خطوط خضر وخطبان فاعل يلذ ومفعوله مذاق المرء وهو من باب القلب كقولهم عرضت الناقة على الحوض لأن واجد اللذة هو المذاق لا الخطبان . المعنى : لو أنصفت الناس من نفسك ونظرت إلى العاقبة علمت أن ما أكله الظالم مما أخذه ظلماً لم يسغ من حلقه بل ينغِّص فيه ولايجد له لذة فى الحقيقة فهو بمنزلة الحنظل الذى لا يجد المرء لذة فى تناوله .

ياأيها العالم المرضى سيرته أبشر فأنت بغير الماء ريان

السيرة : الطريقة وما عليه الرجل من الأخلاق والأفعال . البشارة : الخبر الذى

يسر به الانسان حتى يظهر أثر السرور على بشرته . الريان : ضد العطشان . المعنى : يامن اتصف بالعلم النافع وحسنت سيرته فى الناس بشر نفسك بحسن الحال والاستغناء عن الناس فأنك حينئذ غنى النفس خفيف على القلوب حبيب لدى الله والملائكة والناس أجمعين .

ويا أخا الجهل لو أصبحت فى لجج فأنت ما بينها لاشك ظمآن

الجهل ضد العلم . أصبح بمعنى صار . لجة الماء بالضم معظمه وكذا اللج ومنه بحر لجّى — الظمآن العطشان والبيت مقابل للبيت قبله . فبعد مابين حال من جمع إلى العلم النافع السيرة الحسنة ، بين حال من أتصف بضدهما ، لكن لما كان الجهل مستلزماً ضد الثانى من الوصفين تركه . المعنى : يامن رسخ فى الجهل ولم يبذل طاقته فى الخروج من ظلمته لو صرت فى لجج لم تنتفع بمائهـا فأنت فيها على حالك قبلها إذ لاشعور لك بالعطش لأن جهلك يحول بينك وبين الشعور بهفالعلم حياة ونور والجهل موت وظلمة .

لاتحسبن سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان

الحسبان والمحسبة : الظن — الدوام الاستمرار . الأبد : الدهر . ساءه ضد سره من باب قال . ومساءة بالمد والإسم السوء بالضم والفتح ومعناه واضح .

يارافلا فى الشباب الوحْف منتشياً من كأسه هل أصاب الرشد نشوان

رفل فى ثيابه أطالها وجرها متبختراً من باب نصر . الشباب : الحداثة وكذا الشبيبة وهو خلاف الشيب — الوحف : الشعر الكثير الأسود ويحرك . ومن النبات الريان تقول : وحُف النبات والشعر يوْحَف ككرم ووجَل وحافة ووحوفة بالضم غزُر والمراد هنا الحسن والقوة . الإصابة : الوصول والبلوغ — الرُّشد بضم فسكون الهداية والاستقامة على طريق الحق — النشوة السكر وانتشا إذا سكر والنشوان السكران . المعنى : يا من اغتر بشبابه وسكر من كأسه ولم يتدبر فى عواقب أمره أجب عن هذا السؤال وهو : أن السكران يجد طريقا إلى الهداية وسبيلا إلى الاستقامة على الحق (لا) .

لا تغترر بشباب رائقٍ خَضِلٍ   فكم تقدم قبل الشيب شبان

الشباب والشبيبة حداثة السن خلاف الشيب — راق الشراب صفا وراقه الشيء أعجبه وبابهما قال . الخضِل الرطب . الشيب : بياض الشعر . والمشيب دخول الرجل فى حد الشيب من الرجال ، الأشيب المبيض الرأس وجمعه شيب — الشبان جمع شاب — المعنى : لا تغتر بعنفوان الشبان وقوته فكثيرا سبق فى الموت القويُّ الضعيفَ والصغير الكبيرَ .

ويا أخا الشيْبِ لو ناصحت نفسك لم   يكن لمثلك فى الإسراف إمعان

النصح الصدق والإخلاص ومنه التوبة النصوح — الإسراف مجاوزة القصد — والسرف بفتحتين اسم منه والمراد الإسراف فى بقية العمر — أمعن الفرس إمعانا تباعد فى عدوه . وأمعن فى الطلب إذا بالغ فى الاستقصاء . والمعنى واضح .

هب الشبيبةَ تُبلى عذر صاحبها   ما عذر أشيَبَ يستهويه شيطان

هب : احسب وافرض يتعدى إلى مفعولين ليس له ماض ولا مضارع — الشبيبة حداثة السن — تبلى تظهر ومنه أبلى فى القتال إبلاء حسنا أظهر بأسه — الأشيب مبيض الرأس — يستهويه يذهب به يقال استهواه كذا إذا هوى به وأذهبه ومنه قوله تعالى « كالذى استهوته الشياطين فى الأرض » ذهبت به مردة الجن بعد أن كان بين الأنس . وقيل استهواه استهامه والمراد زين له الشيطان طرق المعاصى وأضله عن الهدى — المعنى : افرض أن حداثة السن عذر يقبله الناس ولا يلومونه على ما فرط منه وإن لم تصلح عذرا فما عذر من أبيض شعر رأسه وجاءه نذير الموت ، يزين له الشيطان أنواع الفساد ويستميله إلى الشرور والقبائح ؟ فطوبى لمن ملك زمام نفسه ولم يغلب هواه على عقله لأن الهوى مَلِكٌ غشوم وسلطان ظلوم .

كل الذنوب فإن الله يغفرها   إن شيَّع المرءَ إخلاصٌ وإيمان

الذنب الأثم والمراد بالذنوب المذكورة ما سوى الشرك بقرينة قوله إن شيع

المزء الخ الغفر التغطية والستر ، والمراد يتجاوز عنها . التشييع السير خلف المسافر للوداع وكذا خلف الجنازة — الإخلاص فى الطاعة ترك الرياء وخالصه فى العشرة صافاه . الإيمان حديث النفس التابع للمعرفة أى قول الإنسان بعد العلم بالشىء قبلت هذا ورضيته وأذعنت له . أو تصديق النبي صلوات الله وسلامه عليه فى كل ما جاء به عن الله تعالى ومعناه واضح .

وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جُبران

الكسر بمعنى المكسور والجبر : أن تغنى الرجل من فقر أو تصلح عظمه من كسر وبابه نصر تقول جبرت العظم جبراً وجبرانا أصلحته : وجبر العظم بنفسه جبورة انجبر وبابه دخل . القناة الرمح وجمعه قنا كحصى وهى الرماح — الدين . ما شرعه الله على لسان الرسول من اعتقادات وعبادات ومعاملات وأخلاق كريمة — المعنى أن الله تعالى يغفر الذنوب إذا كان للعبد إخلاص وإيمان لأن الدين يُصلح كل ثلمة وخلل فى العمل وأما كسر قناة الدين فخلل واقع فى أصله ولا يرجى له إصلاح .

خذها سوائر أمثال مهذبة ... فيها لمن يبتغى التبيان تبيان

الأخذ التناول . السوائر جمع سائر على غير قياس . أمثال جمع مثل وقد تقدم معناه . التهذيب التنقية ويكون بالتنبيه على العيوب ، ورجل مهذب مطهر الأخلاق . الابتغاء الطلب . والتبيان الإيضاح . والمعنى ظاهر .

ما ضر حسَّانَها والطبعُ صائغها ... إن لم يَصغها قريعُ الشعر حسانُ

الضر خلاف النفع — حسانها قائلها وناظمها يعنى نفسه والضمير لأبيات القصيدة ، ولما كان الناظم شاعراً مطبوعاً معروفاً بالفصاحة والبلاغة نزل منزلة الصفة التى اشتهر بها فى الأوّل ، وأراد بالثانى العَلم الموضوع لحسان شاعر الرسول صلوات الله وسلامه عليه — الطبع السجية — الصائغ من صاغه يصوغه صوغاً وبابه قال : القريع السيد المحنَّك ، يقال : هو قريع دهره من قرعه دهره إذا كان

ذا كان تجربة و بصيرة يقرع الشدائد والمحن التى تصيبه — الإعراب ما المستفهامية خبرها الجملة حسانها مفعول به والضمير فيه يعود على أبيات القصيدة المتقدمة ، والواو للحال ، و إن للشرط يصغها فعله ، والجزاء محذوف دل عليه ما تقدم — و يروى أن بالفتح وعليه تجعل ما نافية وأن وما دخلت عليه فاعل ضر وقريع الشعر فاعل يصغها وحسان عطف بيان عليه — والمعنى : ما تلونا عليك من الأبيات المنقحة والأمثال المهذبة هى غاية فى الحسن ونهاية فى الإبداع و إن لم يكن ناظمها قد بلغ رتبة حسان رضى الله عنه . فإن الشعر لا يعتبر باعتبار قائله ، بل بسلاسته وجودة سبكه . قال على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : (لا تنظر إلى من قال ، وانظر إلى ما قال) ومعناه : إذا سمعت كلاماً فلا تنظر إلى حال قائله ، ولكن انظر إلى كثرة طائله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ومن الملح التاريخية ما روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهود أشهدهم ، فقال . كفى بالله شهيداً ، قال فأتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا . قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى » فخرج الذى استلف « فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها » حال كونه « يقدم عليه » بفتح الدال على الذى أسلفه « للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً » زاد فى رواية أبى سلمة : وغدا رب المال إلى الساحل يسأل عنه و يقول اللهم أخلفنى و إنما أعطيت لك « فأخذ » الذى استلف « خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه » الذى استلف منه « ثم زجج موضعها » سمرها بمسامير كالزج وهو النصل « ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك و إنى جهدت » بفتح الجيم والهاء « أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، و إنى أستودعكها »

وفى رواية استودعتكها « فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه » دخلت البحر « ثم انصرف وهو » أى والحال أنه « فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده » أى بلد الذى أسلفه « فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم » الرجل « الذى كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك المال « الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف » بصيغة الأمر « بالألف الدينار » التى أتيت بها حال كونك « راشداً » مهتديا .

وعنه رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرصَ وأقرعَ وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملَكاً فأتى الأبرصَ فقال : أىُّ شىء أحبُّ إليك ؟ فقال : لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ ويَذْهَبَ عنى الذى قد قَذِرَنى الناسُ » أى تباعد عنى وكرهنى الناس به أى بسببه . فالعائد محذوف و بابه طرب . تقول : قذرت الشىء وتقذرته واستقذرته : كرهته « فمسحه فذهب عنه قَذَرُه وأُعطِىَ لوناً حسنا . قال : فأىُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الإبلُ أو قال : البقر (شك الراوى) فأُعطِىَ ناقة عُشَرَاءَ فقال بارك الله لك فيها — فأتى الأقرعَ فقال : أىُّ شىء أحبُّ إليك ، قال : شَعرٌ حَسنٌ ، ويَذْهَبَ عنى هذا الذى قد قَذِرَنى الناسُ فمسحه فذهب عنه وأُعْطِى شَعَرا حسنا — قال : فأىُّ المال أحبُّ إليك قال البقرُ فأعْطِىَ بقرةً حاملا . قال : بارك الله لك فيها — فأتى الأعمى فقال أى شىء أحبُّ إليك ؟ قال : أن يرد الله إلىَّ بصرى فأُبصِرَ الناسَ . فمسحه فرد الله إليه بصره . قال فأىُّ المال أحبُّ إليك قال الغنم فأعْطِىَ شاةً ولداً : فأنْتَجَ هذان » المشار إليهما صاحبا الإبل والبقر « وَوَلَّدَ هذا فكان لهذا واد من الأبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ثم إنه أتى الأبرص

فى صورته وهيئته فقال : رجلٌ مسكينٌ قَدْ انقطعت بى الحبالُ فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى أعطاك اللونَ الحسنَ والجلد الحسن والمالَ بعيراً أتبلغُ به فى سفرى فقال: الحقوق كثيرةٌ . فقال كأنى أعرفُك ألم تكن أبرصَ يقْذَرُك الناس » بفتح الذال يكرهك « فقيراً فأعطاك الله ؟ قال إنما ورثتُ المال كابراً عن كابر « أى كبيراً عن كبير فى العز والشرف أى ورثته عن أبى وجدى : فقال « إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنتَ — وأتى الأقرعَ فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا وردّ عليه مثلَ ما ردّ هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت — وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيل انقطعتْ بى الحبالُ فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى رد عليك بصرك شاةً أتبلّغُ بها فى سفَرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلىّ بصرى فخذ ما شئتَ ودعْ ما شئتَ فوالله لا أجْهَدُكَ اليومَ بشىء أخذته لله عز وجل . فقال أمْسِكْ مالكَ فانما ابْتُلِيتم » أى امتحنتم أى عاملكم الله العالم بالخفيات معاملة المختبر ليرتب على عملكم جزاءه « فقد رضىَ الله عنك وسخِطَ على صاحبيك » متفق عليه ، والناقة العشراء بضم العين وفتح الشين و بالمدهى الحامل . وقيل الحامل التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل وهى من أنفس الإبل . قوله أنتج وفى رواية فَنَتَجَ معناه تولى نتاجها والنتاج الأولاد والنتج والإنتاج تولى الولادة والناتج للناقة كالقابلة للمرأة : « وقوله ولد هذا » هو بتشديد اللام أى تولى ولادتها وهو بمعنى نتج فى الناقة : فالمولد والناتج والقابلة بمعنى لكن هذا للحيوان وذاك لغيره . وقوله « انقطعت بى الحبال » هو بالحاء المهملة والباء الموحدة أى الأسباب فى طلب الرزق . وقوله لا أجهدك : معناه لا أشق عليك فى رد شىء تأخذه أو تطلبه من مالى . وفى رواية البخارى لا أحمدك : بالحاء المهملة والميم . ومعناه لا أحمدك بترك شىء تحتاج إليه كما قالوا ليس على طول الحياة ندم أى على فوات طولها .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبِقْ قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبِقْ قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدحُ على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برَق الفجر والصِّبية يتضاغون عند قدمىّ فاستيقظا فشربا غَبوقهما اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه — قال الآخر اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحبَّ الناس إلىّ فأردتها على نفسها فامتنعتْ منى حتى ألَمَّتْ بها سنَة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت فلما قعدتُ بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفتُ عنها وهى أحب الناس إلىّ وتركتُ الذهب الذى أعطيتُها اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها — وقال الثالث اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرْت أجره حتى كثرتْ منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال ياعبد الله أدّ إلىّ أجرى ، فقلت : كلُّ ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : ياعبد الله لا تستهزىء بى ، فقلت لا أستهزىء بك . فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا مانحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » — متفق عليه — أغبق بفتح فسكون أى ما كنت أقدم عليهما فى شرب نصيبهما من اللبن أقارب ولا رقيقاً والغبوق كصبور مايشرب بالعشى . وأرح بضم الهمزة وكسر الراء أرجع من أراح رباعيا . ويتضاغون يضجون من الجوع .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اشترى رجل من رجل عقاراً فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أشتر الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض ومافيها . فتحاكما إلى رجل فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما لى غلام . وقال الآخر لى جارية . قال أنكحا الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه فتصرفا » متفق عليه . وفى صحيح مسلم من حديث أنس : مات ابن لأبى طلحة ، من أم سليم ، فقالت لأهلها ، أى لقرابتها الذين عندها وشعروا بوفاة ابنها ، لاتحدثوا أباطلحة بوفاة ابنه ، لئلا يتنغص عيشه وهوصائم فلاينال حاجته من الطعام ، حتى أكون أنا أحدثه فجاء ، فقال : مافعل ابنى ، قالت أم سليم : هو أسكن ما كان ، أى أهدأ أحواله فإنه كان فى قلق واضطراب للنزع فذهب ذلك حينئذ وظن أبوطلحة أنها تريد أنه زال ألمه وأخذ فى العافية وفى عبارتها التوجيه ، فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب ثم تصنعت له ، بتحسين للهيئة بالحلى ونحوه ، أحسن ما كانت تصَنَّع قبل ذلك الوقت . وهذا يدل على قوة صبرها وكمال يقينها ، فوقع بها — جامعها — فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا أباطلحة أرأيت أخبرنى لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألَهم — أى أهل البيت المستعيرين — أن يمنعوهم ؟ قال لا ، قالت فاحتسب ابنك . أى أطلب ثواب ابنك وأجر مصيبتك فيه من الله ولاتدنسها بما يحبط الثواب فإنه كان عندك عارية استرده مالكه . قال أنس : فغضب أبو طلحة وقال لأم سليم : تركتينى حتى تلطخت — أى تقذرت بالجماع — ثم أخبرتنى بابنى . فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك (المذكور من فعل أم سليم الدال على حسن صبرها وكمال يقينها مما يعجز عنه كثير من الرجال) فقال النبى صلى الله عليه وسلم بارك الله لكما فى ليلتكما . قال أنس : فحملت أم سليم وولدت غلاما سماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ورزق عبد الله هذا تسعة أولاد صالحين كلهم قد قرءوا

القرآن لدعائه صلوات الله وسلامه عليه لهما بالبركة — وفى الحديث فوائد : التسلية عن المصائب ، واجتهادها فى عمل مصالحه ، ومشروعية المعاريض إذا دعت إليها الضرورة ولم يترتب عليها ابطال حق لمسلم ، و إجابة دعوة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه — والحامل لأم سليم على هذا الصنيع المبالغة فى الرضا والتسليم لأمر الله وقضائه ورجاء اخلافه عليها مافقد منها ، إذ لو أخبرت أبا طلحة بالأمر فى أوله تنكد عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذى أرادته ، فلما علم الله صدق نيتها و إخلاصها له فى العمل بلغها مناها وأصلح لها فى ذريتها — وكان لأم سليم من قوة القلب وثبات الجنان الغاية القصوى فكانت تشهد الوقائع وتداوى الجرحى وكانت مثلا أعلى فى الشجاعة والمروءة رضى الله عنها . و بالجملة فقد ذكر الإمام النووى فى رياض الصالحين أحاديث كثيرة نافعة فى هذا المعنى وعقد الملاح باباً خاصاً فى آخر كتابه هذا فارجع إليه .

ومن الفكاهات الأدبية — ماروى أن الهرمزان أحد قواد الفرس دخل مستسلما على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ياعمر كنا و إياكم فى الجاهلية على بعد من الله جل وعلى ، فغلبناكم لأنه لم يكن معنا ولامعكم ، فلما كان الله معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا باجتماعكم وتفرقنا — أى ولما جمع الله تعالى بالإسلام بين قلوبنا غلبناكم .

ومنها ما روى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم باناء فيه مرق حار وعنده أضياف فعثرت فصب المرق على رأسه فأراد ميمون أن يضربها فقالت له الجارية : يامولاى أعمل بقول الله تعالى « والكاظمين الغيظ » : فقال لها قد فعلتُ . فقالت اعمل بما بعده : « والعافين عن الناس » قال قد عفوت عنك . قالت الجارية : « والله يحب المحسنين » قال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله تعالى ولك ألف درهم — وهذا غاية فى الحلم والكرم والعفو عند القدرة .

ومنها ما روى : أن محمد بن المنكدر كان يبيع قطعا من الثياب بعضها بخمسة

دراهم وبعضها بعشرة . فباع غلامُه فى غيبته قطعة من الخمسيات بعشرة فلما عرف لم يزل فى طلب ذلك الأعرابى الذى اشتراها حتى عثر عليه فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال : ياهذا قد رضيت فقال وإن رضيتَ فأنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا فاختر إحدى ثلاث إما أن تأخذ قطعة من العشريات بدراهمك ، وإما أن ترد عليك خمسة ، وإما أن ترد قطعتنا وتأخذ دراهمك . فقال أعطنى خمسة . فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابى يسأل ويقول : من هذا التاجر ؟ فقيل له هذا محمد بن المنكدر فقال لا إله إلا الله هذا الذى نسمع أنه مستجاب الدعاء . وهذا مثل أعلى فى العفة والأمانة .

ومنها : أنه كان لمالك بن دينار جار يهودى فحول اليهودى مستحمه إلى جدار البيت الذى فيه مالك وكان الجدار متهدماً ، فكانت تدخل منه النجاسة وكان مالك ينظف البيت كل يوم ولم يقل شيئاً . وأقام على ذلك مدة وهو صابر على الأذى فضاق صدر اليهودى من طول صبره على هذه المشقة . فقال : يامالك قد آذيتك كثيراً وأنت صابر ولم تخبرنى ولم تشكنى إلى أحد . فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فندم اليهودى وأسلم وحسن إسلامه — وعن عبد الرازق قال : صبت جارية لعلى بن الحسين الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الأبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : « والكاظمين الغيظ » فقال لها كظمت غيظى . قالت : « والعافين عن الناس » : قال لها قد عفا الله عنك . قالت : « والله يحب المحسنين » قال : اذهبى فأنت حرة لوجه الله تعالى .

من فضائل على كرم الله وجهه وإنصافه من نفسه ما روى أن يهوديا شكا — على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فلما مثَل بين يديه قال الفاروق لعلى أجلس يا أبا الحسن مع خصمك مجلس الخصومة . فظهرت دلائل الامتعاض على وجهه فلحظ ذلك أمير المؤمنين فقال له : أكرهت يا على أن تجلس

أمام خصمك ؟ قال . لا ! ولكنك ناديتنى بكنيتى فرفعتنى عليه فكرهت ذلك — أى أن من آداب القضاء التسوية بين الخصمين فى مثل ذلك — فانظر هداك الله إلى رجل يتمعض لأن الحاكم يرفعه على خصمه لمجرد ندائه بكنيته (يا أبا الحسن) وهذا مما تغتبط به الناس وترتاح له ولكن عليا رضى الله عنه وكرم الله وجهه كان حريصا على الحق فى نفسه ناصرا له فى مجتمعه ، ولو كان ذلك على نفسه إن عددا قليلا من هؤلاء السادة الأفذاذ الذين يقومون على حراسة الدين الحنيف وآدابه السامية جديرون أن يفتحوا الأرض وأن يصلحوا منها ما فسد وقد فعلوا فأدهشوا العالم.

ومنها ما حكى عبد الله بن عبد الرحمن قال : كنت عند سهل بن عبد الله التسترى [1] الصوفى وهو يتكلم على الناس فوقف علينا غلام جميل فمد بعض الناس عينه ينظره ووافقه جماعة فى النظر . فقال سهل : مهلا أيها الناس تغترون بحلم الله عنكم وإمهاله لكم فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، فانكم هجمتم على ما نهاكم عنه فان عدتم إلى أمره أقام لكم على حلمه ، وإن تماديتم فى شهواتكم لم آمن عليكم عقوبة تأتى إليكم ، فانه ذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فغلبهم البكاء وأعلنوا التوبة والانابة إلى الله تعالى .

(ومنها أيضا) ما روى أن خدم بعض الملوك التقطوا طفلا وجدوه مطروحاً فى الطريق فأمر الملك أن يضموه إلى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء فهذبه وعلمه ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولى عهده به فضمه إليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفيا وخادما أمينا ، وبعد ذلك قدمه فى أعماله فصار حاكما على جميع حاشية الأمير ومتصرفا فى شئون قصره ، وفى بعض الأيام أمره أن يحضر شيئا من بعض حجراته فذهب ليحضره فرأى بعض جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يزنيان ، فتوسلت إليه الجارية أن يكتم

---

(١) بضم التاء الأولى وفتح الثانية ويجوز ضمها منسوب إلى تستر مدينة بجوار ستان سكن البصرة . صحب ذا النون المصرى توفى سنة ثلاث وثمانين .

الخبر ، ووعدته كل ما يطلب وراودته عن نفسه لتأمن شره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ، ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر — لكن الجارية أوجست فى نفسها خيفة وتوهمت أن أحمد اليتيم يفشى أمرها فانتظرت الأمير حتى حضر ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها فقالت إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا ، فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه فعزم على قتله ثم دبر له قتلة فى الخفاء حتى لا يعلم الناس بسبب هذا القتل — ذلك أنه قال لكبير خدمه إذا بعثت إليك أحداً يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وابعث به إلى لأطمئن ثم ادفن الجثة فأجاب الخادم بالسمع والطاعة ، وفى يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم وقال له : اذهب إلى فلان الخادم وقل له يعطيك كذا وكذا . فامتثل الأمر وذهب إلا أنه لقى فى طريقه بعض الخدم فأرادوا أن يحكموه بينهم فى أمر فاعتذر وقال : إنه مكلف بقضاء أمر الأمير فقالوا نبعث فلانا الخادم نائبا عنك ليحضر ما تطلب حتى تفصل فى شأننا .
فأجابهم إلى ما طلبوا فأرسلوا واحد منهم وهو الشاب الذى سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب وأخبر الرئيس بالرسالة أخذه إلى المكان الذى أعده ثم قطع رأسه على غرة وجاء به إلى الأمير ، فلما أبصره زال عنه ما كان يجده من انقباض نفسه ، ولكنه لما رفع الغطاء عنه رأى رأسا غير رأس أحمد اليتيم فسأله عن الذى قتله ، فقال هو فلان ، قال : ألم يكن أحمد ؟ قال لا ، فأمر بإحضار أحمد فسأله عما فعل فأخبره بما كان ، فقال الأمير : أتعرف لهذا الخادم ذنبا ؟ قال : نعم إنه فعل كذا وكذا مع فلانة ، وقد سألونى بالله وبك أن أكتم الخبر ، فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد إلى ما كان من محبة أحمد وإكرامه — وكانت هذه عاقبة الوفاء للوفى وعاقبة الخيانة للخائن والجزاء من جنس العمل « وما ربك بظلام للعبيد »
قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه فى مقام المتشابه من آيات الصفات وأخبارها النبوية ما خلاصته .

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلى والنقلى على هذه العقيدة (عقيدة التنزيه) فإذا جاء فى نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافى ظاهرة التنزيه فللمسلمين فيه طريقان إحداهما طريقة السلف وهى التنزيه وتفويض الأمر إلى الله تعالى فى فهم حقيقة ذلك أى فيقال مثلا نؤمن بـ « الرحمنُ على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزه عن الحلول وسمات الحدوث .

والثانية طريقة الخلف وهى التأويل — يقولون : إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منه عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد فى النقل خلافه يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها أى فيقولون فى « الرحمن على العرش استوى » المراد به الاستيلاء والملك — والقاعدة عند العلماء (أن ظاهر الكتاب أو السنة يجب إبقاؤه على ما هو عليه مالم يخالف المعقول) ومعنى هذه القاعدة أنه يجب حمل كل لفظ ورد فى الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عن تلك الحقيقة اهـ

وبهذا البيان القيم يمكن فهم وتطبيق الوقائع على الوجه المعقول الصحيح وبالله التوفيق .

الفصل الثالث عشر

ضرب الأمثال

لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار فى النفوس — فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر فى العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته — ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحسُّ مطابقاً للعقل ، وذلك هو النهاية فى الإيضاح — ألا ترى أن الترغيب

فى الإيمان إذا كان مجرداً عن ضرب مَثل له لم يتأكد وقوعه فى القلب كما يتأكد إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة — وإذا كرّه فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول كما يتأكد إذا مثّل بالظلمة أو بشجرة خبيثة — وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور ، وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ فى تقرير صورته من الاخبار بضعفه مجردا .

وفرقٌ بين قولك لإنسان وأنت تعظه : إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغُرّ نفسك ، وأقلع وأنب إلى ربك ، وبين أن تقول له فى أثره : إنك لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع — وكذا بين أن تقول : إن الدنيا لا تدوم ولا تبقى ، وبين أن تقول : الدنيا ظل زائل وعاريّة تسترد ووديعة تسترجع ، وتذكر قول النبى صلوات الله وسلامه عليه : « من فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عاريّة ، والضيف مرتحل والعاريةً مؤداة » . وتنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقولَ الآخر :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعارُ

وما إلى ذلك مما ينبئك عن صيغ التمثيل ويخبرك عن حال المعنى معه . وأن إبراز المعانى باختصار فى معرض التمثيل ابتداء أو مجيئه فى أعقاب المعانى وعلى أثرها لإيضاحها وتقريرها آكد وقعاً فى القلوب وأبلغ أثراً فى النفوس إن الآخرة خير لوجوه (الأول) إن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة (الثانى) إن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة (الثالث) إن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره ونعم الآخرة صافية عن الكدورات (الرابع) إن نعم الدنيا مشكوكة فإن أعظم الناس تنعما لا يعرف أنه كيف تكون عاقبته فى اليوم الثانى ونعم الآخرة يقينية — وكل هذه الوجوه توجب رجحان الآخرة على الدنيا — إلا أن هذه الخيرية إنما تحصل للمؤمنين المتقين فلهذا المعنى ذكر تعالى هذا الشرط

وهو قوله « لمن اتقى » وهذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

ولمثل هذا أكثر الله تعالى فى كتابه الحكيم وفى سائر كتبه من ضرب الأمثال : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ومن سور الإنجيل سورة الأمثال وشاعت فى الكلمات النبوية وذاعت فى عبارات البلغاء وإشارات الحكماء . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكثر من ضرب الأمثال فى مخاطبته ومواعظه كما سيأتى . واعلم أن من قضية وجوب التماثل بين الشيئين فى مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير .

وقد مثل فى الإنجيل غل الصدور بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير وجاء فى عبارات البلغاء : أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد[1] وأضعف من بعوض : وأطيش من فراشة ، وآكل من السوس ، وأعز من مخ البعوضة — إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى .

ومن الأمثال السهلة فى ثبوت الحق وزهوق الباطل قوله تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله[2] كذلك » أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة « يضرب الله الحق والباطل » أى مثل الحق ومثل الباطل وبين ذلك بقوله « فأما الزبد » من السيل وما يوقد عليه من المعادن « فيذهب جفاء » أى يرمى به « وأما ماينفع الناس » من الماء الصافى وخالص المعادن « فيمكث فى الأرض » ينتفع به أهلها « كذلك » مثل ذلك الضرب العجيب « يضرب » يبين « الله الأمثال » فى كل باب إظهاراً لكمال اللطف والعناية فى الإرشاد والهداية فإنه تعالى مثل الحق فى إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من جهة السماء فتسيل به الأودية

(١) ذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها .

(٢) (زبد رابيا) غثاء ورغوة عاليا فوق الماء (زبد مثله) خبث مثل زبد الماء فى كونه رابيا فوقه .

على قدر الحاجة والمصلحة حسبما اقتضته مشيئته تعالى وحكمته ، فينتفع به من وجوه شتى ، ويمكث فى الأرض بأن يبقى بعضه فى منابعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنوات والآبار . وبالسبيكة التى تؤخذ من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد للانتفاع بها فى الحلى وعمل الأمتعة كالأوانى ، وآلات الحرب والبخار ، ويدوم ذلك مدة طويلة ، ومثل الباطل فى عدم نفعه وسرعة زواله بزبد الماء والمعادن .

ومنها فى سرعة انقضاء الدنيا قوله تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » أى اذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها . ولا يضربوا عن الآخرة صفحا ، وأنها كماء أنزلناه من السماء فالتف بسببه نبات الأرض وخالط بعضه بعضاً لكثرته فصار النبات إثر بهجته ونضارته مهشوماً مكسراً تفرقه الرياح — والمشبه به الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر براقا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يكن « وكان الله على كل شىء مقتدرا » قادرا على الكمال ومن جملة الشىء الإنشاء والإفناء

ومنها ما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مَثَلُ الجليسِ الصالح والجليس السُّوء كحامل المسك ونافخ الكِير فحاملُ المسك إما أن يُحْذِيك ، و إما أن تبتاعَ منه ، و إما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخُ الكِير إما أن يُحْرِق ثيابك ، و إما أن تجد منه ريحاً مُنْتنة » .
مَثَلُ . صفة : السوء بالفتح مصدر أطلق عليه مبالغة فى التنفير منه و بالضم اسم مصدر . ويجوز ضم وفتح السين فيما ذكر . والكير بكسر فسكون الزق الذى ينفخ به . يُحذيك كيعطيك وزنا ومعنى . تبتاع تطلب البيع منه . منتنة قبيحة متغيرة . فجليس الأخيار إما أن يعطى بمجالستهم من الفيوضات الإلهية أنواع الهبات فضلا من الله وإحساناً ، و إما أن يكتسب بمجالستهم علوماً وآدابا يستفيدها منهم و يأخذها عنهم و إما أن يكتسب بمصاحبتهم حسن الثناء وجميل الأحدوثة . وجليس الأشرار

إما أن يحترق بشؤم معاصيهم قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » والركون الميل إليهم بنحو المجالسة والمصاحبة ، و إما أن تدنس سمعته وتقبح بين الناس سيرتُه — وفى الحديث حث على مصاحبة من ينال الخير بمجالسته من علم وخلق حسن وذكر الله تعالى وهداية إلى طرق الخير وأنواع البر ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح وقال الترمذى : حديث حسن — الدين الطريق والمسلك . والخليل الصديق . و إذا كان المرء على مشرب صديقه فلينظر بعين البصيرة إلى أعمال من يريد صداقته وأخلاقه فمن رضى أعماله وأخلاقه صادقه ومن سخط أعماله وأخلاقه تباعد عنه — من كلام على رضى الله عنه : إياك وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منْظَره و يقبح أثره — وفى الحديث أيضاً تحذير من مجالسة من ينال الشر والإثم بمخالطته كالمغتاب والنمام والسكير والزانى والمرائى . وهذا المثل فى الحث على مصاحبة الأخيار ومقاطعة الأشرار .

وروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقُها و إنها مَثلُ المسلم فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدِّثنا ما هى يارسول الله . قال هى النخلة » .

مثل بكسر فسكون و بفتحتين كشبه و شبه و زنا ومعنى والمراد الحال العجيبة أو الصفة الغريبة — وقع الناس ذهبت أفكارهم إلى شجر البوادى وذهلوا عن النخلة فجعل كل يذكر نوعا من الأنواع — فاستحييت منعنى الحياء من التصريح بما فى نفسى لكونه أصغر القوم ورأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما لا يتكلمان . والمعنى : كأنه صلوات الله وسلامه عليه قال : إن حال المسلم العجيب الشأن كحال النخلة أو صفته الغريبة كصفتها . فالمسلم هو المشبه والنخلة المشبه بها و وجه الشبه بينهما كثرة خيرها و دوام ظلها وطيب ثمرها و وجوده ما دامت حية والانتفاع بخشبها و ورقها وأغصانها و جمال قوامها و تنضيد طلعها و جميع أجزائها حتى نواها ينتفع به

علفاً للأبل فكلها خيرات ومنافع . كذلك المؤمن خير كله بصالح عمله وحسن معاملته ومكارم أخلاقه وما يظهر على يديه من جلائل الأعمال النافعة له ولأمته فالإيمان الصحيح كشجرة طيبة لا يثمر إلا طيباً . وفي الحديث استحباب طرح الأستاذ المسائل العلمية على تلاميذه اختباراً لإفهامهم وتشجيعاً لهم على حسن التفكير ، وفيه أيضاً مشروعية الامتحان لطلاب العلم ليعرف الكفء للوظائف الدينية من غيره — وفيه أيضاً توقير الكبار وعدم التكلم بحضرتهم واستحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان وزيادة الإفهام والإيضاح . وهذا المثل في بيان آثار الإيمان الصادق وما يجب أن يكون عليه المؤمن من الأعمال النافعة والأخلاق الفاضلة .

وروى أيضاً من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدْلَجُوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم — فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » — مثل . المثل بفتحتين الحال العجيبة الشأن أو الصفة الغريبة كما سبق . يورده البليغ على سبيل الشبه لإرادة التقريب والتفهيم . ما بعثني الله به إليكم . أي مع المبعوث إليهم فالمثل مورد لهذه الثلاثة كما يعلم من الحديث . عيني بالتثنية والإفراد . النذير العريان : المنذر الذي تجرد عن ثوبه وأخذ يرفعه ويديره فوق رأسه إعلاما لقومه بالغارة — ذلك أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عال فإذا رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عريانا — ضرب به النبي صلوات الله وسلامه عليه المثل لنفسه ولما جاء به ولمن جاء إليهم تقريباً لإفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه لأنه تجرد لإنذارهم . النجاء بالنصب مفعول مطلق فيه إغراء أي اطلبوا النجاء بأن تسرعوا بالهرب لأنكم لا تطيقون مقاومة ذلك الجيش . والنجاء الثاني تأكيد وكلاهما ممدودان

وجاء فيهما القصر . فأدلجوا من الإدلاج وهو السير أول الليل أو كله وهمزته همزة قطع . المهل بفتحتين السكينة والتأنى . فنجوا لأنهم أطاعوا النذير وساروا من أول الليل. صبّحهم الجيش أتاهم صباحا هذا أصله ثم استعمل فيمن يطرق بغتة فى أى وقت كان . اجتاحهم بجيم ثم حاء مهملة استأصلهم من جحت الشىء أجوحه إذا استأصلته . ومنه الجائحة وهى الهلاك — وفى الحديث إرشاد الأمة وحثها على التزام المسارعة إلى الخير والطاعة وتحذيرها من الوقوع فى الشر والمعصية ببيان حسن مغبة الطاعة وسوء عاقبة العصيان — وهذا مثل فى الطائع والعاصى وبيان مآل كل منهما

وروى أيضاً من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها وكان الذين فى اسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا و لم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً و إن أخذوا على أيديهم نَجوْا ونَجَّوا جميعاً » . القائم فى حدود الله المنكر لها القائم فى دفعها و إزالتها ، والحدود ما نهى الله عنه . واستهموا اقترعوا : نجوا أى الآخذون فى أنفسهم و نجوا بالتشديد أى نجوا المأخوذين الممنوعين — وهكذا إقامة الحدود يحصل لمن أقامها وأقيمت عليه و إلا هلك العاصى بالمعصية والساكت بالرضى بها — وفيه وقوع الجميع فى العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من حديث جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلىّ يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا . فقال : اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك — فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد

رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » .

وإذا أردت أن تبين أن العمل الصالح هو الصاحب النافع فاضرب لهم مثلا رجلا كان له أصحاب ثلاثة لايقوى على مفارقتهم ، وكان يميل إلى اثنين منهم ميلا شديداً ولايركن إلى الثالث إلا قليلا مع أنه كان حسن الطوية خالص النية ، فاتفق له ذات يوم أنه اتهم بتهمة خطيرة (جناية قتل) فقبض عليه وزج به فى أعماق السجن وهو فى الواقع برىء ، فأخبر أصحابه بأمره وطلب منهم أن يذهب أحد منهم معه إلى دار القضاء ويشهد له بما يعلم كى ينجو من خطر الحاكم . فاعتذر الأول قائلا : إنه يتعذر على الانتقال لكثرة ماعندى من الأشغال . والثانى ذهب معه إلى باب المحكمة ثم أحجم عن الدخول خوفا من غضب الحاكم عليه واتهامه بالتزوير فى الشهادة لمكان الصحبة — وأما الثالث الذى كان قليل الميل إليه فإنه لم يتأخر عن الذهاب معه والدخول أمام القضاء . فلما مثل بين يدى الحاكم شهد لصاحبه بالحق وعلم الحاكم صدقه فى الشهادة فقبل شهادته وعطف قلبه على صاحبه المتهم فحكم ببراءته وأخلى سبيلَه .

فالمراد بالأصحاب الثلاثة المال والعيال وصالح العمل — فإن لكل امرئ فى هذه الحياة أصحابا ثلاثة ماله وأهله وعمله لاينفك عنها ولا استغناء له عنها — فإذا فاضت روحه فارقته أمواله التى هى أعز أحبابه ، وأما أهله وعياله فإنهم يذهبون معه إلى باب القبر ثم يتركونه راجعين إلى منازلهم يتنازعون ماترك — وأما أعماله التى كان لايعرف مايترتب عليها من حسن العاقبة فإنها لاتفارقه إلى أن يقف بين يدى أحكم الحاكمين وتشهد أمامه لصاحبها لاعليه ، فيشمله الله بعدله ورحمته ويدخله فسيح جنته — قال صلوات الله وسلامه عليه : « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » . متفق عليه .

مثل الدنيا وأهلها فى تعلقهم بها

الدنيا شبه ملجأ أقامه ملك قوى غنى ليأوىَ إليه أبناء السبيل المسافرون ، وقد أعد فى هذا الملجأ كل وسائل الراحة من أغذية وأكسية وأوان وفرش وجميع مايحتاج إليه اللاجىء من المسافرين ، وأباح لهم الانتفاع بكل مافيه انتفاع العاريَّة ثم يتركها لمن يأتى بعده . فيأخذها فرحا مسروراً وعند الرحيل يتركها راضياً شاكراً للملك حسن صنيعه . فكان النازلون فيه على قسمين : قسم انتفع بها على أنها عاريَّة ثم سلمها منشرح الصدر شاكراً وهم العقلاء المتبصرون — وقسم ظن أن هذا الملجأ وطن له وأن جميع مافيه من متاع ليس عاريَّة تسترد بل منحة مؤبدة فكانوا لايخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح وهم الحمقى عمى البصائر .

ومثل آخر للدنيا

مثل الناس فيما أوتوا من متاع الحياة الدنيا كمثل رجل هيأ متحفاً جميلا وأباح الدخول فيه على الترتيب لكل جماعة يوم معين فدخله طائفة منهم فقدم إليهم طبقٌ من ذهب عليه بخور ورياحين ليشموه ويتركوه لمن يأتى بعدهم لايتملَّكوه فمن كان على علم بقانون هذا المتحف ورسومه انتفع به ثم تركه راضياً شاكراً — ومن جهل قانون المتحف ورسومه وظنوا أنه هبة لهم دائمة ومنحة من صاحب المتحف مؤبدة تفجعوا لاسترجاعه منهم وتألموا لأخذه من أيديهم .

ومَثَل الناس فى اشتغالهم بالدنيا وزينتها عن الدين مَثَل إنسان منحه ملك عظيم جوهرة ثمينة وأمره بالمحافظة عليها ونهاه عن التفريط فيها ، ثم لقيه صائغ خبير بالجواهر فأوصاه أيضاً بالمحافظة عليها وحذره من التفريط فيها ، فلقيه شخص محتال عدو لهذا الملك ولرعيته ؛ فلما رأى تلك الجوهرة حسده عليها وأظهر له جوهرة أخرى مزخرفة ومزينة بكل أنواع الزينة من الذهب والفضة والألماس واللؤلؤ والزمرد والياقوت ولا زال يحتال عليه ويزينها له حتى استبدل هذه الجوهرة المزخرفة بتلك الجوهرة الثمينة ، فلقيه ذلك الصائغ ثانياً فسأله عن جوهرة الملك فقال قد استبدلت

بها هذه الجوهرة المزينة ، فقال له الصائغ هذه ليست بجوهرة بل قطعة بلور مزينة بأنواع الحلى وقد خدعت فى الاستبدال فاختلفا فى أمرها فتحا كما إلى شيخ الصاغة فقضى بأنها قطعة بلور لاجوهرة فسقط فى يده وتحسر على مافرط فى منحة الملك .

فالملك هو الله تعالى ، والإنسان هو المكلف ، والجوهرة الثمينة هى الشريعة الغراء ، والصائغ هو العالم الناصح ، والمحتال هو الشيطان فهو للإنسان عدو مبين ، والجوهرة المزينة هى الدنيا وشهواتها ، وشيخ الصاغة رسول الله صلوات الله وسلامه ليه فهو المرجع عند التنازع والاختلاف ، وهو المرشد الأول والناصح الأمين وعلماء الأمة نوابه فى ذلك ، وكل من فتن بالدنيا وزينتها وشغل بها عن طاعة الله تعالى فهو لاشك خاسر ونادم فى الآخرة « يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » من الشرك والنفاق وهو قلب المؤمن فإنه ينفعه ذلك .

ومن الأمثال السهلة فى كيفية توزيع الجزاء فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا أن تقول : الناس ينقسمون فى الآخرة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثال ذلك فى الدنيا أن يستولى ملك قوى على إقليم فيقتل بعضَهم فهم الهالكون . ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون . ويُخلى سبيلَ بعضهم فهم الناجون . ويخلعَ على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له فى أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يُخلى إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى خدمته ونصرته — وتتفاوت الخلع بتفاوت الدرجات فى الخدمة . والإهلاك أيضاً يكون بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجات المعاندة . وتعذيبُ المعذبين فى الخفة والشدة وطولِ المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فكذلك الناس فى الآخرة يتفاوتون فى الجزاء بحسب تفاوت الأعمال « الرتبة الأولى » رتبة الهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، ولا تكون إلا للجاحدين المعرضين عن الله تعالى المتجردين للدنيا

المكذبين بالله ورسله وكتبه فإن السعادة الأخروية لاتنال أصلا إلا بالإيمان «الثانية» رتبة المعذبين وهى لمن تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه ، وشدةُ العذاب وخفتهُ وطولُه وقصرُه بأمرين : الأول قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته والكلامُ فيمن مات على غير توبة « الثالثة » رتبة الناجين والنجاة السلامة فقط وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين ومن لم تبلغهم الدعوة وعاشوا على البله فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فماهم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون منزلة بين المنزلتين « الأعراف » « الرابعة » رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم السابقون المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان قال تعالى : «فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال عز وجل : فى الحديث القدسى « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . متفق عليه .

وفى الكتاب والسنة وكتب القوم من ذلك شىء كثير[1] مفيد وبمثله يستطيع أن يسترعى الأسماع ويمتلك القلوب حتى يقودها إلى مباشرة العمل ويرد النفوس الشريرة عن الغى إلى الرشد وبمثله يمكنه أن يسحر الألباب حتى ينسى السامعُ من يقول ويفكر فيما يقول ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيرة المرضية ، وبهذا يسهل عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشر والفساد ، ويغرس فيها حب الخير والصلاح وروح الألفة والاتحاد ، وبهذا يصلح حال الناس وتنال السعادة فى العاجل والآجل وبالله تعالى التوفيق .

(١) وقد تركنا بيان مايستفاد من بعض هذه الأمثال من العظات والعبر لاستعداد الطالب وفطانته .

الفصل الرابع عشر

رعاية مقتضى الحال

وينبغى للمرشد أن يلاحظ ماتقتضيه أحوال الأشخاص والمجتمعات الخصوصية والعمومية ويراعى أيضاً الزمان والمكان من إلقاء درس أو خطابة أو شدة أو لين أو جدل بالحسنى أو ضرب مثل أو رواية قصص أو إيجاز أو إطناب فيما يقول إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والجامع لهذه المتفرقات قول الله جل ثناؤه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » فإنه تعالى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى دين الإسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم ، وأخرى بملة إبراهيم بالمقالة المحكمة وهى الحجة القطعية المزيحة للشبهة ، وذلك بالنسبة لأولى النفوس القوية الاستعداد لإدراك المعانى الطالبين للحقائق وهم الخواص ، وبالخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتتوخى الخير لهم ، وذلك بالنسبة لذوى النفوس الكدرة ضعيفة الاستعداد الشديدة الألف للمحسوسات القوية التعلق بالرسوم والعادات ولكن لا عناد عندهم وهم العوام ، وبأحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات تسكيناً لشغبهم وإطفاء للهبهم كما فعل الخليل عليه السلام ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف ، ورسخ فى نفوسهم من العقائد الباطلة فصاروا بحال لا تنفع فيه المواعظ والعبر بل لابد من إلقامهم الحجر لكن بأحسن طرق الجدال لتلين عريكتهم وتزول شكيمتهم . الشغب بالتسكين تهييج الشر ولا يقال شغب بالتحريك .

ويصح أن يقال إن هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن المدعوين على ثلاثة أحوال : منيب متذكر ، وهذا شديد الحاجة إلى معرفة الأوامر والنواهى . ومعرض

غافل ، وهذا شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب . ومعارض متكبر ، وهذا شديد الحاجة إلى المجادلة فجاءت هذه الآية الكريمة فى حق هؤلاء الثلاثة ، ولم يقيد الحكمة بوصف الحسنة إذ كلها حسنة بخلاف الموعظة إذ ليس كل موعظة حسنة وكذلك الجدال ، وهذا قد يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقه ، فهو مأمور بمجادلتهم بالحال التى هى أحسن .

والحاصل أن طرق الدعوة إلى الله تعالى تتفاوت بتفاوت أحوال الناس فإن لكل مقام مقالا ، ولكل نفس إعراضاً و إقبالا فقد يكون الدرس أنفع للقوم لاشتماله على الأخذ والرد والوقوف على ما عساه أن يكون غامضاً على السائل فلا يعدل عنه إلى الخطابة ، وقد تفضل الخطابة الواحدة ألف درس فى بعض المجتمعات والأوساط فلا يعدل عنها إلى الدرس . وقد يكون اللين أفضل من الشدة فقد تكره الموعظة لما فيها من الغلظة أو الخُرْق . قال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إنى أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها . قال : كلا ، إن الله أمر مَن هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شر منى ، قال لنبيه موسى إذ أرسله إلى فرعون : « فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » أى لا قولاً غليظاً منفراً ، والقول اللين نحو قوله تعالى : « هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » فإن ظاهره الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه الفوز العظيم والسعادة الدائمة والترجى بالنسبة لهما أى اذهبا على رجائكما وطمعكما و باشرا الأمر مباشرة من يرجو و يطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجهد طاقته و يبذل أقصى وسعه .

كذلك الإيجاز لا يكون إلا للخواص وأولى الألباب الراجحة والقلوب الحاضرة . وأما الإطناب فهو مشترك بين الخاصة والعامة و يكون مع الغبى والذكى . وليجعل القرآن الحكيم فى ذلك إماماً يقتدى به ومرشداً يهتدى بهديه ، ألا ترى أنه إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الوحي والإشارة لشدة ذكائهم وقوة فطنتهم ورجاحة عقولهم ، و إذا خاطب غيرهم كبنى إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مطولاً مبسوطاً معاداً فى مواضع كثيرة لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم

واحتياجهم إلى الإكثار والإطالة ، فمما خاطب به مشركى العرب فى مقام الاستدلال على قدرة الله ووحدانيته قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

بيانه أن أقل درجة المعبود القدرة على جلب ما ينفع العابد ، ودرء ما يضره ، والآلهة التى عبدها المشركون لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه ، فكيف ماهو أكبر منه . ولايقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه ، فلاهم قادرون على خلق الذباب وهو أضعف الحيوانات ، ولا على استرجاع ماسلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يليق بعاقل أن يعبدها من دون الله ، والمعبود فى الضعف والعجز فهو عاجز متعلق بعاجز ، وقيل هو تسوية بين السالب والمسلوب الذباب والآلهة فى الضعف والعجز فالطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما يأخذه مما هو عليه ، ولفظ الآية يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب فمن جعل هذا إلها مع القوى العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه فى بطلان الشرك وتجهيل أهله وتسفيه أحلامهم والشهادة على أن الشيطان قد لعب بهم أعظم من لعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التى من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم أن هذا المخلوق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستردوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه

وقوله تعالى فى الاستدلال على وحدته وأن الألوهية تقتضى الاستقلال بالتصرف فى الملك « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » فان هذا الكلام لايوازيه فى الاقتصار كلام .

ومما جاء فى مقام الرد على منكرى البعث قوله تعالى « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » فأنه لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة فى البعث على هذا الإيجاز لم يقدروا — ونظيره قوله تعالى « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » وقوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » فإن هذا معلوم لكل صانع يتكرر منه عمل لأن الأول لم يستقر بعد فى خزانة الخيال ، والثانى قد ارتسم وثبت له مثال ، وإذا كان هذا فى حق من يتفاوت فى قدرته الصعب والسهل كذلك فما ظنك بمن لايتوقف مقدوره إلا على مجرد تعلق الإرادة الأزلية ؟ فهذه الآيات الكريمة على إيجازها برهان قائم على أن البعث مما يدخل تحت سلطان قدرته تعالى من باب أولى وغير خاف عليك ما جاء فيه عن بنى إسرائيل .

وعلى الجملة فللايجاز موضع كما أن للإطناب موضعاً فاستعمال أحدهما موضع الآخر خطأ واضح وعى فاضح ، كما روى عن جعفر بن يحيى البرمكى أنه قال : متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عياً . وقال الخليل : يختصر الكلام ليحفظ ويبسط ليفهم — وقد كانت العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها — فالإطناب إذا لم يكن منه بد فهو إيجاز وهو فى الوعظ خاصة محمود كما أن الإيجاز فى الافهام محمود . والمرشد الحازم هو الذى يتفرس فى حال القوم ويأتى فى كل حال مايناسبه وسيأتيك مزيد بيان لهذا المقام مع عدة تطبيقات فى الضرب الرابع من أضرب الترهيب فتفطن له .

الفصل الخامس عشر

« الطرق التى ينبغى للمرشد أن يسلكها فى إرشاد الناس »

إعلم أن ذلك يطول بيانه . ولا يمكن استقصاؤه . فانه يختلف باختلاف الأمراض الاجتماعية ويتنوع بتنوع الأحوال والدواعى ، ولكنها ترجع إجمالا إلى طريقين : الترغيب والترهيب . كما يشير إليه قوله تعالى « إنّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم[1] ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » . فإن قوله عز وجل ويبشر المؤمنين وما بعده بيان لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ، فالترغيب بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظيم الخير ، وتبشيرهم بحسن المثوبة — والترهيب بوعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى ، وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة — ثم إن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما — والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما .

فقد وعد جل شأنه المؤمنين الصادقين الاستخلافَ فى الأرض . والأمنَ من المخاوف ، والعزة والسيادة والحياة الطيبة — وأوعد العاصين بالخزى والذل ، وضنك المعيشة فى الحياة الدنيا — كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة .

وبالوعد ساق الطائعين إلى الجد فى الطاعة ، وبالوعيد وقف العاصين عند حد الأدب ؛ وإليك بيان الطريقين .

الترغيب

نذكر لك من هذا الطريق ما يفيد فى حمل الناس على التشمير عن ساعد الجد فى طاعة الله تعالى لنيل السعادة فى الدنيا والآخرة وهو ضربان (الأول)

---

(١) للملة أو الشريعة أو الطريقة التى هى أقوم الطرق وأسدها وهى ملة الإسلام والتوحيد ، والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى إليها من تمسك به ، لا تحصيل الهداية بالفعل وإلا كان خاصاً بالمؤمنين .

الترغيب فى جنس الطاعات بما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة كقول الله تعالى : « وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا » . فأنه تعالى وعد الذين جمعوا بين الإيمان وصالح العمل — ومنه نصر دين الله — أن يجعلهم خلفاء فى الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم ، كما استخلف بنى إسرائيل فى مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبارين ، وأن يجعل دينهم ثابتاً مقرراً بحيث يستمرون على العمل به ويرجعون إليه فى كل ما يأتون ، وما يذرون ، وأن يبدلهم بعد الخوف من الأعداء أمناً بتأييدهم بالنصرة والإعزاز ، ولقد أنجز تعالى وعده هذا للمهاجرين وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم ، وبذلك رغبهم فى الطاعة .

وقوله تعالى : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » . أى للذين أحسنوا أعمالهم فى هذه الدار مثوبةٌ حسنة مكافأة لهم فيها على إخلاصهم فى العمل ولمَثُوبتهم فى الدار الآخرة خير وأعظم مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة فهذا وعده تعالى للمخلصين فى الأعمال بحسن الجزاء فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ترغيباً لهم فى الازدياد من صالح العمل مع الإخلاص فيه .

وقوله تعالى ترغيباً فى صالح العمل : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . فإنه تعالى وَعَدَه حسن الحال والمآل كقوله تعالى : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . فيعيش الموفق عيشاً طيباً هنيئاً ، وإن كان معسراً فإن معه من القناعة ، والرضى بالمقسوم ، وتوقع الأجر العظيم ما يطيب عيشه — بخلاف الفاجر المخذول ولو كان موسراً فلا يدعه الحرص ، وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه فهو دائماً فى عناء ونكد ، هذا فى الدنيا ، والجزاء الآخرة خير وأعظم ، والعيش عيش الآخرة .

وقوله تعالى ترغيباً فى التقوى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » . فهذا أيضاً وعد

منه تعالى للمؤمنين الصادقين أن يمنحهم بتقواهم هداية فى قلوبهم يفرقون بها بين الحق والباطل ، أو نصراً وظفراً يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين والمنافقين كما قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أو نجاة مما يحذرون فى الدارين وفى الآخرة يستر عنهم السيئات ويعفو لهم عن الزلات .

والحاصل أن العمل على مقتضى الدين ورعاية سنن الله فى خلقه يورث ملكة العلم والحكمة وينير البصيرة ، وبذلك يفرق المرء بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذ ذاك يمنحه الله نصراً على أعدائه يعز به المؤمن ويذل به العدو .

وقوله تعالى ترغيباً فى التمسك بالدين : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » أى وأوحى إلى أنه لو استقام الجن والإنس على ملة الإسلام لوسعنا عليهم الرزق — وتخصيص الماء الغزير بالذكر لأنه أصل السعة والخيرات كلها فى الدنيا « لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعدا » لنختبرهم كيف يشكرون — وكما يختبر الله تعالى عبده بالبلايا ليظهر أمرُه أيصبر عليها أو لا يختبره بالنعم أيشكره عليها أم يكفره — ومن يعرض عن طاعة الله تعالى وسماع موعظته وقبول وحيه يدخله عذاباً شاقاً صعباً لا يطيقه .

وقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما » البرهان ما يبرهن به على المطلوب ، والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى به لما معه من المعجزات التى تشهد بصدقه بل هو نفسه برهان على صدق دعواه وحقية ما جاء به ، يظهر ذلك لكل من عرف حياته قبل البعثة وبعدها ، فإنه برهان بسيرته العملية كما أنه برهان فى دعوته العلمية . فقد نشأ يتيماً أمياً لم يعن بتربيته عالم ولا حكيم ولا سياسى ، ومع هذا قام فى كهولته يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله وطاعته ، ويعلمهم حقيقة الإيمان الصحيح بالله تعالى وكلَّ ما يحتاجون إليه فى أمور دينهم ودنياهم من تقويم العبادات ونظام المعاملات ومكارم الأخلاق . كل ذلك على أساس الحجج الكونية والبراهين العقلية ،

فلا غرابة أن يسمى هو نفسه برهانا — والنور المبين هو القرآن الكريم ، فإنه كالنور النير فى نفسه المنور لغيره ، ولا ريب أن القرآن بين بنفسه مستغن فى ثبوت حقيته ، وأنه من عند الله بإعجازه غير محتاج إلى غيره ، مبين يبين للناس الحجة الواضحة والسبل الهادية إلى سعادة الدنيا والآخرة إذا هم سلكوها واستناروا بضوئه — والاعتصام الأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ — والرحمة الجنة — والفضل ما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء كما قال تعالى فى آية أخرى « ويزيدهم من فضله » .

والمعنى — بعد ما أقام سبحانه فى الآيات السابقة الحجة القاطعة على المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وبطلان ما هم عليه من أنواع الكفر والضلال ، وجه هذا النداء العام إلى جميع المكلفين يدعوهم به إلى اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بالنور الذى أنزل معه حيث يقول جل ثناؤه : يا أيها الناس قد أتاكم برهان عظيم شأنه جلى أمره وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم وأنزلنا إليكم على يديه كتاباً كريماً كالنور نيرٌ فى نفسه منور لغيره يبين لكم كل ما تحتاجون إليه لسعادة العاجلة والآجلة ولم يبق بعد ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمعتذر — وأن الذين صدّقوا بالله واعترفوا بوحدانيته وآمنوا برسوله وبما جاء به وتمسكوا بهذا القرآن العظيم سيدخلهم فى دار الإحسان ، ويتفضل عليهم زيادة على جزاء أعمالهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويهديهم تعالى هداية خاصة موصلة إليه ، ويعرفهم طريقاً قويماً يبلغون به سعادة الدارين — بالكمال والنصرة والعزة والسيادة فى الأولى ، وبالجنة والرضوان فى الآخرة — وهذا وعد كريم منه تعالى بهذه الأمور الثلاثة : الرحمة ، والفضل ، والهداية ، ترغيباً لهم فى الإيمان بالله ورسوله والتمسك بكتاب الله والعمل بسنة رسوله ، فيا سعادة الموفقين ويا شقاوة المخذولين المحرومين .

وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته ، وإقراراً بوحدانيته ، ثم ثبتوا على هذا الإقرار ومقتضياته ، والخوف همٌّ لتوقع المكروه ، والحزن غم لفوت نافع أو حصول

ضار — والمعنى أنه تعالى كتب لهم الأمن من كل هم وغم — وهذا وعد للذين جمعوا بين التوحيد الذى هو رأس العلوم اليقينية والاستقامة فى جميع أمور الدين والدنيا التى هى رأس الأعمال الصالحة . بالأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكاره فى هذه الحياة وفى تلك الحياة — و بمثل هذا الوعد الكريم رغبهم فى الإيمان والاستقامة . وقوله تعالى « من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يقول جل ثناؤه من أخلص نفسه لله تعالى فلم يشرك معه فى العبادة أحداً وهو مخلص فى هذا التوحيد وفى جميع أعماله فله جزاؤه الذى أعد له على عمله وهو الجنة عند مالكه ومدبر شئونه ولا خوف عليهم فى الدنيا والآخرة من نزول مكروه ، ولا هم يحزنون لفوات مطلوب — وهذا وعد منه سبحانه لأهل التوحيد الصادق والعمل الصالح مع الإخلاص له بالخير العظيم فى العاجلة والآجلة — وبذلك رغبهم فى التوحيد وصالح العمل والإخلاص فى فى ذلك له تعالى .

وقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » أى سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرع فيها محبة يعيشون بها فى الدنيا مطمئنين مكرمين لما لهم من الإيمان وصالح العمل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يعنى يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه . وفى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل عليه السلام : إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له المحبة فى الأرض » — وذلك عادة لا يكون إلا لمن تكمل بالإيمان وصالح العمل وتحلى بمكارم الأخلاق وصنائع المعروف — وهذا وعد منه تعالى للمؤمنين العاملين بأنه يجعلهم محل رحمته وإحسانه وموضع عطف الملائكة وقبول الناس أجمعين . وبذلك رغبهم فى الإيمان وعمل الصالحات . وقوله تعالى « فإما يأتينكم منى هدى » من كتاب ورسول « فمن اتبع هداى فلا يضل » فى الدنيا « ولا يشقى » فى الآخرة فهذا وعده تعالى من يتبع الهدى بخيرى الدنيا والآخرة

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . يعنى أن الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه « ومن أعرض عن ذكرى » هداى الذاكر لى والداعى إلى « فإن له معيشة ضنكا » ضيقاً فى الدنيا ، فترى الفاسق شرها حريصاً منهمكا فى جمع المال وعنده فوق ما يكفيه . ولا يهدأ له بال ويضيق صدره لأقل نازلة ، وناهيك بذلك ضيقاً فى معيشتهم وتعذيباً لنفوسهم — وترى الصادق الإيمان مملوء القلب بالقناعة والرضا وليس عنده قوت يومه « ونحشره يوم القيامة أعمى » فاقد البصر كما فى قوله تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما » ويصح أن يكون المراد من هذا أنهم لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم فقد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه — والمراد بالعمى فى الآية التى معنا عدم الهداية إلى طريق الخلاص وفقد البصيرة وقد كان فى الدنيا يحسن التفكير ذا بصر فى أموره « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت » فى الدنيا « بصيراً قال كذلك » مثل ذلك فعلت أنت « أتتك آياتنا » واضحة نيرة لا تخفى على أحد « فنسيتها » عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلا « وكذلك » مثل ذلك النسيان الذى فعلته فى الدنيا « اليوم تنسى » تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا — وهذا وعيده تعالى لمن يعرض عن الهدى وداعيه بنكد الدنيا وشقاء الآخرة .

وقال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فإنه تعالى وعد المجاهدين المخلصين فى سبيل الله أن يزيدهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى » وفى الحديث : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وإطلاق الجهاد يعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة .

وقال تعالى « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » فإنه تعالى وعد من ينصر دينه بالنصر على أعدائه حتى يكون هو الظافر . وبين تعالى أنه قوى على

هذه النصرة التى وعد بها المؤمنين عزيز لا يضام ولا يمنع مما يريد — ولقد أنجز عز سلطانه وعده . حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم — أجل نصرهم الله تعالى على هؤلاء الأعداء الأقوياء عندما كانوا متمسكين بدينهم وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرف من بعدهم عنه خرجوا من الوعد ، ولوعادوا لعاد الله عليهم بالنصر المبين — وصفوة القول أن طاعة الله تعالى هى المستتبعة للخيرات فى العاجل والآجل وعصيانه مستوجب للشرور والآلام فى الدنيا والآخرة .

وكحديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « ياغلام إنى أعلمك كلمات » وفى رواية مسلم ينفعك الله بهن أى بعلمهن والعمل بمقتضاهن : « إحفظ الله » أى دين الله بحفظ أوامره ونواهيه فتقف عندها بالامتثال والاجتناب فلا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك « يحفظك » فى نفسك وأهلك ومالك ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » ومايصيب الإنسان من النوائب والشدائد فهو بتضييع أوامر الله تعالى وتعديه حدوده . قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . « إحفظ الله تجده تجاهك » أمامك بمعنى معك حفظاً وتأييداً و إعانة حيثما توجهت وقصدت ، من أمور الدين والدنيا فالمعية معنوية : « إذا سألت فاسأل الله و إذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لواجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلابشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » كناية عن قدم المقادير فلا تبديل ولا تغيير — ولاينافيه قوله تعالى : « يمحوالله مايشاء ويثبت » لأن المحو والأثبات مما جفت به الصحف أيضاً — رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وفى رواية الإمام أحمد وعبد بن حميد فى مسنده « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء » أى سعة الرزق وصحة البدن « يعرفك فى الشدة » بأن يجعل لك من كل هم فرجا ومن كل

ضيق مخرجا بما سلف منك من ذلك التعرف كما وقع للثلاثة أصحاب الغار[1]

« واعلم أن ما أخطأك » جاوزك فلم يصل إليك « لم يكن ليصيبك » لأنه تبين بكونه لم يصل إليك أنه غير مقدور عليك « وما أصابك لم يكن » قدر « ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً » والآيات والأحاديث فى ذلك كثيرة .

(الضرب الثانى) الترغيب فى أنواع الطاعات — كالصلاة والصدقة والصوم والحج والجهاد لإعلاء كلمة الله وبر الوالدين . وإصلاح ذات البين كذلك يلزم ترغيب الناس فى أنواع الفضائل النفسية كالشجاعة والعفة ، والصدق والوفاء والأمانة ، والإخلاص والحلم والتواضع ، والكرم والسخاء والصبر لدى الشدائد ، وطهارة الضمير وحب الخير للناس — كذا يرغبهم فى إتقان الصنائع الوطنية ، ويحث على ترويجها بالاقبال عليها ، لما فى ذلك من تشجيع الحركة الاقتصادية التى تعز بها الأمم وترقى الشعوب ، وإجمالا كل ماينفع الأمة فى العاجل والآجل بذكر ماجاء فيها من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة مع شرح ذلك شرحا وافياً حسبما تدعو إليه الحاجة — ويرجع فى ذلك إلى مثل كتاب رياض الصالحين للامام النووى — وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء العلوم للامام الغزالى مع الرجوع فى تفسير الآيات والأحاديث إلى مظانها فذلك أعون على الإجادة وتمام الإفادة .

ومن أنفع وسائل الدعوة إلى خير الأعمال وحميد الخصال تنبيه الأمة إلى ماضى أسلافها الصالحين الذين رفعوا منار العلم والدين ونشروا لواء العدل والمساواة لتعلم من هى لعلها تستحى من أن تكون شر خلف لخير سلف بل لعلها تندم على سوء حالها فتقلع عما هى عليه من شرور الأعمال وفساد الأخلاق حتى صارت فى أخريات الأمم بعد أن كانت فى مقدمتها « نعم » هذا من أحسن

---

(١) حديثهم فى الصحيحين من رواية ابن عمر وفى رياض الصالحين باب الاخلاص وقد تقدم .

الطرق التي ترقى شعور الأمة ، وأقرب وسيلة تهيب بها إلى خير الأعمال والتحلى بحميد الخلال — ذلك أن تذكيرها بشرفها السالف وتشخيص مجدها الرفيع ، وعزها المنيع أمام عيونها يدعوها بلا شك إلى التأسى بهم فيما كان لهم من جلائل الأعمال — وحميد الخصال — أحسن زاجر للمرء عن مساويه إن كان حياً أن يتفكر فيمن مضى من أمته وحماة دين الله فيرى فيهم العلماء الحكماء ، والأمراء العظماء والولاة العادلين ، والشجعان المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم مخلصين فى سبيل الله والحق ففازوا بالسعادتين وخلدوا لأنفسهم أحسن الذكرى وجميل الأحدوثة .

وأكبر مايهوّن على المرء احتمال الضيم والذل جهله بنفسه ونسيانه شرف أسلافه وأجداده فتخفى عليه سيرتهم الحسنة وأعمالهم الجليلة الخالدة وأخلاقهم الكريمة فلا يخجل أبداً من السقوط فى حمأة الرذيلة ولا يستحى أبداً من إتيان النقائص .

من يَهن يهن الهوان عليه ما لجرح بميِّت إيلام

لهذا ترى دعاة الاستعمار إذا غلبوا أمة إسلامية جعلوا أكبر همهم القضاء على دينها ولغتها وعاداتها ، وعملوا على إضعاف الروح العلمية فيها حتى تتلاشى قوميتها وتنسى مجدها التالد وشغلوها بزخرف الحياة وزينتها وأنواع الملاهى عن كل مايرقى شأنها فتراها مفتونة بتقاليد الغالبين وعاداتهم القبيحة الضارة ، وتراها تكثر من الإعجاب بما ظهر على أيديهم من المخترعات وإتقان الصناعات ذلك لجهلها بماضى أسلافها وإلا فقد ظهر على يد السلف الصالح من الحكم والآداب وإتقان الأعمال فى سياستهم المدنية وفى حروبهم وقضائهم بين الناس ماهو أعلى بكثير مما يندهش له هؤلاء الجهلاء عند ظهوره على يد هؤلاء المستعمرين . فواجب المسلم أن يقف على محاسن دينه وآثار السلف الصالح ليعلم أن المحاسن التى فى دينه ولسلفه كثيرة جديرة بالحفظ والعناية وبالله تعالى التوفيق .

طريق الترهيب

ونذكر لك من هذا الطريق الأمور النافعة فى التحذير من كل المعاصى صغيرها وكبيرها . والمفيدة فى حل عقدة الأصرار . وحمل الناس على ترك الذنوب . وهى أربعة أضرب « الأول » أن يذكر مافى القرآن الكريم من الآيات المخوفة للمذنبين وكذلك ماورد من الأخبار والآثار — فان الله تعالى حذر عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته . وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووحدانيته . وجعل النفوس المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه فى الآخرة والأولى ، كما جعل الأجساد القذرة عرضة للأمراض القاتلة فى الدنيا وهو فى كل حال حاكم عادل « إن الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون »

قال الله تعالى « فلما آسفونا » أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه « انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » معناه أنهم أفرطوا فى المعاصى فاستوجبوا أن يُعجل لهم عذابنا وأن لانحلم عليهم « فجعلناهم سلفا » أى جعلناهم قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم فى استحقاق مثل ماحل بهم من العذاب ومثلا للاخرين عبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم . أو قصة عجيبة تجرى مجرى الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون — وقال تعالى « فلما عتوا عما نُهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » أخبر تعالى أنهم لما تكبروا عن ترك مانهوا عنه لعنهم وغضب عليهم وجعلهم قردة أزلاء مبعدين والخسوء هو الطرد والصغار والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ، روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار ، ومثل هذا قوله تعالى « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » فالمسخ معنوى لاصورى على الصحيح وليس فى تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم نص فيه على كون ماذكر مسخاً لصورهم وأنهم قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير .

وقال تعالى « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » أى أنه تعالى لو يؤاخذ الناس جميعاً بما اقترفوا من السيئات كما فعل بالأمم الماضية ما ترك على ظهر الأرض من نسمة تدب عليها من بنى آدم . وقيل ومن غيرهم أيضاً بشؤم معاصيهم . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » أى من يخالف الرسول فيما جاء به من الحق من بعد ما ظهر له بالمعجزات الدالة على صدق رسالته و يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين الذين هم مستمرون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم نجعله واليا لما تولاه من الضلال ونخذله بأن نخلى بينه و بين ما اختاره فى الدنيا وندخله جهنم فى العقبى — وقال تعالى : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » وقال تعالى : « ومن يعص الله ورسوله و يتعد حدوده يدخله نارا خالداً فيها وله عذاب مهين » والآيات فى ذلك كثيرة .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « إن الله يغار و إن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه » — وفيهما أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغير من الله فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل » . والغَيْرة الحمية والأنفة ، والمراد بها فى حقه تعالى لازمها وهو الانتقام . وروى أحمد والترمذى والحاكم وصححاه والنسائى وابن ماجه وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا نكتت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب واستغفر صقَل قلبه ، و إن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه » أى تغشيه وتغطيه تلك النكتة السوداء « فذلك الران الذى ذكره الله فى كتابه — كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » أى من الخطايا والسيئات وفى قوله « يكسبون » معنى الاستمرار والاسترسال . وران عليه ستره وغطاه . أى أن قلوبهم قد أصبحت فى غلف من ظلمات المعاصى حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ولمثل هذا كان السلف يقولون : المعاصى بريد الكفر . ومن أحدث لكل ذنب يقع فيه توبة نصوحا

لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتقق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، و يأتى وقد شتم هـذا . وقذف هـذا . وأكل مال هذا . وسفك دم هذا . وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » . رواه مسلم . وعنه أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، و إن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . رواه البخارى — والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قيل له هل تركت بنو إسرائيل دينهم ، أى حتى عذبوا بأنواع العذاب الأليم كمسخهم قردة وخنازير[1] وأمرهم بقتل أنفسهم ؟ قال لا ولـكنهم كانوا إذا أمروا بشىء تركوه . و إذا نهوا عن شىء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه — وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولـكن أنظر إلى من عصيت — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله . و بقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله تعالى . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : إذا عظمتَ الذنب فقد عظمتَ حق الله تعالى و إذا صغرته فقد صغرت حق الله ، وما من ذنب عظمته إلا صغر عند الله ، وما من ذنب صغرته إلا عظم عند الله — وقال حذيفة رضى الله عنه : إذا أذنب العبد نـكت فى قلبه نـكتة سوداء ، فإذا أذنب نـكت

(١) تقدم لك أن المسخ معنوى على الصحيح كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره خلافاً لما عليه الجمهور من أن صورهم تحولت فـكانوا قردة وخنازير حقيقة .

فى قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كله أسود . و يؤيده قول السلف : المعاصى بريد الكفر أى رسوله . باعتبار أنه إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يعد يقبل الخير قط ، فحينئذ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف فيرتكب ما أراد ويفعل ما أحب ، و يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فيضله و يغويه و يعده ويمنيه ، ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد إليه سبيلا . قال تعالى : « إن يدعون من دونه إلا إناثا » أى ما يعبد المشركون من غيره تعالى إلا أصناماً مؤنثة كاللات والعزى ومناة « و إن يدعون إلا شيطاناً مريدا » وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً خارجاً عن الطاعة عارياً عن الخير لأنه هو الذى أغراهم على عبادة الأصنام فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » أى شيطاناً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع لأجعلن لى منهم حظاً مقطوعاً أدعوهم إلى طاعتى « ولأضلنهم » عن الحق بالدعاء إلى الضلالة « ولأمنينهم » لألقين فى قلوبهم الأمانى الباطلة من طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » لأحملنهم على أن يقطعوها وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً وحرموا الإنتفاع بها « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » دينه بالكفر و إحلال ما حرم وتحريم ما أحل «لقوله لا تبديل لخلق الله » « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم » يوسوس إليهم أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار « ويمنيهم » مالا ينالون « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » باطلا هو أن يرى شيئاً يظهر خلافه .

وقال تعالى: « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

وفى التوراة ما معناه : أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع . وروى الإمام أحمد فى مسنده عن وهب قال : إن الرب

سبحانه وتعالى قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائل : إنى إذا أطاعنى العبد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه باركت فيه وفى آثاره ، وليس لبركتى نهاية ، وإذا عصانى العبد غضبت عليه ، وإذا غضبت عليه لعنته ولعنتى تبلغ السابع من ولده . ويؤيده قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » فإنه تعالى أمر الأوصياء بأن يخافوا الله فى شأن اليتامى خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وإلا فقد عرضوهم للضياع . ففى الآية الكريمة بعث على الرحمة وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه ، وتهديد للمخالف بحال أولاده ، ولو شرطية جوابها خافوا عليهم والجملة صلة الذين — والمعنى ليخف الله الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا أولاداً ضعافاً خافوا عليهم الضياع بعدهم — وأمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد الأمر بها مراعاة للمبدإ والمنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثانى — وأن يخاطبوا اليتامى بالشفقة وحسن الأدب وفى الحديث « البر لا يبلى والذنب لا ينسى . والديان لا يموت . اعمل ماشئت كما تدين تدان » أى كما تفعل يفعل معك . والقصاص إن لم يكن فيك أخذ من ذريتك ولذا قال تعالى : « خافوا عليهم فليتقوا الله » فإن كان لك خوف على صغارك وأولادك الضعفاء فاتق الله فى أعمالك كلها لاسيما فى أولاد غيرك فإن الله تعالى يحفظك فى ذريتك . وييسر لهم من الحفظ والخير والتوفيق ببركة تقواك ما تقر به عينك بعد موتك وتسر له روحك . قال تعالى « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا » الآية . وأما إذا لم تتق الله فى أولاد الناس ولا فى حُرمهم فاعلم أنك مؤاخذ بذلك فى نفسك وذريتك وأن مافعلته كله يفعل بهم .

فإن قيل هم لم يفعلوا فكيف عوقبوا بزلات آبائهم وانتقم منهم بمعاصى أصولهم؟ « قلنا » لأنهم تبع لأولئك الأصول وناشئون عنهم « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا » أى أنهم يرثون الشر عن آبائهم كما يرثون أوصافهم الجسمية — ولئن قيل بالعدوى فى الأمراض الحسية فالنفوس أقبل

لها فى الأمراض المعنوية . هذا ماتشير اليه هذه الآية — ومن استقرأ أحوال الفجار وجد أنهم لايلدون إلا فجاراً — فالحاصل أن الذرية ترتكب ما تستحق عليه العقوبة بشؤم ما كان يصدر من الآباء بمقتضى تلك الوراثة والعدوى . ويؤيد هذا حديث : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه الحاكم . وحديث : « أعف نفسك تعف بناتك » وروى الطبراني فى الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً « عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » وسلب المال منهم إن لم يكن لسوء تصرفهم كان من قبيل رد الحقوق إلى أربابها لكونها فى الأصل مثلا مغصوبة .

وإن قال قائل قد نجد فى فرع العصاة صالحاً كابن أبى طالب وبالعكس كابن نوح وابن آدم القاتل وفى هذا قال بعض الأدباء :

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ليظهر فعل الله فى العكس والطرد

قلنا : هذا مع قلته لأمر باطن يعلمه الله تعالى لو لم يكن منه إلا الأعلام بعجز الخلق حتى الكمل منهم عن هداية أقرب الناس إليهم لكفى « إنك لا تهدى من أحببت » أى لا توصل من أحببت — وربما كان للفاسق ظاهراً أعمال صالحة باطنة يثيبه الله بها فى ذريته فيتعين الأخذ بقوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » وفى مسند الإمام أحمد أيضاً كتبت عائشة إلى معاوية رضى الله عنهما : أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا . وقال أبو الدرداء : احذر أن تُبغضك قلوب المؤمنين وأنت لا تشعر . قال الفضيل هو العبد يخلو بمعاصى الله فيلقى الله بغضه فى قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر — وقال يحيى بن معاذ عجبت من ذى عقل يقول فى دعائه : اللهم لا تُشْمت بى الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو . قيل له : كيف ذلك ؟ قال يعصِى الله فيشمت فى القيامة كل عدو — وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصى معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير . وقال إن الرجل — أى الكامل — ليذنب الذنب

فما ينساه ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة . وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه . وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار » عبر بالذباب لكونه أخف الطير وأحقره — ولأنه يدفع بأدنى شىء — وقال به هكذا أى نحاه بيده — وفيه تمثيل الذنوب فى نظر المؤمن بالجبل ثقلا وخطراً وفى نظر الفاجر بالذباب خفة وحقارة — والمعنى أن المؤمن لقوة إيمانه وشدة خوفه من الله تعالى لا يأمن العقوبة بسبب ذنوبه . والمؤمن دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخاف من أقل الهفوات ، وأن الفاجر لضعف إيمانه وقلة خوفه من مولاه يستهين بالذنوب ولا يبالى بالمعاصى — وقال بعض السلف : يا أهل المعاصى لا تغتروا بطول حلم الله عليكم واحذروا أسفه . أى شدة غضبه من الافراط فى المعاصى فإنه تعالى قال « فلما آسفونا انتقمنا منهم » والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغى أن يكثر المرشد منها إن كان ورث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة . وورثه كل عالم بما أصابه . و بالله تعالى التوفيق

« الضرب الثانى » حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من المصائب والبلايا بسبب هفواتهم التى هى خلاف الأولى فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق ففى صحيح البخارى من حديث أُبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قام موسى النبى خطيباً فى بنى إسرائيل » يذكرهم أيام الله وأيامه هى نعماؤه و بلاؤه « فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم » من جميع الناس فى اعتقاده وظنه فلم يكن ذلك كذبا « فعتب الله عليه[1] » تنبيها له وتعليما لمن بعده ولئلا يقتدى به غيره فى تزكية نفسه فيهلك — وأصل العتب المؤاخذة أو تغير النفس والمراد به عدم الرضا بذلك ، ولذا أمره بالذهاب إلى الخضر للتأدب لا للتعليم

---

(١) عتب عليه وجد وبابه نصر وطرب .

« إذ لم يرد العلم إليه » تعالى كأن يقول الله أعلم « فأوحى الله إليه إن عبدا من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك » بشيء مخصوص وهو ما علمه من الغيوب وحوادث القدرة مما لا يعلم الأنبياء منه إلا بما أعلموا به . كما قال سيدهم وصفوتهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فى هذا المقام « إنى لا أعلم إلا ما علمنى ربى » وإلا فلا ريب أن موسى عليه السلام أعلم من الخضر بوظائف النبوة وأمور الشريعة وسياسة الأمة ويدل هذا قول الخضر فى هذا الحديث : « إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه لا أعلمه » فانظر كيف عوتب على حكم بناه على ظنه واعتقاده وامتُحن من أجله بالذهاب إلى الخضر وموسى أفضل منه تأديباً له واعتباراً لغيره — وغاية ما وقع منه أنه ارتكب خلاف الأولى فما بالنا ونحن المذنبون المقصرون — وكما روى صاحب القوت رحمه الله أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا ! قال لقولك لأخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون — لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى له ؟ — ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال : لأنك رجوتنى وقلت عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً . وبما قلت : يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . أى اطلبوا خبرهما من الإحساس وهو المعرفة . وروى البيهقى فى الشعب من حديث أنس رضى الله عنه : « أتى جبريل يعقوب عليه السلام وقال إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً ، فكان يعقوب إذا أراد الغذاء أمر مناديا ينادى ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذ مع يعقوب وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى ألا من كان صائما من المساكين فليفطر مع يعقوب[1] » — وكذلك لما قال يوسف عليه السلام لصاحب الملك اذكرنى عند

---

(١) وأخرجه الحافظ المنذري فى كتاب الترغيب والترهيب من رواية الاصبهانى فى باب كفالة اليتيم .

ربك . قال الله تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين »
فعوقب بطول السجن برجوعه إلى غير الله تعالى مع أن الاستغاثة بالخلق فى دفع الظلم
جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهذا وإن كان جائزاً
لعامة الناس إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الالتفات إلى غيره تعالى
وأن لا يشتغلوا إلا بالالتجاء إليه .

ومن ذلك ما جرى لسليمان بن داود عليهما السلام من تخلف رجائه من أجل
أنه لم يقل بلسانه إن شاء الله . قال الله تعالى « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه
جسداً ثم أناب » فإن أظهر ما قيل فى فتنته عليه السلام ما رواه أبو هريرة رضى الله
عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان بن داود عليهما السلام
لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له
صاحبه قل : إن شاء الله . فلم يقل إن شاء الله فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة
جاءت بشق رجل والذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله
فرسانا أجمعون » متفق عليه ، لأطوفن أى لأجامعن أو لأتمن — وصاحبه قرينه
من الملائكة ، أو وزيره من الإنس ولم يقل إن شاء الله أى بلسانه لا إباء عن
التفويض إلى الله تعالى ، بل لشغل أو نسيان عراه فصرفه عن الاستثناء القدر
السابق أن لا يكون ماتمنى كما هو اللائق بمنصب النبوة . وشق الرجل : هو الجسد
الذى ألقى على كرسيه كما جاء ذلك فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين إمرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد
فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا إمرأة واحدة جاءت
بشق رجل فجىء به على كرسيه فوضع فى حجره . فو الذى نفسى بيده لو قال إن
شاء الله لجاهدوا كلهم فى سبيل الله فرساناً أجمعون . فذلك قوله : ولقد فتنا سليمان »
فهذا مما قد يغيب عن الخواص من خفى سكونهم ، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله
تعالى كاتكال المؤمن على قوته . أو إعجابه بها ، وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر
ولم يرد بها القرآن الحكيم ورود الأسمار ، بل الغرض منها العظة والاعتبار ، ليعلم

العبد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع جلالة قدرهم عند الله تعالى ، لم يتجاوز عنهم فى الهفوات الصغيرة . فكيف يتجاوز عن غيرهم فى كبائر الذنوب ، فليعتبر بذلك العبد ويكون على غاية الوجل — نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالمؤاخذة ولم يؤخروا إلى الآخرة — والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً — ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر — فهذا أيضاً مما ينبغى للمرشد أن يكثر منه على أسماع المصرين على الذنوب فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة إن شاء الله تعالى .

(الضرب الثالث) أن يقرر فى أذهانهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب ، وأن كل مايصيب العبد من المصائب والبلايا فهو بسبب جناياته التى صدرت منه — فرب إنسان يتساهل فى أمر الآخرة ويستخفه ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغى أن يخوف به — فإن الذنوب كلها يعجل شؤمها فى الدنيا غالباً — قال تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » . كالجدب وقلة الأمطار والريع فى الزراعات ، والربح فى التجارات ، ونزول الآفات بالناس والدواب ، وكثرة الحرَق والغرق ، ومحق البركة من كل شىء بشؤم معاصيهم ليذيقهم بعض جزاء تلك الجرائم وتمامه فى الآخرة ، لعلهم يرجعون : كى يُقلعوا عما هم عليه من السيئات — وقال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ، أى لو أنهم صدّقوا بما أوحى إلى الأنبياء معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالسراء والضراء واتقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ، لو سعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب ولكن لم تغنهم الآيات والنذُر فعاقبناهم بما كانوا يقترفون من الكفر وأنواع المعاصى — وقال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . أى ماينزل بكم من المكاره كالآلام والأسقام بالنفس والأهل ، والولد والعاهات بالمزروعات والمواشى فهو بسبب معاصيكم التى ارتكبتموها ، ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها ، هذا فى المجرمين ، أما ما ينزل بالطائعين من

المحن والبلايا فلأسباب أخرى منها تعريضهم لثواب الصبر عليها ، ورفع درجاتهم — وفى الحديث ، (خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة : البغى ، والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعروف لايشكر) — روى من عدة طرق ، وبنحوه رواه الطبرانى من حديث جابر ، وعن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات » : رواه الحاكم والأصبهانى بسند صحيح — حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بذنوبه ، وقد تسقط منزلته من القلوب فيصير ثقيلا مرذولا ، ويستولى عليه أعداؤه — قال تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ، أى جعل القرية التى كانت هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدّل الله تعالى بنعمتهم نقمة — والمثل قد يضرب بشىء موصوف بصفة معينة سواء أكان ذلك الشىء موجوداً أم لم يكن فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذا الوصف — وأن يكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لغيرها إنذارا من مثل عاقبتها .

آمنة : ذات أمن من الفتن الخارجية لا ينزل بها ما يوجب الخوف كما ينزل ببعض القرى من إغارة الأعداء عليها وطلب الإيقاع بها — مطمئنة : ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الانزعاج كما يحدث فى بعض القرى من الفتن الداخلية بين أهاليها ووقوع بعضهم فى بعض — يأتيها رزقها : أقواتها — رغداً : واسعاً من جميع نواحيها — فقابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران والعصان ، بدل الشكر والطاعة ، فعاجلهم الله بالعقوبة وغشيهم من آلام الجوع والخوف وأضرارها ما غشيهم بما كانوا يقترفون فيما قبل على وجه الاستمرار وهو الكفران والتمرد وهو فى كل ذلك حاكم عادل — ولقد جاءهم : هذا من تمام التمثيل أتى به لبيان أن ما صنعوه من كفران هذه النعم لم يكن خروجا عما يوجبه العقل السليم فقط ،

بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الطاعة والشكر على النعمة وأنذرهم بسوء عاقبة أمرهم فكفروا برسالته وكذبوه فيما أخبرهم به — فأخذهم العذاب المستأصل لشأفتهم عقب ما ذاقوا منه ما سمعت . وهم ظالمون أى حال تلبسهم بجريمة الكفر والتكذيب غير مقلعين بما ذاقوا من المقدمات الزاجرة عنه لو كانت لهم ضمائر وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد ، وتجاوزهم فى ذلك كل حد ممتاد . وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى كما يرشد إليه قوله سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، وبه يتم التمثيل فإن حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لهم ولمن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا فى حرم آمن يُتخطف الناسُ من حولهم ولا يخطر لهم خوف من عدو ولا قلق داخلى على بال وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء . ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول ، فأنذرهم وحذرهم فكفروا بنعم الله تعالى وكذبوه صلى الله عليه وسلم فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » . ما أصابهم من جدب إليهم وأزمة شديدة فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعِلْهز وهو طعام يتخذ من الدم والوبر فى وقت المجاعة وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من إغارة سراياه صلى الله عليه وسلم على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم . وما حل بهم يوم بدر أشد وأنكى .

وقال تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِمِ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . فهؤلاء قبائل اليمن غمرهم الله تعالى بنعمه ومنحهم حياة طيبة ، فلما أعرضوا عن واجب الشكر سلبهم الله النعمة وأرسل عليهم سيلا جارفاً أغرق أموالهم وخرب بلادهم : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه

ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » — وقال تعالى : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا »

وهؤلاء بنو إسرائيل لما أفسدوا فى الأرض . وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء واستحلوا المحارم وتكبروا عن طاعة الله سلط الله عليهم أقواماً ذوى قوة و بطش فى الحروب فأغاروا عليهم وقتلوا واتخذوا من جلودهم نعالا ومن شعارهم حبالا — وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الإلهية قضينا : أوحينا — والكتاب التوراة — وجاسوا : ترددوا لطلبهم بالفساد — خلال الديار فى أوساطها للقتل والفتك بهم إلى غير ذلك من الآيات .

وروى الحاكم بإسناد صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه » واللام فى الرجل للعهد والمعهود بعض الجنس من المسلمين فلا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أكثر مالا وأحسن صحة من العلماء لأن الكلام فى مسلم أراد الله أن يرفع درجته فى الآخرة فيصيبه من ذنو به فى الدنيا . و به عرف أنه لا تنافى بينه و بين خبر : « إن الرزق لا تنقصه المعصية » ولذا وجه بعضهم الخبر بأن لله تعالى لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته ، والانهماك فى نهمته — فإذا اشتغل بذلك عن ر به حرم رزقه فيكون زجراً له عما أقبل عليه . وتأديبا له لئلا يعود لمثله ، فعادة الله فى خلقه أن العبد متى مال قلبه إلى شىء والتفت خاطره إلى شىء جعل ذلك الشىء منشأ للآفات فحينئذ ينصرف وجه القلب عن عالم الحدوث إلى عالم القدس فإن آدم عليه السلام لما تعلق قلبه بالجنة جعلها محنة عليه حتى زالت الجنة فبقى آدم مع ذكر الله تعالى — و إبراهيم عليه السلام لما سأل ر به الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذه خليلا والخلة مقام يقتضى إفراد المحبوب بالمحبة فلما أخذ الولد شعبة من الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمر بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب

المشاركة فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وتم مراد الله — وهذا الامتحان كان فى إسماعيل أول أولاده على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم — ولما استأنس يعقوب بيوسف عليهما السلام أوقع الفراق بينهما حتى بقى يعقوب مع ذكر الحق جل وعلا . ولما طمع محمد صلى الله عليه وسلم من أهل مكة بالنصرة والإعانة صاروا من أشد الناس عليه حتى قال : « ما أوذى نبى مثل ما أوذى » ، ومشاهد أن من يتعلق بالمال أو البنين يصيبه من آلام الحياة ومتاعبها ما يذهب بلذة ما تعلق به منهما . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه . وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا » وعن عائشة رضى الله عنها « ما من مسلم يصيبه وصَبٌ ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى إنقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر » والوصب بفتح الصاد المرض والنصب بالفتح التعب والنصب بضم فسكون الشر والبلاء والشسع بالكسر واحد شسوع النعل التى تشد إلى زمامها . وقال بعض السلف ليست اللعنة سواداً فى الوجه ، ونقصا فى المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه — وهو كما قال — لأن اللعنة هى الطرد والابعاد . فإذا لم يوفق للخير ويُسِّر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أكبر حرمان . وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويجره إليه ويتضاعف فيحرم العبد عن رزقه النافع من مجالسة الناصحين أطباء القلوب . المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين المهذبين ؛ بل يمقته الله فيمقته الصالحون .

حكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى وسط الوحل جامعاً ثيابه ، محترزاً عن الوقوع حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى ويبكى ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب

خوضاً — وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر — ولذا قال الفضيل رحمه الله : ما أنكرتَ من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك — وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي فى سوء خلق حمارى — وقال آخر : أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى — وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله لا يفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه . فدقائق العقوبات على قدر جلائل الدرجات .

والحاصل أن القوم حملوا الحديث على الكَمَلَة من الرجال . والرزق على المعنوى . والحديث فى ذاته شامل للكملة وغيرهم . وصالح لإرادة الرزق بنوعيه الحسى والمعنوى . فأهل الدنيا يعاقبون فى رزق الدنيا بتعذر طرق الاكتساب ونقص الأموال وهلاكها . وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق لصالح الأعمال وتعذر فتوح العلوم النافعة وحسبك فى هذا قول الإمام على رضى الله عنه: لا ينزل البلاء إلا بذنب ولا يرتفع إلا بتوبة — والأخبار والآثار كثيرة فى شؤم الذنوب فى الدنيا من الفقر والمرض وسقوط المنزلة من عيون الناس. والذل والاستعباد وكثرة الهموم حتى تظهر الكآبة على وجوه أرباب المعاصى ويحرمون بركة الرزق . وإن جاءت أحدهم نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر عليها حتى يعاقب على كفرانه ، بل من شؤم المذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب من بعده صفته بطريق العدوى كما سبق . فان ابتلى خلفه بشىء كان ذلك أيضاً إيلاما له فى ذريته. وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته . ويوفق لشكرها ويبارك له فى رزقه وفى ولده . وتكون كل بلية نزلت به كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته ، بل قال بعضهم كل بلية اقترنت بالصبر كانت نعمة .

(الضرب الرابع) ذكر ما ورد فى الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد الذنوب كالقتل . والزنا . وأكل الربا . ومال اليتيم . وتناول الخمر . والميسر والسرقة . والقذف . والغيبة والنميمة . كذلك يلزم تحذير الناس من أنواع الرذائل الخلقية ، كالجبن والشره والكذب ونقض العهد والغدر والخيانة ، والنفاق والرياء ، والغضب

والـكبر ، والبخل والشح ، والجزع عند البلايا ، والحقد والحسد ، وتنفيرهم من عدم إتقان الأعمال والمصنوعات ، وعدم الاقبال عليها لما فى ذلك من إماتتها وكسادها فتتأخر الأمة وتفقد استقلالها وعزتها — وإجمالا كل ما يضر بالأمة فى دينها ودنياها ويُرجع فى هذا إلى مثل كتاب الزواجر والترغيب والترهيب ، وإحياء علوم الدين للامام الغزالى . وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه . فينبغى المرشد أن يكون كالطبيب الحاذق يستدل أولا بالنبض . والسَحنة [1] على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدل المرشد بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء بإمام المرشدين صلوات الله وسلامه عليه . والسلف الصالح من بعده

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أوصنى قال: « لا تغضب . فردد مراراً قال لا تغضب » رواه البخارى . وقال له آخر : أوصنى يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس فأن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع [2] وإياك ومايعتذر منه » رواه العسكرى فى الأمثال والحاكم وغيرها وصحح إسناده . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفى الثانى مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وعدم حضور القلب فى الصلاة . وكثرة الاعتذار لأخوانه فنهاه عنها وقال رجل لمحمد بن واسع البصرى رحمه الله : أوصنى . فقال : أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة . قال : وكيف لى بذلك ؟ قال إلزم الزهد فى الدنيا أخرجه أبو نعيم فى الحلية فكأن محمد بن واسع تخيل فى السائل مخايل الحرص على الدنيا فأمره بالزهد فيها — والمخايل العلامات والأمارات . وقال رجل لمعاذ بن جبل رضى الله عنه أوصنى فقال كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة — وكتب معاوية إلى عائشة رضى الله عنهما أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى — وذلك حين تولى الامارة . فكتبت إليه : من عائشة

(١) السحنة بفتحتين الهيئة وقد تسكن
(٢) أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه

إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس . ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس والسلام عليك » رواه الترمذى والحاكم . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى يكون الولاة بصددها من مراعاة الناس وطلب مرضاتهم — وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، و إذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على المرشد أن يصرف عنايته إلى تفرس الصفات الخفية . وذكر النصائح اللائقة بالمقام والأشخاص ليكون اشتغاله بالمهم ، فإن ذكر جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكن . والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه إضاعة للوقت . ووضع الشىء فى غير محله — فإن كان المرشد يتكلم فى جمع لا يدرى باطن حاله فطريقه أن يعظ بما يشترك الناس فى الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فإن فى الشريعة أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أوصنى . قال : عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان — وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله : أوصنى فقال : أعز أمر الله يعزك الله . ومن وعظ ابن مسعود رضى الله عنه : مكارم الأخلاق من عمل أهل الجنة ، وصنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة . ومعنى قوله : وأهل المعروف فى الدنيا الخ أن أصحاب المعروف فى الدنيا يأتون يوم القيامة فيغفر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم جمة ، فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له و يدخل الجنة ، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس فى الدنيا والآخرة — وقال ابن عباس رضى الله عنهما صاحب المعروف لا يقع و إن وقع وجد متكأ — وقال لقمان لابنه : يا بنى لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فإنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، يا بنى

لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أرَب ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بنى من يرحم يرحم . ومن يصمُت يسلم . ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم . وقال أيضاً لابنه : يابنى زاحم العلماء بركبتيك . وأنصت إليهم بأذنيك . فإن القلب يحيا بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل السماء . ولا تجادلهم فيمقتوك . وخذ من الدنيا بلاغك . وأنفق فضول كسبك لآخرتك . ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً . وعلى أعناق الرجال كلا . ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين — عال الرجل افتقر فهو عائل والجمع عالة ، والعيلة الفقر وعيال الرجل من يعولهم وواحد العيال عيِّل كجيد ، وكلا حملا وثقلا عليهم ، فهو مرادف لعيال — وقال رجل لأبى حازم[1] أوصنى فقال : كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه — وروى البيهقى فى الشعب قال : أراد موسى أن يفارق الخضر فقال له موسى : أوصنى . قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً وكن بشاشاً ولا تكن غضاباً وارجع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة ولا تعير امرأ بخطيئته . وابك على خطيئتك يا ابن عمران — وكتب الحسن البصرى رحمه الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فخف مما خوفك الله . واحذر مما حذرك الله . وخذ مما فى يديك لما بين يديك . فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام — وكتب عمر إليه يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد فإن الهول الأعظمَ والأمورَ المفظعات أمامك ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفَلَ عنها خسِر ومن نظر إلى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حَلُمَ غنمَ ومن خاف أمن ، فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع ، وإذا جهلت فاسأل . وإذا غضبت فأمسك والسلام — فظع الأمر كظرف فظاعة فهو فظيع شديد شنيع جاوز الحد فى القبح — وكذا أفظع الأمر إفظاعاً فهو مفظع —

(١) هو سلمة بن دينار المدنى التابعى الشهير بالأعرج كل كلامه حكم وعظة .

وأفظع الشيء واستفظعه وجده فظيعاً ، وكتب مطرف[1] بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله ، أما بعد : فأن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جُرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز ، إلى عدى ابن أرطاة الفزارى[2] رحمه الله ، أما بعد : فأن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله ، أما أولياؤه فغمتهم ، وأما أعداؤه فغرتهم — وكتب أيضاً إلى بعض عماله ، أما بعد : فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذ كر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتى إلى الناس شيئاً إلا كان زائلا عنهم باقياً عليك ، وأعلم أن الله آخذ للمظلومين من الظالمين . والسلام — رواه أبو نعيم فى الحلية .

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ الناس و إرشاد من لا يُدرى خصوص حاله — فهذه المواعظ مثل الأغذية يشترك الكافة فى الانتفاع بها ، متى كانت من ناصح أمين ، مهذب حكيم — قال عامر بن عبد القيس : إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت فى القلب ، و إذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان ، و بالله تعالى التوفيق .

الفصل السادس عشر

أن يحذر الناس من المعاصى بالخوف من الله تعالى فيبين لهم الخوف ، وما ورد فى فضله و يتلو عليهم كثيراً مما يورث الخوف ، و يذكر لهم أحوال الأنبياء والملائكة والصحابة والتابعين والسلف الصالح فيه .

فالخوف تألم القلب وانزعاجه لتوقع مكروه فى الاستقبال ، و ينتظم من علم

(١) من أقران الحسن البصرى .

(٢) كان عاملا له على البصرة وتقل سنة اثنتين ومائة . روى له البخارى فى الأدب المفرد .

وحال وعمل — فالأول هو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا و يُجَوّز العفوَ والافلات ، و يكون خوفه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله من تفاحش الجناية ، وكونِ الملك فى نفسه حقوداً غضوبا ومنتقماً ، وكونهِ محفوفاً بمن يحثه على الانتقام ، وكان هذا الخائف لاشفيع لهُ عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فقوة خوفه وشدته على قدر العلم بقوة هذه الأسباب ، وضعفه بضعفها . وقد يكون الخوف لاعن جناية بل عن صفة المَخُوف ، كالذى وقع فى مخالب السبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى سطوته وحرصه على الافتراس غالباً و إن كان افتراسه بالاختيار ، كذلك الخوف من الله عز وجل تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته من العلم والقدرة والعزة والجلال ، وأنه لو أهلك العين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وكل من يفعل مايريد من غير مبالاة يجب الخوف منه — وذلك كخوف الملائكة قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم و يفعلون مايؤمرون » فإنه خوف الإجلال .

وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعا — وعلى قدر معرفته بعيوب نفسه وعلمه بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه و بربه ، قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وهم العارفون بانفسهم وبربهم — والخشية أشد الخوف وقيل خوف يشوبه تعظيم المخوف منه وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . ثم إذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف وانزعاج القلب ، ثم يفيض أثر ذلك من القلب على الجوارح بكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط منه واستعداداً للمستقبل — ولذا قيل : ليس الخائف من يبكى و يمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه — وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .

وأما فضل الخوف فاعلم أن ما ورد فيه خارج عن الإحصاء . وناهيك دلالة على فضله أن الله تعالى جمع للخائفين بين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » وقال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » و إنما حصر الخشية فى العلماء لأنها إنما تكون عن علم مايخشى منه ، والعلماء هم الذين علموا قدره وسلطانه وشدة تنزيهه و بطشه وأنه الذى يفعل ما يريد من غير مبالاة « ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون » وقال عز وجل « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » فخص الرضوان بأهل الخشية — وقال تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » أمر بالخوف منه وأوجبه ، وجعل الإيمان منشأه وعلته ، فلذا لايتصور أن ينفك مؤمن عن خوف و إن ضعف و يكون ضعفه بضعف معرفته و إيمانه . وقال تعالى « سيذكر من يخشى » — وأخرج ابن أبى الدنيا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتُ عن الشجرة اليابسة ورقها » . وروى ابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه « قال الله سبحانه وتعالى : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنته يوم القيامة » وآمنته بالمد جعلت له الأمان — وكل مادل من الآيات والأحاديث على فضل العلم دال على فضل الخوف لأنه ثمرة العلم بالله تعالى .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله . أى لأنها تمنع النفس عن المخالفات — ورأس الحكمة أصلها وأسها ، والحكمة هنا نور يقذفه الله فى قلب المؤمن التقى يفرق به بين الحق والباطل والصواب والخطأ وقال أبو سليمان الدارانى : كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : من خاف دله الخوف على كل خير . أى أرشده إلى ما فيه كل خير فى الأولى والآخرة إما ظاهراً و إما باطناً . وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : مسكينٌ ابن آدم

لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . أى لأن خوفه منه يحمله على الشح بما معه على نفسه وعياله ، والإخلال بواجب المال . فلو خاف النار كما يخاف الفقر لهرب من أسبابها إلى أسباب الجنة — وقيل له : من آمنُ الخلق غدا ؟ فقال أشدهم خوفاً اليوم — وقيل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف نصنع ؟ نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير — أى تزول عن مواضعها من شدة الخوف — فقال والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمْنٌ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف » وفيه استحسان لتغليب جانب الخوف على جانب الرجاء — وعلى الجملة فالتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر . وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشىء ثناء على ضده ، بل كل ما ورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية . فإن البكاء ثمرتها ، قال صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله » . وذكر منهم رجلا ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . متفق عليه — وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى مسلم أبداً » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التى تقرب العبد إلى الله تعالى .

وأما ما يورث الخوف — فقد عرفت أن الخوف من الله تعالى على مقامين الخوف منه والخوف من عذابه . والأول خوف العلماء وأرباب القلوب السليمة والبصائر النافذة العارفين من صفاته تعالى ما يوجب الهيبة والحذر المطلعين على سر قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » وقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » .

والثانى خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما دارى جزاء على الطاعة والمعصية . وضعفه بسبب الغفلة وضعف الإيمان . وتزول تلك الغفلة بالتذكر والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة . وبالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ، فان فاتت المشاهدة

فالسماع لا يخلو عن تأثير . ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء ، وغلب أمن المكر على الظلمة الأطغياء ، والفراعنة الأغبياء . والجهلة والعوام والرعاع والطّغام ، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم فلم يخشوا سطوة العقاب ، ولا نار العذاب ولا بعد الحجاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد الأولين والآخرين كان أشد الناس خوفا ففي الحديث الصحيح : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفي صحيح البخاري عن أم العلاء امرأة من الأنصار « أنهم اقتسموا المهاجرين أول ماقدموا عليهم بالقرعة قالت: فطار لنا — أي وقع — في سهمنا عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبديهم وممن شهد بدراً فاشتكى فمرضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومايدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله . فقال رسول الله صلى عليه وسلم : أما عثمان فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير » . أي فالإنكار عليها من حيث جزمها بتلك الشهادة من غير مستند قطعي ، فكان اللائق بها أن تبرزها في حيز الرجاء لا الجزم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعلُ بي . قالت فوالله لا أزكي أحداً بعده » . أي على جهة الجزم بل على جهة الرجاء وحسن الظن بالله تعالى : « قالت وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجري فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذاك عمله » — ولما توفي عثمان هذا قبّل صلى الله عليه وسلم خده و بكى حتى سالت دموعه الكريمة على خد عثمان و بكى القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذهَبْ عنها — أي الدنيا — أبا السائب لقد خرجت عنها ولم تتلبس بشيء » . وسماه صلى الله عليه وسلم السلف الصالح . وهو أول من قبر بالبقيع رضى الله عنه — فتأمل زجره صلى الله عليه وسلم عن الجزم بالشهادة على الله في عثمان هذا مع كونه شهد بدراً وقوله « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد

غفرتُ لكم[1] » وكونه قبله وبكى ، ووصفِه له بأعظم الأوصاف وأفضلها وهو أنه لم يتلبس من الدنيا بشيء ، و بأنه السلف الصالح ، تعلم أنه ينبغى للعبد و إن عمل من الطاعات ما عمل أن يكون على حيز الخوف والخشية من الله تعالى وعذابه وأليم عقابه فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء . « قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « شيبتنى هود وأخواتها الحاقة ، والواقعة . وعم يتساءلون . و إذا الشمس كورت والغاشية » روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتمالهن مع قصرهن على ذكر أحوال الآخرة وعجائبها وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمر . وهو من أصعب المقامات الذى لا يتأهل إلا هو صلى الله عليه وسلم وهو كمقام الشكر إذ هو صرف العبد فى كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يناسب كل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل . ولذا لما قيل له صلى الله عليه وسلم عن مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه : أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟

والقرآن كله مخاوف لمن تدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى : « و إنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . لكان كافياً ، إذ شرط المبالغة فى مغفرته أموراً أربعة يعجز العبد عن آحادها . التوبة والإيمان الكامل المراد فى نحو قوله صلى الله عليه وسلم « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه من حديث أنس . والعمل الصالح ، ثم سلوك سبيل المهتدين من مراقبة الله وشهوده

---

(١) قال ذلك لعمر رضى الله عنه لما قال يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق . وهى قطعة من حديث الصحيحين وفيه قصة الظعينة التى كان معها كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى مشركى مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم .

و إدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى بقاله وحاله ودعائه و إخلاصه — وأشد منه قوله تعالى « فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين » فقد نبهك الله تعالى إلى أنك إذا تبت توبة نصوحا وآمنت إيماناً كاملاً ، وعملت عملا صالحاً كنت على رجاء أن تعد من زمرة الفائزين — ولا تغتر بما قيل إن عسى من الله واجبة الوقوع فإنه أكثرى لا كلى . قال تعالى « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخش تذكراً وخشية نافعين — فإياك وأن تأمن مكر الله و إن وصلت إلى ما وصلت فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون — واستحضر قول الله تعالى « ليسأل الصادقين عن صدقهم » . وقوله تعالى « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » وقوله « و إن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » أي ما من أحد إلا داخل النار كان ذلك أمراً محتوما أوجبه الله عز وجل على نفسه وقضى أنه لابد من وقوعه ألبتة ، ثم يخرج منها الذين اتقوا الكفر والمعاصي و يترك فيها الكفار والعصاة جثيا ، ومنهارا بهم كما كانوا عند إحضارهم حول جهنم — وقوله تعالى « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » أي نجمعهم إلى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لإكرامهم و إنعامهم ونسوق المجرمين كما تساق البهائم إلى جهنم عطاشا فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش — وقوله تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » فإنه غاية في الوعيد مستعار من قول الرجل لمن يتهدده سأفرغ لك أي سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه — وقوله تعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته و بنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » يكفيه في الاهتمام به و يشغله عن غيره — وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فخوف عذاب الله هو الذي

أذهب عقولهم وطير تمييزهم وصيرهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ، ولا نجاة من تلك الأفزاع والأهوال إلا بالتقوى كما أمر الله عز وجل . وقوله تعالى « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبلُ فى أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم » فأخبر تعالى أنه يسأل بعضهم عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله تعالى ، فيقول الموفقون : إنا كنا فى الدنيا فى أهلنا أرقاء القلوب من خشية الله فمن الله علينا بالمغفرة والرحمة ووقانا نار جهنم . والسموم الريح الحارة التى تدخل المسام — سميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة — وقوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فانظر بعين بصيرتك ونور سريرتك إلى أنه تعالى قد حكم على كل إنسان[1] بأنه خاسر إلا من جمع أموراً أربعة فإنه ينجو من الخسران المؤدى إلى الهلاك — الإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق بأن يتلبس بما دل عليه الكتاب والسنة من الأخلاق ، والآداب ، والأحكام ، والشروط فى سائر الأقوال والأفعال ، والأحوال الظاهرة والباطنة فلا يأتى شيئاً منها إلا وقد أخلص فيه وابتغى به وجه الله وحده . والتواصى بالصبر بأن يصبروا على الطاعات ، وعلى ما يلقونه من المكاره والبليات ، وعن المعاصى وما لها من الشهوات واللذات . فمن تحقق بهذه الشروط الأربعة كما ذكرنا كان على رجاء عظيم من السلامة من الخسار والبوار والعار والشنار بالفتح العيب والعار .

وفى الصحيحين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبد مناف لا أُغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ عمَّ رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنكِ من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنكِ من الله شيئاً » : عشيرة الرجل رهطه الأدنون : وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « يا رسول الله والذين

(١) إذ : أل فيه للعموم والاستغراق بدليل الاستثناء

يأتون » هكذا قراءة عائشة رضى الله عنها « ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » يا رسول الله هو الذى يزنى ، و يسرق ، و يشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال لا يا بنت أبى بكر — أو يا بنت الصديق — ولـكنه الرجل يصلى و يصوم ، ويتصدق و يخاف أن لا يتقبل منه » . رواه الإمام أحمد والترمذى والبيهقى وغيرهم . وفيه دليل على أن الخوف يكون مع كمال طاعة العبد لـكونه لا يعلم قبول عمله لخفاء ما يطرأ على الأعمال من الآفات — وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، و ينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، و ينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » متفق عليه — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن عمله فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يومئذ تحدث أخبارها » ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عملت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا فهذه أخبارها » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

وكان ابن السماك يعاتب نفسه و يقول لها : تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنةَ تطلبين أن تدخليها . هيهات هيهات . للجنة قوم آخرون ، ولهم أعمال غير ما نحن عاملون — وقال بعض السلف : لو نودى ليدخل الجنة كلُّ الناس إلا رجلا واحداً لخشيت أن أكون ذلك الرجل — وكان سهل التسترى رحمه الله يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : « وقلوبهم وجلة » ، ولما احتضر سفيان الثورى رحمه الله جعل يبكى و يجزع ، فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم

من ذنوبك . فقال أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . ومعناه أن المآل الجنة إذا تحقق موته على التوحيد — فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخاف الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدمها مثل الابتداع فى الدين ، والزنا والربا وأكل مال اليتيم والكبر ، والنفاق ، والحقد والحسد وجملة من المعاصى والصفات المذمومة .
وإنما كان الابتداع فى الدين سبباً فى سوء الخاتمة لأن المبتدع مرتكب إثماً وعاص لله تعالى — ولا نقول الآن هو عاص بالكبائر أو بالصغائر بل نقول هو مصر على ما نهى الله عنه ، والإصرار يعظم الصغيرة — إن كانت صغيرة — حتى تصير كبيرة ، وإن كانت كبيرة فأعظم . ومن مات مصراً على المعصية يخاف عليه ، فربما إذا انكشف الغطاء وعاين علامات الآخرة استفزه الشيطان وغلبه على قلبه حتى يموت على التغيير والتبديل . وخصوصاً حين كان مطيعاً له فيما مضى من زمانه مع حب الدنيا المستولى على قلبه — قال عبد الحق الأشبيلي رحمه الله : إن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ما سُمع بهذا قط ولا علم به والحمد لله — إنما يكون لمن كان عنده فساد فى العقل ، أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم أو لمن كان مستقيما ثم تغيرت حاله أو خرج عن سننه وأخذ فى طريق غير طريقه فيكون عمله ذلك سبباً لسوء خاتمته وسوء عاقبته والعياذ بالله قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وجملة القول أن المبتدع مع كونه مصراً على ما نهى عنه يزيد على المصر بأنه معارض للشريعة بعقله غير مسلم لها فى تحصيل أمره معتقداً فى المعصية أنها طاعة حيث حسّن ما قبحه الشارع وفى الطاعة أنها لا تكون طاعة إلا بضميمة نظره فهو قد قبح ما حسنه الشارع ، ومن كان هكذا فحقيق بالقرب من سوء الخاتمة إلا من رحم الله . وقد قال تعالى فى جملة من ذم : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ، والمكر جلب السوء من حيث لا يفطن له فمكر الله تعالى استدراجه

بعيد وأخذه من حيث لا يحتسب ، ولا يأمن مكره تعالى إلا الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها والاستعداد القريب ، المستفاد من النظر فى الآيات — وسوء الخاتمة من مكر الله إذ يأتى الإنسان من حيث لا يشعر به نسأله تعالى العفو والعافيه[1] . — ولذا اشتد خوف الصحابة من النفاق وقد فسره الصحابة والتابعون بما لا يخلو عن شىء منه إلا صديق . قال رجل لابن عمر رضى الله عنه : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخارى . وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج[2] . فالمراد النفاق العملى لا الاعتقادى — فإن النفاق العملى هو ترك المحافظة على أمور الدين سراً ومراعاتها علنا ، نسأل الله تعالى السلامة .

الفصل السابع عشر

سوء الخاتمة

هو نوعان : الأول وهو أخطر النوعين وأسوأهما عاقبة — أن يغلب الجحود على القلب عند سكرات الموت فتفيض الروح فى حال غلبة الجحود فيكون ذلك حجابا بين العبد و بين الله تعالى أبداً وذلك يوجب البعد الدائم والعذاب المخلد — وسبب الجحود ضعف الإيمان فى الأصل . ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومتى ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوى حب الدنيا ، حتى لا يبقى فى القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، ولا أثر له فى كفها عن السيئات — وذلك يورث الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يُظلِمَ القلب ، وتتراكم عليه ظلمات

(١) انظر تفصيل الموضوع فى كتاب الأبداع فى مضار الابتداع الطبعة الرابعة .
(٢) أى الدخول فى الأمر والخروج منه على وجه يخالفه .

الذنوب فلا تزال تطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى تصير طبعا ورَينا — فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حبه لله ضعفا لشعوره بفراق الدنيا ، وهى المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعاره فراق الدنيا ، و يرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهته من حيث أنه من الله تعالى فيُخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب — كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها ، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا . فإن اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبداً .

والذى يُفضى إلى مثل هذه الخاتمة غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى — أما من كان حب الله تعالى أغلب على قلبه من حب المال فهو أبعد عن هذا الخطر — فحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، ولهذا قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » . أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ، ومن المجاهدة لإعلاء كلمة الله فانتظروا بما تحبون حتى يأتى الله بعقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذا وعيد شديد ، وتهديد شنيع للمنهمكين ، فى طلب الدنيا .

فإذن كل من فارقته روحه فى حالة الانكار على الله تعالى ، وظهور بغض فعل الله بقلبه فى تفريقه بينه و بين أهله ، وماله ، وسائر محابه الدنيوية كان موته قدوماً على ما أبغضه ، وفراقاً لما أحبه . فَيقدَم[1] على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا

---

(١) قدم من سفره قدوماً ومقدماً بالفتح من باب تعب — وقدم يقدم كنصر ينصر قدماً كقفل بمعنى تقدم قال تعالى يقدم قومه يوم القيامة — وأقدم على الأمر إقداما فعله بشجاعة .

قدم به على مولاه قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزى والنكال ، وأنواع الاهانة — وأما الذى يتوفى على الحب فأنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المطيع المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ، ووعثاء الأسفار طمعاً فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الاكرام ، وبدائع الأنعام — قال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم رحمه الله : يا أباحازم مالنا نكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب — قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يأتى أهله فرحا ، وأما المسىء فكالعبد الآبق يأتى مولاه خائفاً محزوناً .

الثانى وهو ما دون الأول أن يغلب على القلب عند الموت حب شهوة من شهوات الدنيا فيتمثل ذلك فى القلب ويستغرقه ، حتى لا يبقى فيه متسع لغيره فيكون استغراق قلبه به صارفاً وجهه إلى الدنيا ، ومتى انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب . ومتى حصل الحجاب نزل العذاب — فإن اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطير لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، كما أنه يبعث على ما مات عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب تضاد الصفة التى غلبت عليه ، فإن ذلك بالأعمال ، وقد انقطعت بالموت ولا أمل فى الرجوع إلى الدنيا ليتداركه ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، ويشتد الندم حيث لاينفع ، إلا أن أصل الإيمان إذا كان قد رسخ فى القلب بصالح الأعمال فإنه ينجيه من الخلود فى النار ويخرجه منها القليل منه كما فى الخبر « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » . رواه البخارى .

ولهذا النوع سببان : أحدهما كثرة المعاصى والآخر ضعف الإيمان — وذلك أن مقارفة المعاصى من غلبة الشهوات ، ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة وكل ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله إلى

الطاعات أكثر كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله تعالى ، وإن كان إلى المعاصى أكثر غلب ذكرها على قلبه عند الموت — فربما تفيض روحه عند غلبة معصية من المعاصى فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى لاشتغاله بما تقيد به — فالذى غلبت طاعاته على معاصيه بعيد عن هذا الخطر — والذى غلبت عليه المعاصى وكان قلبه بها أفرح منه بالطاعات خطره عظيم جداً — وأما الذى لم يقارف ذنباً أصلا فهو أبعد عن هذا الخطر . ويعرف هذا بمثال : هو أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، ولا يرى إلا مايماثل مشاهداته فى اليقظة — فالمراهق الذى يحتلم لايرى صورة الوقاع — والفقيه الذى قضى عمره فى درس المسائل يرى من أحوال العلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة — والتاجر يرى من أحوال التجارة أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر فى حالة النوم ماحصل له مناسبة مع القلب بطول الألف — وسكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيحضره عند ذلك جملة من الأحوال التى عهدها فى طول حياته ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكر الشىء فى القلب طول الألف فطول الألف بالمعاصى والطاعات أيضاً مرجح — ولذلك تخالف منامات الصالحين منامات الفاسقين . فتكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة وتميل إليها نفسه فربما تفيض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته — وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها .

ومن أراد السلامة من ذلك فلا سبيل له إلا المجاهدة طول العمر فى فطام نفسه عن الشهوات محافظة على القلب منها ، ويكون طول المواظبة على الخير ، وتخلية الفكر عن الشر عُدة وذخيرة لحالة سكرات الموت وشدائده ، فإن المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه — ولذا نقل عن بقال أنه كان يُلقّن عند الموت كلمتى الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة ، فكان مشغولا بالحساب الذى طال إلفه له فغلب على لسانه ولم يوفق للشهادتين .

وبهذا عرفت أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم تسلم فى النفس الأخير الذى عليه خروج الروح — ومن أجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، إذ ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء ، واستيلائه على القلب وهو لايخلو عن أمثاله — وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج عنه حب الدنيا والأهل والمال ، والولد وجميع الشهوات . إذ لا يَهْجُم على صف القتال موطناً نفسه على الموت ، وبائعاً دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الذى بايعه الله به إلا حباً لله وطلباً لمرضاته ، وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها من خاطر السوء الذى قال فيه صلوات الله وسلامه عليه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة[1] ، فيختم له بما سبق به الكتاب » ، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاء بل هى الخواطر المتقدمة ، فاشتغل بالاستعداد لها — فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحفظ من المعاصى جوارحك ، ومن الفكر فيها قلبك ، واحترز من مشاهدة المعاصى وأهلها جهدك فإن ذلك أيضاً يؤثر فى قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نَفَسٍ من أنفاسك خاتمتك إذ يجوز أن تخطف فيه روحك — هذا ما دمت فى اليقظة ، فإذا أردت النوم فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ليس على لسانك فحسب ، فإن حركة اللسان وحده ضعيفة الأثر وبالله تعالى التوفيق .

(١) الفواق بضم الفاء وفتحها ما بين الحلبتين من الوقت لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب .

الفصل الثامن عشر

أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف

لاريب أن عقل الأنبياء وعلمهم ومكانتهم عند الله تعالى وكذا الملائكة لم يكن دون عقلك، وعلمك، ومكانتك. وقد اشتد بهم الخوف، وطال بهم الحزن والبكاء ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال لى النبى صلى الله عليه وسلم: « اقرأ على القرآن قلتُ يارسولَ الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال: إنى أحبُّ أن أسمعه من غيرى، فقرأت عليه سورةَ النساء حتى جئت إلى هذه الآية — فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً — قال حسبك الآن فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تَذْرفان » — أحب صلى الله عليه وسلم أن يسمع القرآن من غيره ليكون عرض القرآن سنة أو ليتدبره ويفهمه فإن المستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها — وقراءته صلى الله عليه وسلم على أبىّ بن كعب رضى الله عنه كانت ليعلمه كيف أداء القراءةِ ومخارجِ الحروف. وبكاؤه صلى الله عليه وسلم على المفرطين أو لِعظم ما تضمنته الآية من هول المطلع وشدة الأمر — ذرفت العين ذرفاً من باب ضرب دمعت. وذرف الدمع سال وذرفت العين الدمع — وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه، فيقوم ويتردد فى الحجرة، ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله » — متفق عليه — وروى أبو داود والترمذى بإسناد صحيح عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال: « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء » — أى فوران وغليان كغليان القدر على النار يسمع صوته، والأزيز صوت غليان القدر. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: « كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه »

رواه ابن أبى الدنيا . وروى الإمام أحمد رحمه الله أن داوْد عليه السلام مارفع رأسه إلى السماء بعد هفوته حياء من الله عز وجل ، وسببها أن الخصم لما تسوروا المحراب ودخلوا عليه من طريق غير مألوف غلب على ظنه عليه السلام أنهم يريدون قتله فهم بالانتقام لنفسه منهم ثم تبين له عذرهم فهدأ رَوْعه وسكن غضبه ، ومال إلى الصفح والتجاوز عنهم ، طلباً لمرضاة الله تعالى — وكانت هذه الواقعة هى الفتنة ، لأنها جرت مجرى الابتلاء والامتحان — ثم إنه عليه السلام طلب من ربه أن يغفر له ماهمّ به من الانتقام منهم وتاب من ذلك الهم وأناب فغفر له هذا القدر من الهم والعزم — هذا أقرب ما قيل فى بيان فتنة داود عليه السلام . وما عداه فهو إما بعيد الوقوع أو محال صدوره منه لإخلاله بمقام النبوة . وقال المسيح عليه السلام : معاشرَ الحواريين ، خشية الله ، وحبُّ الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان عن الدنيا . بحقٍّ أقول لكم إن أكل الشعير والنومَ على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل — رواه أبو نعيم وغيره وعن أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « سأل جبريل عليه السلام مالى لا أرى ميكائيل يضحك ؟ فقال جبريل : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد — وروى ابن أبى الدنيا أن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها — فهذا شىء من أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فدونك والتأملَ فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته وقس نفسك وتأمل فى القصور عن لحوق درجاتهم عليهم الصلاة والسلام .

أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح فى شدة الخوف

عرفت أن أعظم حامل على خوف الله تعالى وخشية سطوته هو العلم ، ومن ثَمّ غلب الخوف على علماء الصحابة ومَن بعدهم حتى كان بعضهم يضعف وبعضهم يَدهش[1] وبعضهم يسقط مغشياً عليه قال الله تعالى « إن الذين أوتوا العلم من

(١) دهش الرجل يدهش وبابه طرب .

قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » فهؤلاء علماء أهل الكتاب حين سمعوا القرآن استولى عليهم خوف الله تعالى فسقطوا على الأرض ساجدين من شدة الوله والخشية — ومن شدة الخوف قال أبو بكر رضى الله عنه : ليتنى كنت شعرة فى صدر مؤمن ، وقال يوماً لطائر : ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه قيل له فى الصلاة : قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء . فقال مروه فليصل — وفى رواية عنها قالت قلت : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناسَ من البكاء » متفق عليه . فكان رضى الله عنه رجلا بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن كما فى البخارى .

وقال عمر رضى الله عنه عند موته : الويل لعمر إن لم يغفر له ، وروى أنه رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن فكان يعاد أياما ، وأخذ يوماً تِبْنَةً من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه التبنة ليتنى لم أخلق ليتنى لم أك شيئاً مذكورا ليتنى كنت نسياً منسياً ليت أمى لم تلدنى — وقال له ابن عباس رضى الله عنهما : ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ومصّر بك الأمصار وفعل بك وفعل ؟ قال : وددت أن أنجو لا على ولا لى ، وفى رواية لا أجر ولا وزر ، وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا القيامة لكان غير ما ترون — رواه صاحب الحلية — ولما قرأ رضى الله عنه سورة التكوير وانتهى إلى قوله تعالى « وإذا الصحف نشرت » خر مغشيا عليه . ومر يوماً بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى « إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع » نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ، ولا يدرون ما مرضه ولا يستبعد أن يتفق الغَشْى والإغماء بل

الموت لمن سمع الموعظة بحق فضعف عن مقاومة الرقة وشدة التأثر الحاصل بسببها .

فقد روى عن ابن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع ابن خيثمة فمررنا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار فنظر الربيع إليها فتمايل ليسقط — ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطىء الفرات على أتون فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تَغَيُّظًا وزفيراً و إذا أُلقُوا منها مكانا ضَيِّقاً مُقرَّنين دَعَوا هنالك ثبوراً » فصعق الربيع أى غشى عليه فاحتملناه فأتينا به أهله قال : ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق فرابطه إلى المغرب فأفاق ورجع عبد الله إلى أهله — فهذه حالات طرأت لواحد من أفاضل التابعين بمحضر صحابى جليل ولم ينكر عليه لعلمه أن ذلك خارج عن طاقته فصار بتلك الموعظة الحسنة كالمغمي عليه — تغيظاً غلياناً كالغضبان إذا غلا صدره من الغضب . زفيراً صوتاً شديداً . مُقَرنين مصَفّدين قد قرنت أى جمعت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال — ثبورا هلاكا وقال عثمان رضى الله عنه وددتُ أنى إذا مت لم أبعث — وقال ابن عمر رضى الله عنهما فى قوله تعالى « أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه » هو عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه ليتنى إذا مت لم أبعث — ولم يرد به حقيقة التمنى ، بل أظهر أن له قبائح يخاف من المؤاخذة بها بعد البعث . ونظيره ماوقع لأسامة حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حِبه حيث قَتَلَ مَن نطق بالشهادتين ظانا أنه إنما نطق بهما اتقاء لا حقيقة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاتبه وكرر عليه : هلا شققت عن قلبه ؟ قال أسامة حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمتُ يومئذ — فإنه لم يتمن الكفر ولا تأخير إسلامه حقيقة إلى بعد هذه الواقعة وإنما تمنى سبق هذه الفَعلة منه لإسلامه حتى يكفرها الإسلام — ففى الصحيحين من حديث أسامة ابن زيد رضى الله عنهما قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه

قال : لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى : « يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً . قال أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » . وفى رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح . قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ » الحرقة بضم الحاء وفتح الراء بطين من جهينة القبيلة المعروفة . متعوذاً معتصما بها من القتل لا معتقداً لها .

ونقول إن أسامة قد اجتهد فظن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفا من السيف ، فلما عتب عليه النبى صلى الله عليه وسلم قال له : يا رسول الله أعطى الله عهداً ألا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلّم من صلاة الفجر وقد عَلَتْه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شُعْثاً صُفراً غُبراً بين أعينهم أمثالُ رُكَب المِعْزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهَمَلَت أعينُهم بالدموع حتى تَبُلّ ثيابهم ، والله كأنى بالقوم باتوا غافلين — ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم — هملت عينه : فاضت ، و بابه نصر — و بله : نداه ، و بابه رد — وقال معاوية رضى الله عنه لضِرَار بن ضمرة الصُّدائى : صف لى علياً . قال : ألا تعفينى . قال : بل صفه . قال : ألا تعفينى . قال : لا أعفيك . قال أما أنه لابد « فإنه كان بعيد المدى » واسع العلوم والمعارف لا تدرك غايته فيهما « شديد القوى » فى ذات الله ونصرة دينه « يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه » تأسفاً وحزناً إذ هذا فعل المتأسف

الحزين « ويخاطب نفسه » بالمزعجات والمقلقات « يعجبه من اللباس ماخشُن »
من باب سهل « ومن الطعام ما حضر ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا
إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقربه لنا ، وقربه منا لا نكلمه هيبة له فإن تبسم فعن
مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، ولا يطمع القوى فى
باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لرأيتــه فى بعض مواقفه وقد
أرخى الليل ستوره ، وغارت نجومه وقد تمثل فى محرابه قابضاً على لحيته يتململ
تململ السليم » أى اللديغ سمى به تفاؤلا « ويبكى بكاء الحزين وكأنى سمعته يقول
يا ربنا يا ربنا يضرع إليه ثم يقول يا دنيا يا دنيا ألى تعرضت ؟ أم بى تشوقت ؟
هيهات هيهات غُرّى غيرى ، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك فعمرك قصير ،
وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ،
فذرَفَت عين معاوية على لحيته فما ملكها وهو ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء .
قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟
قال : حزن من ذُبح واحدُها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها » — رقأ
الدمع والدم سكن وبابه قطع — والعبرة بالفتح تحلب الدمع .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : ودِدْت لو أنى شجرة تعضد . وكذا قال طلحة
ابن عبيد الله رضى الله عنه أحد العشرة — وقال عمران بن حصين رضى الله عنه :
ودِدْت أن أكون رماداً تنسفنى الرياح فى يوم عاصف — وكان على بن الحسين
رضى الله عنه إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟
فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ — وسئل ابن عباس رضى الله عنهما
عن الخائفين فقال : قلوبهم بالخوف قَرِحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت
من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله موقفنا.
وهذا منه رضى الله عنه بيان عن الخائفين بحسب حاله

ومر الحسن البصرى رحمه الله بشاب وهو مستغرق فى ضحكه جالس مع قوم
فقال له الحسن : يافتى هل مررت بالصراط ؟ قال لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة

تصير أم إلى النار ؟ قال لا . قال فما هذا الضحك ؟ قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا . وروى عن ميسرة بن أبى ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : ياليت أمى لم تلدنى . فقالت له أمه حين سمعت منه ذلك مراراً : ياميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال : أجل ولـكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها — أى ولا جزم عنده بأنه من المتقين الناجين فلذا اشتد خوفه منها — وكان عطاء السليمى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو — وقيل له فى مرضه : ألا تشتهى شيئاً ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعاً للشهوة — ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة — وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء قال . هذا من أجلى يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح الناس — وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال يا بنى ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة . رواه أبو نعيم فى الحلية — وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف أصبحت ؟ قال بخير . قال كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أى حال يكون ؟ . قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حالى أشد من حالهم — نقله فى القوت .

فهذا شىء من مخاوف الخلفاء والأولياء والعلماء والشهداء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين — ونحن أجدر منهم بالخوف — ولـكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة . وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا . بل قادتنا شهوتنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فعميت بصائرنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يزعجنا ، ولا وعظ الواعظين يؤثر فينا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا ويصلحنا إن كان تحريك اللسان

بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا — سئل سعيد بن جبير رضى الله عنه عن الخشية فقال : هى أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيته بينك و بين معاصيه . فهذه هى خشيته .

وأما الغرة بالله فهى أن يتمادى الإنسان فى المعصية و يتمنى على الله المغفرة — وكيف يغتر العاصى و يطمع فى النجاة وهى ليست إلا للعشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة — ومع ذلك كان عندهم من الخوف ما اقتضى أن يقول الصديق وهو أكبرهم ليتنى كنت شعرة فى صدر مؤمن — وهذا عمر أفضل الناس بعد أبى بكر رضى الله عنهما وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ومع ذلك سأل حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلق بالمنافقين والفتن ، فقال له : يا حذيفة هل أنا من المنافقين ؟ فقال : لا والله لست منهم يا أمير المؤمنين — فخاف عمر رضى الله عنه أن تكون نفسه قد لبست عليه حاله وسترت عنه عيوبه وعظم ذلك عليه حتى جوز أن يكون ذلك الوعد مشروطاً بشروط لم تحصل منه فلم يغتر به

وعلى الجملة فليس يراد بالخوف رقة النساء فتبكى ساعة ثم تترك العمل — و إنما يراد خوف يسكن القلب حتى يمنع صاحبه عن المعاصى ويحمله على ملازمة الطاعة فهذا هو الخوف النافع — لا خوف الحمقى الذين إذا سمعوا ما يوجب الخوف لم يزيدوا على أن يقولوا : رب سلم نعوذ بالله ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح — والشيطان يسخر بهم كما تسخر أنت بمن رأيته وقد قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن منيع بابه مفتوح له فلم يفزع إليه . وإنما اقتصر على رب سلم حتى جاءه السبع فأكله .

الفصل التاسع عشر

الحث على المسارعة إلى صالح العمل والتحذير من التأخير

لا شك أن من له إخوان غائبان ينتظر قدوم أحدهما فى غد والآخر بعد سنة يستعد للأول دون الثانى — فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار ، وعدمه نتيجة بعده — فمن انتظر الموت بعد سنة اشتغل بطول المدة ونسى ما وراءها ولم يفكر أن كل يوم يمضى نقص منها — وذلك يمنعه من المبادرة إلى العمل فإنه أبداً يرى لنفسه

متسعاً من الوقت فيؤخر العمل — وقد قال الله تعالى : « فاستبقوا الخيرات » من المسابقة بمعنى المبادرة والمسارعة أى بادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم وتزودوا فى دنياكم لأخراكم فإن الله تعالى قد بين لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم فى التفريط .
وقال تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » أى بادروا إلى مايؤدى إليهما من أداء الواجبات وترك المنهيات — وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة فى وصفها بالسعة إلى غاية لا يعلمها إلا الله تعالى على طريق التمثيل . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً » شاغلا عن أمور الآخرة « أو غنى مُطغيا . أو مرضاً مفسداً » لحاله « أو هَرَماً » الهرم بالفتح كبر السن وقد هرم من باب طرب « مُفْنداً » مورثاً للفند محركا وهو ضعف الرأى والخطأ فيه « أو موتاً مجهزاً » سريعا « أو الدجالَ فالدجالُ شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » الداهية الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه — والقيامة فى أقصى غاية من الفظاعة والمرارة . رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس . حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقَمِك . وفراغَك » فى هذه الدار « قبل شُغلك » بأهوال القيامة « وشبابك قبل هَرَمك . وغناك قبل فقرك » وهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها — رواه البيهقى والحاكم بإسناد حسن . وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » من الشواغل الدنيوية المانعة عن أمور الآخرة . والغبن بالسكون فى البيع وفى الرأى بالتحريك — ومن لم يستعملهما فيما ينبغى فقد غُبن ولم يحمد رأيه — وقال أبو حامد أى أنه لا يغتنمهما ثم يعرفُ قدرَهما بعدزوالهما — وفيه تشبيه المكلف بالتاجر ، والصحة والفراغ برأس المال بأن كلا من أسباب الربح فمن عامل الله بامتثال أوامره ربح . ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله وخسر — ونبه بكثير على أن الموفق لذلك قليل — رواه البخارى والترمذى .

وقال ابن عمر رضى الله عنه : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السَّعَف فقال : ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه » رواه ابن أبى الدنيا والترمذى بإسناد حسن والسَّعَف : غصون النخل جمع سعفة بالتحريك . وقال جابر بن سَمُرَةَ رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذرُ جيشٍ يقول صبَّحَكم ومسَّاكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه » رواه مسلم — شبه حاله فى خطبته و إنذارِه بقرب القيامة . وتهالكَ الناس فيما يرديهم بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منهم يقصد الإحاطة بهم بغتة فلا يفوته منهم أحد — فكما أن المنذر يرفع صوته وتحمر عيناه و يشتد غضبه على تغافلهم فكذا حاله صلوات الله وسلامه عليه عند الإنذار . والساعة منصوب على المعية أو مرفوع بالعطف على الضمير المتصل أى بعثت وبعثت الساعة تنزيلاً لها منزلة الموجود مبالغةً فى تحقق وجودها ومجيئها — والمقصود التنبيه على قرب القيامة وأن الباقى من عمر الدنيا قليل ليسارع الناس إلى العمل استعداداً للموت وما بعد الموت . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » فقال : إن النور إذا دخل الصدر انفسح . فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » رواه البيهقى فى الشعب والحاكم وابن أبى الدنيا وغيرهم من طرق عديدة . وقال عمر رضى الله عنه : « التؤدة فى كل شىء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة .

وخطب الإمام على رضى الله عنه على المنبر فقال : « اتقوا الله عباد الله و بادروا آجالكم بأعمالكم » أى سابقوها وعاجلوها بها أى استكملوا أعمالكم قبل حلول آجالكم « وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم » أى اشتروا ما يبقى من النعيم الأبدى بما يفنى من لذة الحياة الدنيا وشهواتها المنقضية « وترحّلوا فقد جدّ بكم » الترحل الانتقال ، والمراد منه هنا لازمه وهو إعداد الزاد الذى لا بد منه للراحل والزاد فى الانتقال

عن الدنيا ليس إلا التقوى : فقد جُدّ بكم — أى حُثِثتم وأزعجتم إلى الرحيل « واستعدوا للموت فقد أظلكم » قرب منكم حتى كأن له ظلا قد ألقاه عليكم ، ولا عدة له إلا صالح العمل « وكونوا قوماً صِيح بهم فانتبهوا » أى كونوا قوماً حذرين إذا استنامتهم الغفلة وقتاً ما ثم صاح بهم صائح الموعظة انتبهوا من نومهم وهبوا لطلب النجاة « وعلموا أن الدنيا ليست بدار » إقامة « فاستبدلوها بدار الآخرة فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى » بل منحكم قوة العقل التى تصغر عندها كل لذة دنيوية ، ولا تقف رغائبها عند حد منها فكأنها مفطورة على استصغار كل ما تلاقيه فى هذه الحياة . وطلب غاية أعلى مما يمكن أن ينال فيها فهذا الباعث الفطرى لم يوجده الله تعالى عبثاً فاستعملوه فيما خلق له — وسدى مهملين بلا راع يزجركم عما يضركم ، ويسوقكم إلى ما ينفعكم . ورعاتنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخلفاؤهم . « وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به وإن غايةً » هى الأجل « تَنقصها اللحظة وتهدِمها الساعةُ لجديرةٌ بقصر المدة . وإن غائباً يَحْدوه الجديدانِ الليلُ والنهارُ لَحِرى بسرعة الأوبة » ذلك الغائب هو الموت يسوقه الليل والنهار بكرورهما عليك وما أسرع مرهما والانتهاء إلى الغاية « وإن قادما يَقدَم بالفوز أو الشقوة لمستحقُ لأفضل العدة » وذلك القادم أيضاً هو الموت إما بفوز وإما بشقوة وعدته الأعمال الصالحة والملكات الفاضلة « فتزودوا فى الدنيا من الدنيا ما تُحرِزون به أنفسكم غداً » أى تحفظونها به وهو تقوى الله فى السر والنجوى وطاعة الشرع وعصيان الهوى « فاتقى عبدٌ ربه نصحَ نفسَه . قدّم توبته وغلب شهوته » أوامر بصيغة الماضى جاءت بياناً للتزود المأمور به قبلها « فإن أجله مستورٌ عنه وأمَلَه خادعٌ له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تَهْجُم منيته عليه أغفل ما يكون عنها » حال من الضمير فى عليه أى لا يزال الشيطان يفعل معه ذلك حتى يفاجئه الموت وهو فى أشد الغفلة عنه « فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة » لأنه أوتى فيه المهلة ومُكن فيه من العمل فلم ينشط له « وأن تُؤَديهُ أيامه إلى شقوة نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة » لا تطغيه

ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه « ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عاريّة ، والضيف مرتحل والعاريّة مؤداة » . رواه الطبرانى — وكان الحسن البصرى رحمه الله يقول فى موعظته : « المبادرةَ المبادرةَ فإنما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية : « إنما نَعُدُّ لهم عدّا » يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك » . رواه ابن أبى الدنيا — فرحم الله امرأ علم أن الدنيا ساعة ، فجعلها طاعة وابتغى الرحمة وهرب من العقوبة حتى جاءه أجله وهو على ذلك .

الفصل العشرون

سنة الله تعالى فى الهداية والإضلال

صرح القرآن الحكيم فى مواضع كثيرة بأن أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد الإنسان منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح — ويبغض أعمال الفجور فيجازى عليها بالضلال والشقاء . وأيضاً فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور .

فمن الأصل الأول قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فإنه يفيد أن العبد إذا آمن بهذا الكتاب الكريم واهتدى به مجملا وامتثل أوامره واجتنب نواهيه وصدق بأخباره كان سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل فإن الهداية لا غاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، فوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير نهاية — وذلك أن الإنسان إذا آمن بالله

فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة ، ثم إذا واظب على صالح الأعمال حصلت له ملكة راسخة فى الإقبال على الآخرة وفى الإعراض عن زخارف الدنيا ، وكلما كانت هذه الأحوال أكثر كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد ، وكلما كان الاستعداد أقوى وأكمل كانت معارج المعارف أكثر ، وإشراقها ولمعانها أقوى . ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى : « هدى للمتقين » ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو فى مزيد من التقوى والاستقامة ، وكلما فوّت على نفسه حظاً من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه — فكلما اتقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زادت تقواه . قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . فأفاد أن الله تعالى يهدى بالقرآن من طلب رضاه بالإيمان به إلى طرق السلامة من المخاطر والنجاة من العقاب ، وينقذهم من ظلمات فنون الكفر وأنواع الضلال إلى نور الإيمان والهداية بتيسيره وتوفيقه — فالنور والكتاب المبين هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك والإلحاد والزيغ ، وإبانة ما خفى على الناس من الحق — والصراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الله تعالى ، والهداية إليه عين الهداية إلى سبل السلام ، عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى .

وقال تعالى : « هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً » ، فالله عزت قدرته وجلت حكمته أبدع الآيات الكونية الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية ، وجعلها أمام أبصاركم وعقولكم لتستدلوا بها على كمال قدرته وبالغ حكمته ، وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى ، وتخصوه بالعبادة والتعظيم اللائق بجلاله وينزل من أجلكم ما هو سبب أكيد فى رزقكم وحياتكم وهو المطر . وأفرده بالذكر مع كونه من الآيات المذكورة ، لانفراده بعنوان كونه من آثار رحمته

وجلائل نعمته الموجبة للشكر : « وما يتذكر إلا من ينيب » أى وما يتعظ بتلك الآيات الباهرة ويعمل بمقتضاها إلا من يرجع إلى الله تعالى ويتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ، ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ وكذلك الشأن فى الآيات التنزيلية لا ينتفع بها إلا من أقبل عليها وتدبر ما فى ثناياها ، وتأمل مافيها من الحكم البالغة ، والعلوم النافعة له فى دينه ودنياه . أما من أعرض عنها فهو محروم من هدايتها والانتفاع بها — والحاصل أن الآيات البينات إنما تنفع النفوس المستعدة لقبول الحق المتوجهة إلى طلبه ، وأما النفوس الخبيثة التى يفضحها الحق ويؤلمها ويظهر باطلها التى تحب ستره والاسترسال فيما هى فيه من اللذة البهيمية والجاه المزيف ، فإن الآيات المذكورة لا تزيدها إلا مراء وجدلا فى القول وجحداً وعناداً بالفعل : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

وقال تعالى « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا » . أمر الله جل وعلا رسوله المصطفى بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم وتوجيههم إلى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى ، والاستعداد لامتثال أوامره والتزام أحكامه ، وأشار بقوله إن نفعت الذكرى إلى ما عليه أهل الباطل القائمون على ما ورثوا عن آبائهم ، وإلى جمودهم وصلابة جهلهم ، وأن الذكرى ربما لا تنجح فيهم قالوا (وذلك كما تقول للواعظ : عظ المرابين إن سمعوا منك) ، وليس الشرط قيداً فى الأمر فقد أجمع أهل الدين سلفهم وخلفهم على أن الأمر بالتذكير عام نفعت الذكرى أم لم تنفع ، وعمله صلوات الله وسلامه عليه أصدق شاهد على ذلك ، ولذا أردف الأمر بقوله : « سيذّكر من يخشى » ، أى سيتذكر بتذكيرك من يخاف الله تعالى فى الجملة ، فيزداد خوفه بالتذكير فيتفكر فى أمر ما تذكر به ، فيقف على حقيقته فيؤمن به ويعمل عليه — فالذكرى نافعة حتما فى فريق من الناس وهو الذى يخاف الله ويخشى عاقبة الجحود

والعناد بعد ظهور الدليل ووضوح وجه الحق ، وإنما يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها الأشقى الذى غلبه شقاؤه ، وحق عليه الخذلان بإعراضه عن النور الساطع والبرهان القاطع . وهذا الفريق الذى لايخلو منه زمن سيلقى من الله جزاءه كما قال تعالى : « الذى يصلى النار الكبرى » هى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ثم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة .

وقال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير فهو تعالى حكيم يعطى الهداية للخير لأهلها .

وقال تعالى : « ويهدى إليه من أناب » . أى أنه تعالى يهدى إلى جنابه العلى الكبير هداية موصلة كل من أقبل على الحق وتأمل ، فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة .

وقال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » فهداهم أولا للإيمان بكل مايجب الإيمان به فلما آمنوا هداهم بالإيمان هداية بعد هداية ، أى أنه تعالى يوفقهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة ويهديهم بإيمانهم أيضاً إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية . كما قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم » ، فإن العمل بدين الله مع رعاية سنن الله فى خلقه يورث العلم والحكمة وينير البصيرة وبذلك تنكشف أمامه الأشياء ونظير هذا قوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » ، أى يزيد المؤمنين المهتدين هدى ، وذلك أن بعض الاهتداء يجر إلى البعض الآخر كالإيمان يجر إلى الإخلاص فيه ، كما أن بعض الغواية يجر إلى بعضها — وهو ممكن عقلا إذ لايبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطاً بالبعض ، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم ، ولا امتناع فى كون بعض العلم مشروطاً بالبعض ، فمن اهتدى بالهداية التى هى الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يمنح الهداية التى هى المشروط — مثاله الإيمان هدى ، والإخلاص فى الإيمان زيادة هدى ، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان ، فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص — وقوله جل ثناؤه فى سورة

القتال : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . أى الذين اهتدوا إلى طريق الخير فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به ، زادهم هدى بالتوفيق إلى سبل السعادة ، فى الدنيا والآخرة — وإجمالا زادهم إيمانا وعلماً وبصيرة ، فى أمور الدين والدنيا ، « وآتاهم تقواهم » ، ألهمهم إياها وأعانهم عليها . وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » . ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل — وبالجملة فالإيمان الصادق له نور يسطع فى القلوب فيهديها فى ظلمات الشبه ، وينير لها السبيل إلى الحق الذى لا يشوبه باطل ، فيسهل عليها أن تميط كل أذى يتعثر فيه السالك .

وقال تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فى سورة إبراهيم فى قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . ولقمان فى قوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . وسبأ فى قوله : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . والشورى فى قوله : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فأخبر جل شأنه عن آياته العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته القرآنية الإيمانية أنه إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والأنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه ، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه . قال تعالى : « طه ما أنزلنا

عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » . وقال فى الساعة : « إنما أنت منذر من يخشاها » . وأما من لا يؤمن بها ، ولا يرجوها ولا يخافها ، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية .

ولهذا لما ذكر سبحانه فى سورة هود عقوبات الأمم التى كذبت الرسل حل بهم من أنواع الخزى والذل فى الدنيا قال بعد ذلك : « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » . فأخبر أن فى عقوبات المكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة واعتقد صحته ووجوده — وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة فى حقه — وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات لأنهما أساس الإيمان فنصفه صبر ونصفه شكر — وعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه — وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته ولا يتم الإيمان إلا بالصبر والشكر فإن رأس الصبر ترك إجابة داعى الهوى والشهوة ، ورأس الشكر التوحيد ، فإذا كان العبد متبعا هواه مشركا بمولاه ، لم يكن صابراً ولا شكوراً ، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيمانا .

ومن الأصل الثانى وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال قوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض » فإن تخصيص الإضلال بهم مترتباً على صفة الفسق وما هم عليه من القبائح المذكورة بعده إيذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال . فإن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر فى حكمة ضرب المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم . وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا ما قالوا — فالمراد من الفاسقين هنا العاتون الماردون فى الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله والاستهزاء به .

وقوله تعالى « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » فإنه صريح فى أنه تعالى أبعدهم عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم

العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة ، بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق ، وسبب الآية أن اليهود ادعوا أن قلوبهم مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به النبي صلوات الله وسلامه عليه ولا تفقهه . فرد الله عليهم ما قالوا وكذبهم فيه ببيان أن المانع كسبي لا جبلي

وقوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » روى أن قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى البدو معتلين بوباء المدينة ، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين ، فاختلف المسلمون فى كفرهم وإسلامهم ، فبين الله أمرهم وأخبر تعالى بأنه قد ردّهم فى الكفر كما كانوا بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وأصل الركس رد الشيء مقلوباً .

وقوله تعالى : « يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويُضل الله الظالمين ويَفعل الله ما يشاء » فأخبر جل شأنه أنه يثبت المؤمنين على ماثبتَ لديهم بالحجة وتمكن فى قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة « كلمة التوحيد » فى الحياة الدنيا ، فلا يزالون عنه إذا فتنوا فى دينهم كالذين قتلهم أصحابُ الأخدود وبلال وصهيب — وفى الآخرة فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ، ولا تُدْهِشهم أهوال القيامة — وأنه تعالى يخلق فى الكافرين الضلالَ عن الحق الذى ثبَّت عليه المؤمنين بسوء اختيارهم وظلمهم لأنفسهم . حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الواضحة فلم يهتدوا إلى الحق « ويفعل الله ما يشاء » من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكم البالغة .

وقوله تعالى : « ونقَلِّب أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » فأخبر أنه تعالى عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتَهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه . لكن لا مع توجههم إليه واستعدادهم له بطريق الإجبار . بل بأن

يخليهم وشأنهم بعدما علم فساد استعدادهم ونفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا و يطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما بينه تعالى بقوله: « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » أى ندعهم فى طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله بحسن الطاعة حين يدعوهم إلى مافيه حياتهم من العلوم الدينية والجهاد لإعلاء كلمة الله — ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سبباً للحيلولة بينهم و بين قلوبهم .

وقال تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » فأفاد أنهم لما أصروا على الزيغ عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه عاقبهم الله تعالى بصرف قلوبهم عن قبول الحق والميل إلى الصواب بصرف اختيارهم نحو الغى والضلال . وقال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها و بين الإيمان بآياته فقالوا أساطير الأولين . وقال تعالى فى شأن المنافقين : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم » أخبر تعالى أنهم رجالا ونساء متشابهون فى النفاق وصفاً وعملا كأن كلا منهم عين الآخر يأمرون بالكفر والمعاصى و ينهون عن الإيمان والطاعة و يمتنعون عن بذل المال فى سبيل الله ، وأنهم تركوا التقرب إليه تعالى بالطاعة والإنفاق فى سبيله ، فجازاهم على نسيانهم له تعالى و إهمالهم لطاعته بحرمانهم من التوفيق والهداية ، وفضيلة التقرب إليه بالإنفاق والجهاد فى سبيله فى الدنيا ، ومن الثواب على ذلك فى الآخرة . فقبض اليد كناية عن الشح . والمراد من نسيانه تعالى لهم لازمه وهو جعلهم كالمنسى الذى لا يتعهد ولا يعتنى بشأنه ذلك لخبثهم وقبائحهم — وقال تعالى فى موعظة المؤمنين وحثهم على الخير وتحذيرهم من الشر ومشابهتهم للمنافقين فى أخلاقهم وقبائحهم : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » أخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل

الصالح وهما الهدى ودين الحق - فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له تعالى و إغفالهم لذكره وطاعته .

وقال أيضاً فى حق المنافقين : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاوناً منهم ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة رضى الله عنهم : ما الذى قال الساعة ؟ استهزاء فى صورة الاستعلام والاستعادة شأن الخبيث المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد — فأخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم بأنهم لم يتوجهوا نحو الخير أصلا واتبعوا أهواءهم الباطلة — وبين أنه تعالى زاد الذين اهتدوا إلى طريق الحق هداية بالتوفيق والإلهام وأعانهم على تقواهم — فإن المؤمن المهتدى يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم .

وعلى الجملة فإن من تدبر آيات الهداية والاضلال يعلم أن الله تعالى إنما يهدى من هو مستعد للهداية بسبب إنابته إلى ربه وأخذه فى سبيل تعرف الحق واستعماله مواهبه فيما خلقت له — وأن من تكبر عن معرفة الحق وأعرض عن كتاب الله وهدى رسوله واتبع هواه جدير بأن يطمس الله على قلبه ويصرفه عن آياته . تلك هى سنة الله عز وجل فى خلقه المبنية على غاية الحكمة ونهاية العدل .

نماذج فى مواعظ القرآن الحكيم

قد عرفت بما تقدم لك خطورة وظيفتك وعظم مسئوليتك إذا تصدرت لعظة الناس وإرشادهم ، وما ينبغى أن يكون عليه المرشد من الصفات النفسية والآداب الدينية التى يتحلى بها ليكون وارثاً نبويا وعالماً ربانيا ، ذا حياة طيبة نافعة ، ناشراً للفضيلة . محارباً للنقيصة مهذباً للنفوس ، صالحاً للتأثير فى الأرواح — وعرفت أيضاً مراجع الوعظ وأنواعه والطرق التى يسلكها فى إرشاد الناس إلى الحق من الترغيب والترهيب .

وبقى عليك أن تعرف جملة من مواعظ الكتاب الحكيم والحكم النبوية العالية ، وكيف تتصرف فيها على سبيل الحكمة بحسن التأدية عند القيام بواجب مهمتك ، فإن منهلك الصافى وبحرك الزاخر الذى لا ينضُب معينه ، وإمامك الذى تقتدى به ومرشدك الذى يهديك إلى سواء السبيل هو ذلك الكتاب المبين . والسنة الشريفة . وآثار السلف الصالح . ثم كل كتاب فى أصول الدين الحنيف أو الفروع أو الأخلاق ، لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة .

وسنذكر لك بعون الله تعالى وحسن توفيقه موجزاً من المواعظ الجامعة لكثير من شعب الإيمان ووجوه البر ، وشيئاً مما يتعلق بجملة الخلائق وخصوصاً الإنسان حتى تعرف منزلته من بينها وما قدر له من العيش الرغد والحياة الطيبة بقيامه بوظائف العبودية ونزعه لكسب الفضائل وخصائص الإنسانية ، ليكون لك نبراساً تستضىء به ومثالا حيا تنسج على منواله فى عملك — وإجمالا تهتدى به فى طريق دعوة الخلق إلى الله تعالى حتى تسير بهم نحو السعادة فى العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

الموعظة الأولى الكمالات النفسية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قال الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » كان صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يصلى إلى بيت المقدس وبقى كذلك بعد الهجرة يصلى إليه أكثر من سنة (سبعة عشر شهراً) فلما أمر بالتوجه إلى الكعبة كثر الخوض فى أمر القبلة وكان فى ذلك محنة للمسلمين واليهود ، والمشركين والمنافقين . فأما المسلمين فقالوا : سمعنا وأطعنا « وقالوا آمنا به كل من عند ربنا » وهم الذين هدى الله ولم يكن كبيرة عليهم . وأما اليهود فقالوا خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبيا

ـكان يصلي إلى قبلة الأنبياء . وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وأما المنافقون فقالوا ما ندرى محمد أين يتوجه ، إن كانت الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل . وكثرت أقاويل السفهاء من الناس وكانت كما قال الله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليظهر من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه — وعلى الجملة كان من المسلمين الاغتباط بالتوجه إلى الكعبة وكان من أهل الكتاب التشدد فى التوجه إلى بيت المقدس ، وظن كل أنه الغرض الأكبر فى الدين فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا تقبل عند الله تعالى ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة إلى الكعبة هى كل شىء لأنها قبلة إبراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى — فأراد الله تعالى أن يبين للناس كافة أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين . ذلك أن استقبال الجهة المعينة إنما شرع لأجل تذكير المصلى بالإعراض عن كل ما سواه تعالى فى صلاته والإقبال على مناجاته ودعائه ، فتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب ، وليس ركناً من العبادة فليس لكم أن تذهلوا به عن سائر صنوف البر ، ولكن البر الذى يجب صرف الهمة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال التى بينها الله عز وجل ، أى أن البر هو الإيمان وما يظهر من آثاره فى النفس والعمل فقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » إلخ .

وهنا يذكر للناس حكمة تعيين الجهة فى الصلاة ، وحكمة التوجه إلى بيت المقدس أولا ، ثم التحويل عن بيت المقدس إلى الكعبة إن اقتضى الحال ذلك وكان فى الوقت سعة كأن يقول : (١) معلوم أن العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم فإنه لابد وأن يستقبله بوجهه وأن لا يكون معرضاً عنه وأن يبالغ فى الثناء عليه بلسانه . ويبالغ فى الخدمة والتضرع له فالقراءة والتسبيحات كالثناء ، والركوع والسجود كالخدمة ، واستقبال القبلة بمنزلة التوجه بالوجه نحو الملك لامعرضاً عنه —

وجملة القول أن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان الله سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيل شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه فى عباداتهم إياه ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى رحمة منه تعالى بعباده . (٢) إن المقصود من الصلاة حضور القلب ، وحضوره لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات والحركة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقى فى جميع صلاته مستقبلا لجهة واحدة على التعيين ، وإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف فى الأوهام كان استقبال تلك الجهة أولى لأن شرفها محقق . (٣) إن الله تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين ، ولو توجه كل واحد فى صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوهم اختلافا ظاهراً فتعيين جهة واحدة يتوجه إليها الجميع فى الصلاة يدفع ذلك الوهم ويحمل المؤمنين على الألفة والاتحاد والتعاون على أنواع البر وأعمال الخير ، وفى ذلك سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وأما سر التوجه إلى بيت المقدس والرجوع عنه إلى الكعبة فهو (١) تمييز المؤمنين الصادقين فى إيمانهم من غيرهم ليعلِّم المؤمنين من يوالون ومن يعادون . قال تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » . أى وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها قبل هذا الوقت وهى بيت المقدس إلا لذلك ، فالموصول هو المفعول الثانى لجعل (٢) أنه إذا رسخ فى أوهام بعض الناس أن هذه الجهة أشرف من غيرها بسبب ان الله تعالى خص الكعبة بإضافتها إليه فى قوله « بيتى » و بناء الخليل وولده لها كان الإنسان عند استقبالها أشد تعظيما وخشوعا (٣) أنه لما كان بناء هذا البيت سبباً لظهور دولة العرب وعزهم وفخارهم كانت رغبتهم فى تعظيمه أشد (٤) الإسراع فى قبول ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى ، لأنه لما كانت الكعبة منشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعظيمها تعظيما له . ومن رسخ فى قلبه تعظيمه كان بقبول شريعته أجدر ، وإلى امتثال أوامره ونواهيه أسرع — ومن الحكمة فى جعل القبلة فى أول الأمر بيت المقدس أن الكعبة كانت

فى أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان وكان سلطان أهل الشرك متمكناً فيها ، والأمل فى انكشافه عنها بعيداً ، فصرفه الله أولا عن استقبال بيت مدنس بعبادة الشرك — وإن كان الله أمر إبراهيم بتطهيره للطائفين ، والعاكفين والركع السجود — إلى بيت المقدس قبلة اليهود الذين هم أقرب إلى ما جاء به من التوحيد والتنزيه ، ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها ، وإزالة سلطة الوثنيين عنه جعله الله قبلة للموحدين ليوجه النفوس إليه ، فيكون ذلك مقدمة لتطهيره وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه ، والسير فيه على سنة إبراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله وحده . وفى قوله تعالى : « ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » ، بشارة بهذا الاستيلاء تبعث فيهم روح الأمل والرجاء ، ثم يبين لهم أن البِرّ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير التى تقرب العبد إلى مولاه تعالى ، ومنه بر الوالدين واسترضاؤهم بكل ما أمكن ، ويلفت السامعين إلى أن الله عز وجل اشترط أموراً لا يتحقق البر بدونها .

الأول الإيمان بأمور خمسة (أحدها) الإيمان بالله تعالى أى التصديق بأن للكون رباً قادراً عليما ، مدبراً حكيما ، متصفاً بكل كمال منزها عن كل نقص ، ولا يكون هذا الإيمان أصلا للبر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان ، مصحوباً بالخضوع والإذعان . ويظهر أثره فى تهذيب النفس واستقامة العمل . أما التصديق الذى لا يستتبع الآثار ولا يظهر أثره فى تهذيب النفس واستقامة العمل ، أو تكون له آثار ناقصة فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينجيه من عذاب يوم القيامة — قال حجة الإسلام الغزالى : مثل المؤمن الذى لا يعمل والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع ، إذ قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلا حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقتلعك ، ويطير بك الهواء ، أما أنا فأبقى راسخة تزيل العواصف ما جف من أوراق وتبقى الأوراق الناضرة . هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقياً سليم العرض سليم العقيدة ، كالذهب تصفيه البوتقة فيظهر نقياً لامعا . أما ضعيف الإيمان فإن النوائب

تذهب بما عنده منه ، ويخرج منها مرذولا مثلوم العرض . كسير النفس ذليلا عند الله وعند العباد . وهنا يلفت السامعين إلى معرفة الله تعالى بالنظر فى الكائنات الدالة على أنه تعالى كامل الألوهية من طريق القرآن الحكيم — ويذكر لهم آثار الإيمان الصادق وأوصاف المؤمنين ، وهى فى القرآن أيضا كثيرة ومن أجمعها الآية التى معنا وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . وقوله تعالى: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » إلى آخر السورة — وقوله تعالى : « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » . ذلك هو الإيمان الذى يصح أن يكون أساس كل برٍ ومبدأ كل خير وسعادة (وثانيها) الإيمان باليوم الآخر — ومعنى الإيمان به التصديق بوجوده وما اشتمل عليه من بعث وجزاء وسمى به لأنه آخر أيام الدنيا أى متصل بآخر أيامها ، لأنه ليس منها حتى يكون آخرها ، فهو من تسمية الشيء باسم مجاوره — وهنا يبين أن هذا الإيمان فرع ماقبله لإنه إذا آمن العبد بأنه تعالى قد أحاط بكل شىء علما ، وأنه تعالى تام القدرة على جميع الكائنات آمن بصحة البعث والنشر والحشر ومالا فلا . ويملأ قلوب السامعين رهبة من أهوال يوم القيامة بآيات وأحاديث الوعيد الشديد ، ليحملهم بذلك على التزود لسفر طويل ، والاستعداد لحساب عسير . ويبين لهم أن الإيمان باليوم الآخر يهون أمر الحياة الدنيا ويحقر شأنها ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ، ووسيلة إليها ، لا يحب منها إلا ما كان مقربا إلى الله وسبيلا إلى سعادة الآخرة ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءه ، بل سيان عنده أن يبقى فيها عاملا للصالحات

وأن يفارقها فراراً من شرها وتعجلا لنعيم مقيم عند الله تعالى . (وثالثها) الإيمان بالملائكة ، أى التصديق بوجودهم و بأنهم كما وصفهم الله تعالى « عباد مكرمون لايعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون » والملائكة خلق روحانى عاقل عالم قائم بنفسه ، وهم من عالم الغيب فلا نبحث عن حقيقتهم ، سخرهم الله تعالى لما شاء من مصالح البشر فى الدنيا والآخرة — وهنا يذكر أن الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى ، لأن ملك الوحى روح عاقل عالم كما عرفت ، يفيض العلم بإذن الله على روح النبى بما شرعه الله تعالى لعباده ولذا قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتب والأنبياء ، فهم الذين ينزلون بالشرائع على المرسلين : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ، « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » — فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحى والنبوة وإنكار الأرواح . وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه حظوظ الدنيا وشهواتها ، وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل الآخرة . (ورابعها) الإيمان بالقرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ومعناه التصديق بأنها كلام الله تعالى المنزل على بعض رسله وأن ما تضمنته حق لاريب فيه . سواء نزل مكتوباً كالتوراة أولا كالقرآن — وهنا يبين أن الإيمان بالقرآن الحكيم يستلزم العمل به والاهتداء بهديه ، فإن المؤمن الموقن بأن هذا الشىء ضار قبيح لاتتوجه نفسه إلى إتيانه . والمؤمن الموقن بأن هذا الشىء نافع حسن لابدأن تتوجه إرادته إليه عند عدم المانع — فما بال مدعى الإيمان بالكتاب قد تهاونوا به وأعرضوا عن امتثال أوامره ونواهيه . (وخامسها) الإيمان بالنبيين جميعاً من غير تفرقة بين أحد منهم — وهنا يبين مايجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز ، ويذكر حكمة إرسالهم والحاجة إلى الرسالة وشيئاً من خصائصهم وأخلاقهم وسيرتهم ، ليتعلق الناس بهم ويهتدوا بهديهم ، ويتخلقوا بأخلاقهم . وأن ما جاء فى القرآن من عصيان آدم عليه السلام ومن معاتبة جماعة منهم على أمور فعلوها فإنما هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما يشاء وأن يعاتبه على خلاف الأولى

معاتبة غيره على المعصية . أو يقول إن عصيان آدم بالأكل من الشجرة مما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه ، وغاية ماعلمناه من حكمته أنه كان سبباً فى عمارة الأرض ببنى آدم . و يبين أن الإيمان بهذه الأمور الخمسة قد جمع كل ما يلزم التصديق به ذلك أن للمكلف مبدأ ووسطاً ونهاية . ومعرفة المبدأ والنهاية هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر . وأما معرفة المصالح التى فى الوسط فلا تتم إلا بالرسالة ، وهى لاتتم إلا بثلاثة . الملائكة للوحى ، ونفس ذلك الوحى وهو الكتاب ، والنائب عن الله تعالى فى إبلاغه للخلق وهو الرسول .

« الثانى » من الأمور المعتبرة فى تحقق مسمى البر إعطاء المال لمستحقيه قال الله تعالى « وآتى المال على حبه » أى مع حب المال والشح به — وهنا يذكر أن الصدقة حال الصحة أفضل منها عند القرب من الموت . ففى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تَصَدّق وأنتَ صحيح شحيح تخشى الفقر وتأْمُل الغنى ، ولاتمهل حتى إذا بلغتْ الحلقومَ قلتَ لفلان كذا ولفلان كذا » كناية عن الموصى له والموصى به فيهما « وقد كان لفلان » أى وقد صار ما أوصى به للوارث فيبطله إن شاء إذا زاد على الثلث أو أوصى به لوارث آخر — والمعنى تصدق فى حال صحتك واختصاص المال بك وشح نفسك به بأن تقول لا تتلف مالك لئلا تصير فقيراً لا فى سياق موتك لأن المال حينئذ خرج منك وتعلق بغيرك — وعن أبى الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى تصدق عند الموت مثل الذى يُهدى بعد ماشبع » — ومعقول أن حال الصحة مظنة الحاجة إلى المال ، وعند الموت يكون الاستغناء ، و بذل الشيء عند الاحتياج أدل على الطاعة من بذله عند الاستغناء عنه — وأن الإعطاء عند الصحة أدل على تيقنه بالوعد والوعيد من إعطائه حال المرض والموت . وأن الهبة عند الموت تشبه الهبة عند الخوف من الفوت.

ثم يذكر أن ذلك حث على بذل المال فى نوافل الصدقات وأنواع البر إلى هذه المصارف الستة الآتية « ذوى القربى » وهم الذين يقربون منه بولادة الأبوين

أو الجدين — والقريب إذا كان أحوج فهو بذلك أولى لأنه صدقة وصلة فإن الإنسان إذا احتاج وفى أقارب به غنى فإن نفسه تتوجه إليه بعاطفة الرحم والإنسان بفطرته يألم لفاقة قريبه أشد من ألمه لفاقة الأجنبى ، فإنه يقوى بقوته ويضعف بضعفه — فمن قطع الرحم ورضى أن ينعم وأقاربه بائسون كان بريئاً من الفطرة والدين الصحيح « واليتامى » الفقراء الذين فقدوا من يعولهم وانقطعت حيلهم وليس لهم بعد الله إلا عطف الأغنياء — وهنا يحث على العناية بشأن اليتامى لئلا تسوء حالهم . وتفسد أخلاقهم فيكونون شراً على أنفسهم وعلى الأمة «والمساكين» من ذوى الحاجة مع العفة والكف عن المسألة ، فإنهم لما عجزوا عن كسب ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن السؤال ، طلبت مساعدتهم ومواساتهم من ذوى اليسار « وابن السبيل » المسافر فقد تشتد به الحاجة للوصول إلى أهله . وفى الأمر بمواساته وإعانته فى سفره ترغيب من الشارع الحكيم فى الضرب فى الأرض والسياحة « والسائلين » ضرب من المساكين ألجأتهم الحاجة إلى استنداء الأكف فكانوا لذلك موضع عطف ورحمة ، والسؤال محرم شرعا على القادر على الكسب إلا لضرورة شديدة يجب على السائل أن لا يتعداها — وفى هذه المصارف السالفة يجتهد فى تحريك العواطف وهز القلوب نحو البر بهم بما يحضره من وسائل الترغيب والترهيب « وفى الرقاب » أى وضعه فى فكها بمعاونة المكاتبين أو فك الأسارى أو ابتياع الرقاب وإعتاقها . وفى طلب بذل المال فى هذا النوع دليل على رغبة الشارع فى فك الرقاب واعتباره أن الإنسان خلق ليكون حراً إلا فى أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون الأسير رقيقاً — وهنا يتبين سر مشروعية الرق فى الإسلام ، ومعاملته للرقيق بالرأفة والرحمة ، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب فى إطلاقه من قيد الرق ، حتى يظهر الأمر للناس وتنقطع ألسنة الطاعنين على الدين الحنيف من أجل الرق فى الإسلام — وجملة الأمر أن الإسلام يعتبر الإنسان حراً بطبعه ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج الإنسان عن طبع الإنسان فيقف فى سبيل الدين الحق والدعوة إليه وفى طريق نشره

الفضيلة بين الناس ، فعند ذلك يصح أن تهدر آدميته و يعامل معاملة البهيمة ، غير أنه مع ذلك قد شرع الإسلام للتحرير طرقا كثيرة فى الـكفارات ، وفى أموال الزكاة المفروضة ، وفى الصدقات غير المحدودة . كما سيأتى ذلك مفصلا فى محاضرة سر مشروعية الرق فى الإسلام آخر الـكتاب إن شاء الله تعالى . وارجع فى ذلك إلى كتب حكمة التشريع فى الكلام على الجهاد .

« الأمر الثالث » مما لابد منه فى تحقق البر « إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة » وهنا يبين سر مشروعية الصلاة وأنها إذا أديت على الوجه المطلوب كان لها أحسن أثر فى جلاء القلوب وتطهير النفوس من أدران الرذائل ، وفى ذلك سعادة المجتمع الإنسانى ، وما عم الشقاء وزاد البلاء إلا من إضاعتها بلا خشية — و يبين أيضاً حكمة الزكاة وأنها من أحكم الروابط بين الفقراء والأغنياء . وما انقطعت الصلة وانعدمت الألفة بين المسلمين إلا من منعها . كذا يذكر أنها نظام حكيم عادل معقول لا ما يسعى إليه الأشرار الأغرار دعاة الاشتراكية من قلب النظام الإلهى وهيهات هيهات أن يبلغوه حتى يأتى وعد الله .

« الرابع » مما لا بد منه فى تحقيق البر الوفاء بالعهد . والموفون بعهدهم الذين إذا وعدوا أنجزوا . و إذا نذروا أو حلفوا وفوا . و إذا قالوا صدقوا . و إذا ائتمنوا أدوا — ثم يشرح لهم أن الوفاء يتناول كل ما يلتزمه العبد اختياراً فيما بينه و بين مولاه من النذور والأيمان . وما يأخذه على نفسه كذلك بينه و بين سائر العباد فى عقود المعاوضات من الشرائط . وكذا ما ينبغى الوفاء به من الوعود العامة بين الناس وأنواع المحالفات . ويمتدح الوفاء وأهله ويحث على التخلق به . ويذم الإخلاف ويحذر منه .

« والخامس» مما لا بد منه فى تحقق البر الثبات لدى الشدائد ، والصبر عند المكاره . فإن الله تعالى مدح الصابرين « فى البأساء » الفقر والشدة « والضراء » المرض والزمانة « وحين البأس » وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب — وهنا يذكر فضيلة الصبر ومعناه و يسهل على الناس التخلق به فى جميع الأحوال بأن الله

تعالى أضاف إليه جميع الخيرات و بلوغ أعلى الدرجات . وأن الذين تحلوا بهذه النعوت الجميلة هم الذين صدقوا فى الدين واتباع الحق وتحرى وجوه البر لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال « وأولئك هم المتقون » عن الكفر وسائر الرذائل .

ثم يختم القول ببيان الآية إجمالا ليكون ذلك أثراً باقياً فى نفوس السامعين كأن يقول : إن الله عز وجل يحث الناس على استيفاء أنواع الطاعات ووسائل السعادة ، وينبههم إلى أنه ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه . إن الخير كثير الوجوه فلا تقفوا موقف الذين قصرت أنظارهم . فالبر كل البر أن تجمل النفس بالمعارف وأهمها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والأنبياء ، وأن يسخر الجسم فى الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأن يكون المرء حسن العشرة فيبذل المال لذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وأن يكون كريم الأخلاق فلا يخلف إذا وعد . ولا يجزع عند الملمات . كالفقر وشدته . والمرض وحدته ، والقتال وصدمته . فالآية الكريمة كما ترى جمعت الكمالات البشرية كلها تصريحاً وتلويحاً فى خصال ثلاث . صحة الاعتقاد : وذلك بما بين شعب الإيمان من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وحسن المعاشرة بإيتاء المال لمن ذكر ، وتهذيب النفس بإقامة الضلاة و إيتاء الزكاة والوفاء والصبر . و بذلك يتم الجمال والكمال . ويلزم لاستيفاء البيانات المشار إليها استحضار معانى النظم الكريم والرجوع إلى كتاب رياض الصالحين . والأحياء . وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم

على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس فيها خالدون » .

إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته ، واستعمل جوارحه فيما يرضيه . والسعيد الموفق إذا جاءته الموعظة انفتح لها قلبه ونشطت للعمل عليها أعضاؤه ، أولئك هم أهل الهداية . وأولوا الأحلام الراجحة وأولئك لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . . ثم يبين أن الله عز وجل حكم بالفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع .

(الصفة الأولى) الإيمان بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها حيث قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون » ، فهؤلاء الذين اختصوا من بين المؤمنين بأن جملوا بواطنهم بأنوار المعارف ، وكملوا ظواهرهم بالقيام بوظائف العبودية ، وتحلوا بمكارم الأخلاق قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان متوقعاً من حالهم فإن إيمانهم الصادق وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب هـذا الوعد الـكريم وفى هذا المقام يشبِّه الإيمانَ بشجرة طيبة ، ويذكر لهم أن المقصود هو الإيمان الصحيح الذى يظهر أثره فى تهذيب النفس واستقامة الأعمال ، وليس ينفع المرء أن يقول أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيء القول فقد روى البخارى فى تاريخه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولـكن ماوقَرَ فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نُحْسِن الظن بالله تعالى . وكَذَبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

(الصفة الثانية) الخشوع فى الصلاة بالخضوع والتذلل لملك الملوك ورب الأرباب ، وعدم التفات القلب فيها إلى شيء سوى التعظيم له تعالى ، وبسكون الجوارح والإطراق بالنظر إلى موضع السجود ، وعدم الالتفات يميناً ويساراً ، وهذه الثلاثة من لوازم خشوع القلب وتفريغه له تعالى . فقد رأى بعض السلف رجلا يعبث بيده فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . روى ذلك

عن حذيفة وسعيد بن المسيب رضى الله عنهما . قال تعالى : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . فهؤلاء الخائفون من هيبة الله عز وجل المتذللون له الخاضعون لجلاله قد ألزموا أبصارهم مساجدهم فكانوا هم الفائزين — وفى هذا المقام يبالغ فى الحض على الخشوع فى الصلاة مبيناً أن منزلته منها منزلة الروح من الجسد فكما لا عبرة لجسد بلا روح كذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ، وذلك أن المصلى إنما يناجى ربه والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود . أما الذكر فإنه مناجاة ولا تحقق لها إلا إذا كان اللسان معبراً عما فى القلب من التضرعات . فأى سؤال فى قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » إذا كان القلب غافلا عنه ، ولا ريب أن المقصود من القراءة والذكر الثناء والدعاء . والمخاطب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب غافلا عن جلاله وكبريائه ولسانه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعده عن القبول . وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم له تعالى ومحال أن يكون مع الغفلة تعظيم . فلم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فى ذلك المعنى ما تصير الصلاة لأجله عماد الدين وفاصلا بين الكفر والإيمان . من أجل ذلك قال أرباب القلوب بوجوب الخشوع فيها . كذلك يحذِّر الناس من العبث والالتفات فى الصلاة بأن المصلى مشمول بإحسان الله تعالى ما لم يلتفت ، فإن التفت قطع الله عنه إحسانه فعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته ما لم يلتفت ، فإن التفت أعرض عنه » . رواه أبو داود والترمذى . وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . رواه البخارى — والاختلاس الاختطاف . وعن معاذ بن جبل « من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له » . وإجمالا يبين أن الأليق والأحوط الخشوع فى الصلاة .

(الصفة الثالثة) ترك العبد ما لا يعنيه من كل ما لا يعود عليه منه فائدة فى الدين والدنيا قولا أو عملا . كالهزل واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع والاسترسال

فى الشهوات إلى غير ذلك من كل ما نهى الله عنه . بل ينبغى للمرء أن يشتغل بما ينفعه من عمل صالح لمعاده أو درهم حلال لمعاشه . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » تاركون له فى عامة أوقاتهم وخاصة حال اشتغالهم بالصلاة ، فهؤلاء قد مدحهم الله تعالى بالإعراض عما لا يفيد والتباعد عنه رأساً مباشرة وميلا وشهوداً . فهم لا يفعلونه ولا يرضون به ولا يخالطون من يأتيه . قال تعالى فى امتداح الكملة من عباده : « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » أى معرضين عنه — وفى هذا المقام يحذر السامعين من الكسل فى الأعمال الدينية وإهمال الصنائع الدنيوية وينفرهم من البطالة وأهلها بما يحضره من الشواهد الشرعية وآثار الصالحين فى ذلك .

(الصفة الرابعة) أن يقوم أغنياء المسلمين بأداء الحق الواجب فى أموالهم إلى مستحقيه فبذلك تملك القلوب ويدوم الوئام والوفاق ويتم الصفاء والهناء بين الناس ، ويعظم الخير وتعم الرحمة والبركة فى الدارين . قال تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » مؤدون . وصفهم تعالى بذلك بعد ما وصفهم بالخشوع فى الصلاة دلالة على أنهم بلغوا الغاية من القيام بالطاعات البدنية على وجهها والمالية إلى أربابها والتجنب عن المحرمات وكل ما توجب المروءة اجتنابه ، فطوبى لهؤلاء صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبذلوا ، وفى هذا المقام يرغب الأغنياء فى دفع الزكاة ، ويرهبهم من منعها بذكر نصوص الوعد والوعيد فى ذلك مع بيان سر مشروعيتها فإنه يدع فى نفوس السامعين أحسن أثر .

(الصفة الخامسة) نهى النفس عن مطاوعة الهوى والشهوة بمنع الفرج عن كل ما لا يحل . وقصره على ما أحل الله له من الحرائر أو الإماء بعقد النكاح ، وملك اليمين . فنى ذلك الغنم والسلامة . قال تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم » الآية . فهؤلاء الذين غلبت عقولهم على شهواتهم وهى داعية لهم إلى مالا يخفى فصانوا فروجهم . وغضوا أبصارهم فلم يرسلوها على أحد إلا على الحلائل وبذلك بلغوا كمال العفة . أما من أرضى شهوته ولم يحصن فرجه ورضى لنفسه أن

يكون حيوانا ينزو ذكره على أنثاه من غير قيد ولا شرط ، فذلك الجانى على حرمة الاداب المنتهك للحرمات ، قد أفرط فى الاعتداء على الأعراض ، وجاوز الحد فى تمزيق ثوب العفاف ، وعرض نفسه وأمته لمخاطر الشقاء فى العاجل والآجل .

وفى هذا المقام ينفر الناس من الزنا واللواط والاستمناء باليد وإتيان البهائم ويحذرهم من إرسال النظر إلى النساء والغلمان بل ومن إتيان الحلائل حال الحيض والنفاس مبيناً ما فى ذلك كله من الأضرار الدينية والبدنية والمالية والاجتماعية من فقد الحياء والزهرى والتهاب المثانى والسل الرئوى والسيلان وضياع الأموال وفساد الأخلاق

(الصفة السادسة) رعاية الأمانات والعهود وحفظها فتلك فضيلة عظيمة ومنقبة جليلة ، وآية على شرف النفس وعلو الهمة . قال تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم » لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق « راعون » قائمون عليها حافظون لها — وفى هذا المقام يبين أن الأمانة تتناول كل مايكون تركه خيانة لله أو للعبيد فمن ذلك سائر العبادات فإن المرء مؤتمن عليها ، ومنها ما يلتزمه بفعل أو قول كالودائع والعقود وما يتصل بهما — ومنها الأسرار المأمور بكتمانها : فيلزمه المحافظة عليها وعدم إفشائها ، ويبين أن العهد يتناول العقود والإيمان والنذور ، وأن مراعاة هذه الأمور والقيام بها لابد منه لحصول الفلاح ودرك السعادة ويرغب الناس فى الأمانة والوفاء ويحذرهم من الخيانة والغش فى الصنائع والمعاملات ، ومن نكث العهود بما يحضره من الآيات والأحاديث والآثار مبيناً مافى الخيانة والاخلاف من الأضرار الخلقية والاجتماعية ويضرب لذلك الأمثال ويسوق الحكم .

(الصفة السابعة) المحافظة على الصلوات بالمواظبة عليها وتأديتها فى أوقاتها على الوجه الأكمل وتلك فضيلة مستقلة ، كما أن الخشوع فضيلة أخرى ، قال تعالى : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وفى هذا المقام يحض الناس على المحافظة على الصلاة فى الأوقات وشهود الجماعات وإتمام أركانها وشروطها ، فبذلك تتهذب النفس ويصفو القلب ويمتلىء حياء وخشية — وبذلك يُنال الخير وتسعد الأمة وتقلع النفوس عن غيها . ثم يذكر كل ماله بالمقام صلة . وهنا يرغب السامعين بأن الذين

توفرت فيهم تلك الصفات السبع وامتازوا بها عن غيرهم من عامة المؤمنين موعودون من الله تعالى من أجل هذه النعوت الجليلة بدار النعيم ، وأنهم المستحقون لها بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم قال تعالى : « أولئك هم الوارثون » الجديرون بأن يسموا وراثاً لا من ورث كرائم الأموال ورغائب الذخائر : « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون — وإجمالا يذكر أن هذه الآية جمعت كثيراً من علامات حسن الخلق وشمائل الأبرار الكاملين ، وهذا كله لايتيسر للمرشد على الوجه الأكمل إلا بعد استحضاره معانى النظم الكريم وإعداد كل ماله بهذه البيانات صلة حتى تنتشر به مخيلته وتعيه ذاكرته ، ونعم المساعد على هذا رياض الصالحين وبالله التوفيق .

الموعظة الثالثة النهى عن الانهماك فى طلب الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » .

إن من نظر إلى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها عناء ، وعيشتها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب . وحرامها عقاب ، إن أخذه من حله حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، من أحبها أذلته ، ومن أبصر إليها أعمته والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام . بل فهموا أنها نعم فى طيها نقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية إنما هى طريق إلى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحت قلوبهم وأبدانهم

وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وإيمانهم سالم لهم ، وما الذى يبقى معهم منها فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم[1] فى الدنيا ، ومن لا يغنيهم من الله شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد للمعاد « وخير الزاد التقوى » فطوبى لهم خافوا فأمنوا وأحسنوا ففازوا .

وأخرى جهلاء : عمى البصائر لم ينظروا فى أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، برزت لهم بزينتها ففتنتهم فإليها أخلدوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهتهم عن الله تعالى وشغلتهم عن ذكره وطاعته « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » نعم إنهم نسوا الله : أهملوا حقوقه ، وما قدروه حق قدره ولم يراعوا لانهماكهم فى الدنيا مواجب أوامره ونواهيه ، حق رعايتها « فأنساهم أنفسهم » ، جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا مايخلصها وسيرون يوم القيامة من الأهوال ماينسيهم أرواحهم ويجعلهم حيارى ذاهلين « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » — وفى مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاءالله « اجتهادك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » . أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله وأذلتهم ، أكثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب أملهم وضل سعيهم وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة .

روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » : من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته

---

(١) من الأزواج والأولاد : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالودّ والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أسرع » .

ثم يكشف للسامعين عن حقيقة الدنيا و يبين لهم قصر مدتها . وانقضاء لذتها ، بما يضرب به من الأمثال الحسية . كما تقدم فى الفصل الثالث عشر . ويذكر ما جاء فى الكتاب والسنة فى وصفها والتحذير من الافتتان بها . كقوله تعالى « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم و تكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » شرح لنا العليم الحكيم فى هذه الآية حال الدنيا التى افتتن بها قصار النظر و بين أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلا عن الافتتان بها والانهماك فى طلبها بأنها لعبٌ لا ثمرة فيها سوى التعب . ولهوٌ تشغل صاحبها عما ينفعه فى آخرته وزينةٌ لا تفيد المفتون بها شرفا ذاتياً كالملابس الجميلة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة . وتفاخرٌ بالأنساب والعظام البالية . ومباهاتٌ بكثرة الأموال والأولاد وعظم الجاه — ثم أشار جل شأنه إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال قريبة الاضمحلال كمثل مطر رَاق الزراعَ نباتُه الناشىء به ثم يهيج يتحرك وينمو إلى أقصى ما قدر الله له فسرعان ما تراه مصفراً متغيراً ذابلا بعد ما رأيته أخضر ناضرا . ثم يصير من اليبس هشيما متكسراً . ففى تشبيه جميع ما فى الدنيا من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفْنَى ويتلاشى فى أقل من سنة إشارة إلى سرعة زوالها وقرب تلاشيها — وبعد ما بين سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها تزهيداً فيها وتنفيراً من الانهماك فى طلبها أشار إلى فخامة شأن الآخرة وفظاعة ما فيها من الآلام وعظم ما فيها من اللذات ترهيباً من عذابها الأليم . وترغيباً فى تحصيل نعيمها المقيم ، حيث قال « وفى الآخرة عذابٌ شديد » لمن عصاه لأنه نتيجة انهما كهم فيما ذكر مفصلا من أحوال الحياة الدنيا (ومغفرة)

عظيمة (ورضوان) عظيم لمن أطاعه . وما زينة الحيـــاة المعجلة لـكم أيها الناس إلا متاع الغرور لمن اطمأن بها ولم يجعلها مزرعة للآخرة ومطية لنعيمها .

وفى البخارى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح و إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء وخذْ من صحتك لمرضك . ومن حياتك لموتك . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه مر على شاة ميتة فقال : أترون هذه الشاة هينةً على أهلها ؟ قالوا : من هوانها ألقوْها . قال : والذى نفسى بيده للدُّنيا أهونُ على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تَعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » أخرجه الترمذى وهذا أبلغ شيء فى تحقير الدنيا التي استعبدت الناس وأذلتهم وشغلتهم عن خالقهم ومالك أمرهم .

لهذا حذّر الله تعالى عباده المؤمنين حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالـكم ولا أولادكم عن ذكر الله » أى لا يشغلـكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والاسترسال فى التمتع بملاذها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر أنواع العبادات المذكرة لجلال المعبود الموصلة إلى هناءة الدنيا وسعادة الآخرة . والمراد نهيهم عن الانهماك فى جلبها والتلهى بزخارفها عن السعى فى كسب رضاه تعالى ونيل إحسانه و إنذار الغافلين عن الله تعالى المفتونين بحبها — وحبها رأس كل خطيئة — بقوله « ومن يفعل ذلك » وألهاه ماله وولده عن ذكر الله وطاعته وأهمل أمر السعادة « فأولئك هم الخاسرون » الـكاملون فى الخسران حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى . وأمرهم أن يبادروا قبل فوات الفرصة فى تخليص أنفسهم من خطر المسئولية ويبرئوا ذمتهم من الحقوق الواجبة كإعانة المجاهدين والفقراء والمساكين بقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » وهو فى حكمه عادل و بالجميع رءوف رحيم . فما كلف الأغنياء بما يعسر عليهم ولـكن بقليل من كثير صار لديهم من واسع الـكرم تفضلا منه و إحساناً إدخاراً للآخرة وتزوداً إليها ، يحمله لهم الفقراء إلى الدار الآخرة من قبل أن ينزل الموت بساحته ويشاهد دلائله و يعاين أماراته لا يسمع له

عذر ولا تنفعه شفاعة (فيقول) عند تيقنه بحلوله يا « رب لو لا أخرتني » أمهلتني « إلى أجل قريب » أمد قصير متمنيا أن يزاد في أجله حتى يتصدق ويزكي وهو تعالى لا يمهل من انقضت مدته وحضر أجله « ولن يؤخر الله نفساً » عن الموت « إذا جاء أجلها » انتهى زمنها المقدر لها عنده سبحانه « والله خبير بما تعملون » فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فسارعوا إلى الخيرات واستعدوا لما هو آت .

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أنه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) أي السورة المسماة بما ذكر لكونه صدرها » قال النبي بعد إتمامها « يقول ابن آدم » أتى بالمضارع إشارة إلى أن هذا القول ديدنه ودأبه بحسب طبعه « مالي مالي » أي مالي هو الذي أعتني به وأهتم ، فالتكرار لفظا للتعظيم والاهتمام « وهل لك » أي أتقول ذلك « يا ابن آدم » وتهتم بأمره وهل لك « من دنياك التي » اهتممت بأمرها واحتفلت بشأنها ، والاستفهام للإنكار أي مالك منها على الحقيقة « إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت » على محتاج قاصداً وجه الله تعالى « فأمضيت » أنفذته وفي رواية فأبقيت — والمراد أمضيت التصدق ونجزته فأبقيت ثوابه مدخراً لك عند الله تعالى — رواه مسلم والترمذي وقال حسن صحيح . وملخصه مالك من دنياك إلا ما انتفعت به في دنياك بأن أكلت أو لبست ، أو أخراك بأن تصدقت ، وما عدا ذلك من باقي المال ، فأنت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره — وفيه تحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة وادخار ما عداه عند مولاه — وما أحسن قول بعضهم اجعل ما عندك ذخيرة لك عند الله ، واجعل الله ذخيرة لأولادك .

ويختم المقال بذكر معنى النظم الكريم إجمالا كأن يقول : إن الله تعالى ينبه عبده إلى المبادرة بطاعته وشكره من قبل أن يعاين ما ييأس معه من الإمهال ويتعذر عليه تدارك الأمر ويفوت وقت القبول فيتحسر على ما فرط . ويعض على أنامله لفقد ما كان متمكنا منه — ويذكر لهم هنا ما يناسب المقام كأن يقول قال سعيد

ابن جبير : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

وقال لقمان لابنه : « يا بنى إنك قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها » وقال : « يا بنى إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً ، وعيسى عليه السلام لم يضع لبنة على لبنة » . وكان يقول : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل لابن أدهم رحمه الله : بم وجدت الزهد فى الدنيا ؟ قال : بثلاثة أشياء : رأيتَ القبر موحشاً وليس معى مؤنس ، ورأيت الطريق طويلا وليس معى زاد ، ورأيت الجبار قاضياً وليس معى حجة ولا من يدافع عنى .

فعلى الرجل الرشيد أن يتحرز بطاعة الله عن مساخطه ، ويتدارك أمره قبل أن ينزل عليه سلطان الموت ، فلا تقبل منه توبة ولا ينفع له عمل وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الرابعة هداية القرآن إلى السعادة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال الله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

إن الله تعالى قد امتنَّ على عباده برسوله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وكتابه الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والذى هو أكبر نعمة لله عز وجل على المؤمنين « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » اتضح به للناس سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما أرشد إليه من صحيح العقائد . وما فصل فيه من الأحكام وبين من أخلاق وآداب واتسع للعقول طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار . فهو الضياء والنور .

والشفاء لما فى الصدور . من أعرض عنه هلك ، ومن طلب العلم فى غيره ضل . هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غرائبه ، من آمن به سبق ، ومن قال به صدق ، ومن عمل به نجا ، ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه ، هو ينبوع الملة ، وأساس الإسلام الذى ارتضاه الله عز وجل ديناً لعباده ، وقانون حكيم يرشد الناس إلى سعادتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ذلك هو المقصد الأسمي منه ، وما وراء هذا من أحكام وآداب ونحوها وسيلة للوصول إليه ، و إن فيه من تهذيب النفوس ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها و إخراجها من ظلمات الجهالة إلى نور العرفان . و إرشادها إلى نظام حياتها الاجتماعية مالا يستغنى عنه أحد من الناس ، و إن له من السلطان على نفوس الذين يفهمونه والتأثير فى قلوب الذين يتدبرون آياته ماليس لكلام سواه .

وهنا يبين للسامعين أنه ينبغى لكل إنسان لا فرق بين عالم وجاهل أن يتدبر آيات القرآن الحكيم وينظر فى معانيها بقدر طاقته ، ويكفى العامى من فهم الآيات ما يعطيه ظاهرها كما تقدم لك . ولا شك أن فهم هذا القدر مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان . ومن الممكن أن يستفيد كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر ، فإن الله عز وجل أنزله لهداية الخلق ، وهو يعلم كل ما هم عليه من الضعف قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » . وقال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » . كان البدوى راعى الغنم إذا سمع القرآن خر له ساجداً لما فيه من حلاوة ، ولما عليه من طلاوة . وهل خضعت العرب للحق إلا بجاذبية القرآن — قال الأصمعى سمعت بنتا أعرابية فى السادسة تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله   قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم فى دَله   انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك . فقالت ويحك أبعد هذا فصاحة مع قول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى

ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين و بشارتين — وسمع بعض الأعراب قارئاً يقول : « والله غفور رحيم » بدل « والله عزيز حكيم » فى آية : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن فأنكره وقال : ليس هذا من كلام الله إذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان ، لأنه إغراء عليه .

وروى ابن ماجه عن على رضى الله عنه أنه قال : « أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج وأنا معه وأبو بكر ، فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة . فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشهادتين و إلى أن ينصروه فإن قريشاً كذبوه . فقال مقرون بن عمرو : إلام تدعونا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية . فقال مقرون بن عمرو دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . ثم يبين لهم أن الله عز وجل أنزل القرآن لمقاصد خمس .

الأول : التوحيد وهو أهم ما جاء لأجله الدين الحنيف فإن الناس يومئذ كانوا فى ظلمات الشرك والوثنية ، ولقد جاء فى القرآن الحكيم من آيات التوحيد ومقارعة المشركين ما يكفى لاقتلاع جذور الوثنية والشرك ، وهدم منار الإلحاد فى أى أمة وفى أى زمان . ويتلو على السامعين شيئاً من تلك الآيات التى قضت على الوثنية التى كانت فاشية فى تلك الأمم ، وفتحت أمام العقول أبواب النظر فى الكائنات لتهتدى إلى أن لها صانعاً حكيما قادراً عليما . كقوله تعالى « أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . و إن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها . أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » .

وكقوله : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

الثانى : وعد الطائعين الحافظين لحدود الله بجميل الجزاء وتبشيرهم بحسن المثوبة ووعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى و إنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة ترغيباً وترهيباً ، وأن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما ، فقد وعد جل شأنه أهل الاستقامة بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسيادة والحياة الطيبة ، وأوعد المخالفين بالخزى والذل فى الدنيا ؛ كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة — وبالأول ساق الطائعين إلى الجد فى الطاعة ، ، وبالثانى أوقف العصاة عند حد الأدب ويتلو عليهم شيئاً من آيات الوعد والوعيد التى ذكرناها فى الترغيب و الترهيب .

الثالث : العبادة التى تجلو القلوب وتهذب النفوس وتنمى فيها شجرة الإيمان وتقوى فيها روح التوحيد . ويتلو شيئاً من آيات العبادة والإخلاص فيها ، كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا — ولله على الناس حج البيت — وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

الرابع : مكارم الأخلاق وحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين : وكيفية السير فيها وكل ما يكفل صلاح المجتمع الإنسانى ويوصل الناس إلى خير الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتعاليم . ويتلو عليهم ما فى ذلك من الآيات .

الخامس : العظة والاعتبار . والنظر فى الشئون العامة التى كانت عليها الأمم

الماضية لاختيار سبل المحسنين ومعرفة سنن الله فى خلقه ، بقصص من وقف عند حدود الله تعالى وخضع لأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه وراء ظهورهم . ويتلو عليهم شيئاً من أخبار الأولين .

هذه هى المقاصد التى اشتمل عليها القرآن الحكيم . وفيها حياة الناس وسعادتهم فى الحياة الدنيا والآخرة . وإن الفاتحة قد اشتملت عليها إجمالا — فأما التوحيد ففى قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » فإنه تعالى استحق الثناء لأنه على الحقيقة مصدر كل نعمة وإحسان يستوجب الحمد . ومنه نعمة الإيجاد والتربية — وأما الوعد والوعيد ففى قوله تعالى : « مالك يوم الدين » فإن معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء — وأما العبادة مع الإخلاص فيها ففى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وأما مكارم الأخلاق ونظام الاجتماع . ففى قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » فإنه السبيل القويم الذى اختاره الله عز وجل لعباده . وجعل السعادة فى الاستقامة عليه . والشقاء فى الانحراف عنه ، ولا ريب أن الاستقامة ثمرة العبادة وسرها . وأنه ما من أمة انحرفت عن هذا الصراط السوى . ولم تراع سنة الله فى خلقه إلا وحلّ بها من العدل الإلهى ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد السلطة وسقوط الهيبة — وأما العظة والاعتبار بالأمم الماضية ففى قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فإنه يفيد أن هناك أقواماً تقدموا أنزل الله عليهم شرائع لهدايتهم « ففريق » أطاع الله ورسله ففازوا برضاه وهم الكاملون المخلصون من أهل الحق الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به « وفريق » جحد وعاند الدعاة إليه تعالى فاستحقوا المقت الإلهى والخزى فى الحياة الدنيا « وفريق » أخلوا بالاعتقادات الصحيحة وضلوا عن الصراط السوى فباءوا بالفشل والخيبة — والقرآن الحكيم قد فصل لنا من أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يكفى للعبرة والاتعاظ ، فشرح لنا حال الذين حافظوا على الحق وصبروا على ما أصابهم فى سبيله ، وحال الذين قاوموا الحق عناداً وحال الذين ضلوا فيه ضلالا بعيداً —

فاتضح بذلك أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على هـذه المقاصد التى فصلها القرآن تفصيلا لا خفاء معه ولذا سميت الفاتحة بأم الـكتاب .

ويختم القول ببيان فضل القرآن مستشهداً بما ورد فى ذلك من السنة و يحثهم على الاعتناء به تعليما وحفظا وترتيلا [1] وعلى احترام مجلسه بالسكوت وعدم اللغط وشرب الدخان و يضرب لذلك الأمثال — كأن يقول نزل القرآن كغيره من الـكتب السماوية ليعمل على طريقه العاملون و يهتدى بهديه المهتدون قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » نزل ليـكون ترغيباً للطائع وترهيباً للعاصى . نزل لنهذب به نفوسنا ونصلح به شئوننا . فواجبنا أن نُقبل عليه لنُفلح ونسعد و إليـكم شهادة ألد أعداء القرآن للقرآن . روى أن الوليد بن المغيرة مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة ، فلما وصل إلى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أنشده الوليد بالله و بالرحم أن يسكت ، لعلمه أنه مقبول الدعاء صادق اللهجة ، ولما رجع الوليد قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، و إن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، و إن أسفله لمغدق و إنه يعلو وما يعلى عليه . فقالت قريش : صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلها ، فقال ابن أخيه أبو جهل « أنا أ كفيكموه فقعد عنده حزينا وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الـكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا سحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل؟ فارتج النادى فرحا وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه .

ولا يخفى أن استعظامه للقرآن أولا واعترافه بأنه ليس من كلام الإنس والجن يدل على أنه كان فى ادعائه السحر معانداً لأن السحر يتعلق بالجن وأنه كان يقول

(١) يرجع إلى « الإحياء » و « رياض الصالحين » فى فضل القرآن وآداب تلاوته .

خلاف ما يعتقد ترضية لقومه وحرصا على حياته — من كلامه إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى . وكان من وجهاء قريش وصناديدهم ، ولذلك لقب بالوحيد وريحانة قريش — وأولاده عشرة كلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاصى وقيس وعبد شمس ، أسلم منهم أربعة : الوليد وله قصة — وخالد وهشام وعمارة .

نماذج فى مواعظ السنة النبوية

الموعظة الأولى فى الحث على الكسب من طريقه الحلال

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » . اعلم أن رب الأرباب وخالق الأسباب ، جعل الآخرة دار العقاب والثواب ، والدنيا دار التشمر والاكتساب وليس التشمر فى الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله إليك » . والناس ثلاثة رجل شغله معاشه عن معاده فهو من المفرطين الهالكين . ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الغالين المكروهين . والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين المحبوبين . ففى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه فآثروا مايبقى على مايفنى » رواه أحمد وغيره أى لأن الانهماك فيها يشغله عن طاعة مولاه فيخسر الآخرة ، والانقطاع للآخرة يمنعه عن الكسب فيصير حملا ثقيلا على كاهل الأمة . وفى الحكم المأثورة « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس » فأفضل الأمرين التزام حد الوسط .

وقد جاء الشرع الشريف بفضل الكسب والحث عليه من طريقه الحلال قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » وقال تعالى : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » أى وقتاً يلزم السعى فيه لتحصيل المعاش . وقال عز وجل : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » والمناكب جوانبها وطرقهاوقال عز وجل : «وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » أى يسافرون فيها لطلب ماقدر لهم من الأرزاق والأرباح فى تجاراتهم وأسفارهم — وقال بعض السلف : « إن من الذنوب ذنوباً لايكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة » متى صحت النية وكان صابراً محسناً فإن الحسنات يذهبن السيئات لاسيما إذا كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو يعول ذرية ضعافاً يصونهم عن الضياع . ويكفهم عن التطلع إلى ما فى أيدى الناس فهو لاشك فى سبيل الله تعالى . روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلا فقال : ماتصنع ؟ قال : أتعبّد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى . قال : وأين أخوك ؟ . قال : فى مزرعته قال . أخوك أعبد منك — وقال لقمان لابنه : يابنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال « رقة فى دينه » وهو كناية عن قلته فإن الفقر قد يحمله على ما يوجب ذلك « وضعف فى عقله » وذلك لكثرة ما يعتريه من الهموم والأفكار . وهى لاشك تظلم العقل وتفسد الرأى « وذهاب مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به . واحتقارهم له . وازدراؤهم لحاله . وقال حكيم : إن فى صلاح الأموال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض — وقال أحيحة بن الجلاج : أصلحوا أموالكم فإنكم لاتزالون ذوى مروءات ما استغنيتم عن عشيرتكم — وقال ابن عباس رضى الله عنهما : اطلبوا الغنى بإصلاح ما فى أيديكم ، فإن الفقر مجمع العيوب . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى . فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة . وكان يقول : ما من موضع يأتينى الموتُ فيه أحبّ إلىّ من موطن أتسوّق فيه لأهلى أبيع وأشترى . وقال

أبو سليمان الدارانى سيد الزهاد : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ولـكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبّد .

وعلى الجملة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم يتّجرون فى البر والبحر . ويعملون فى نخيلهم ومزارعهم . وكفى بهم قدوة . وأنه لابد للعبد من حركة ومباشرة لسبب من أسباب العيش . ووسيلة من وسائل الرزق فينفع نفسه وغيره ويعيش عزيزاً كريماً — ثم يشرح للسامعين مزايا التعب فى كسب الحلال من الاستغناء عن الناس وعن إظهار الحاجة إليهم . وإيصال النفع إلى الغير . والقيام بوظائف المدنية وقضاء المصالح التى عليها نظام العمران والسلامة من فساد البطالة واللهو والعبث وكسر النفس ليقل طغيانها ويأمن من غوائلها . والتعفف عن ذل السؤال فلا يريق به ماء وجهه . وفوق هذا كله نيل الثواب متى كان صادقاً فى عمله بعيداً عن الأذى . ويذكر لهم أنه يحرم على المؤمن أن يسأل وهو يستطيع العمل ، روى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : « أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يسألانه عن الصدقة فقلّب فيهما البصر ورآهما جلدين فقال لهما : إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنى ولا لقوى » وكذا يحرم الإعطاء لأنه تعاون على الإثم لا البر ، وما رواه الإمام مالك فى الموطأ من أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » ففيه مقال ، وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقق عجزه وحاجته ، فالواجب التفرس فى حال السائل كما يرشد إليه حديث عبد الله بن عدى — ثم إن العاجز لايسأل إلا بمقدار حاجته ، روى أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل وعنده مايغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم قالوا يارسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه ويعشيه » — وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال لست سائلا

لـكنك تاجر . ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لاتعد — ولولا أن سؤاله كان حراماً ماضربه ولا أخذ مخلاته .

ويبين لهم أن أحل أنواع الـكسب وأفضلها ما كان من عمل يده إذا نصح وعمل بإتقان وإحسان بعيداً عن الغش . وافياً بحق الصنعة غير ملتفت إلى مقدار الأجر . فبذلك يحصل الخير والبركة ، وبضده يكون الشر والوبال . ففى صحيح البخارى عن المقدام بن معديكرب الـكندى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده فى الدروع من الحديد ويبيعه لقومه » وخص داود لأن اقتصاره فى أكله على ما كان يعمل بيده لم يكن عن حاجة لأنه كان خليفة الله فى الأرض ، وإنما اختار الأكل من الطريق الأفضل . ولهذا أورد النبى صلى الله عليه وسلم قصته فى مقام الاحتجاج بها على ماقدمه من أن خير الـكسب عمل اليد وأن فى ذلك دليلا على أن الاكتساب لا ينافى التوكل على الله متى كان الاعتماد فى حصول الرزق عليه تعالى لا على الأسباب .

ويبين لهم أن هذا كله فى من طلب الـكفاية لنفسه وعياله ، فأما من كان عنده الـكفاية ولـكن يطلب الـكسب لتحصيل الثروة والزيادة على الـكفاية فإن كان مقصوده استكثار المـال وادخاره لا ليصرف فى وجوه الخير ونافع الأعمال له ولأمته فذلك مذموم عند الله والناس أجمعين لأنه إقبال على الدنيا التى حبها رأس كل خطيئة فإن كان مع ذلك ظالماً للناس خائناً غاشاً فى المعاملات مقصراً فى الواجبات فذلك الذى خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وكانت دنياه وبالا عليه ونقمة لا نعمة — وإن كان يطلب الزيادة على الـكفاية لإصلاح نفسه وعياله ، وصرفها فى أنواع البر والأعمال النافعة مع البعد عن مظالم العباد ، واجتناب الغش والخيانة ، والقيام بما وجب عليه فذلك هو السعيد الموفق المحمود عند الله والناس .

ويبين لهم مضار البطالة ، وأن قعود الرجل فارغا من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه ؛ من سفه الرأى وسخافة العقل ، واستيلاء الغفلة وجهل بآداب الدين

القويم ، وأن العمل مهما كان حقيراً فهو أفضل من البطالة ، وسؤال أحد من ذوى المال إن أعطاه فقد حمله ثقل المنة مع ذل السؤال . وإن منعه فقد باء بذل الخيبة مع ذل السؤال — حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس » ، وقال بعض الحكماء : « لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فالكريم محتال ، والدنىء عيال » حمل على من يعوله ، ولا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حملا على كاهل المجتمع ثقيلا مرذولا . يتكفف الناس فهذا أمر ممقوت محتقر ، وخير منه أحقر أنواع السعى كالاحتطاب من رءوس الجبال والفلوات فيبيعه ويمون نفسه وعياله منه كما أرشد إلى كل ذلك هذا الحديث الشريف سمع أحد الأدباء رجلا فى الثلث الأخير من الليل يقول :

وأكرم نفسى أننى إن أهنتها   وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فأعجبه قوله فأتاه حتى وقف على رأسه فإذا به يقم الشارع (زبال) ليبيع القمامة ويمون نفسه وعياله من ثمنها — فقال له أنت تقول أكرم نفسى ؟ فأى إكرام أنت فيه مع ما تصنع من جمع القمامة ؟ فقال له : إليك عنى لقد أكرمتها بهذه الحرفة عن ذل السؤال لمثلك . فقال : صدقت وقبله بين عينيه .

ويبين أن شر أنواع الكسل التعلل بالأمانى الكاذبة والترفع عن صغير الأعمال النافعة طمعاً فى نيل ما هو أشرف منها فى اعتبار بعض الأوهام ، فتضيع على المرء أوقاته ، ويزداد قعوده ، وتخور عزيمته ، وينتهى به الحال إلى الحمق والرذيلة كان قس بن ساعدة الأيادى يفد على قيصر الروم ويزوره فقال له القيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال معرفة المرء بنفسه . قال فما أفضل العلم ؟ قال وقوف الرجل عند علمه . قال فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه . قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق . وصفوة القول أن العمل على الحياة أس العمران وقوام حياة الفرد والجماعة ، وضمان الشرف ، وأمان من الذلة والمهانة ، وخير فى الدنيا والآخرة . لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على العمل ، والتحذير من البطالة والكسل وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية علامات النفاق

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، و إذا وعد أخلف ، و إذا ائتمن خان » متفق عليه . زاد فى رواية لمسلم : « و إن صام وصلى وزعم أنه مسلم »

النفاق مخالفة الظاهر للباطن . والمنافق هو الذى يظهر خلاف ما يبطن — وهو نوعان اعتقادى وعملى « فالأول » أن يظهر الإسلام وهو يخفى الكفر . وكان هذا حال المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخبث أنواع الكفر وأشدها خطراً قال تعالى « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وقال تعالى « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » وفى القرآن الحكيم كثير من فظائع منافقى اليهود وفضائحهم — « والثانى » ترك المحافظة على أمور الدين سرا ومراعاتها علنا ، وهذا يسمى فى لسان الشرع نفاقا ، كما جاء « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود . و إنما هو كفر دون كفر وفسوق دون فسوق . ونفاق دون نفاق . ومنه قول عمر لحذيفة رضى الله عنهما « هل تعلم فى شيئاً من النفاق ؟ قال لا[1] » وتتفاوت مراتبه على قدر تفاوت آثاره فى الاجتماع .

ومن البين أن أعمال الجوارح كلها مصدرها القلب . وأنها عنوان عليه ومعيار له صلاحاً وفساداً — لهذا جعل الشارع هذه الخصال الثلاث علامة على ما فى القلب من الخبث والفساد .

« الخصلة الأولى » الكذب فى القول . فإذا حدث غيره بشىء أخبر عنه بخلاف ما هو عليه قاصداً الكذب . ولا ريب أنه من قبائح الذنوب . وفواحش العيوب . معاقب عليه بالسقوط فى الدنيا والخزى فى الآخرة . فعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر و إن البر

(١) هذا عمر رضى الله عنه على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه وكل من كان أوفر عقلا وأقوى دينا كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاما لنفسه إلا أن هذا قد عز فى هذ الزمان وجوده

يهدى إلى الجنة و إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، و إن الكذب يهدى إلى الفجور و إن الفجور يهدى إلى النار و إن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . متفق عليه . وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا و بينا بورك لهما فى بيعهما ، و إن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه . وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اضمنوا لى ستاً أضمن لكم الجنة . أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم . واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » . رواه أحمد وابن حبان والبيهقى ورجاله ثقات . وقالت عائشة رضى الله عنها : « ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما تنجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله عز وجل منها توبة » . رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات — وورد أن أعرابياً بايع النبى صلى الله عليه وسلم على تركه خصلة من الخصال المحرمة كالزنا والسرقة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « دع الكذب » فصار كلما هم بسيئة قال كيف أصنع إن سألنى النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فإن صدقته حدنى . و إن كذبته فقد عاهدنى على ترك الكذب . فكان سبباً لترك الفواحش كلها وحسن توبته .

وهنا يبين للسامعين أن من أقبح أنواع الكذب والفجور فى الخصومات بالميل عن الحق ودعوى الباطل والدفاع عنه — والحلف الكاذب لا سيما فيما يتعلق بالمعاملات وشهادة الزور . ففى البخارى عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالها ثلاثا . قالوا بلى يارسول الله . قال : أكبر الكبائر . الإشراك بالله وعقوق الوالدين — وجلس وكان متكئاً — ثم قال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » — وجملة القول أن من الخيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك فيه مصدق وأنت له به كاذب — و إن اللسان الأخرس خير من لسان ناطق بالكذب .

« الخصلة الثانية » إخلاف الوعد ، فكل من وعد إنسانا بخير فى المستقبل ولم يف كان منافقاً . والإخلاف قد يكون فعلا كما يكون قولا ، وكله قبيح مذموم . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » هذا إذا وعد غيره وفى عزمه عدم الوفاء ، أما إذا كان عازما حال الوعد على الوفاء ثم عرض له مانع أو بدا له رأى فلا يعد ذلك من النفاق . ففى حديث الطبرانى : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف . وحديث أبى داود و إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يف له فلم يف فلا إثم عليه — ثم يبين مضار الإخلاف وآثاره السيئة فى الدين والدنيا ، و يحث على الوفاء بنحو حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فدفعها إليه فخرج فى البحر فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار فرمى بها فى البحر ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه فإذا بالخشبة فأخذها لأهله حطباً فلما نشرها وجد المال » . الحديث رواه البخارى بتمامه فى باب الكفالة وقد تقدم فى الفصل الثامن .

(الخصلة الثالثة) الخيانة فى الأمانات بالتصرف فيها على خلاف ما يقتضيه الشرع الشريف ، وهى أيضاً قبيحة شرعاً وعقلا ، ومن شر أنواع الخيانة الغدر فى المعاهدات . وكل من تحالف مع إنسان على شىء ثم غدر كان منافقاً « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . فو بال ذلك عليه وحده قال تعالى : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تصنعون » . ومن الخيانة أيضاً إفشاء السر فإنه حرام لما فيه من الإيذاء والتهاون بحقوق الإخوان والأصدقاء و إن خلا من الإيذاء فهو لؤم ودناءة — وهنا ينفر الناس من الغدر بأنه مما يعاقب عليه صاحبه فى الدنيا قبل الآخرة ففى الحديث « خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة البغى والغدر ، وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم ، ومعروف لا يشكر » . روى من عدة طرق — ويحث الناس على التخلق بالصدق والوفاء والأمانة بنحو قول الإمام على رضى الله عنه « إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض ، وأداء الفرض

والوفاء بالعهد ، والإنجاز بالوعد . ومن حاول أمراً بالمعصية كان أقرب إلى ما يخافه وأبعد مما يرجو » :

وجملة القول أن للنفاق علامات كثيرة وهذه الخصال الثلاث تشمل جميعها . ذلك أن أصل الديانة منحصر فى القول . والفعل . والنية . فنبه هذا الحديث الشريف على فساد القول بالـكذب : وعلى فساد الفعل بالخيانة ، وعلى فساد النية بالخلف ، و إن هذه الخصال الثلاث أمارات النفاق والخبث فى الباطن ، وصاحبها شبيه بالمنافق فى هذه الخصال ومتخلق بأخلاق المنافقين بإظهاره خلاف ما يبطن فكان منافقاً فى حق من حدثه ووعده وائتمنه ، و إن لم يكن منافقاً فى الاعتقاد ، وأن كل خصلة يمكن أن يطبع عليها المؤمن إلا الـكذب والخيانة ، فإنهما بالتطبع والاعتياد — قال على رضى الله عنه . من استحلى رضاع الـكذب عسر فطامه . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس من التساهل فى أمر هذه الخصال فتصبح لهم عادة خشية أن تفضى بهم إلى نفاق الـكفر والعياذ بالله تعالى إذ كل من غلبت عليه وتهاون بها واستخف بأمرها كان فاسد الاعتقاد غالباً — أما من وقعت منه نادراً من غير اختيار أو اعتياد فلا ، متى تاب عنها وحسنت توبته . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

الموعظة الثالثة الزواج وعادات الناس

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ، ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

النكاح ركن عظيم من أركان الحياة الاجتماعية التى لأجلها خلق الله تعالى هذا النظام الـكونى ، ووضعت لها القوانين العادلة والشرائع السماوية على اختلاف أنواعها ، فإنه السبب الأعظم فى بقاء النوع الإنسانى على أحسن وجه وأكمل نظام والوسيلة الشريفة لتـكوين الأسر ؛ وسبيل إلى التآلف والتعاون بين أفراد الأمم ،

بل صلة الزواج أقوى صلة ، فإنه ينقل المودة بين أهل كل من الزوجين حتى يكون الكل ربطة واحدة وتصير كل عشيرة عوناً وعضداً للأخرى على درء المضار وجلب المنافع ، كما أنه موجب للعفة وحصن للنفس من الوقوع فى المناهى وصيانة للمرأة عن الهلاك بالنفقة والسكنى واللباس : فإنها عاجزة عن الكسب لا تقوى على ما يأتيه الرجل من ضروب السعى وتحمل المشاق فى سبيل الحصول على الزاد ومرافق الحياة وصيانة للأولاد أيضاً عن الهلاك ؛ فإنه لولا النكاح لاختلطت المياه واشتبهت الأنساب وضاعت الأولاد لعدم من يدعيها وهذا هو الوأد الخفى ، بل أشد أنواع القتل — وبالجملة أن فى النكاح فوائد جليلة ومصالح كثيرة من حفظ الفروج ودفع التباغض والتحاسد ، وقطع النزاع المفضى إلى حدوث الفتن والاقتتال ، ففيه حفظ النوع البشرى عن الهلاك والإنقراض وتكثير عدد الموحدين لله تعالى فى أرضه على وجه يزيد فى عمرانها وصلاحها ، هذا وقد جرت عادات الناس بأنهم يرغبون فى زواج المرأة لواحد من الأغراض الآتية :

(لمالها) ولو كانت وضيعة دميمة فاجرة ؛ لأنها إذا كانت ذات مال فقد تستغنى بمالها عن مطالبة بعلها بما يحتاج إليه غيرها من النساء ، وقد يرزق منها بولد فيعود إليه مالها بالإرث ، (وهنا) يشرح للناس ما فى ذلك من المتاعب وكدر العيش ، فإن ذات المال منهن طاغية ما لم يكن لها دين يمنعها عن الرذائل وسوء الخلق ، وما فى ذلك من عكس الآية الإلهية ، فإنه تعالى جعل الرجال قوامين على النساء قيام الولاة على الرعية ، وملك الرجل ناصية المرأة بأمرين . « أحدهما » وَهْبِىّ ذكره الله تعالى بقوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » . من رجحان العقل وزيادة الدين والحظ فى الميراث والقوة على الأعمال والجهاد وإقامة الشعائر وأهلية الولايات والنبوة والتزوج بأربع من النساء وانتساب الولد إليه « والثانى » كسبى ذكره تعالى بقوله : « وبما أنفقوا من أموالهم » أى بسبب ما أخرجوا لنكاحهن من الأموال فى المهور والنفقات . وبذلك كانت للرجال عليهن درجة ، فأولئك الذين يطلبون المرأة لمالها حمقى سفهاء ضعاف الثقة بالله ، رضوا لأنفسهم فى سبيل هذا الحطام

الفانى بالذل والإهانة إن تم لهم الانتفاع بمالها — وعلى الجملة : إن كان النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعى إليه كان المال هو المنكوح فان اتفق معه أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة وأن تجرد عن غير المال . فأخلق بالعقد أن ينحل و بالألفة أن تزول سيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء .

« ولحسبها » أى شرفها والحسب فى الأصل الشرف بالآباء و بالأقارب : مأخوذ من الحساب لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آبائهم وقومهم وحسبوها ؛ فيحكم لمن زاد عدده على غيره — وهنا يبين الحسب الممدوح والمذموم و يرغب فى الأول و ينفر من الثانى كما يحذر من طلب الدنيئة كبنت الزنا وبنت الفاسق واللقيطة ومن لا يعرف لها أصل ، فانه مكروه . روى الحاكم « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » أى فلا تضعوها إلا فى أصل طاهر ، لأن العرق نزاع ينزع إلى أصل أمه وطباعها ، و إجمالا أنها ستربى أولادها وتؤدبهم فاذا لم تكن من بيت شريف لم تحسن التأديب والتربية وكانت وبالا على بعلها وعيالها .

« ولجمالها » لأن الجمال مطلوب فى كل شىء لا سيما فى المرأة التى تكون قرينة وعشيرة . روى الحاكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء من تسر إذا نظرت وتطيع إذ أمرت » فان كان النكاح رغبة فى الجمال فذلك أدوم ألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ، فان سلم الجمال من الادلال المفضى إلى الملل دامت الألفة واستحكمت الوصلة ، لكنهم كرهوا الجمال الباهر لما يحدث عنه من الأدلال المؤدى إلى الوقوع فى قبضة الاذلال .

« ولدينها » وهذا هو الأصل و به ينبغى أن يقع الاعتناء فانها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها عن الخسائس وفرجها عن المحارم أزرت بزوجها وسودت وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه . فإن سلك سبيل الحمية والغيرة بقى فى بلاء ومحنة ، و إن تساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحمية والأنفة ، و إذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد وفتنتها عمياء وداهيتها صماء : إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، فهو إذاً فى نارين مبتلى ببلاءين . و إن

كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشا معه : ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التحريض على ذات الدين بقوله « فاظفر بذات الدين تربت يداك »

وهنا يذكر أن النساء على قسمين «صالحات» مطيعات لأزواجهن تصون عرضها وتحفظ مال زوجها فى غيبته كما قال تعالى « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » وروى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها ». ثم تلا هذه الآية : فالدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة : فاذا رزق العبد امرأة كذلك فليعلم أنها نعمة من الله سيقت إليه « وفاسدات » بليات مائلات مميلات كما قال تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن » عصيانهن . وأصل النشوز التكبر والارتفاع ومنه النشز المكان المرتفع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » « كاسيات » تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهاراً لجمالها ونحوه أو تلبس ثوبا رقيقاً شفافا يصف لونها « مائلات » يمشين متبخترات « مميلات » لأكتافهن وقيل مائلات يمتشطن المشطة الميلاء وهى مشطة البغايا ومميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة « كأسنمة البخت » أى يعظمنها بلف عصابة ونحوها « لم أرهما » أى فى حياته صلى الله عليه وسلم . والحديث من علامات النبوة . فقد وجد الصنفان فى هذا الزمان بالمشاهدة .

وجملة القول أن اللائق بذوى المروءة وأرباب الديانة أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شىء لا سيما فيما يدوم ويعظم خطره ، فلهذا اختاره صلى الله عليه وسلم بأكبر وجه وأبلغه حيث عبر بالظفر الذى هو غاية البغية ومنتهى الاختيار ، وبالطالب الدال على تضمن المطلوب لنعمة عظيمة وفائدة جليلة ، فإن ذات الدين تريح الرجل

وتعينه على خيرى الدنيا والآخرة . روى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعا « لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل «تربت يداك » إن خالفت ما أمرتك به وهى كلمة جارية على ألسنتهم لا يريدون بها حقيقة الدعاء والمقصود منها هنا الحث على ذات الدين فيوافق قوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم و إمائكم » إذ الصالح هو صاحب الدين . وهنا يبين أن المقصود من الحديث النهى عن مراعاة الجمال وغيره مجرداً عن الدين فلا ينافى استحباب ذلك فى المرأة بدليل أنه صلى الله عليه وسلم أمر من يريد التزوج بالنظر إلى المرأة قبل الخطبة ، وهو لا يفيد معرفة الدين و إنما يعرف به الجمال أو القبح ، فمن المغيرة رضى الله عنه « أنه خطب امرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » رواه الترمذى وحسنه و يؤدم أن تدوم بينكما المودة والألفة — والسر فى كون ذلك قبل الخطبة أنه لو كان بعدها فلربما أعرض عنها فيؤذيها — و ينظر الخاطب من الحرة الوجه والكفين فقط لأن الوجه يدل على الجمال والكفين على خصب البدن — وتمامه فى كتاب الأبداع فى مضار الابتداع فى الفصل الحادى عشر فى بدع المعاشرة والعادات .

و ينفر الناس من طلب المرأه لغير الدين ومن الغلو فى المهر بنحو قوله صلى الله عليه وسلم » من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها » وقوله صلى الله عليه وسلم « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط . وقوله : « أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا » وقال عروة رضى الله عنه وأنا أقول من عندى : أول شؤمها أن يكثر صداقها .

و يبين أن على الولى أن يراعى خصال الزوج قال صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لاتفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . فلا يزوج كريمته من ساء خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها . فإن النكاح رق فلينظر الرجل أين يضع كريمته . فالاحتياط فى حقها أهم لأنها رقيقة ولا مخلص لها منه إلا بسلطان الدين . ومن زوج ابنته فاسقاً أو سيء الخلق فقد جنى عليها . وأساء إليها . وتعرض لسخط الله بما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . قال رجل للحسن : قد خطب ابنتى جماعة فمن أزوجها ؟ قال : ممن يتق الله فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وفى الأثر من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها . وفى الحكم المأثورة لاتزوج كريمتك إلا من عاقل ذى دين إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

وهنا يبين ما لكل من الزوجين على الآخر من حقوق الزوجية كأن يقول له عليها أن لاتمنعه نفسها . وأن تطيع أمره . وأن لاتخرج إلا باذنه . وإلا لعنها الله والملائكة حتى تتوب أو ترجع ، وأن لا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه وإلا كان له الأجر وعليها الوزر . وأن لاتدخل فيه من يكره وأن لاتخونه فى نفسها أو ماله وأن تكون قانعة منه بما قسم الله قل أو كثر . قائمة بخدمة الأولاد وإصلاح البيت بالمعروف كاتمة لسره قليلة المراجعة له .

ولها عليه النفقة والكسوة بحسب حاله . والسكنى بين قوم صالحين . وأن يتعلم ويعلمها ماتحتاج إليه من أمر دينها

وهنا أيضاً يذكر أنه ينبغى للوالدين تعليم الأولاد حقوق الزوجية وآداب المعاشرة : فمتى عرف كل من الزوجين ماله وما عليه نحو صاحبه وقام كل منهما بواجبه كان ذلك بلاريب أدوم للألفة . وأبقى للهناء والصفاء .

وإليكم وصية أب حكيم لابنته عند زفافها : روى صاحب القوت والبيهقى فى الشعب عن أسماء بن خارجة الفزارى — وكان من حكماء العرب — أنه قال لابنته عند زفافها إلى زوجها « يابنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى أن لو كانت

باقية ، أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى فافهمى عنى ماأقول : إنك خرجت من العش الذى فيه دزجت ، وصرت الى فراش لاتعرفينه . وقرين لا تألفينه . فكونى له أرضاً مطيعة أو ذليلة منقادة : أو هينة « يكن لك سماء » يظل عليك برأفته ورفعته أو يمطر عليك بإحسانه ونعمه « وكونى له مهاداً » فراشاً « يكن لك عماداً » تستندين إليه « وكونى له أمة يكن لك عبداً ولا تلحفى به » لاتلحى عليه فى شيء « فيقلاك ولاتباعدى عنه » كناية عن امتناعها عنه فى الفراش « فينساك » يغفل عنك . فان من بعد عن العين بعد عن القلب « إن دنا منك فادنى منه » بالمداعبة والانبساط « وإن نأى عنك » بقبض وهيبة « فابعدى عنه » أى كونى من فلتاته على حذر « واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسنا ولا ينظر إلا جميلا ، زينا. إشارة إلى حسن الهيئة « وكونى كما قلت لأمك ليلة ابتنائى بها »

خذ العفو منى تستديمى مودتى	ولاتنطقى فى ثورتى حين أغضب
ولاتنقرينى نقرة الدف مرة	فانك لاتدرين أين المغيب
ولاتكثرى الشكوى فتذهب باله	وى فيأباك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى	إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

هكذا تكون الآباء الرحماء والحكماء الأكياس .

ولما تزوج الحارث بن عمر ملك كندة ابنة عوف بن محلم الشيبانى وأرادوا أن يحملوها الى زوجها قالت لها أمها :

أىْ بُنَيّة إن الوصية لو تركتْ لفضل أدب تركتْ لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال — أىْ بُنَيّة : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك

رقيباً ومليكا — فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، يا بنية : احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبةُ بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوّ عنه عند منامه . فإن حرارة الجوع مَلْهبَة ، وتنغيص النوم مَبْغَضَة ، والاحتفاظِ ببيته وماله ، والأرعاء على نفسه وحشمه وعياله . فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والأرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سرا ، ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان تَرِحا ، والاكتئاب عنده إن كان فَرِحا ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببتِ وكرهتِ والله يَخير لك . حُمِلت فسلمتْ إليه فعظُم موقعها منه ، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا اليمن بعده — وهكذا تكون الأمهات الفضليات وبالله تعالى التوفيق والهداية .

(نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية)

المحاضرة الأولى

سر مشروعية القتال فى الإسلام

الحمد لله بين للناس سبل الاستقامة والهداية ، وأزال عن بصائر من أناب إليه غشاوة الضلالة والغواية ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وداعياً إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأرواحهم صابرين مخلصين ، فكانوا هم السادة الغالبين ، الفائزين المنصورين « أما بعد » فإنا سنتحدث إليكم الليلة والليالى بعدها إن شاء الله تعالى فى أمر خطير يهم كل غيور على دينه أن يكون منه على بينة . ألا وهو « سر مشروعية القتال » فى الدين الحنيف ، وقبل أن نتناوله بالبيان نسمعكم كلمة لا غنى عنها فنقول :

لا ريب فى أن الدين الإسلامى قام على الحجة والبرهان ، وظهر على كل الأديان بقوة البيان وإعجاز القرآن . ولم يقم بالسيف والقوة ، والقهر والجبروت « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ولم يَسِلّ دينُ الإسلام السيف من غمده إلا بعد اعتداء الأعداء ، وبغى الأشقياء على النبى وأصحابه ، ووقوفهم حجر عثرة فى طريق الدعوة إلى الحق ، وصدهم عن سبيل الله ، وصراطه المستقيم .

لقد علمت قريش وشاهدت وشهدت بأن سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين ، والطاهر المعصوم ، والمثل الكامل ، النقى السريرة ، الكريم النقيبة ، الحكم الحكيم ، والشجاع الحليم الرحيم ، ولقد رأوا من دلائل نبوته ورسالته ، وآيات صدقه فى دعوته مالا يدع مجالا للريب ولا يترك موضعاً للشك فى أمره صلوات الله وسلامه عليه — يعرفون عنه ذلك كـ

يعرفون أبناءهم ، وعلموا من كماله ما لم يعلمه سواهم ، فلما جاءهم بالحق من ربه ، ودعاهم إلى الإسلام كبر عليهم ما دعاهم إليه ، وقابلوه بالسخرية والاستهزاء ، والأنكار والإيذاء له ولمن آمن معه ، ظلما واعتداء ، وتكبراً وعناداً «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » وهذا دأب المبطلين ، وديدن المبهوتين ، مع الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المصلحين فى كل أمة «وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » رأى منهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ما رأى من السخرية والإيذاء ، والتكذيب والإنكار فصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ومضى فى نشر دعوته ، وتبليغ رسالة ربه غير هيّاب ولا وجل ، ولم يبال بأذى، ولا ضرر ولا وعد ولا وعيد ، يتلو عليهم القرآن ويقيم لهم الحجج والبراهين ، وتتوالى عليه الآيات ، ويشاهدون منه المعجزات .

ولما عاب آلهتهم . وسفّه عقولهم - فإنهم كانوا إذا احتجوا فى تماديهم على الباطل ، واستمرارهم على عدم اتباع الحق - ذمّهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له . كما قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وكقوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون » وقال لهم : « يا قوم والله لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم لما عاب آلهتهم ثارت فى رءوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التى كانوا يعبدونها تقليداً لآبائهم بلا عقل ولاروية ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أعدائه فطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم ، أو يخلى بينهم وبينه . فردهم أبو طالب رداً جميلا . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريد لايصده عن مراده شىء . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذامروا وحض بعضهم بعضاً

عليه ، ثم رجعوا ثانياً إلى أبى طالب قائلين إنهم لا يصبرون على هذه الحال وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلوه و إياه ، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال : يابن أخى إن قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . فظن الرسول أن عمه خاذله ومُسْلِمُه ، وأنه ضعُف عن نصرته والقيام معه « .فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ثم استعبر و بكى » فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يابن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً .

ولما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبى طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة له ولأصحابه ، فأما هو فقد أغروا به سفهاءهم ـ وهم العُدّة فى مثل هذه المواطن لكل من ضادّ إصلاحاً ـ فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو ماض فى سبيله يصارحهم بما يكرهون : من عيب دينهم وترك أوثانهم ، لا يبالى بما يصنع سفهاؤهم معه ـ وأما أصحابه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام بأنواع التعذيب الذى يفزع من ذكرها قلب الحليم وهم يحملونها بصبر عجيب .

الإيذاء له صلوات الله وسلامه عليه

لقد رأى رسول الله من المشركين كثيراً من الأذى خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكان من أكثرهم أذًى له صلى الله عليه وسلم جماعة سُمّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين : فأولهم وأشدهم أبوجهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى . قال يوما : يامعشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسبّ آبائكم ، إنى أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر لا أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف

ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته وقريش في أنديتهم ينتظرون مايفعل أبوجهل ، فلما سجد صلوات الله وسلامه عليه احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعاً لونه من الفزع ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش قالوا : مالك ياأبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ماقلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط ، هم بى أن يأكلني . فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه سلم قال : « ذاك جبريل ولو دنا لأخذه » .

ومن أذيته للرسول صلى الله عليه وسلم ما رواه البخارى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبوجهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبى مُعَيط ابن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه ، لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر فرمته عنه فلما قام دعا على من صنع هذا الصنيع القبيح فقال : اللهم عليك الملأ من قريش وسمى أقواما قال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر — ومما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى جهل أن هذا ابتاع أجمالا من رجل يقال له الأراشيّ فمطله بأثمانها ، فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله ، فدلوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبى جهل ، استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقى بالرسول صلوات الله وسلامه عليه — فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبى جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد . فخرج منتقع اللون ، فقال له الرسول : أعط هذا حقه — فقال أبوجهل : لاتبرح حتى تأخذه. فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قريش : ويلك ياأبا الحكم ! ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم والله ماهو إلا أن ضرب علىّ بابى حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وأن فوق رأسى فحلا من الإبل ما رأيت مثله .

ومن جملة المستهزئين أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ، كان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى بالقذر على بابه لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطرحه ويقول : « يابنى عبد مناف أى جوار هذا » ؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتكلم فيه بالنمائم ، خصوصاً بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة اللهب .

ومن جملة المستهزئين عقبة بن أبى مُعَيط كان الجار الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعمل معه كأبى لهب : صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوات الله وسلامه عليه : « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله » فتشهد فبلغ ذلك أبي بن خلف الجمحى القرشى المشهور — وكان صديقاً له — فقال : ماشىء بلغنى عنك ؟ قال : لاشىء ، دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعَم فشهدت له . قال أبىّ : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبزق فى وجهه ، وتلطِم عينه . فلما رأى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك . فأنزل الله فى سورة الفرقان « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا » .

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ما رواه البخارى فى صحيحه قال : « بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى مُعَيْط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » ؟

وغيرهم كثيرون ؛ وكل هؤلاء قد انتقم الله منهم كما قال تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق

صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقد وضع جل ثناؤه الوعد فى صورة الماضى لتحقق وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هؤلاء كان بعد الهجرة — فنهم من قتل كأبى جهل والنضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبى لهب والعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة .

وكما أوذى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوذى أصحابه لاتباعهم له ، وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد عنه كيد عدوه ، وكل هذا الأذى كان حلواً فى أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يفتتنوا عن دينهم بل ثبّتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم ، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين . ولقد أنجز لهم وعده فى قوله جل ثناؤه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؛ يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وممن أوذى فى الله بلال بن رباح كان مملوكا لأمية بن خلف الجمحى القرشى ، فكان يجعل فى عنقه حبلا ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد لم يَشْغَلْه ما هو فيه عن توحيد الله ، وكان أمية يخرج به وقت الظهيرة فى الرمضاء الشديدة الحرارة ، لو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد . مرّ به أبو بكر يوماً فقال : يا أمية أما تتقى الله فى هذا المسكين ، حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فاشتراه منه وأعتقه — ومنهم حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول ومنهم امرأة تسمى زنيرة عذبت فى الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيماناً . ومنهم أم عنيس كانت أمة لبنى زهرة ، وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث فاشتراها منهم أبو بكر رضى الله عنه وأعتقها .

ومن عذب فى الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه : كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : « صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » . أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله — وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فإن أبا جهل كان يجعل له دروع الحديد فى اليوم الصائف ويلبسه إياها — فقال المسلمون : كفر عمار فقال عليه الصلاة والسلام : « عمار ملىء بالإيمان من فرقه إلى قدمه » . وأنزل الله فى شأنه استثناء فى حكم المرتد فقال جل ثناؤه : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب ولهم عذاب عظيم » . وممن أوذى فى الله خباب بن الأرت سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار وكان حداداً وكان النبى يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تعذبه بالنار ؛ فتأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيماناً وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ : « فقعد عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فَيُشَق ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو فى هذه الحالة الشديدة التى لا يتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة ، اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه . ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين فى قوله : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذى لحقه ولكن كل ذلك ضاع لدى تلقاء ثباتهم وقوة إيمانهم ، فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك الإيمان حقيقة فرأوا كل شىء دونه سهلا

ولما اشتد الأذى بالمؤمنين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ففعلوا ، وتلك أول هجرة فى الإسلام ، وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، معهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار .

هل تظنون أنهم تركوا هؤلاء المهاجرين (لا والله) لم يتركوهم ، بل أرسلوا فى أثرهم رجلين إلى الحبشة هما عبدالله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص بالهدايا للنجاشى ملك الحبشة ، ولبطارقته وطلبا إليه رد هؤلاء إلى بلادهم ، لأنهم خطر عليه وعلى بلاده ، وبعد محاورة بينه وبينهما وبينه وبين المهاجرين لم يسمع لقولهما وأكرم وفادة المهاجرين واقتنع أنهم على الحق وإلى الحق يدعون .

وبعد ثلاثة أشهر رجع المهاجرون إلى مكة حيث لا يتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلوا العدد وفى الكثرة بعض الأنس ، وأضف إلى ذلك أنهم من أشراف قريش ومعهم نساؤهم . وهؤلاء لا يطيب لهم عيش فى دار غربة بهذه الحالة . ثم هاجروا مرة ثانية إلى الحبشة هم ومن استطاع الهجرة ممن آمنوا فراراً بدينهم من الفتنة ، لما يلاقونه من بغى المشركين .

وبقى الرسول صلوات الله وسلامه عليه سائراً فى طريق الدعوة صابراً على أذاهم غير مبال بما يضعونه أمام الدعوة من عقبات ، والله تعالى يعصمه منهم ويحرسه ، وهم يتفننون معه فى ضروب الشر من نوع إلى نوع ، حتى لقد أجمعوا على مقاطعته ومقاطعة من آمن معه . فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشترون منهم شيئاً . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك . واستمروا على هذه المقاطعة سنتين لقى فيهما النبى وأصحابه صنوفَ الشدائد وأنواعَ العذاب .

ويدل على شدة ما لقيه الرسول والمؤمنون ونزل بهم من المشركين ما روته أم عبد الله بنت أبى خيثمة — قالت : والله إنا لنرحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على — وهو يومئذ على شركه — فقال : إنه الإنطلاق

يا أم عبد الله . قالت فقلت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله آذيتمونا ، وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا — و بعد ماضاقوا بالنبى وأصحابه ذرعا ولم تنجع فيهم هذ الأعمال ، ولم تؤثر فيهم تلك الفظائع ، اجتمع المشركون فى دار الندوة بمكة فتشاورو ماذا يصنعون للخلاص من محمد وأصحابه ، فقرّ الرأى على ما قال أبو جهل عدو الله ورسوله وهو أن يختار من كل قبيلة شاب جلد نسيب وسيط ثم يجتمعون على باب محمد حتى إذا خرج ضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل جميعاً فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش كلهم . فعينوا الفتيان والليلة واجتمعو فأعلم الله رسوله بما بيتوا له وأمره بالهجرة إلى المدينة ، وذلك فى السنة الثانية عشر من البعثة وهى السنة الثانية والخمسون من عمره صلى الله عليه وسلم وسنة ٦٢٢ من الميلاد ، وعصمه الله من المشركين أعداء الحق والدين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعلوا يُلحقون الأذى بمن بقى من أصحابه بمكة من مستضعفى المؤمنين الذين كانوا يقولون من هول مايلاقون . « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

و بالجملة هذا قليل من كثير مما لقيه الرسول وأصحابه من أذى شديد ، ومعاملة قاسية من أهل مكة العتاة الجبابرة ، المردة الشياطين ، بعد مارأو الآيات وشاهدوا المعجزات ، وسمعوا القرآن . فهل مثل هؤلاء يرجى منهم إيمان ، أو يؤمل فيهم خير (كلا) ، فما بعد هذا كله إلا السيف ، هو الذى يكسر شوكة كل شيطان مريد و يقطع دابر كل كفار أثيم . لذلك وجب القتال وشرع الجهاد ، لا حباً فى دنيا ولا طمعاً فى مال ولا رغبة فى سيادة ، بل شرع دفاعا عن الدين وأهله ، وحماية للدعوة إلى سبيل الله .

وقبل مشروعية القتال أسلم كثيرون من أعلام قريش ونسائها وشبابها ودخلو فى دين الله راضين مختارين موقنين بأنه الدين الحق الذى ارتضاه الله لعباده ، واختار لسعادة بنى الإنسان ، فأى داع دعا هؤلاء إلى اعتناقه سوى ماسمعوا من القرآن،

وشاهدوا من المعجزات ، ولم يكن للرسول صلوات الله وسلامه عليه يومئذ قوة ولا سطوة ، ونذكر لك هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آثروا العقل على الهوى ، ولم يشتروا الضلالة بالهدى . فمنهم السيدة خديجة بنت خويلد وزيد بن حارثة ، أبو بكر الصديق ، على بن أبى طالب ، عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عمر بن الخطاب ، حمزة بن عبد المطلب ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبى وقاص ، أبوعبيدة عامر بن الجراح ، عبد الله بن مسعود ، عبد الرحمن بن عوف أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، الأرقم بن أبى الأرقم ، عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، بلال بن رياح ، خباب بن الأرت ، عثمان بن مظعون ، سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب .

ولا يزال كثير من ذوي الرأى والمفكرين يعتنقون الدين الإسلامى معتقدين أنه الدين الحق لاسواه ، لاخوفا ولا رهبة فى زماننا هذا الذى ضعفت فيه الشوكة وفترت فيه الدعوة ، مما يدل على أن هذا الدين يقوم على الحجة والبرهان لا على السيف والاكراه

وإليكم ماجاء فى مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم لتعلموا أن الأسباب التى لها شرع القتال ترجع إلى أمرين :

(الأول) الدفاع عن النفس عند الاعتداء (والثانى) الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة المؤمنين بالأذى والتعذيب ليعودوا فى ملة الكفر أو بمنع الداعى من التبليغ ، أو بصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه .

قال الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتو الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » دلت هذه الآية الكريمة على أن الله عزت قدرته وجلت حكمته أذن المؤمنين فى القتال

وبينت السبب فى الأذن وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير موجب إلا الإيمان بالله وحده. ثم بينت حكمة الأذن بالقتال، أى أنه لولا أن الله تعالى يدفع أهلَ الباطل بأهل الحق وأهل الفساد فى الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد فى الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا لهم حتى يكون لهم السلطان وتخرب أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله فى الأرض ذكر.

فكان من رحمة الله بالناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين — ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف المصلحين الذين ينصرهم الله ما نصروا الحق وأرادوا الاصلاح فى الأرض ذلك أنهم يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر — صوامع للرهبان، بيع: كنائس النصارى صلوات: كنائس اليهود — مساجد المسلمين.

وقال تعالى: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدينُ لله فأن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » بينت هذه الآيات الأذن بالقتال حيث وصفت من أُمِرَ المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم فى دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم، وجعلت لهذا القتال غاية وهى أن لا تكون فتنة ويكون الدين خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن ولا يؤذى فيه. و بينت أن الفتنة فى الدين بالتعذيب والإخراج من الوطن أشد قبحا من القتل إذلا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه على اعتقاده الذى تمكن من قلبه ونفسه ورآه سعادة له فى عاقبة أمره. ونهت عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين

وهم الذين يبدءون غيرهم بالشر و بينت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغى الزيادة فيه على ما فعله البادى به .

وقال تعالى « ومالـكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال (الأول) سبيل الله وهو الغاية التى يسعى إليها الدين أن لا تـكون فتنة ويكون الدين لله (الثانى) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم و بين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص . فهؤلاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم إيذاء الظالمين وتجعلهم أحراراً فيما يدينون وما يعتقدون — وقال تعالى « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليـكم السلم فما جعل الله لـكم عليهم سبيلا ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رُدوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليـكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئـكم جعلنا لـكم عليهم سلطانا مبينا » بينت هذه الآية حكم الله فى المنافقين وهو النهى عن قتالهم متى امتنعوا عن قتال المؤمنين وسالموهم ، والأمر بقتالهم إن اشتركوا مع المشركين فى فتنة المؤمنين فى دينهم فالسبب فى القتال دفع الفتنة فى الدين .

وقال جل وعلا : « وقاتلوهم حتى لا تـكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » بينت أن السبب فى القتال هو فتنة المسلمين فى دينهم والوقوف فى طريق الدعوة — فأمرهم بالقتال إلى أن تزول الفتنة ، وتسير الدعوة فى طريقها آمنة ، فيسلم الناس ويذهب الشرك ويصير الدين خالصاً لله وحده لا أثر فيه لخشية أحد ولا دهانه — وقال جل وعلا : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنّهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » أفادت الآية أن السبب فى القتال هو نقضهم العهد مرة بعد أخرى فأمر الله تعالى

نبيه أن يجاهدهم ويوقع بهم أشد النكال ليكونوا عبرة لغيرهم من المشركين فلا ينقضوا له عهداً ولا يعلنوا عليه حربا — وقال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » بينت الآية أن السبب فى القتال هو ميل المشركين إلى الحرب فإن مالوا إلى المسالمة وجب ألا يقاتلوا ، وإن خيف من خداعهم بإظهار الجنوح إلى السلام ليكف المسلمون عنهم فيأخذوهم على غرة فما النصر إلا من عند الله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله — فترون من هذا أن الكتاب الحكيم يأمر أهله بالسلم ولو خيفت عاقبته .

وقال جل وعلا : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة . أتخشوهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » بينت هذه الآية أن سبب القتال تلك الجرائم — نقض العهود — الطعن فى دين المسلمين — الهمّ بإخراج الرسول حين تآمروا عليه بدار الندوة — بدؤهم بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولا والناقضون عهدهم آخراً ، وأنتم قد أبيح لكم مجازاة المعتدى بالمثل .

كان اليهود قد مالؤا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوهم فى غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبى صلوات الله وسلامه عليه عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بموجبها ، فأمر المسلمون بقتالهم . وفى ذلك جاء قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فالسبب فى قتالهم هو نقضهم عهد الرسول بمعاونتهم لأعدائه ، ووقوفهم فى سبيل الدعوة ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام — وقال تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » المراد بهم أيضاً اليهود حول المدينة وهم بنو قريظة و بنوا النضير ويهود خيبر ، لأنهم نقضوا العهد وحرّضوا العرب وأعانوهم على المسلمين فى غزوة الأحزاب فالسبب هو نقض العهد .

كان أمر القتال أولا قاصراً على قريش ومن يمالئونهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتابُ الحكيم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » فالعلة فى هذا الأمر بينها الكتاب نصا وهى اتحادهم على المسلمين ووقوفهم فى سبيل الدعوة .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسولُ الله ، و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » . متفق عليه فإن المراد بهم المشركون ومن على شاكلتهم كالمجوس — وذلك أنهم هم الذين كانوا يقاومون دعوة الإسلام مالا يقاومها سواهم وكان استقرار الدين من غير دخول مشرك جزيرة العرب فى الإسلام ضربا من المحال — وإذا لم تفد العقاقير فآخر الدواء الكى — .

هذا ما جاء فى الكتاب الحكيم خاصاً بأمر الجهاد ، وكله صريح فى أنه لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس أو تأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها ، وأعلن أنه لم يجىء معتدياً بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سالمه . ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » وبالله تعالى التوفيق والهداية .

المحاضرة الثانية

الرق فى الإسلام

وقبل الكلام عليه نذكر معنى الحرية والمساواة فى نظر الإسلام فنقول : الحرية خلوص الإنسان من ضيق الحجر وتمتعه بكل حق إنسانى قضى به الشرع وسوّغه العقل ، وهى حق طَبْعى للإنسان إذا حرم منه فقد سلب إرادته وفقد إنسانيته ، لهذا قررها الإسلام ورفع من شأنها ، وصانها من العبث بها وجعل الإنسان حر النفس ، حر العقل .

حرية النفس

قرر الاسلام للناس حرية نفوسهم وصانهم من ذل العبودية إلا لله تعالى ، ومن الخضوع إلا لشرعه القويم ، فلا سلطان لأحد من رؤساء الدين والدنيا على روح المسلم : ولا سيطرة لهم على سريرته . ولا واسطة بينه و بين ربه إلا العمل بكتابه ، وما بيّنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يقدر أحد من هؤلاء على حرمانه من ثواب الله ورحمته ما دام مستقيما على طريقته ، ولا يملكون غفران خطيئته إذا خالف أمر ربه ، بل ذلك كله لله وحده : يقول الله تعالى مبيناً وظيفة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فلا سيطرة لهم على سرائر الناس وليس لهم حق إكراههم و إجبارهم ، بل أمرهم إلى الله بعد تبشيرهم و إنذارهم . و يقول عز وجل لمحمد صلوات الله وسلامه عليه «فذكّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» وقال له : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وقال تعالى : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقران من يخاف وعيد » وقام صلوات الله وسلامه عليه حين أنزل عليه : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا بنى عبد مناف ! لا أغنى عنكم من الله

شيئا ، يا عباس عمَّ رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفيةُ عمةَ رسول الله لا أغنى عنكِ من الله شيئاً يا فاطمةُ بنتَ محمد سليني من مالى ما شئتِ لا أغنى عنك من الله شيئاً » متفق عليه .

نعم تجب على المسلمين طاعة الرسول وأولى الأمر ولـكن فيما ينفِّذون من شرع الله تعالى لأنها طاعة له جل وعلا ، أما فى غير ذلك فقد كان للصحابة حرية الرأى مع الرسول فى المصالح العامة التى لم ينزل فيها وحى ، وكان صلوات الله وسلامه عليه ينزل على رأى الواحد منهم إذا تبين له صوابه . يدل على هذا مشروعية المشاورة فى الأمور الدنيوية فإنه لا تـكون مشاورة إلا مع حرية الرأى . وقد كانوا كذلك فى عهد الخلفاء الراشدين : عليهم الطاعة فيما أمر الله تعالى ولهم الحرية فيما وراء ذلك ، وهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول فى أول خطبة له بعد الخلافة : أيها النـاس إنى وَليتُ عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، وفيها يقول : أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليـكم . ومن خطبة لعمر رضى الله عنه : أيها الناس من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقوِّمه . فقام إليه رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه . فانظر إلى أى حد بلغت حرية الضمائر فى المسلمين فى الصدر الأول وبها عزوا وسادوا .

حرية العقل : كما جعل الإسلام الناس أحرار النفوس أطلق لهم حرية العقول ، فأباح التفكر فى ملـكوت السموات والأرض بل حث على ذلك وجعل النظر الصحيح أساس الاعتقاد الصحيح وأثنى القرآن الـكريم على الذاكرين المتفكرين ونعى على الغافلين الضالين . فقال فى الأولين : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » وقال فى الآخرين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » والقرآن الـكريم

كله يناشد العقل يُهيب به إلى التفكر والتأمل ويحفزه إلى البحث ليستدل ببديع الصنع على عظمة الصانع جل وعلا ، وليتعلم ويبتكر وينتفع بما خلق الله فى السموات والأرض وما أودع الكون من أسرار ومنافع — يُهيب يدعو . يحفز يدفع .

المساواة فى نظر الدين

احترم الاسلام النفوس والعقول وكفل لها حريتها كما علمت . وبذلك تقرر مبدأ المساواة على أكمل وجه . فأصبح المسلمون به إخوانا متساوين فى الحقوق والواجبات ، كلهم محترم النفس والعرض والمال وكلهم مسئول أمام القانون الإلهى العادل عما قدمت يداه « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » لافرق فى ذلك بين ذكر وأنثى ولا غنى وفقير ولا ملك وسوقة ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أنكر الإسلام التمايزَ بين الشعوب والتفاخر بالأنساب والتكاثرَ بالأولياء والأنصار ، والتطاولَ بالجاه أو المال . بل سوى الاسلامُ بين المسلم وغير المسلم إذا دخل فى ذمة المسلمين . فإن له حينئذ مالهم وعليه ماعليهم . وقد أثبت الكتاب الحكيم مبدأ المساواة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وتجلى فى كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه وكلام أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . وصدق فيه القولَ العملُ قال صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم لآدم وآدم من تراب، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » متفق عليه ، وقال صلوات الله وسلامه عليه حين جاءه أسامة بن زيد يشفع فى المرأة المخزومية التى وجب عليها حد السرقة : « أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » متفق عليه . وقال فى حجة الوداع : « أيها الناس من أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن ضربته ضربة فليقتص منى قبل يوم القيامة » . متفق عليه . وقال فى أهل الذمة « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » وقال أبو بكر رضى الله عنه من خطبة له : ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه — وكتب

عمر رضى الله عنه إلى عماله بالأمصار يقول : اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى ـ وقد أقاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من نفسه لما أصاب بطن رجل بزج الرمح فجرحه فقال له : « تعال فاقتص » . فعفا عنه ـ وكذلك فعل أبو بكر وعمر فقد جاء رجل إلى أبى بكر يستحمله فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر : إنه استحملنى لحملته فبلغنى أنه باعه . ثم قال للرجل : دونك فاقتص . فعفا عنه — وضرب عمر جارية لسعد بن أبى وقاص بالدرة فساء ذلك سعداً فناوله عمر الدرة وقال له : استقد. فعفا عنه ـ هذا شىء يسير من أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه والخليفتين من بعده وأعمالهم . يمثل لك مبلغ احترامهم للمساواة وعنايتهم بتقريرها بين الناس قبل أن يدب دبيب الأثرة والاستبداد فى النفوس ، وبتقرير الاسلام الحرية والمساواة شعرت النفوس باستقلالها وعزتها وسيادتها وظهرت مواهب كثير من المسلمين فى العلم والحرب والسياسة واستروح الناس عبير العدل يسطع من ناحية الجزيرة العربية حتى عم الأقطار التى فتحها المسلمون وتمتع أهل تلك الأقطار ـ من أسلم منهم ومن لم يسلم ودخل فى ذمة المسلمين ـ بحرية لم ينعم الناس بمثلها فى عصر من العصور هـذا والآن نبين سرّ مشروعية الرق فى الاسلام .

قد عرفت معنى الحرية والمساواة فى نظر الدين ، وما لهما من منزلة : فإن قيل لك إذا كان الاسلام قد رفع من شأنهما وجعل الناس سواء فى الحقوق فما باله أباح الرق وأن يكون الآدمى عبداً مملوكا لايقدر على شىء ، فلا يملك ولا يتصرف إلا بإذن سيده ، وهل الرق إلا قتل للحرية ، وأهدار للآدمية وهدم لمبدأ المساواة فنقول

إن الاسترقاق كان عادة فاشية فى الأمم السابقة على الإسلام ، فالفرس واليونان والرومان والهنود والصينيون والعرب والمصريون كل هؤلاء كانوا يسترقون وكان الرق يضرب لأسباب كثيرة فى قوانين تلك الأمم (منها) الأسر فى الحرب أياً كان الغرض منها ، وكان اليونان والرومان يعدون الأمم المغلوبة عبيداً . وكان القانون الرومانى يبيح ضرب الرق على بعض المذنبين ، كما كان الاسترقاق أيضاً بتخطف

النساء والأطفال — وكانت معاملة الرقيق فى غاية القسوة والشدة يكلف أشق الأعمال ويعاقب أشد العقاب على الهفوة يهفوها ، ولسيده أن يبقيه أو يقتله لا يسأل عما يفعل — وقد أمرت التوراة بالرق — ولم يحرمه الدين المسيحى ، وسكت عيسى عليه السلام عن الوصية بالأرقاء بل جاء فى بعض رسائل الحواريين أمر العبيد بطاعة سادتهم فى كل شىء جاء الإسلام والاسترقاق كما بينا عادة متمكنة فى النفوس وبناء الجمعية البشرية قائم على سواعد الأرقاء فى أكثر الأعمال . فلم يكن من الحكمة فى التشريع إبطال الرق دفعة واحدة ولا إلزام من يُسلم وفى ملكه رقيق بإعتاقه ، لما فى ذلك من الأضرار بالسادة والعبيد معا ، إذ فيه اختلال مصالح الأولين وتضييع الآخرين (نعم) لم يُبطل الإسلام الرق ولكنه أوجب الرفق بالأرقاء والإحسان فى معاملتهم مما لم يرد مثله ولا ما يدانيه فى قانون ولا شريعة سابقة .

وإليك بعض ما جاء فى ذلك من الكتاب الحكيم والسنة الشريفة قال الله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » وعن بعض الصحابة قال : رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الأرقاء وهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه متفق عليه . وعن ابن مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى يقول : اعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود ، فألقيت السوط من يدى . فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبداً » . رواه مسلم وغيره وقال صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة » . أخرجه فى الجامع الصغير وابن عساكر عن ابن عمر — وقد توفى صلوات الله وسلامه عليه

وهو يقول : « اتقوا الله فى الصلاة وما ملكت أيمانكم » . أخرجه الخطيب عن أم سلمة .

على أن الإسلام قد رغب فى تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق شتى (منها) أنه جعل للأرقاء من الزكاة نصيباً يفتدون به أنفسهم من سادتهم قال الله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين .وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (ومنها) أنه أمر بالاعتاق وجعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة لايجزى غيره عنه عند القدرة عليه . فقال تعالى فى كفارة القتل الخطأ : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » ثم يقول : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » فانظر كيف جعل الاعتاق هو الواجب الأول فى تكفير ذنب القتل خطأ — وقال تعال فى كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » وجعله أيضاً أحد المكفرات للحنث فى اليمين بالله حيث قال جل وعلا : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » (ومنها) أنه جعل الاعتاق من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال تعالى ممتناً على الإنسان : « ألم يجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » فجعل إعتاق الرقبة فى مقدمة الخصال التى بها يقوم المرء بشكر نعم الله المتتالية . بل أمر السادة بإعانة العبيد والإماء بشىء من المال على أداء نجوم الكتابة إذا علموا فيهم أمانة وقدرة على الكسب فقال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » يستعينون به فى أداء ماالتزموه لكم وفى معنى الأداء حط شىء مما التزموه عنهم — والكتاب المكاتبة —

ورسول الله رغّب كثيراً فى تحرير الرقاب ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « أيما رجل أعتق إمرأً مسلماً اسْتَنْقَذَ الله تعالى بكل عضو منه عضواً من النار » رواه البخارى . إستنقذ خلّص . وعن أبى نجيح السلمى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار » رواه أبو داود والنسائى . وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيما امرىء مسلم أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار ، يجزى كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار ، يجزى كل عضو منهما عضواً منه » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وكان السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم يتقربون إلى الله تعالى بعتق مواليهم حتى لقد كان بعضهم يخرج عما يملك من العبيد ، وبعضهم يشترى الأرقاء ليحررهم لا ليستخدمهم .

مما تقدم تعلم أن الإسلام شديد العناية بالرقيق . عظيم الرغبة فى حريته (نعم) أباح الاسترقاق ولكن فى حالة واحدة لا ثانية لها ، فإذا وقعت حرب شرعية بين المسلمين وغيرهم ممن كانوا يعتدون عليهم ويفتنونهم فى دينهم ويصدونهم عن سبيل الله ، وأَسَرَ المسلمون من أعدائهم فإن للإمام أن يضرب الرق عليهم ، وله أن يمن عليهم ويُخْلِى سبيلهم ، وله أن يفتدى بهم أسرى المسلمين ، يفعل من ذلك ما يرى فيه المصلحة . وإنما أبيح الرق فى هذه الحال حياطة للدين . وكسراً لشوكة من يريد إيذاء المسلمين ، وإطفاء نور الإسلام ، وليستدرج الأرقاء إلى تعاليم الإسلام بما يكون من حياتهم بين المسلمين حتى إذا ما اعتنقوا الدين الإسلامى كان أحب شىء إلى الله تعالى ردهم إلى الحرية — ومن تدبر الأمر وجد أن الرق الشرعى قد بطل من زمان بعيد بزوال سببه وهو الأسر فى قتال مشروع يراد به الدفاع عن الدين وحماية الدعوة إلى الإسلام فإن الإسلام قد توطّدت دعائمه وثبتت تعاليمه ، فلم تقع حرب دينية من قرون مضت وإنما هى حروب سياسية تثيرها الأهواء والمطامع . وضرب الرق على أسراها لا يجوز بحال — كما لا يجوز استعباد الأحرار

بأى سبب آخر : فما كان يفعله النخاسون من بيع الأطفال والنساء المخطوفات قد حرمه الإسلام وتوعّد عليه قبل أن تحرمه الحضارة الغربية بثلاثة عشر قرناً — قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنتُ خصمَه خصمتُه : رجل أعطى بى ثم غدر . ورجلٌ باع حراً وأكل ثمنه ، ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجره » . رواه البخارى وابن ماجه .

وصفوة القول أن الإسلام لم يُبطل الرق الذى كان فاشياً فى الأمم وقت ظهوره رعاية المصلحة العامة ، ولكنه عطف على الأرقاء وأمر بالإحسان فى معاملتهم ، ورغّب فى الأعتاق وأوجبه فى بعض الأحوال . وهو وإن أجاز الرق فى الحال التى ذكرناها لم يوجبه بل أباحه إذا كان فيه مصلحة . وحرم اختطاف الأحرار واستعبادهم والاتجار بهم . ومن تدبر هذه المبادىء علم أن الإسلام يكره الرق كراهة شديدة ولذا ضيق دائرته ولم يبحه إلا بسبب واحد حياطةً للدين ، وأنه يحب الحرية ، ولهذا رغّب فى الاعتاق وأثاب عليه وأوجبه فى أحوال كثيرة وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الثالثة

سر تعدد الزوجات

قد كثر طعن المخالفين فى الدين الإسلامى من أجل ما أباحته الشريعة من التزوج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون أسرار الشريعة الغراء وماحوته من الحكم البالغة المعقولة ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما هو براء منه .

كان تعدد الزوجات عادة شائعة فى العرب وسائر الأمم الشرقية وكان شره فيهم مستطيراً ؛ فأنهم لم يكونوا يتقيدون فيه بعدد ، ولا يراعون عدلا بين الزوجات ، فكان ذلك مما أصلحه الإسلام ، فلم يمنعه منعاً باتاً ، لما فى المنع من الحرج ، ولم

يتركه فوضى كما كان ، بل أباحه إلى أربع وشرط للحل شرطاً وثيقاً وهو العدل بين الزوجات فى المعاملة ، قال الله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً فى تحريم التعدد ، فمن لم يأنس من نفسه أن يقوم بالقسط بين زوجاته لايتاح له التعدد ويجب عليه الإقتصار على واحدة « نعم » إن الأصل فى التزاوج التوحد ، فيه يتم سكون كل من الزوجين إلى الآخر ، ويستقيم أمرهما ويهنأ عيشهما وتسعد أولادهما ولكن قد تدعوا الحاجة إلى التعدد وتقتضيه المصلحة . ولايمكن لأحد أن ينكر كثيراً من الأحوال التى تقتضى ذلك واللائق بشريعة اجتماعية هى خاتمة الشرائع أن تبيح مافيه تيسير للناس ومنفعة عظيمة لهم ، مع حياطته بما يمنع ضرره أو يخففه إن كان فيه شىء من المضار .

أما كون التعدد من حاجات الاجتماع فى بعض الأحوال فيظهر فى أمور كثيرة « منها » أن رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض غير مرجو الشفاء ماتت منه شهوتها وأصبح بعلها تعاف نفسه أن يواقعها ، ، وليس لها من يعولها إذا فارقها زوجها ، ولا يرغب غيره فى زواجها ، فلا يكون من الوفاء طلاقها ، ولا يكون من المصلحة منع الزوج من التزوج بغيرها مع بقائها لئلا يحرم النسل المقصود من الزواج « ومنها » رجل تزوج إمرأته فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوما أو استمر بها دم الإستحاضة معظم حياتها « ومنها » رجل تكره امرأته المباشرة أو تتألم منها فى كثير من أشهر الحمل — فأمثال هؤلاء إما أن يصبروا مع العنت والمشقة « وقليل الصابرون » و إما أن يأتو الفاحشة — وأولئك هم العادون الخاطئون — وكل عاقل يرى أن تعدد الزوجات مهما كان فيه من الضرر الذى يظنه المخالف مهما كان فهو أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة التى تؤدى إلى خراب العالم وانتشار الأمراض الخبيثة فى الأمة « ومنها » أن عدد النساء قد يزيد على عدد الرجال فى الأمم ولاسيما فى أعقاب الحروب التى تأتى على كثير من الرجال فإذا لم يبح للرجل أن يتزوج

بأكثر من واحدة أفضى ذلك إلى تعطيل عدد كثير من النساء ومنعهن من النسل ، وقد يصبح كثير منهن بغير كافل يقوم بشئونه ، ولا يخفى مايترتب على ذلك من المضار ، وفى أحوال الأمم التى زاد فيها عدد الأناث على الذكور اليوم عبرة للمعتبر .

فظهر مما تقدم أن التعدد قد أبيح لما فيه من المصلحة للرجال والنساء ، وأنه مضيق فيه جداً باشتراط العدل لأنه قلما يتحقق ، ومالم يتحقق العدل يكون التعدد حراماً — هذا . وإن كثيراً من المسلمين لم يرع هذا الشرط بل قد يقصد بعضهم إلى التزوج بثانية انتقاماً من الأولى أو ضرراً بها و إغاظة لها ، وبثالثة ورابعة كذلك حتى أدى ذلك إلى مفاسد كثيرة وهذا مادعا بعض من لم يفهم حقيقة الإسلام إلى الطعن فيه وينعى عليه إباحة التعدد مع أن الدين من عمل هؤلاء المضارين برىء . ولكن الحق أبلج يظهر ولو بعد حين ، فقد عرف فضل إباحة التعدد كثير ممن كانوا يعيبونه من الغربيين وقام من رجالهم ونسائهم من يدعوا إليه فى صحفهم وغيرها و إليك ما كتبته فاضلة انجليزية ملخصاً .

« لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء وقل الباحثون عن أسباب ذلك و إذا كنت امرأة ترانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبى يتقطع شفقة عليهن وحزناً وماذا عسى أن يفيدهن بثى وحزنى وتوجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ، لافائدة إلا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ، ولله در العالم الفاضل « تومس » فأنه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل للشفاء « وهو إباحة التزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الواسطة يزول البلاء لامحالة وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ولا بد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة . وصدق الله العظيم قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

وصفوة القول أن تعدد الزوجات هو عين الرحمة بل عين الحكمة التى اهتدى بها قوم وضل بها آخرون — وأعجب من إنكار تعدد الزوجات أمر الرهبانية التى

ابتدعوها حتى قضت فى الأعصر الخالية على كثير من العقول الزكية وحرمتهم لذة الحياة من غير ما ذنب ، ولم يعد منها أدنى فائدة على عالم الحياة الدنيا ـ ومنشأ تلك الرهبانية كان إما تقليداً للمسيح عليه السلام أو التفرغ المطلق إلى عبادة الحق تعالى ،[1] ولا يزال الكاثوليك يتمسكون بالرهبانية ويقبحون الزواج ويزدرون المتزوج معتقدين أنه دنّس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية ، وقالوا : إن المسيح عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، وقارنوا بينه و بين محمد صلوات الله وسلامه عليه القائل : « من رغب عن سنتى فليس منى » متفق عليه . و بمثل هذا كانت منسوخة فى شريعته فلا رهبانية فى الإسلام . وانتهى بهم الأمر إلى النيل من كرامة نبينا الصادق الأمين قائلين شتان بين من غلب على نفسه و بين من استرسل مع هواها فأرضاها ـ ولا يخفى بطلان هذه الدعوى فإنه لاتنافى بين الصلاح والزواج ، وقد تزوجت الرسل قبله وهم أولوا النفوس الزكية والهمم العلية بشهادة قوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » على أن تقليد السيد المسيح فى الرهبانية يفضى إلى خراب البيوت وفناء الأمم وانقراض النوع الإنسانى . ولا يخفى أن هذا ينافى مقتضيات الخلافة والعمران . وهادم لنظام الأكوان « من يهدى الله فما له من مضل ومن يضلل الله فما له من هاد » .

المحاضرة الرابعة

سر تعدد زوجات المصطفى

كثيراً ما يتساءل الناس : لماذا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع نسوة جمعاً ومنع الأمة من الزيادة على الأربع ؟ فإن قلتم : إن الله هو الذى عمل ذلك بنص الكتاب والسنة وهذه خصوصية للنبى صلوات الله وسلامه عليه . قلنا : نعم ولكن المخالف لايصدق الكتاب والسنة ، ويقول المخالف : إن منزلة النبوة

---

(١) راجع كتاب الابداع فى مبحث تقسيم البدعة إلى حقيقية وإضافية .

التي ادعاها محمد كان يجب أن تحول بينه و بين إكثاره من عدد الزوجات . فنقول له:
إن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لم يكن فيما فعله بدعا من الرسل فذانك داود وسليمان عليهما السلام قد تزوجا كثيراً من النساء وهما ذانك الرسولان اللذان لايسع عاقلا إنكار نبوتهما أو احتقار شريعتهما وما أتيا به من الصحف السماوية. ونذكر لك فى زوجات المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مالو تدبره عاقل منصف لرجع عن غيه واهتدى إلى الصواب فنقول :

اتفق أكثر المسلمين على أن للنبى صلى الله عليه وسلم من الخصائص ماليس لأمته، وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه كما تقدم ، وغير خاف أن هـذا لا يكفى لاقناع المخالف الذى نَدَّد بالنبى صلى الله عليه وسلم فنذكر لك من أسباب ذلك خلاصة عادلة من الكتب الصحيحة والتاريخ الصادق توافق الواقع ويرضاها العقل السليم .

فاعلم أن أول أزواج النبى صلوات الله وسلامه عليه خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان سنها أربعين سنة ، وكان صداقها عشرين بكرة من الإبل . ولم يتزوج عليها النبى صلى الله عليه وسلم حتى توفيت رضى الله عنها ، وكانت متزوجة قبله برجل اسمه (هند) وولدت منه ولدا اسمه (هالة) فكان ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وسبب زواجها به أنه لما قدم غلامها (ميسرة) إلى سيدته خديجة اللبيبة الحازمة وأخبرها بما شاهده من بركات النبى صلوات الله وسلامه عليه بعثت هي إليه فقالت له : يابن عمى إنى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وصدق حديثك — وكانت خديجة مرغوباً فيها لشرف نسبها ورفعة قدرها بين قومها — فعرض النبى صلوات الله وسلامه عليه الأمر على أعمامه فوافقوه على زواجه بها وتوجهوا معه إليها وأتموا عقد الزواج بينهما على ماهو معروف فى كتب السير .

وقد قضى النبى صلوات الله وسلامه عليه شبيبته وطائفة من كهولته ولا زوج له إلا خديجة . ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت معه

خمساً وعشرين سنة ، ولدت له فيها جميع أولاده سوى إبراهيم فلم يتزوج النبى قبل بعثته من شاء وهو فى أول عنفوان شبابه ، وقد كانت العرب يكثرون من الزوجات ، حتى إن منهم من كان تحته العشر والعشرون امرأة فى وقت واحد فلو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لاتخذ من الزوجات من شاء خصوصاً من الأبكار ، وهو فى أول شبابه واستكمال قواه ، لا شرع يحول بينه و بين بغيته ، ولا عادة تمنعه من قضاء مآر به وتمتعه بلذة الحياة — ولا سيما وقد كان رغوباً فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم الأخلاق وحميد الخصال والجمال الذى فاق به يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(الثانية) بعد أن ماتت خديجة رضى الله عنها تزوج النبى صلوات الله وسلامه عليه سودة بنت زَمعةَ العامرية القرشية بعد أن جاوزت الخامسة والخمسين ، وقد كانت من السابقين إلى الإيمان وهاجرت مع زوجها السكران بن عمرو الأنصارى إلى الحبشة فى المرة الثانية . مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة وقد كانت أسلمت قبل ذلك وخالفت قومها وأقاربها و بنى عمها ، فما أجمل ما فعله النبى صلوات الله وسلامه عليه من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما ضاع منها ، بل هو عين الحكمة ومنتهى الشفقة والحنان ، فقد مات عنها زوجها وأصبحت لا حامى لها ولا مدافع عنها سوى أقاربها الذين خالفت دينهم وأسلمت رغم أنوفهم ، فكان تزوج المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بها حماية لها أن تصل إليها يد الأذى ، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد بعلها ، ولولا ذلك لارتدت على أعقابها خاسرة لتوالى المحن وكثرة الفتن التى كانت تحيط بها كما يشهد بذلك التاريخ العادل .

(الثالثة عائشة رضى الله عنها) مات أبو طالب لشهر من موت خديجة رضى الله عنها و بموته فقد النبى صلوات الله وسلامه عليه رجلا كان يناضل عنه و يصد عنه هجمات الأعداء ما استطاع ، فبعد موته أخذ الأمر يشتد على النبى صلى الله عليه وسلم فرأى أن يجعل بينه و بين قريش رابطة قوية فعقد على السيدة عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنه ، وهى بكر صغيرة بين السادسة والسابعة من عمرها — ذلك ز

أباها الصديق رضى الله تعالى عنه كان صدرا وجيها معظما فى قريش ، وأسع المال عزيز الجانب . يرشدك إلى ذلك مبادرة النبى صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها مع أنها قاصر ، وأنه لم يدخل بها إلا وهى بنت تسع سنين ، فلم تكن بالعقد عليها محلا لقضاء شيء من المآرب الشهوية حتى يميل إليها نظر النبى صلوات الله وسلامه عليه أو غيره — ولكنه نظر الحكمة والسداد الذى أيد الله به رسوله الأكرم وحبيبه الأمين الأعظم .

(الرابعة حفصة) وهذا الاعتبار هو الذى دعاه إلى التزوج بحفصة بنت عمر ، ومكانة عمر فى العرب معروفة ، فلم يتزوج النبى من حفصة لحب أو لرغبة وإنما ليمكن أواصر هذه الجماعة الإسلامية ، ولأنه قد استشهد زوجها الأنصارى خنيث ابن حذافة فى واقعة بدر ، وحفصة كانت مواسية للجرحى فى الميدان . فكان ذلك الزواج مرضاة للشهيد وزوجته ووالدها أجمعين .

(الخامسة أم حبيبة) — ومن هذا القبيل تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب الأموى وتسمى « هنداً . أو رملة » وهى التى نبذت دين أمها هند وأبيها أبى سفيان فحل قريش . زعيم القوم وكبير العشيرة . أبى معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها تكنى ، فتنصر زوجها هناك وثبتت هى على الإسلام ثم مات زوجها هناك أيضا ، فكتب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى النجاشى ليزوجه إياها ، فأبلغها النجاشى ذلك فسر خاطرها سرورا لا يعرف مقداره إلا مولاها الذى يعلم السر وأخفى ، فأكرمها ولطف بها . والذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة . وكل من اطلع على التاريخ واهتدى منه إلى الصواب يعلم مقدار ما كان بين النبى صلوات الله وسلامه عليه وبين بنى أمية من العداوة ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان والد معاوية ألد بنى أمية عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فإنه لم يعتنق الدين الإسلامى إلا بعد أن فعل بالمسلمين كل ما قدر عليه من أنواع الإيذاء الشديد ،

فتزوج النبى صلوات الله وسلامه عليه أم حبيبة ليكون بينه و بين ألد أعدائه نسب ورابطة « تكون له فى الجملة » وسيلة إلى حملهم على تقليل الأذى عنه وعن المسلمين ، كما أنه اختارها لنفسه لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها حبا فيه وخوفا عليه ففى عدم حمايتها ووقايتها « وقد مات زوجها » تعريض إلى مقاساة الشدائد والأهوال . واختارها لنفسه أيضاً لشرفها فى قومها ، فلو أنها زوجت من غير كفء لا تخذ بنو أمية ذلك سبيلا إلى إثارة الفتن بين القبائل و إيقاد نار الحرب بأغراء قومهم وحلفائهم بالمسلمين على قلة عددهم وضعف عُدَدِهم — فما أجملها من هداية ، وما أكرمها من حكمة .

(السادسة جويرية) كانت الأسرى من النساء يتخذن إماء إما للبيع و إما للخدمة ، لا يسوى بينهن و بين الحرائر فى شىء ، وقلما فزن بنعمة العتق فأراد النبى صلوات الله وسلامه عليه أن يُعَلِّمَ المسلمين بالعمل بنفسه ما ينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وأن يصون سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بجويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق واسمها (بُرَة) فقد كانت من سبايا بنى المصطلق فتزوجها بعد أن أعتقها ليقتدى به المسلمون فأعتقوا من كان بأيديهم من نساء بنى المصطلق إكراماً لمصاهرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لهم . فأسلم بنو المصطلق جميعاً فكانت (جويرية) رضى الله عنها أيمن امرأة على قومها — فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما ، فوقعت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فى سهم ثابت بن قيس ، فجاءت إلى الرسول فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابنى من الأمر ما قد علمت ، وقد كاتبنى ثابت على تسع أواق فأعنى على فكاكى . فقال : أو خير من ذلك ؟ فقالت : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون ؟ فأعتقوا ما كان فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، فبلغ عتقه

« ثة بيت بتزوجه عليه الصلاة والسلام إياها » متفق عليه — فانظر إلى ما قصد الرسول من تزوجه بها فياله من صنيع ملىء رحمة وحكمة .

(السابعة صفية) ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفية بنت حي بن أخطب سيد بنى النضير ، ومن أشرف بيوت اليهود ، ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت ممن اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم . فعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : « لما دخلت صفية على النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله . فقالت : يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال لها رسول : اختارى فان اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى و إن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحق بقومك . فقالت : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ، حيث صرت إلى رحلك ومالى فى اليهودية أرَبٌ ومالى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إلى من العتق وأن أرجَع إلى قومى . قال : فأمسكها رسول الله لنفسه » رواه غير واحد . وقد رضيته بعلا مع أنه كان لها أن ترجع إلى أهلها بعد العتق .

(الثامنة أم سلمة) المسماة (هندا) زوج أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة النبى صلى الله عليه وسلم وهى (برَّة) بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع مات أبو سلمة ومعها أربع بنات : بُرَّة وسلَمة وعَمْرةَ ودُرَّة . فآواها النبى صلوات الله وسلامه وعليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت : إنى امرأة مسنة ، و إنى أم أيتام ، و إنى شديدة الغيرة ، فأجابها على لسان رسوله يقول : الأيتام أضمهم إلى ، وأدعو الله أن يُذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن بل كانت تلك المزهدات والعقبات من أقوى الدواعى للاسراع فى طلبها وعطفا عليها ورحمة ببناتها وصلة لرحمها ، ووفاء بحق أخيه من الرضاع ، و إيواء لصغاره من بعده — ولا ريب أن هذا الصنيع عين الحكمة ونهاية الكرم .

(التاسعة زينب ابنة جحش) ومما حوى من الحكم أعلاه ومن المصالح أغلاه تزوجهُ صلوات الله وسلامه عليه بزينب ابنة جحش امرأة مولاه زيد بن حارثة الذى

تبناه صلى الله عليه وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد — ذلك أن زينب كانت بنت عمة النبي أميمة بنت عبد المطلب ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر ، حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها و إباء أخيها عبد الله بن جحش ، وعدّ هذا عصيانا ولا زالت كذلك حتى نزل فى شأنها آية « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » فكأنه أرغمها على زواجه بما ألهه الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك — ولو كان للجمال سلطان على قلبه لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر فى روائه وجدته مع نقاء رحمها وطيب فمها ، وقد كان يراها ولم يكن بينه و بينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه ، فكيف يمتد نظره إليها و يصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحريّة — لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصاً إذا كان معاشراً له من صغره بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا فكيف يظن أو يتوهم أن النبي صلوات الله وسلامه عليه الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه وخاطبه بقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك ، أم كيف يخطر بالبال أن من عصمه الله ظاهراً و باطناً وحفظ قلبه من كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ، ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو الرءوف الرحيم لم يبال بإباء زينب ونفوزها من زيد وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة ، فما كان يصح له وهو سيد المصلحين أن يكره امرأة على التزوج برجل وهى لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبي صلوات الله وسلامه عليه يجد من نفسه ن هذا التزوج مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهى فيه رحمة للأمة ، وذلك أن

التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعده أصلا يرجع إليه بالشرف والحسب فكانوا يعطون الدّعىّ جميع حقوق الابن ويُجْرون عليه وله جميع الأحكام التى يعتبرونها للابن حتى فى الميراث وحرمة النسب ، وهى عادة جاهلية رديئة ، أراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب إلا الحق الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح ، لهذا أنزل الله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .
ثم قال : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » فهذا هو العدل الالهى ألا ينال حق الابن إلا من يكون إبنا . أما المتبنى فلا يكون له إلا حق المولى والأخ فى الدين . فحرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ لمن تبناه وأن يجعلوا له شيئاً من حقوق الابن ، وشدد الأمر حتى قال : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » فهو يعفو عن الكلمة تصدر من غير قصد كأن يقول الرجل لآخر : هذا ابنى لا عن قصد التبنى ، ولكنه لا يعفو عن الذى يقصد منه الالصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفا من قبل ، وكان من عادة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يبادر فى كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تتأسى به النفوس وتقتدى به الأمم ، وحتى يمحى أثر تلك العادة السخيفة التى كانت شر وبال على أهلها ، من ذلك مسألة الحلق فى الحديبية وكيف خالفه جميع الصحابة حتى حلق فاقتدوا به .
وعلى هذه السنة كان تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزينب إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه لتسقط تلك العادة السيئة كما ألغى حكمها بالقول الفصل — لهذا أرغم النبى صلوات الله وسلامه عليه — زينب أن تتزوج بزيد وهو مولاه ومتبناه . وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يذهب إباؤها الأول وجفوتها له ولم تحسن أخلاقها معه بل شمخت بأنفها خيلاء وكبرا إذ كانت من صميم قريش وهو مولاهم ، وصارت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه أصلا وأصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه . فاشتكى منها إلى النبى المرة بعد المرة

وهو عليه الصلاة والسلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتمهل ويتأنى فى تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد : « أمسك عليك زوجك واتق الله) .

ولامه الله على ما كتم فى نفسه من أمر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال تعالى « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » فكان عليك أن تبادر بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه ، إلا أن زيداً لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة المرذولة ويكسر ذلك الباب الذى كان مغلقا دون مخالفتها كما قال « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا فى أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كن من قبل زوجات لأدعيائهم ، وأكد ذلك بالتصريح فى نفس الشبهة بقوله « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما » وقد قالت العرب إذ ذاك : تزوج محمد حليلة ابنه . وأما قولهم إن النبى صلوات الله وسلامه عليه رأى زينب بعد أن تزوجت بزيد فوقع منها فى قلبه شىء ، فقال : سبحان مقلب القلوب فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع فى قلبه أن يطلقها . إلى آخر ما حكوه : فقد قال الإمام أبو بكر بن العربى : إنه باطل لا يصح النظر إليه فإنه كان معها فى كل وقت وموضع ولم يكن هناك حجاب يمنعها منه فكيف تنشأ معه وينشأ معها وينظرها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد الهوى بعد العدم ؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال تعالى « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا فى المطلقات فكيف فى المنكوحات المحبوسات ا هـ باختصار .

(العاشرة) — و تزوج صلوات الله وسلامه عليه وهو بمكة لعمرة القضاء ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ولا يخفى ما فى ذلك من البر وحسن الصلة . وقصارى القول هكذا كانت سنة النبى صلوات الله وسلامه عليه فى جميع تزوجاته فلم يكن صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أملك لشهوته منه وقت كان فتياً لم يكلف بشىء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا أن الله تعالى جمله سيد الصابرين أولى العزم وأن زواجه بهن لم يكن عن شهوة ، بل كان ذلك مواساة لهن وحفظاً لشرفهن وشرف أزواجهن الذين تركوهن وهم صرعى فى ميادين الجهاد — و كيف يظن عاقل أنه صلوات الله وسلامه عليه — وقد بلغ من السمو والعلو الغاية — يتزوج مثل سودة بنت زمعة التى تفوقه سناً إلا ليحفظ للمجاهدين والمجاهدات فضلهم و فضلهن ، فليت شعرى أىّ شهوة وأىّ غرام وإنما هو الكمال والأباء والشرف وحسن الخلق والمكافأة بحسن الصنيع .

هذا كله على فرض أن النبى صلوات الله وسلامه عليه تزوج هؤلاء السيدات وهن سودة بنت زمعة . عائشة . أم حبيبة . حفصة . جويرية . صفية . أم سلمة . زينب . ميمونة : بعد تحريم مازاد على الأربع بقوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث و رباع » أما إذا كان قبل ذلك كما قال بعض المحققين فلا حاجة بنا إلى التماس شىء من تلك الأسباب . على أن ميمونة بنت الحارث الهلالية كانت آخر من تزوج النبى صلوات الله وسلامه عليه و كان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد .

ولك أن تقول إن الله تعالى بعد ذلك كله حرم عليه أن يتزوج غيرهن ، وأن يستبدل بهن أزواجا فكان للمسلم بكل من الأربع غيرها بحيث يطلقها و يتزوج غيرها والرسول محرم عليه ذلك . قال الله تعالى « لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك وكان الله على كل شىء

رقيبا » أى لايجوز لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له زواج أخر ولا أن تبدل بهن من أزواج فتطلق واحدة وتتزوج أخرى مكانها — وقال بن عباس : إن النبي لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر لهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن — فتبين من هذا أن القانون قد عامله بالشدة فجعل لهن أن يأمنَ الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقاً ولا استبدالا فكثرة العدد تقابل الحصر والمنع — وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالا وطلاقا فلئن ضيق عليهم فى الكم فقد ضيق عليه فى الكيف . ولئن وسع عليه فى الكم فقد وسع عليهم فى الكيف فالمساواة متعادلة ضيقاً وسعة — والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

المحاضرة الخامسة

الحث على الوفاء والتنفير من الأخلاف

الوفاء والإيفاء الأتيان بالشيء وافياً تاما غير منقوص ، ومنه قوله تعالى « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » وقوله تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ويقال لمن لم يوف الكيل والميزان : أخسر الكيل والميزان . ولم يف بالعهد : غدر ونقض . فلكل كلمة موضع يليق بها — والعهد الذى أمرنا بالوفاء به عبارة عما يلتزم به الإنسان لغيره وهو بعمومه يتناول ما عاهد الله عليه العبدُ بمقتضى الأيمان من السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به الدين الحنيف من الأوامر والنواهى ويتناول أيضاً كل مايلتزمه العبد باختياره فيما بينه و بين العباد فى عقود المعاوضات من الشرائط ، وكذا الوعود العامة بين الأفراد ، وأنواع المحالفات التى تبرم بين الأمم والشعوب ، وإجمالا هو كل مايعهد إليه لأجل احترامه والمحافظة عليه ويطلب منه القيام به ، ويراد به فى الغالب مايعاهد الناس بعضهم عليه — وعهد الله كل ما عهد إلى عباده رعايته وحفظه والقيام به والتلبس به من جميع التكاليف

الشرعية ، اعتقادات ، وعبادات ، و معاملات وأخلاق فاضلة ، فهو مرادف لمطلق العهد — والعقد فى الأصل ضد الحل وهو الجمع بين أطراف الشئ و ربط بعضها ببعض — ويستعمل فى الأجسام كعقد الحبل وعقد البناء ، ثم يستعار للمعانى كعقد البيع والعهد وغيرهما ، ومنه عقدة النكاح — و يقال عقد اليمين وعقد النكاح أبرمه، وعقد البيع أو الشركة مع فلان — ويقال عاقدته وعاهدته ، وتعاقدنا وتعاهدنا أبرمنا ذلك وأمضيناه فهو على هذا مرادف للعهد ، و بعضهم يفرق بينهما بأن فى العقد معنى الاستيثاق والشد ولا يكون إلا بين اثنين — وأما العهد فقد ينفرد به الواحد ، والوعد فى الأصل الخبر بالخير فى المستقبل . وشاع استعماله فى العهد —

فضله وأثره فى الأفراد والأمم — ثم إن الوفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض وألزم الواجبات التى فرضها العليم الخبير حفظاً لنظام المعيشة و بقاء للعمران بدوام الثقة ورواج الصناعات والتجارات ، وتبادل المنافع الحيوية التى لاغنى عنها بين الأفراد والأمم ، و إن الغدر والأخلاف لمن الذنوب الهادمة للنظام المقوضة لدعائم العمران ، القاتلة للأمم والشعوب ، ومافقدت أمة الوفاء بالعهد الذى هو ركن الأمانة ، وقوام الصدق فى المعاملات إلا وحل بها من أنواع العقاب الإلهى ما تستحق : ولا يعجل الله الانتقام من الأمم لسيئة من السيئات تفشو فيها مثل سيئة الأخلال بالعهد ، والأخلاف بالوعد ، الذى هو شر أنواع الكذب ، وأخش ضروب الخيانة .

أنظر حال أمة استهانت بالإيفاء بالعهود ولم تبال بالتزام العقود ، تر كيف حل بها عذاب الله بالأذلال والاهانة ، وفقد الاستقلال وضياع الثقة بينها حتى فى الأهل والعيال ، فهم يعيشون عيشة الأفراد متفرقين ضعفاء ، لاعيشة الأمم مجتمعين أقوياء ، وحوش مفترسة فى صورة بنى الانسان ، كل يخاف الآخر أن يغتاله ، ويأكل ماله ، ولذا يضطر كل واحد منهم إذا تعاقد مع أى إنسان من أمته أن يستوثق منه بكل ما يقدر عليه ، ويحترس من غدره بكل ما أمكن ، حتى قل فيهم التحابُ والتعاضد والتعاون ، والتناصر والتآزر فى المشاريع النافعة التى تعود عليهم

بالنفع العميم، والخير العظيم، بل استبدلوا بهذه الفضائل السامية أضدادها الوضيعة كالتحاسد والتباغض، والتخاذل والتخاصم، بأسهم بينهم شديد، ولكنهم أذلاء كالعبيد، ولو كان فى الناس وفاء لسلموا من كل هذه البلايا والمصائب وكانوا أسعد الناس وأرقى الأمم.

من أجل هذا جاء الحث عليه فى الكتاب والسنة فقال تعالى ترغيباً فى التحلى بفضيلة الوفاء، وتنفيراً من الأخلاف « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال جل شأنه « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم اللهَ عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » وقال جل ثناؤه « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » فأوجب على المؤمن أن يحترم الوفاء بما تعاقد عليه مع غيره وارتبط به، وقال جل ذكره فى صفات البررة الكاملين « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وهم الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا وعدوا أنجزوا وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة إلى أهلها، وإذا نذروا وفوا، وإذا حلفوا لم يحنثوا، وإذا تعاقدوا لم يغدروا. ومما جاء فى التنفير من خلف الوعد ونقض العهد قول العليم الحكيم « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » والمقت أشد البغض. وهذا يتناول نقض العهد كما يتناول الكذب فى القول. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال: « آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان » متفق عليه. فجعل خلف الوعد من أمارات النفاق العملى وهو التظاهر بالتدين مع تركه باطناً — وهذا إذا وعد غيره وفى نيته عدم الوفاء، أما إذا كان حال الوعد عازماً على الوفاء ولكن عرض له مانع منه أو بدا له رأى فلا يذم، فقد روى الطبرانى أنه صلوات الله وسلامه عليه قال: « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف » . لأنه حينئذ يظهر خلاف مايبطن وهذا كذب وغش وخيانة.

وحسبنا أن الله جل ثناؤه أثنى على إسماعيل عليه السلام بقوله « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » قدم صدق الوعد على

الرسالة والنبوة لأنه لا يمكن أن ينال الرسالة والنبوة من لم يتحل بهذه الصفة الجليلة — صدق الوعد — فهى كالمقدمة لهما ، فقد وعد إسماعيل أباه الخليل عليهما السلام أن يصبر على الذبح فوفى بوعده — ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى فى الوفاء . روى « أنه وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى و بقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحى بيدى . فذكر الرسول وعده لأبى الهيثم فجعل يقول : كيف بوعدى لأبى الهيثم ؟ فآثره بالخادم على ابنته فاطمة وفاء للوعد مع شدة حاجتها إليه إذ كانت تدير الرحى بيدها الكريمة » — وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع فى قبضته الهرمزان فأمر بقتله ، فطلب إليه شربة ماء فأتى له بها فطلب الأمان حتى يشرب ، فلما : أعطاه أمير المؤمنين الأمان أراق الماء على الأرض وامتنع عن الشرب وقال : الوفاء نور أبلج . فلم يسع عمر رضى الله عنه إلا أن يخلى سبيله . و بعد ذلك أسلم الهرمزان فقال له عمر : ويحك أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامى كان جزعا — والأنصار رضى الله عنهم مثل أعلى فى الوفاء أيضاً ، فقد بايعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على نصرته ، فلم ينكثوا وضحوا بأموالهم وأرواحهم فى سبيل نصرته — قال زيد بن ثابت : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال : إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له : كيف تجدك ؟ قال : فأتيته وهو فى آخر رمق و به سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم . فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ قال : إنى فى الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام وقل : إن سعد بن الربيع يقول جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل إنى أجد ريح الجنة ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله تعالى إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه وفيكم عين تطرف . ثم لم يبرح أن مات ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره »

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أعرابياً نصيبه وقال : قسمته لك . فقال ما على هذا اتبعتك ولـكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار إلى حلقه — فأموتَ وأدخل الجنة . ثم أتى بالرجل قد أصابه سهم حيث أشار وكفن فى جبة النبى صلى الله عليه وسلم فصلى عليه » — رواه البخارى ومسلم .

والوفاء فى ذاته معقول الفائدة وحسن لدى العقول السليمة ، لذا كانت العرب فى الجاهلية يقدرونه قدره ويرفعون من شأن من اشتهر به . حتى كانوا يضربون بهم الأمثال ويلهجون بذكرهم فى الأندية والمجتمعات ، ويترنمون بمدحهم وحسن الثناء عليهم ، وينقادون لأوامر الأوفياء انقياء العبيد للسادة . وممن اشتهر بينهم بالوفاء السموءل بن عادياء . وكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج إلى قيصر الرومان استودع السموءل دروعا له . فلما مات امرؤ القيس طلبها منه ملك من ملوك الشام وهو الحارث بن المنذر فأبى ، فغزاه من أجلها فتحرز منه السموءل فأخذ ذلك الملك ابنا له خارج الحصن وصاح قائلا : يا سموءل هذا ابنك فى يدى وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمى وأنا أحق بميراثه ، فإن دفعت إلى الدروعَ وإلا ذبحت ابنك . فقال السموءل : أجلنى . فأجله فجمع أهل بيته وشاورهم فى الأمر فـكل أشاروا بدفع الدروع إليه وأن يستنقذ ابنه ، فلما أصبح أشرف عليه وقال : ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنتْ صانع . فذبح ابنه وهو ينظر إليه — وكان يهوديا — وانصرف الملك ووافى السموءل الموسم بالدروع فدفعها إلى ورثة امرىء القيس — فانظر كيف فرط وتهاون فى فلذة كبده ومهجة قلبه وتركه لذلك الملك الجائر القاسى حتى فجعه فيه وذبحه أمامه ، ولم يفرط فى تلك الدروع — فلا غرابة إذا طار صيته فى الآفاق ، ولا عجب إذا كانوا يضربون به المثل فيقولون — أوفى من السموءل بن عادياء —

ومنهم الطائى صاحب النعمان بن المنذر وكان من وفائه أن النعمان ركب فى يوم بؤسه — وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم ، لم يلقه أحد فى يوم بؤسه إلا قتله وأرداه ، ولا فى يوم نعيمه إلا استبقى حياته وحباه وأعطاه — فلقيه يوم بؤسه

أعرابى من طىء فقال : حيا الله الملك إن لى صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً ، وقد تركتهم على شفا تلف من الجوع ، وقد خرجت مبكراً فى طلب صيد لهم ، ففتح الله على بهذا الأرنب آخر اليوم ، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى إتيانهم وله على عهد الله أن أرجع إليه إذا أطعمتهم وأوصيت بهم حتى أضع يدى فى يده . فرق له النعمان وقال له : لا إلا أن يضمنك رجل ممن معنا ، فان لم تأت قتلناه بدلا منك .وكان مع النعمان شُرَيك بن عمر و بن شراحيل ، فنظر إليه الطائى وقال له : ياشريك بن عمرو وهل من الموت محالة . يا أخا كل مضاف . يا أخا من لا أخا له ، يا أخا النعمان . فك اليوم عن شيخ غلاله . ابن شيبان قبيل أصلح الله فعاله . فقال شريك : هو على أصلح الله الملك ، فمضى الطائى وأجل له أجلا يأتى فيه ، فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شُريكا وجعل يقول له إن صدر النهار قد ولى ، وشريك يقول : ليس لك على سبيل حتى تمسى . فلما جاء المساء ظهر شبح من بعد والنعمان ينظر إلى شريك فقال شريك : ليس لك على سبيل حتى يدنوا ذلك الشخص فعله صاحبى ، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائى فقال النعمان للطائى . أما أنت ياأعرابى لم تدع لأحد فى الوفاء سبيلا ، وأما أنت ياشريك فلم تترك لأحد فى الجود سبيلا — وفى رواية : والله ما رأيت أكرم منكما وما أدرى أيكما أكرم . أهذا الذى ضمنك وهو الموت ؟ أم أنت وقد رجعت إلى القتل ؟ والله لا أكون أنا الأم الثلاثة . ثم أطلقه وأمر برفع يوم بؤسه وأنشد الطائى :

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى فأبيتُ عند تجهُّم الأقوال
إنى امرؤ منى الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال

قال النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف مهجتك ؟ قال : دينى .

وقال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب لما أيقن بزوال ملكه : قد احتجتُ إلى أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى وإلا لم تعجز عن نفع حرمى بعد مماتى . فقال عبد الحميد : إن الذى أمرت به أنفع

الأشياء لك ، وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فهذا من حسن الوفاء وصدق الايمـان ، فإن عبد الحميد قد أبت عليه مروءته ومنعه أدبه أن يتظاهر بالغدر لأميره حتى لا يوصم بعار الغدر ، وإن كان فى ذلك وفاء لمولاه ، ولـكنه رآه وفاء لا يصل إليه إلا من طريق الغـدر المشين ، فأباه وعاهد أميره على أن يظل معه حتى يأتى الفرج أو يموت معه — فما أحسن هذا الأباء ، وما أجمل هذا الأدب والوفاء .

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد أن صالحه وكتب له بذلك كتابا وأشهد عليه قال لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر : ما رأيك فى الذى كان منى؟ قال : أمر قد فات دركه . قال : لتقولن . قال حزم لو قتلته وحييت : قال أو لست بحى ؟ قال ليس بحى من وقف نفسه موقفاً لا يوثق له فيه بعهد ولا بعقد . قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت وهذا أيضاً مثل أعلى فى الوفاء — وفيه ثلاثة أمور (الأول) أن المستشار كان شجاعاً فى الحق ؛ مخلصاً للخليفة ، فقد جهر بالحق ولم يكتمه . (الثانى) أن الذى لا يوثق له بعهد ولا بعقد ميت ، وإن كان حياً ، لأن الحيـاة الصحيحة حياة النفس حياة الضمير لا حياة الجسم ، وناكث العهد لا ضمير له (الثالث) أن الخليفة خضع لسلطان الحق حين ظهر له ، وندم على ما كان منه ، ولم ير النصح مراً على نفسه والفضل فى ذلك كله يرجع إلى الدين الحنيف وسلطانه على نفوس الأمراء والفضلاء ولن تقوم للأمم الإسلامية قائمة إلا إذا رجعت إلى الدين ، وتمسكت به وعملت بأحكامه وتحلت بآدابه . اللهم وفق الأمة إلى طريق الهدى والرشد يارحمن يارحيم .

المحاضرة السادسة

إعداد النشء ليكونوا رجالا

الحمد لله خلقنا وسوانا ، وعلى موائد بره وكرمه ربانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى عليه بقوله جل ثناؤه : « وإنك

لعلى خلق عظيم » وعلى آله وصحبه الذين صلحت قلوبهم وتهذبت أخلاقهم فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وكانوا هم الفائزين الغالبين .

(وبعد) فإنا سنتحدث إليكم فى موضوع له شأنه وخطره فى حياتنا الاجتماعية ألا وهو « إعداد النشء ليكونوا رجالا كاملين ناهضين » فنقول : مقدمات :

١ — لاريب فى أن الإنسان مجبول على حب البقاء ، بل البقاء أحب شىء إليه ، وأشهى شىء لديه ، ولـكنه يعلم أنه لا محالة هالك ، وأنه لابد لوجوده من نهاية . من أجل هذا اقتضت إرادة الله عزت قدرته وجلت حكمته ، أن يجعل له فى نسله بعض العوض عن ذلك ، فإنه يرى بقاءه مستمراً فى نسله ، وذكراه لم تنقطع بذريته ، فلا يندم على جهاده فى معترك الحياة ، ولايأسف على مفارقة ماجمعه من مال وعقار ، لعلمه أنه تركه لخلفه الذى هو جزء منه ، فكأنه هو الذى يستمتع به ، وكأنه باق لم يلحقه فناء ، وهذا كله مسلم لدى جميع العقلاء ، فالـكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاء لذكراه ، ويوقن أنه خليفته فى هذه الحياة .

٢ — كل إنسان يشعر بالحاجة إلى معين مخلص ، ومساعد أمين يحمل عنه بعضاً من متاعب الحياة ، ويكون عُدته عنـد النوائب ، ورداً له فى الشدائد ، ولا أحد أجدر من الولد بثقة الوالدين فى هذا المعنى . لهذا كان حب الذرية غريزة قوية فى الإنسان « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » .

٣ — محبة الذرية كغيرها من المشتهيات تارة تكون ممدوحة ، وتارة تكون مذمومة . والأشياء بمآلها وآثارها ، فالممدوحة ما تؤول إلى الخير ، وتفضى إلى نفع المجتمع وبناء العمران ، ولهذا رغّب صلوات الله وسلامه عليه فى نكاح الولود ، وحذّر من زواج العقيم ، روى أبو داود وغيره من حديث معقل بن بشار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : يارسول الله إنى أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال ، إلا أنها لاتلد أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : تزوجوا الولود الودود فإنىّ مكاثر بكم الأمم »

والمذمومة ما تؤول إلى الشر ، وتفضى إلى ضرر الاجتماع وفساد العمران : بارتكاب المظالم ؛ وتعدى الحدود ، وانتهاك الحرمات لأجلهم ، ومن سوء تربيتهم .

هذا وإن تربية النشء تربية حسنة حكيمة من أهم الفرائض ، وألزم الواجبات التى لا يصح أصلا التهاون فيها ، لشدة خطرها ، وعظم مسئوليتها ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » . أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وغيرهم من حديث على رضى الله عنه فى معنى الآية قال : « علموا أنفسكم ، وأهليكم الخير ، وأدبوهم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصىَ الله ، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار » . وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم » فهذا الحديث الشريف أوجب على الآباء مراقبة الأولاد مراقبة دقيقة ، وتأديبهم أحسن الأدب . فعلى الأبوين أن يقوما بهذه المراقبة داخل البيت وخارجه : يحببان إليه النافع من الأعمال ، والطيبَ من الأخلاق ، وينفرانه من الضار منهما بقدر ما يسعه إدراكه . وروى البيهقى عن أبى رافع « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وأن لا يرزقه إلا طيبا » والصبى أمانة فى عنق والديه يُسألان عنها فى عرصات القيامة ، وقلبه الطاهر جوهرة نقية خالية من كل نقش وصورة ، فهو قابل لكل ما ينقش فيه ويغرس ، قبول العجينة فى يد الخباز ، ومستعد للتوجه به إلى أى جهة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ، ويمجسانه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . ومعناه أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها ، وإنما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد بحكم البيئة — ثم تمثل بأولاد اليهود وغيرهم فى اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم انحرافاً عن مقتضى الفطرة السليمة — فإن عود الخير

(٢٢)

وعلمه نشأ عليه ، وكان سعيداً فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك فى نفسه ، وكان شقاء وبلاء على أمته ، وكان الوزر فى رقبة ولى أمره والقيم عليه .

وأول ما تجب العناية به من أمر الطفل أن يختار له حاضنة مهذبة ومرضعاً صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لاخير فيه ولا بركة ، فإذا نشأ منه الطفل انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى الخبائث ، وهذا سر تحريم لحوم السباع والوحوش من الطير والبهائم ، فإذا فصل من الرضاع لوحظ فى تربيته ما يأتى (١) من واجب الوالدين أن يعوِّدَا الطفل على القليل من الغذاء . ويحولا بينه و بين تناول كل ما يميل إليه من ألوان الأطعمة ، فإن أول ما يغلب على الصبى شهوة الطعام والشره فى الأكل وذا مضرٌّ به . (٢) أن يمنعاه من النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل . (٣) يمنعانه من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بطريق الحيلة ، بل يُعلِّم أن الرفعة فى الإعطاء ، والدناءة فى الأخذ إن كان الأخذ من أولاد الأغنياء ، وإلا فهو لؤم وخسة . كما يمنع من الحلف رأساً صادقاً أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك من الصغر . (٤) يعلمانه آداب المجالس وإذا ظهر منه فعل حميد أو خلق جميل كالصدق والعفة والشجاعة مدح به وجوزى عليه بما يشجعه على المثابرة عليه ، وإن ظهر منه فعل ذميم أو خلق قبيح كالكذب والخيانة والجبن ، ذمه أمامه ، وأنّبه عليه (٥) عندما يبلغ حد التمييز يحولان بينه وبين مخالطة الأشرار وفاسدى الأخلاق وغشيان الملاهى وأماكن الخلاعة والفسوق ، ويحببان إليه الاشتغال بما يفيده وينفعه فى دينه ودنياه . من صناعة أو تجارة أو زراعة ، مع تعويده على القيام بالفرائض الدينية بعد تعليمه واجباتها وآدابها[1] (٦) أن يترك له فرصة للرياضة حتى لا يسأم العمل وأن يتغاضى عما فرط منه من الهنات الهينة التى لا تؤدى إلى فساد نفسه وخلقه إذا فعلها خفية

---

(١) فقد روى الترمذى من حديث عمر وابن شعيب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

وكان يخجل من إظهارها ، و إلا وجب تأنيبه عليها كى لا ينشأ على الوقاحة ، وعدم المبالاة بارتكاب المخازى . (٧) أن يضرب له الأمثال بالأولاد العاملين المجدين ، والشجعان المهذبين وما وصلوا إليه من رقى وسعادة بفضل جدهم واستقامتهم ، و بالأولاد المهملين الكسالى ، والجبناء الأشرار ، مبيناً له سبب تأخرهم وشقائهم . (٨) اجتناب الضرب والتهديد ، فقد ينتجان عكس المطلوب . ويتركان أثراً سيئاً فى نفس الولد ، فضلا عما يحدثان فيها من الجبن والكذب ، والخيالات الفاسدة . نعم ! إذا رأى المربى أنه لا يفيد فى الغلام إلا الزجر ولا يصلحه إلا التخويف فلا بأس به لكن بقدر الحاجة من غير إفراط . وعلى الجملة فالمربى كالطبيب الحاذق الذى يعرف العلة و يصف لها ما يناسبها من الدواء . ولكنْ لابد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية ؛ التى يفيدها الحديث الآتى على أى حال . (٩) مما يجب التنبه له قيام الأبوين بتنفيذ الخطة التى رسماها للولد عملياً بملازمتهم له ملازمة تامة فى تنفيذها كما يشير إليه هذا الحديث الشريف : « الزموا أولادكم » . فلا يكفى مجرد الترغيب والترهيب بالقول وضرب الأمثال . (١٠) إذا بلغ الصبى جد الشهوة اشتدت المراقبة حرصاً على سلامة دينه وصحته وعقله ، ومحافظة على أخلاقه وحياته ومستقبله . وأهم ما تعالج به هذه الحالة هو شغله بعمل من أعمال الحياة ، وصرفه عن كل مايثير الشهوة و يبعثها من مرقدها ، فإذا درج على ذلك وتعود سهل عليه قطع هذه المرحلة آمناً على نفسه ودينه وصحته ومستقبله ، والقول الجامع لكل ما ذكرنا قوله جل ثناؤه : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » . أى ناراً شديدة تتوقد بالناس و بالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب .

نعم احفظوا أنفسكم منها بأعمالكم الطيبة ، واحفظوا أزواجكم وأولادكم من شرها بوصيتكم و إرشادكم ، و إذا كان الأب يصون ولده من نار الدنيا ؛ فلأن يصونه عن نار الآخرة أحق وأولى بأن يؤدبه ويهذبه ، و يعلمه محاسن الأخلاق وجلائل الأعمال ، و يحفظه من القرناء السوء .

ومن حق الولد على أبيه أن يحسن أدبه على ما وصفنا ، ويحسن اسمه ويختار أمه ، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه فأحضر الابن وأنبه على عقوقه لأبيه ، فقال هذا الإبن : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال بلى ، قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن ينتقى أمه ، ويحسِّن اسمه ، ويعلمه الكتاب (القرآن) . فقال يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئاً من ذلك أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جُعَلا [جعرانا] ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً . فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له أجئت إلى تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك ؟ (أى الشر بالشر والبادى أظلم) . وتلك عاقبة من فرط فى الحقوق والواجبات ، ورحم الله والداً أعان ولده على بره بتوفيته ما له عليه من الحقوق ولم يحمله على العقوق بسوء صنيعه ، لأن الوالد إذا كان عادياً جافياً جر الولد إلى العقوق . وقد قيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعاً ، وخادمك سبعاً ، ثم هو عدوك أو شريكك ؛ وقريب من هذا قول بعض الحكماء : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه . وقال يزيد بن معاوية رضى الله عنه : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك . فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت على وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد فلما خرج الأحنف ، رضى عن يزيد ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ، ومئتى ثوب . فأرسل إلى الأحنف نصف ذلك ، مائة ألف درهم ومائة ثوب .

هذا . والسعيد من كان أنسه بالله لا بالولد : لما خرج موسى فاراً من فرعون وقومه انتهى إلى مدين على الحال التى ذكر الله تعالى ، وهو وحيد غريب خائف

جائع ، قال يا رب : وحيد مريض غريب ! فقيل له : يا موسى الوحيد من ليس له مثلى أنيس ، والمريض من ليس له مثلى طبيب ، والغريب من ليس بينى و بينه معاملة ، نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بهدايته ، وأن يستعمل جوارحنا فيما يرضيه ، إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب .

المحاضرة السابعة

الاستقامة وأثرها فى صلاح الفرد والمجتمع

قال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى وسلم على رسول الله :

الاستقامة جميلة المبنى ، جليلة المعنى ، قليلة العبارة ، كثيرة الإشارة ، من تحلى بها فهو السعيد الموفق ، ومن تخلى عنها فذلك الشقى المخذول المحروم . من عرف بها عظمت بين الناس حرمته ، وعلت فيهم درجته ، وحسنت سيرته ، ووجبت محبته ودامت بينهم مودته ، وتبوأ من قلوبهم منزلة يغبط عليها ، وربح من نفوسهم مكانة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل فى كل أمة ، وكان مقبولا لدى الله والناس أجمعين « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن خلا منها وتجرد من ثيابها ضل سعيه وخاب جده .

« ماهى الاستقامة » الاستقامة فى وضعها ضد الاعوجاج والاستواء فى جهة الانتصاب . يقال استقام العود أو العمود إذا اعتدل . أما فى العرف فلكل قوم فيها ذوق خاص كلٌّ قال فيها بقدر استعداده وبحسب ماحباه الكريم منها من حظ على قدر جده وسعيه « وكل ميسر لما خلق له » .

قال بعض العارفين : الاستقامة توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات ، و يقين بلا تردد ، وتفويض بلا تدبير . وهذا امم الحق مقام عزيز لايحكمه إلا من تصفى كالذهب الأبريز — وقال آخر : الاستقامة اتباع الحق والقيام

الاعتدل ، ولزوم المنهج القويم وهذا أيضاً خطب جسيم ، ومقام عظيم لايكون إلا لمن أشرق قلبه بالأنوار القدسية ، وطهرت نفسه من الأدران البشرية والظلمات الطبيعية وأيده الله تعالى بروح من عنده — وقليل ماهم — وقال ثالث : الاستقامة كمقام الشكر وهو صرف العبد فى كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الوجه الأقوم والطريق الأكمل — وهى على هذا المشرب عزيزة المنال لايطيقها إلا الأكابر الواصلون . والسابقون السابقون أولئك المقربون .

ومن أجل ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى . « فاستقم كما أمرت » مانزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية – ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه حين قالوا له : قد أسرع إليك الشيب يارسول الله : « شيبتنى هود وأخواتها » وهى الواقعة والحاقة . وسأل سائل وعم يتساءلون و إذا الشمس كورت والقارعة . روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : ولعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتمالهن مع قصرهن على حكاية أحوال الآخرة وأهوالها وفظائعها و بيان أحوال الهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمره مولاه ، لأن قوله تعالى له : « كما أمرت » يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيه فاذا سمع « كما أمرت » علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه .

والقول الجامع لهذه الأقوال كلها أن الاستقامة هى المتابعة للطريقة المحمدية مع التخلق بالأخلاق المرضية . لاسير مع الهوى والابتداع فان السير مع الهوى يُعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة ولايفرق بين الخير والشر بل ينكسه ويعكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة والضلالة هداية والهداية ضلالة « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين » .

مدارج الاستقامة

لها ثلاث مدارج أولها التقويم ثم الاقامة ثم الاستقامة . فالتقويم يكون من حيث تأديب النفس باصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيم على عمل البر والطاعة . والإقامة تكون من جهة تهذيب النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة ، كالحقد والحسد ، والكبر والعجب والنفاق والرياء . والاستقامة تكون من حيث تقريب الأسرار الإلهية والأنوار القدسية من القلوب ، وذلك بأن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف من غير تكلف تقويم ولا إقامة . فالأول تمحيص والثانى تحقيق والثالث توفيق .

علامة المستقيم فى الناس

أن يكون مثل الجبل لايذيبه الحر ولا يضره البرد ، ولا يحركه الريح ، ولا يذهب به السيل العظيم . كذلك المستقيم فى الناس لايؤثر فيه مر المصائب ولا يحوله عن ثباته صدمة البلايا ، — وهذا الوصف الأول — والثانى إذا أساء إليه إنسان ببارد القول وقارص الشتم لايتشوش منه بل يتجاوز عنه و يعده عدما ويهمله ، بل يقابل الإساءة بالإحسان « وإذا مروا باللغو مروا كراما » والثالث : هو نفسه الأمارة بالسوء لا يحوله عن أوامر سيده وطاعة مولاه والرابع : أن متاع الدنيا وسيل زخارفها لايشغله عن ربه ولا يلهيه عن طاعته . وصفو الكلام أن علامة المستقيم الصبر فى الشدائد ، والثبات عند البلايا ، والاعراض عن الجاهلين والصفح عمن أساء إليه ، وأن لايكون للهوى والشهوة سلطان على نفسه ، وأن زخارف الدنيا لاتأخذه من مولاه ولا تشغله عن سيده .

آثارها فى صلاح الفرد والمجتمع

إذا كان المستقيم راعياً لاشك صلحت رعيته . و إذا كان مربياً سعدت على

يديه تلاميذه . وإذا كان صانعاً تقدمت صناعته . وإذا كان تاجراً ربحت تجارته . وإذا كان زارعا كثر خيره ، و بورك له فى عمل يديه . وإذا كان رب منزل استقام أهله وصلحت ذريته ، ولا ريب أنه متى استقامت الأفراد وصلح حالها استقامت الأسر ، ومتى استقامت الأسر استقامت الأمة بأجمعها . فان من لا بيت له لا أمة له وغنى عن البيان أن كل أمة يكون حظها من الرقى والسعادة على قدر حظ أفرادها من الاستقامة وسلوك المنهج القويم والسير على الصراط المستقيم .

حث الشارع على لزوم الاستقامة فى كل حال

من رحمة الله تعالى بعباده أن أرشدهم إلى مافيه الخير والسعادة وما يضمن لهم الفوز والفلاح فى الآخرة والأولى . وقد عرفت مافى الاستقامة والتحلى بها من الآثار الحسنة والمزايا الجليلة ، و بقى لك أن تعرف شيئاً مما جاء عن الشرع فى الترغيب فيها والحث على التجمل بها فى عموم الأحوال . من ذلك قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » فانه جل شأنه قد وعدهم على توحيدهم له تعالى ومعرفتهم بجلاله واستقامتهم على الطريقة المرضية « وعدهم » الأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكاره فى الدنيا وضمن لهم النعيم الدائم فى الآخرة ، ذلك بأنهم جمعوا بين توحيد الله تعالى الذى هو على الحقيقة خلاصة العلم ورأس العلوم ورئيسها ، وبين الاستقامة على أمور الدين كلها من صحيح العقائد وخالص العبادات وحسن المعاملات ومكارم الأخلاق التى هى ثمرة الأعمال وأثرها وعليها مدار المعاملات وانتظامها . لهذا كانوا لا خوف عليهم من لحوق مكروه ولاهم يحزنون لفوات مطلوب وضياع محبوب . هذا مالهم فى الدنيا بمقتضى هذا الوعد الكريم من الغنى الرحيم . ومالهم فى الآخرة أغلى وأعلى « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » أى من صنوف البر وأنواع الحسنات العلمية والعملية والمآثر النافعة لهم ولأمتهم التى خلدت لهم حسن الذكرى وجميل الأحدوثة

ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن أبى عمر سفيان بن عبد الله رضى الله

عنه . قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » سأله رضى الله عنه أن يبين له فى دين الإسلام وشريعته قولا جامعاً لأموره يكفيه بحيث لا يحتاج إلى أن يسأل عنه أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه واضحاً فى نفسه مبيناً لغيره ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بالاقرار بالتوحيد لله تعالى ومعرفته بربه أولا . ثم الاستقامة على طريقة الدين أوامره ونواهيه ، عقائده وعباداته ، معاملاته وآدابه . وهذا من بديع جوامع الكلم التى اختص بها صلى الله عليه وسلم فإنه جمع للسائل فى هاتين الجملتين جميع معانى الإسلام لأنه إجمالا أمور أربعة : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق كريمة .

فالعقائد مستفادة من الجملة الأولى وما عداها من الطاعات والمعاملات والأخلاق الحسنة فهو فى ضمن الجملة الثانية . إذ الاستقامة امتثال كل مأمور واجتناب كل منهى .

طريق الوصول إلى الاستقامة

إن الحصول على الاستقامة بوجه عام ليس من الأمور الصعبة على من يطلبها بل من السهل الهين والميسور القريب ، فإن المرء إذا عود نفسه أن يراقب الله تعالى عند كل عمل يعمله موقنا أن الله تعالى مطلع على جميع أعمال العباد ومعتقداً أنه تعالى يجازى من أطاعه برضوانه وإحسانه ، وأنه ينزل غضبه ومقته على من خالفه وعصاه — إذا عود نفسه ذلك سهل عليه أن يفعل ما أمره الله به ويجتنب ما نهاه الله عنه . فإذا سولت له نفسه أن يأتى معصية من معاصى الله ردها وزجرها وذكّرها بعزة الله تعالى وجلاله ، وأنه تعالى قادر على الانتقام منه ، وأنه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » متى لاحظ المرء ذلك وعود نفسه عليه لا يُقدم

على منكر ولا يقصر فى مطلوب منه ، فتصير الاستقامة له عادة ينتقل بها من وهدة الشقاء إلى ذروة العز والسعادة ، ويخرج بها من الظلمات إلى النور بإذنه سبحانه ، فمنه التوفيق ومنه الهداية .

المحاضرة الثامنة

الإنسان فى الشدة والرخاء

من نظر إلى الإنسان وفكر فى أحواله وطبائعه وجده كثير العجز قليل الصبر عند نزول الشدائد والبلاء ، كثير الغرور قليل الشكر عند حصول الرخاء والنَّعماء . فإذا أصابه نوع مكروه كضيق وعسر ومرض وفقر وغيرها من بلايا الدنيا وشدائدها استولى عليه اليأس وملكه الجزع وظهر ذلك على وجهه وجوارحه بالتغير والاضطراب . ثم إذا ثاب إلى رشده وعاد إليه صوابه أقبل على مولاه وأكثر من التضرع والدعاء له تعالى فى جميع أحواله نائما أو مضطجعاً ، قاعدا أو قائما ، ساكنا أو متحركا ، مجتهداً فى التذلل والخضوع . طالبا منه تعالى إزالة تلك الشدة والمحنة وتبديلها بالنعمة والمنحة . فإذا استجاب له ربه وكشف عنه ما نزل به من شدة وبلية مضى فى سبيله وعاد إلى سيرته الأولى واستمر على طريقته التى كان ينتهجها قبل مساس الضر وإصابة المكروه . ونسى حالة الشدة والبلاء وأعرض عن شكر مولاه ولم يعرف نعمته عليه ، وصار بمنزلة من لم يشعر بمكروه ولم يدع مولاه تعالى لكشف ضر كان قد نزل به . وهذا بلا ريب يدل على ضعف طبيعة الإنسان وقلة وفائه لمولاه وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه . وفى ذلك يقول الله تعالى « وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون » والمسرف هو الذى ينفق المال الكثير فى الغرض الخسيس . وإسراف هؤلاء لأن الله تعالى إنما منحهم القوى والحواس الظاهرة والباطنة ليستعملوها فيما خلقت له من التفكير والعمل النافع ، وأغدق عليهم صنوف

الخيرات أعطاهم نفائس الأموال ليصرفوها فى مصارفها المعروفة ، ووجوهها المشروعة . وما إلى ذلك من كل ما يعود على المرء وأمته بالخير والسعادة فى هذه الحياة وفى تلك الحياة . فلما استعملوها فيما لا فائدة منه وصرفوها إلى مالا خير فيه — وهى رأس مالهم — فقد أساؤا التصرف فيها وأتلفوها وأضاعوها وأسرفوا إسرافا ذميما ، وكانوا من حزب الشيطان الرجيم الذى زين لهم ذلك بالتسويل وحسنّه بالوسوسة .

ويقول أيضاً : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . فأفاد سبحانه أنه إذا تفضل على عبده بنعمة كعافية ورخاء أعرض عن شكره وطاعته وشُغِل بنعمته عنه واستطال بنعم الله على خلقه وثنى عِطْفه متبختراً كبرياء وعظمة . وإذا عرض له نوع مكروه كمرض وعسر أكثر من التضرع والدعاء إليه تعالى لكشف ما عرض له من المكاره .

فهذا شأن الإنسان وهذا حاله فى الشدة والرخاء كما بينه الله تعالى لنا فى كتابه الحكيم تنبيها على أن هذه طريقة ممقوتة وأخلاق مذمومة . وأن واجب الإنسان العاقل المفكر أن يكون شجاعا فى الشدائد ثابتا عند نزول البلايا ، شاكرا عند الفوز بالنعماء ، وحقه أن يكون كثير الدعاء والتضرع إليه تعالى فى أوقات الراحة والرفاهية ، ليكون مجاب الدعوة فى وقت الألم والمحنة . ففى الحديث الصحيح أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : « تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفْك فى الشدة » . رواه عبد بن حميد والإمام أحمد . وعنه صلوات الله وسلامه عليه « من سره أن يستجاب له عند الكُرَب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء » رواه غير واحد .

وصفوة القول أن الإنسان جبل على الضعف والعجز والقلق وقلة الصبر ، كما جبل على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو . فاذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد . وإذا زال عنه ذلك البلاء وحصل على الراحة استولى عليه النسيان وغفل عن إحسان الله تعالى إليه ، ووقع

فى البغى والعدوان والجحود والنكران . وهذه الأحوال كلها من نتائج طبيعته ومبادىء خلقته ، ولكنه معذور ولا عذر له ، ومخلوق عاجز ضعيف فى صورة جبار عنيد ، لا يصبر على اللأواء ولا يشكر عند النعماء ، إلا من رحم الله وعصمه من هذه الدنايا والنقائص — وقليل ما هم . وهم الذين يرجعون إليه تعالى فى جميع الأحوال موقنين بأنه وحده هو المقدر للأمور حسب علمه وحكمته والمصرِّف لها وفق مشيئته و إرادته . فلاجرم إذا أصابتهم السراء شكروا ، و إن أصابتهم الضراء صبروا ، وأفنوا إرادتهم فى إرادته ، وقبلوا حكمه ورضوا بقضائه . وفى أمثال هؤلاء يقول الله تعالى « و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » فقد وصف الصابرين بأنهم عند المصيبة يقرون له تعالى بالعبودية ، وفى ذلك تفويض الأمور إليه والرضا بقضائه . وأخبر تعالى أن جزاءهم عنده ثناء ومغفرة ورفعة شأنهم عند الله والناس و إحسان عظيم — ومنه ما يجدونه فى نفوسهم من برد الرضا وحسن العزاء — وأنهم مختصون بالاهتداء لكل حق وصواب . ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى .

ولقد أرشد الخلاق العليم عباده فى كتابه الكريم إلى التغلب على هذه الطبائع والسلامة من تلك الأدواء بقوله تعالى « إن الإنسان خلق هلوعا » إذا أصابه المكروه لم يصبر ، و إذا جاءه الخير لم يشكر . وقد فسره أحسن تفسير و بينه أجمل بيان ، قوله تعالى « إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا » فانه تعالى كشف لنا عن خبيئة الإنسان وأظهر ما فيه من علة وجبلة ، وأنه كثير الجزع وقت الشدة . كثير الأمساك والبخل وقت الرخاء . ثم عقبه بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مُشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون » فاستثنى هذه الأصناف الثمانية المتصفين بهذه النعوت الحميدة من

الملوثين بتلك القبائح الذميمة . لأن نعوتهم الجليلة تنم عن اهتمامهم بطاعة الخالق . والرأفة بالخلق بإيتاء الحقوق المالية والعطف على البائسين والمحرومين ، وتنبيء عن إيمانهم بيوم الجزاء وما فيه من هول وحساب . وخوفهم من عذاب الله — مع مالهم من عمل صالح — وقمع شهوتهم واقتصارهم على ما أحل لهم من النساء ، و إيثار الآجل على العاجل بالاخلاص والصدق والوفاء فى المعاملة ، و إقام الصلاة على أكمل وجه على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك فى حب العاجل والركون إليه والاغترار به وقصر النظر عليه . فبمثل هذه الأدوية النافعة ينجو الإنسان من الشر ، وتسلم القلوب من الجزع عند عروض البلايا ورذيلة البخل فى وقت الرخاء . واعلم أن من واجب المؤمن إذا ابتلى ببلية ونزلت به محنة أن يراعى أموراً :

(منها) أن يكون راضياً بقضاء الله عز وجل غير معترض عليه بالقلب واللسان لأنه تعالى مالك على الاطلاق . وملك بالاستحقاق . ومن كان كذلك فله أن يفعل فى ملكه وملكه ما شاء كما يشاء . ولأنه أيضا حكيم على الاطلاق منزه عن الباطل والعبث ، فكل ما فعله صواب وحكمة ، إن أبقى على عبده المحنة فهو عدل . و إن أزالها عنه فهو فضل . ومن آمن بهذا وجب عليه الصبر والسكون والرضا والتسليم وعدم القلق والاضطراب .

(ومنها) أن يصلح نفسه بالتوبة إلى الله تعالى والانابة إليه مما فرط منه فقد تكون البلية عقوبة معجلة لبعض ما اقترف من السيئات لعله يثوب إلى رشده و يرجع عن غيه . قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » وقال « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » فالجدب وقلة الأمطار ونزول الأزمات والعاهات بالناس والدواب والزروع ومحق البركة من كل شىء ، كلها من شؤم المعاصى .

(ومنها) أن يشتغل فى ذلك الوقت بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا من الدعاء له . لأن الاشتغال بالذكر والثناء اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس . ولا ريب أن الأول أحسن وأفضل . ومتى صدقت فى ذلك نيته

وصحت عزيمته . أصلح الله باله وأجزل له فى العطاء . فى الحديث القدسى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين » .

(ومنها) أن يبذل وسعه فى شكره تعالى إذ أزال عنه تلك المحنة وأن لا ينقطع عن ذلك الشكر فى عموم الأحوال من السراء والضراء والشدة والرخاء فان أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها و إن قل . ومما ينفع فى تخفيف وطأة الشدائد وتهوين البلايا والكروب ملاحظة أمور سبعة :

(١) مقام التوحيد وأن الله تعالى هو الذى شاء ذلك وقدره ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (٢) العدل وأنه تعالى ماض فيه حكمُه عدلٌ فيه قضاؤه (٣) الرحمة وأن رحمته تعالى فى هذا المكروه غالبة غضبه وانتقامه (٤) الحكمة وأن حكمته تعالى البالغة اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثا (٥) الحمد وأن له تعالى الحمد التام والثناء الحسن الجميل على ذلك من جميع الوجوه (٦) العبودية وأنه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده بحكم كونه مالكه يتصرف فيه بما يشاء كما يشاء (٧) أن الأمور لها انقضاء وأن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً . وأن كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر ، إلا البلايا فانها تبدو كبيرة ثم تصغر . وهذا من رحمة الله بعباده — وكل هذا لا يمنع العبد أن يستخدم مواهبه فى تلمس الخلاص من بعض ما نزل به بالوسائل المشروعة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذى يسلكه المرء عند نزول البلايا وعروض الشدائد .

ولأرباب البصائر النافذة هنا مقام أقوم وطريق أسلم مما سمعت . قالوا : إن من كان وقت إصابة النعمة مشغولا بالنعمة لا بالمنعم كان عند نزول البلية مشغولا بالبلاء لا بالمُبْلى . ومثل هذا المرء يكون دائماً فى نكد وبلاء . أما فى وقت البلاء فواضح وأما فى وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها بلاء عظيم ، وكلما كانت النعمة ألذ وأكمل كان تألمه لزوالها أشد وأعظم . فثبت أن من كان مشغولا بالنعمة كان أبداً فى هم و بلية . وأما من كان وقت النعمة مشغولا بالمنعم ، كان فى وقت البلية مشغولا

بالمبلى . ومتى كان المنعم والمبلى واحداً كان نظره أبداً على مطلوب واحد لا يتغير ، ولا يتبدل . ومن كان كذلك كان وقت الشدة والبلاء وفى وقت الرخاء والنعماء مطمئن النفس هادئ البال واصلا إلى أقصى درج الكمال ، فائزاً إن شاء الله بغاية السعادة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة التاسعة

الاقتصاد — أثره فى الفرد والجماعة

الحمد لله مستوجب الحمد ، خلق بنى الإنسان وسواهم ، وعلى موائد كرمه وجوده رباهم ، ورزقهم من الطيبات ، وابتلاهم بتقلب الأحوال ، ورددهم بين اليسر والعسر والغنى والفقر ، والتبذير والتقتير ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، و ينظر أيهم آثر العاجلة على الآجلة وقدم الدنيا على الآخرة ، والصلاه والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبى الرحمة ومرشد الأمة الذى كانت حياته المثل الأعلى فى جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله واهتدوا بهداه . (أما بعد) فانا سنتحدث الآن فى موضع له خطره وشأنه فى بناء قومية الأمة ، وحياتها عزيزه قوية ألا وهو « الاقتصاد » والبيان فيه يكون بأمور : (١) الكشف عن حقيقته وبيان معناه ليقوم البناء على مفهوم ويكون الحكم على معلوم ، ويتبع ذلك أو يتصل به اتصالا وثيقاً الكشف عما يحيط به من طرفيه الإسراف والتبذير ، والشح والتقتير . (٢) بيان أثر الاقتصاد فى سعادة الفرد والمجموع . (٣) عناية الشارع به لما له من الأثر الحسن الحميد ، فى حياة الأمم والشعوب . (٤) الكلمة الختامية للموضوع . فنقول وبالله التوفيق ، ومنه تعالى الهداية :

الاقتصاد والقصد : التوسط والاعتدال : من قصد فى الأمر قصداً توسط وطلب الأسدَّ ولم يجاوز الحد ، ومنه حديث : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر من لا يسرف فى الانفاق ولا يقتر ، وحديث : « القصدَ القصدَ تبلغوا » أى عليكم

بالتوسط فى الأمور تصلوا إلى غاياتكم — والاقتصاد فى عرف الناس إدخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة إليه . وهو وسط بين طرفين كلاهما ذميم وقبيح عند الله والملائكة والناس أجمعين : إسراف وتبذير ، وشح وتقتير — فالإسراف كالسرف مجاوزة الحد ، وهو نتيجة الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، فهو نتيجة الجهل بمواقع الحقوق ، أى أنه ينفق المال ولا يعرف أين ينفق ولا أن يحسن التصرف فيه بإصابة مواضعه — والإسراف والتبذير فى نظر الدين معناهما واحد ، لأن مآلهما واحد وهو إنفاق المال فى غير مواضعه ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « التبذير إنفاق المال فى غير حقه » ومعناه أن المبذر يجهل مواقع الحقوق التى تستحق إنفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلمها ، ولكن تدفعه شهوته الخبيثة إلى مجاوزتها .

وروى عن ابن عباس وغيره ، أن الإسراف كالتبذير إنفاق المال فى مساخط الله تعالى — فهو ذميم وقبيح شرعاً وعقلا لمجاوزته الحد الذى حده الحكيم العليم لعباده فى إنفاق المال بوضعه فى غير ما رسم له ، ولذا قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : التبذير إنفاق المال فى غير حقه . ولا تبذير فى عمل الخير — أما الشح والتقتير أو الاقتار فهو إمساك المال والضن به عن الواجبات التى لا بد منها ، والبخل به على نفسه وعياله ، وهو أيضاً ذميم وقبيح ، وتفريط مهين ومشين — فتحصل من هذا البيان أن الاقتصاد الحسن الجميل وقع وسطاً بين جارين كلاهما قبيح وذميم عند الله والملائكة والناس أجمعين . قال بعض الأدباء :

ولا تك فيها مُفْرطاً أو مفرِّطاً كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقال : —

تسامح ولا تستوف حقك كله وأبق فلم يستوف قط كريم

ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وأما أثره فى ذلك فظاهر جلى وواضح لاخفاء فيه — فقد دل البحث الصحيح على أن المدنية الحاضرة قامت على أربعة أركان : العلم ، والمال والنظام والأخلاق الفاضلة . وإن كل أمة تجردت من العلم والمال والنظام والأخلاق الكريمة كان الشقاء حليفها والتأخر نصيبها — والمشاهدة أصدق شاهد . وليس بعد العيان بيان — وهل يكون مع الجهل والفقر والفوضى وسوء الأخلاق فى الناس خير ؟ اللهم لا . فالمال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقى الأمم ونهوض الشعوب . وبه تكون الأمة عزيزة قوية ؛ جليلة مهيبة ، محترمة فى نظر الأمم ، وبفقد المال تصبح الأمة ذليلة ضعيفة ، فاقدة الهيبة ساقطة الحرمة والكرامة ، مستعدة لأن تصير فريسة للأقوياء وغنيمة المستعمرين واقمة فى أفواه الظالمين .

لهذا وأمثاله عنى الشارع الحكيم الرحيم بأمر الاقتصاد . وحمل الناس عليه ، ونعى على الإسراف والتبذير . وسفّه أحلام المسرفين والمبذرين ، كما نعى على الشح والتقتير ، وقبّح من شأن المقترين وأهل الشح ، قال تعالى فى وصف أولى الحزم والكمال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » وسطا . أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآيه : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا فى معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله — ومعناه أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله فهو القوام — فالآية كما ترى حث على الاقتصاد وسلوك حد الاعتدال فى صرف المال وهو الوسط الممدوح .

وقال تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » فى الآية إرشاد إلى مواضع الانفاق وهو أن يكون فى مواضع البر والخير وأداء الواجبات التى فرضها الله على الأغنياء ، فتجب صلة الأقارب بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال ، ويجب

ومساعدة المساكين وأبناء السبيل بالتصدق عليهم ، أو مما لهم من صدقة الفرض ، لأنهم من الأصناف الثمانية ، وفيها نعى على التبذير وأهله بجعلهم من إخوان الشياطين والمراد المماثلة التامة فى عمل الشر ، أو أنهم قرناؤهم فى كفران أنعم الله التى أنعمها الله عليهم . فبدلا من أن يشكروه عليها بامتثال أمره فى شأنها وضعوها فى غير مواضعها ، فانقلبت عليهم نقماً ، وكانوا فى العذاب مع الشياطين « وكان الشيطان لربه كفوراً » كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق لأنه مع كفره لا يفعل إلا الشر ولا يدعو إلا إليه . ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه .

وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » والمراد نهى الإنسان أن يُمسك إمساكا يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله وعياله ، وأن يتوسع فى الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يجاوز الحد المعقول فيه ، فهو نهى عن جانبى الإفراط والتفريط ، وينتج منه مشروعية التوسط ، وهو العدل الذى ندب الله إليه عباده : وقد مثل الله تعالى فى هذه الآية حالة الشحيح بحال من ربطت يده إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها — ومثل حال من يجاوز الحد فى الإنفاق بمن يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض عليه الأيدى ، وهو تمثيل بليغ وتصوير شنيع . ثم بين عاقبة الطرفين المنهى عنهما فقال : « فتقعد ملوماً » عند الله والناس بما أنت عليه من الشح والتقتير « محسوراً » بسبب ما كان منك من الإسراف والتبذير منقطعاً عن المقاصد بسبب ما جلبته على نفسك من الفقر والفاقة ، حتى أصبحت صفر اليدين ، والمحسور فى الأصل المنقطع عن السير ، من حسره السفر إذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذى ذهبت قوته ، فلا انبعاث به ومنه « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أى كليل منقطع .

وجملة القول : فالمال عماد الحياة الأولى ، وقد يكون سعادة فى الآخرة ، فإذا جمعه العبد من طريق شريف حلال وحافظ عليه على حال ترضاه الشريعة الغراء ، وأنفقه كما جمعه فى طريق حلال ، فهو ممدوح وصاحبه مأجور ومحبوب لدى الله

والناس أجمعين . وإن جمعه من طريق وضيع وحرام وأضاعه فى لذاته وشهواته ، أو حرم منه نفسه وعياله فهو مذموم وصاحبه مكروه لدى الله والناس ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

المحاضرة العاشرة

الحسد وآثاره السيئة فى المجتمع

قال حفظه الله بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى وسلم على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

الكلام على الحسد من وجوه : (١) بيان حقيقته والكشف عن معناه ليكون الحكم على معلوم ، والبناء على أساس واضح مفهوم (٢) بيان ما جاء فى التحذير منه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (٣) الأسباب التى ينشأ عنها والآثار السيئة التى تعود على بنى الإنسان منه .

وقبل الكلام عليه من هذه الوجوه نذكر مقدمات لها بالموضوع صلة :

الأولى — كلنا يعلم ويؤمن بأن الله جلت حكمته وعزت قدرته قد أنزل الكتاب المبين هدى للناس ورحمة . نعم إنه يهدى من تمسك به ، ويوصل من لم ينحرف عنه إلى السعادة فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ، وفى ذلك رحمة منه تعالى بخلقه وإحسان عظيم منه إليهم « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » أى شأنه الهداية إلى ذلك . وأقوم الطرق وأعدلها هى ملة الإسلام والدين القويم .

جاء هذا الدين بالأوامر والنواهى ، ووعد القائمين عليها والحافظين لها بحسن الحال والمآل ، وتوعّد المخالفين لها والمتمردين عليها بوخامة العاقبة فى العاجل والآجل « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون » وقال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » كل هذا ليسوق الناس من طريق الترغيب إلى الخير فيغنموا فيربحوا ، ويمنعهم بطريق الترهيب عن الشر فيسلموا من مخاطر الشقاء ونكد العيش ، وهو فى كل ذلك حكيم عليم ، وغنى عادل .

الثانية — لا ريب أنه لا طيب للحياة ولا هناء للعيش إلا إذا سلمت القلوب من الأذى وبرئت من الأمراض الاجتماعية كالكبر والحقد والحسد ، وحل محلها التواضع والمحبة والرحمة .

الثالثة — لا يجتمع فى قلب المرء إيمان صحيح وحسد لنعمة على مخلوق إلا كما يجتمع الصبر مع العسل . ولا شك أن المعجون المركب من الصبر والعسل نكرة مجهولة وحقيقة غير معروفة لأحد ، وذلك لأن الرضاء عن الله جل وعلا فى قضائه وفعله جزء من الأجزاء التى لا يتم الإيمان بدونها ، ولا تكون حقيقة الإيمان إذا لم يوجد أى واحد منها ، كما جاء فى حديث الإيمان . إذا عرفت هذا فنقول :

الوجه الأول فى بيان حقيقة الحسد ومعناه

قال العلماء : الحسد كراهة نعمة الغير وتمنى زوالها عنه ، سواء أتمنى انتقالها إليه أم لا ، وهو قبيح بنوعيه إلا أن الثانى أقبح وأشد حرمة من الأول . وهو ألم فى نفس الحاسد لا يسكن إلا إذا زالت نعمة المحسود . قال سيدنا معاوية رضى الله عنه : « كل أحد أقدر على رضاه إلا حاسد النعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها » وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم ، من الحاسد : غم دائم ونفَسٌ متتابع » .

وأما الحسد فى عرف العامة فهو عبارة عن نظرة العين إلى الشىء نظرة إعجاب واستحسان ، وقد يكون ذلك عن حسد فى النفس وكراهة للنعمة . وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالى واتسع الوقت .

هذا الحسد المذموم وذلك المرض المشئوم هو الداء العضال الذى ابتلى به كثير

من الناس اليوم ، فأوغر صدورهم وأفسد ضمائرهم وفرق شملهم ومزق وحدتهم ، ففشلوا وذهبت ريحهم وتلاشت قوتهم حتى ذلوا واستكانوا وطمعت فيهم أعداؤهم . وهو أول ذنب عُصى الله تعالى به ، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود لأبينا آدم عليه السلام إلا الحسد ، كما أن قابيل لم يحمله على قتل أخيه هابيل سوى الحسد . وأى معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة أو ينالك منه سوء .

الوجه الثانى فى تحذير الشارع منه

لمثل ما ذكرنا نفر الشارع منه وجعله الله تعالى من أوصاف المنافقين إذ قال تعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » الحسنة النعمة ، كالرخاء والخصب والنصرة والغنيمة . والسيئة المصيبة ، كالضيق والجدب والهزيمة ، والأول الحسد والثانى الشماتة . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهما لا يضران المحسود ولا المشموت به إذا اتقى ما حرم الله عليه وابتعد عما عنه نهاه ، وصبر على مشاق التكاليف وعداوة المنافقين ، ولم ينتقم منهم لنفسه بل فوض الأمر فيهم إلى الله تعالى . وقال أيضاً فى المنافقين وبيان ما تُكِنُّهُ نفوسهم القذرة وتحويه ضمائرهم الخبيثة من الكيد والمكر وأنواع الأذى لجماعة المسلمين « ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » أى تمنوا عنتكم أى مشقتكم وشدة ضرركم قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم كانوا لا يتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم أن ينفلت من ألسنتهم ما يفضح أمرهم ويعلم به بغضهم للمسلمين . فالحاسد مهما بالغ فى إخفاء ما انطوت عليه نفسه للمحسود من الكراهة فهو لا محالة مفضوح ، ونار الحسد تتغلب عليه ويظهر حسده على وجهه وفى عينيه ولسانه .

وقال تعالى فى وصف الأنصار المخلصين لله والرسول والناس أجمعين :

« والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » أي لا تضيق صدورهم من رؤية النعمة عند إخوانهم ولا يغتمون لها ، فأثنى عليهم بسلامة قلوبهم من الأذى وصفاء نفوسهم وطهارة ضمائرهم من أدران الحسد .

وقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » والأكل هنا عبارة عن عدم القبول ، وأن حسنات الحاسد مردودة عليه وليست بثابتة في صحيفة عمله الصالح . ذلك أن الحسد في المعنى اعتراض على الله تعالى فيما لا عذر للعبد فيه ، لأنه لاتضره نعمة الله على أخيه والله تعالى حكيم في قسمة الحظوظ بين عبيده ولا يضع الشيء في غير محله ، فكأن الحاسد يعترض عليه تعالى في قسمة المعيشة بين خلقه ، وينسب ربه للجهل والسفه ، ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردت حسناته ولم تبق في ديوان عمله ، ومن ثم قال بعض العارفين « الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد » وقال صلى الله عليه وسلم « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » .

وقال في النهي عن الحسد وأسبابه وآثاره : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » . فإن التباغض من أسباب الحسد والمقاطعة والغيبة من آثاره السيئة ونتائجه المؤلمة . رواه البخاري ومسلم . وقال أنس رضي الله عنه : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج (الطريق في الجبل) رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تَنْطُفُ (تقطر) لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال . فلما كان من الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل . وقال في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عمرو بن العاص فقال له إني لاحيت أبي (خاصمته في أمر) فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا ،

فإن أردت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت . فقال : نعم فبات عنده ثلاث ليال — يرقب أحواله فى حركاته وسكناته — فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال: غير أنى ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بينى و بين أبى غضب ولا هُجْرَةٌ ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيراً ، يوجب تلك البشارة العظيمة فما الذى بلغ بك ذلك ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله . فقلت هى التى بلغت بك وهى التى لا نُطيق » . رواه أحمد بسند صحيح على شرط البخارى ومسلم . ولا حرج على فضل الله تعالى أن يمنح الخير الكثير على مثل طهارة القلب من درن الغش والحسد . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه سيصيب أمتى داء الأمَمْ قالوا : وما داء الأمَمْ ؟ قال الأشر » محركة كفر النعمة « والبطر » محركة الطغيان عند توفر النعمة « والتكاثر » من جمع المال « والتنافس فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى » مجاوزة الحد والاعتداء على خلق الله « ثم يكون الهَرْج » بفتح فسكون القتل . رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة بإسناد جيد . وفيه تحذير شديد من التشاحن فى الدنيا ، والتحاسد عليها ، فإن ذلك أصل الفتن ، وعنه تنشأ الشرور والبلايا .

وحسبكم فى ذم الحسد وقبحه أنه يفسد الطاعات ، ويأكل الحسنات ويبعث على الخطايا والبلايا ، وأن الله تعالى أمر بالاستعاذة من شر الحاسد كما أمر بها من شر الشيطان الرجيم ، وأن الحاسد لا ينال من الناس إلا بغضاً وذماً . ومن الملائكة إلا لعنة . ولا ينال من الدنيا إلا جزعاً وغماً ، وعند النزع إلا شدة وهولا وفى الموقف إلا فضيحة ونكالا .

الأسباب الداعية إلى الحسد

من أهمها العداوة والبغضاء . فإن من آذاه إنسان لسبب من الأسباب أبغضه قلبه وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد ، والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز عن التشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما ظن ذلك كرامة له عند الله تعالى ، فإذا نزلت بعدوه بلية فرح بها وشمت فيه ، وظنها لأجله ، وإذا أصابته نعمة ساءه ذلك لأنها ضد مراده ومرغوبه ، وهذا مما وصف الله تعالى به المنافقين كما سبق . والحسد يسبب البغض ، وكثيراً ما يفضى إلى التنازع والتقاتل والسعى فى إزالة النعمة بالطرق الخبيثة والحيل القبيحة . وهو بغى شديد وظلم فاحش (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . تجد بعض العاطلين من الناس إذا وُصف عنده حال إنسان وذكر أمامه بخير يشق ذلك عليه ويؤلمه ، وإذا وُصف له بسوء وشر فرح به ، فهو أبداً يكره الخير للناس ويتألم منه ، ويحب لهم الشر والأذى كأنهم يأخذون الخير من بيته وخزائنه ، وهو من فضل الله وجوده « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ويقول العلماء الباحثون : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره على الناس . والحسود شحيح يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ويعادى فضل الله على خلقه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع ، ومعالجة هذا شديدة عسرة ، لأن الحسد بسائر الأسباب أسبابه عارضة يمكن زوالها فيزول ، وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فلذا تعسر إزالته .

وأما المنافسة فليست من الحسد المذموم المحرم وإن سميت باسمه فى لسان الشرع بل هى مباحة فى الأمور الدنيوية ، وقد تكون واجبة فى الأمور الدينية قال تعالى فى مقام الحث على أسباب الوصول إلى النعيم : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » أى وفى أحوال هؤلاء الأبرار وما صاروا إليه من أنواع النعيم المقيم فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى . وأصل التنافس التغالب فى الشىء النفيس الذى تحرص

عليه نفوس الناس ويحب كل واحد أن يستأثر به ويضن به على غيره . وفى هذه الآية الكريمة إشارة إلا أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم لافى النعيم الحقير الفانى — وقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . أى بادروا إلى مايوصلكم إلى المغفرة والجنة من أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المنهيات والتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل . وإنما تكون المسابقة عند خوف الفوت كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحد ويؤلمه أن يسبقه صاحبه إلى مولاه فيحظى بمنزلة لا يحظى هو بها . والمنافسة أن يتمنى المرء أن يكون له مثل ما للغير من غير أن يحب زواله عنه ، فهى فضيلة محمودة منشؤها علو الهمة .

وأما الحسد عند العامة الذى هو عبارة عن نظرة العين فهو من الأسباب العادية التى قد يترتب عليها آثارها من إصابة المعيون على ماصح فى السنة ، روى البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — أو أمر — أن نسترقى من العين » . أى بسببها . وذلك أن المعيان (الحسود) إذا نظر إلى شىء أو إنسان أو حيوان نظرة إعجاب واستحسان مشوب بحسد فقد يحصل للمنظور عاهة أو ضرر بعادة أجراها الله تعالى — وهل هناك جواهر خفية تنبعث من عينه تصل إلى المعيون كإصابة السم من نظر الأفعى أولا ؟ . ذلك أمر لايقطع بإثباته ولا بنفيه .

والحق أن الله تعالى يخلق عند نظر العائن إليه وإعجابه به ، إذا شاء ما شاء من عاهة أو ألم أو هلاك ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه قبل وقوعه بالرقية المشروعة لا بالعزائم المخترعة والطلاسم المجهولة المعنى — وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق » أى أن الإصابة بها ثابتة موجودة لا يصح إنكارها . وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفْعة فقال : « استرقوا لها فإن

بها النظرة » رواه البخارى — والسفعة بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين مهملة سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة . والمراد أن السفعة أدركتها بسبب النظرة وإصابة العين . و « استرقوا لها » اطلبوا من يرقيها . هذا هو الذى يصح اعتقاده والعمل به وغيره لا خير فيه . ومما ينفع لدفع شر العائن أن يقول المرء صباحا ومساء هذا الدعاء : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامّه ، ومن كل عين لامّه . كما صح به الحديث . أو يقول : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . رواه أصحاب السنن . ومن رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره راجع الإبداع فى الفصل الثانى عشر صفحة ٤٢٣ من الطبعة الرابعة .

المحاضرة الحادية عشرة

الغضب وسوء عاقبته

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراحمون . يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى يسير تحت لوائه النبيون . وعلى آله وأصحابه الهداة الراشدين . وبعد . فإنا سنتحدث إليكم الآن فى موضوع خطير لما له من الصلة بالحياة الاجتماعية ، ألا وهو كيف يملك الإنسان نفسه عند الغضب .

حقيقة الغضب

إن الله عزت قدرته لما خلق الإنسان معرّضا للفساد والهلاك بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجية عنه ، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل مسمى — أما السبب الداخل فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها ، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لهلك الحيوان . فخلق الله الغذاء وخلق

فيه قوة تبعثه على تناول الغذاء لجبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب — وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان فكالسيف والسنان وما إلى ذلك من وسائل الهلاك التى يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الْغَضَب من النار وعجنه بطينة الإنسان ، فإذا توزع فى غرض من أغراضه وصد عنه اشتعلت نار الغضب فيه وفارت فورانا يغلى منه دم القلب ، وينتشر فى العرُوق ، ويرتفع إلى أعلى البدن ارتفاع الماء فى القدر ، ثم ينصب فى الوجه والعينين حتى يحمرا منه ، إذ البشرة لصفائها كالزجاجة تحكى لون ما فيها . هذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن كان على من فوقه وأيس من الانتقام منه انقبض الدم إلى جوف القلب ، وكمن فيه وصار حزنا فاصفر اللون . فإن كان على من يساويه الذى يشك فى القدرة عليه تردد الدم بين انبساط وانقباض ، فيحمر لونه تارة ويصفر أخرى . والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه ، والحزن يتحرك من خارجه إلى داخله . ولذلك يقتل الحزن ولا يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن . فصار أثر الغضب السطوة والانتقام ، وأثر الحزن المرض والأسقام وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومنها وبها غليان دم القلب ، لدفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو الانتقام والتشفى بعد وقوعها والانتقام قُوتُ هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به .

درجات الغضب وحكمة خلقه فى الإنسان

للغضب ثلاث درجات « الأولى » درجة الاعتدال بأن يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله ، أو ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلوم ، وتلك الحالة هى التى من أجلها خلق الغضب ، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران ، وطلبها نظام المجتمع الإنسانى ، فان التنافس فى هذه الحياة والتزاحم على مرافقها يستدعى دفاعا قوياً عن النفس والدين والمال والعرض والحقوق العامة ،

ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض نظام الاجتماع ، لأن من لايغضب لنفسه كان معرضاً للزوال من هذا الوجود ، أو معرضاً لأن يسخره غيره تسخير الدواب التى لاتغضب لنفسها — ومن لايغضب لدينه فإنه يكون عرضة لتقليد القوى فى كل مايراه ويستحسنه ، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى ، ومن لا يغضب لعرضه لايغار على نسائه وتختلط الأنساب وتشيع الفاحشة فى طبقات الأمة ، ويصبح الإنسان كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيرة ولا حمية — ومن لايغضب لماله فانه لايلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيراً معدما — وإذا فشا سلب المال تعطل نظام العمل ، بل بطلت الأعمال التجارية والصناعية والزراعية ، واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضاً ، وذلك شر ووبال فى العاجل والآجل — ومن لايغار للحقوق العامة وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التى فطر الله الناس عليها ، وفى مثله يقول الإمام الشافعى رحمه الله « من استُغْضِب فلم يغضب فهو حمار » أى بليد الطبع فاقد الحمية . وإلى ذلك يشير قوله تعالى « ولولادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » « الثانية » درجة التفريط ، وهى أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بأن يضعف فى الانسان أو يفقد منه رأساً . وتلك الحالة مذمومة شرعاً وعقلا ، لأن من لايغضب لنفسه أو لدينه أو لعرضه أو لماله أو للمصالح العامة فهو جبان لم يجر على سنن الله فى خلقه . وفى ذلك خطر عظيم على الاجتماع لأنه مثار الفوضى فى جميع مرافق الحياة كما علمت « الثالثة » درجة الأفراط وهى أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال ويطغى على العقل والدين ويندفع فى سبيل الشر اندفاعا قد يؤدى إلى الهلاك من حيث لايدرى ، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم وشر الموبقات . ومعلوم أن الغضب فى تلك الحالة مذموم شرعا وعقلا . وتتفاوت درجات الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفا . فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكبر جرماً وأكثر ذماً .

أسباب الغضب

للغضب أسباب كثيرة: منها الجدال والمُزاح والسخرية بالناس، والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان: فلا يبالى بسب الغير أو غيبته أو النم عليه، وما إلى ذلك من آفات اللسان. كذلك الكبرياء والعجب، فان المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستبقى عظمته ومنزلته فى الناس، فاذا طالبه أحد بحق اشتاط غضبه، وكذا إذا نهاه عن رذيلة أو عارضه فى أى أمر كان، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات، فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهاه أو يقف فى سبيله. وهو فى الواقع ناقص من كل وجه، يحاول أن يجبر نقصه بكبريائه — ومنها مصاحبة الأشرار الذين يحسبون التهور شجاعة، وطغيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك، وتصبح سرعة الغضب عادة له وشعاراً.

تلك أهم الأسباب التى تثير الغضب وتهيّجه. والغضب المترتب عليها كلها قبيح شرعا وعقلا، بخلاف ما كان متعلقاً بالدفاع عن النفس والدين والعرض والمال أو الحقوق العامة وإنصاف المظلومين فانه فضيله لا يكون إلا ممن قويت عقولهم واعتدلت طباعهم، فأصبحوا خاضعين لسلطان الدين والعقل. ولقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم حيث إنه وصفهم بالشدة واللين — ولكل موضعٌ يليق به — فقال تعالى: « أشداء على الكفار رحماء بينهم » والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب، وهم لم يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم، وكانوا المثل الأعلى لمن يناضل فى سبيل الحقوق العامة.

ما جاء فى التنفير من الغضب

قال الله تعالى « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب والتهور بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة والثبات والوقار — وعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم

أوصني قال : لا تغضب فردد مراراً قال : لا تغضب » رواه البخارى فى الأدب . وهو من جوامع كلمه التى خُص بها — وعن عبد الله بن عمرو « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يبعدنى من غضب الله ؟ قال لا تغضب » أخرجه أحمد فى المسند — وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعدون الصُّرَعة فيكم ؟ قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » رواه مسلم بلفظ ولكنه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه — وقال سليمان بن داود عليهما السلام « يابنى إياك وكثرة الغضب فان كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم » رواه ابن أبى الدنيا . وقال أبو الدرداء : « قلت يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة . قال : لا تغضب » رواه الطبرانى وغيره باسناد حسن — وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال مجاهد قال إبليس : ما أعجزنى بنوا آدم فلن يُعجزونى فى ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، والثالثة نبخّله بما فى يده ونمنِّيه بما لا يقدر عليه » رواه ابن أبى الدنيا . وقيل لحكيم « ما أملكَ فلانا لنفسه ! ! قال إذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب » رواه ابن أبى الدنيا . أى فهذه خواص من ملك نفسه — وقال بعضهم : إياك والغضب فانه يصيرك إلى ذلة الاعتذار — وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم وكيس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتجمُّل فى فاقه ، وإحسان فى قدرة ، وصبر فى شدة . لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف . لايبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر . يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه فى عناء والناس منه فى رخاء .

علاج الغضب

هو إما أن يكون طبيعة فى المرء وإما أن يكون مكتسباً بالمخالطة ، فمن كان الغضب له طبعاً فعلاجه باجتناب الأسباب المثيرة له كالتكبر والافتخار والتعيير والمزاح والجدل ، فإذا برئت نفسه من هذه الأمراض فلا يضره أن يكون سريع الغضب بطبعه ، ويجب عليه أن يروّض نفسه دائماً على التواضع والحلم ، ويذكّرها بعظمة الله وحده وأنه مخلوق من ماء مهين ، وأنه صائر إلى الفناء وسيكون عظاماً نخرة وتراباً تطؤه الأقدام ، وأرجل الدواب ، ومن كان هـذا شأنه لايليق به أن يكون متكبراً فخوراً . كما قال الإمام على رضى الله عنه : مال ابن آدم والفخر ! وإنما أوله نطفة وآخره جيفة — ومن كان غضبه مكتسباً بالعادة والاختلاط فعلاجه اجتناب الأسباب المهيجة للغضب المذكورة آنفاً ، واجتناب مصاحبة الأشرار والابتعاد عنهم ، وأن يعلم أن ليس للإنسان أن يغضب إلا لدينه أو نفسه أو عرضه أو ماله ، وما وراء هذا فالغضب فيه رذيلة يجب الاحتراس منها . وهذا طريق الوقاية من الوقوع فى ثورة الغضب ، فإذا ثار غضبه كان العلاج شاقاً لأنه يذهل النفوس ويخرجها عن حد الصواب والرشد ، وينسيها مالها وما عليها من الواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأعمال مالا يصدر عن العقلاء — فإذا هاج غضبه وجب عليه أن يذكر على الفور قولَه تعالى « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ذكر ذلك فى معرض المدح للمتقين — والكظم هو الكف ، وذلك إما بضبط النفس ومنعها عن التشفى ، أو بالصفح عن المسىء والمعنى والمتحملين الغيظ وهو الغضب الكامن فى القلب . وقولَه صلوات الله وسلامه عليه : « ماجَرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » رواه ابن ماجه باسناد جيد من حديث ابن عمر . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذّه دعاه الله على رءوس الخلائق ويخير

عن أبى الحورشاء » رواه أبو داود والترمذى وغيرهما . وقولَ عمر رضى الله عنه : « من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل مايريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون » . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقولَ محمد بن كعب القَرظى : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله . إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قَدِر لم يتناول ما ليس له . رواه ابن أبى الدنيا . وقال لقمان لابنه : يابنى لاتذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك . واعرف قدرَك تنفعك معيشتك (٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله فيقول : قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو نفَّذتُ غضبى عليه فما آمن أن يُمْضى الله غضبه علىَّ يوم القيامة ، أحوج ما أكون إلى العفو (٣) يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى إيذائه (٤) أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، بأن يتمثل صورة غيره فى حالة غضبه ومشابهة الغضبان للكلب الضارى والسُبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع ، وبين أن يتشبه بالأنبياء والعلماء فى عاداتهم ، كى تميل نفسه إلى الاقتداء بهؤلاء . هذا هو العلاج العلمى — وأما العملى فيقول : أعوذ بالله من الشيطان . هكذا « أمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يقال عند الغضب » متفق عليه . فإن لم يزل بذلك فليجلس إن كان قائماً ، ويضطجع إن كان جالساً . قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الغضب جمرة توقد فى القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، وإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم » رواه الترمذى — والأوداج عروق العنق — فإن لم يسكن غضبه فليتوضأ أو يغتسل . قال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه أبو داود . والمقصود من هذا أن ينتقل الإنسان من حالة إلى حالة ليتفكر فى قبح الغضب وجمال الحلم ، ومتى اتجه عقله إلى هذه الناحية سكن غضبه روى أن أبا ذر

قال لرجل : ياابن الحمراء — فى خصومة بينهما — فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال « ياأبا ذر بلغنى أنك اليوم عيرت أخاك بأمه . فقال : نعم فانطلق أبو ذر يُرضى صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل . ثم قال : إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد ، و إن كنت قاعداً فاتكىء و إن كنت متكئاً فاضطجع » أخرجه ابن أبى الدنيا باسناد صحيح والله الهادى إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثانية عشرة

الإنسان هو المقصود من العالم — إيجاد كل ما عداه لأجله — الحكمة التى من أجلها خلق .

اعلم أن الله تعالى جعل الإنسان سلالة العالم وزبدته . واختصه بأنواع التكريم من اعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق وتناول الطعام بيده لا بفمه . والتمكن من الصناعات . قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر » على الدواب والسفن ونحوها من المخترعات الحديثة « ورزقناهم من الطيبات » المستلذات « وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا » بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة . والمستثنى جنس الملائكة أو خواصهم — فليس فضله على غيره بقوة الجسم ، فالفيل والبعير أقوى جسما منه . ولا بطول العمر فالنسر والحية أطول منه عمراً . ولا بشدة البطش فالأسد والنمر أشد منه بشطاً . ولا بحسن اللباس فالطاووس والدُّرَّاج أحسن منه لباساً . ولا بالقوة على الوقاع فالحمار والعصفور أقوى منه وقاعاً . ولا بكثرة الذهب والفضة . فالمعادن والجبال أكثر منه ذهباً وفضة . ولا بعنصره الذى تكون منه كما وهم إبليس لعنه الله حيث قال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » وإنما فضله على غيره بما خصه الله عز وجل من السر الذى أودعه فيه ، والمعنى الذى رشحه له ، وأشار إليه تعالى بقوله : « فإذا سويته ونفخت

فيه من روحى فقعوا له ساجدين » أى إذا عدَلت خلقته وهيأته لنفخ الروح فيه . وأصل النفخ إجراء الريح فى تجويف جسم آخر . والمراد منه إجراء الروح فيه وتعليقها به . وما أحسن قول بعضهم :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدى الكماة عوالى المرّان

المران بالضم الرماح واحده مرانة كرمانة — فهذا الجسم الطينى غلاف لسر مكنون إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره ذلك السر هو معنى الإنسانية ، و بسكنى هذا المعنى الغريب فى ذلك الجسم المادى كان ملكا لجميع الكائنات الأرضية يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه — والملائكة عليهم السلام لما نبههم الله عز وجل لفضل آدم عليه السلام تنبهوا فأذعنوا وسجدوا كما أمر — و إبليس اللعين لما وقف عند ظاهر آدم و بدنه وتعامى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل المعنى الذى ضمنه الله آدم والعاقبة التى جعلها له ، أبى واستكبر وكان من الكافرين — وقد اقتدى به الكفار فى إنكار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين حيث قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم * وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وقد نبه الله تعالى على أن فضلهم ليس بظاهر أبدانهم و إنما ذلك لمعان فى نفوسهم عمى عنها الكفار فقال تعالى : « أنظر كيف ضربوا لك الأمثال » وقالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة ، إذ مثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون « فضلوا » بذلك عن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبى والمميز بينه و بين غيره « فلا يستطيعون سبيلا » إلى الهدى والرشد — وهنا ينبه السامعين إلى أن الإنسان بنفسه لا بجسمه ، ويحذرهم من الاغترار بالمظاهر الكاذبة ، لما تقدم ولحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم

وقد أوجد الله تعالى ما سوى الإنسان معونة له كما نبه عليه بقوله عز وجل : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » أى أوجده لأجلكم وانتفاعكم فى دنياكم باستخدامكم له فى مصالح أبدانكم ودينكم ، بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها ، فالآية تصور لنا قدرته التامة ونعمه الشاملة . وأى قدرة أكبر من قدرة الخالق ، وأى نعمة أعظم من جعل كل مافى الأرض مهيأ لنا ومعداً للانتفاع به فى الحياة الجسدية ، والاعتبار به فى الحياة العقلية . فسبحانه من إله جواد كريم عليم حكيم — وقوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » صيرها متوسطة بين الصلابة والرخاوة ، حتى صارت مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط « والسماء بناء » قبة مضروبة عليكم « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وقال تعالى : « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه » . وقال تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » وقال تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » كثير الظلم لنفسه بالمعصية والكفر لنعمة ربه بإغفال شكرها. خلق كل ذلك للإنسان وأباح جميعه له ، فله أن ينتفع بكل هذا على وجهه : إما فى غذائه أو فى دوائه أو فى ملابسه ومشموماته ومركوباته وزينته . والتلذذ بصوته وصورته والاعتبار برؤيته . وباستفادة علم منه والاقتداء بفعله ، فيما يستحسن منه ، والاجتناب عنه فيما يستقبح منه . فمثلا نتعلم التعاون من النمل والنحل ، والوفاء من الكلب ، والنشاط من الغراب . فقد نبّه الله عز وجل على منافع الموجودات وأطلع الخلائق عليها تارة على ألسنة الأنبياء وتارة بالوحى والإلهام .

وهنا يذكر لهم أنه كما أن حق الإنسان أن يعرف منافع الحيوانات فى ذواتها

فينتفع بها فى المطاعم والملابس والأدوية مثلا ، فحقه أن يعرف أخلاقها وأفعالها كى ينتفع بها فى اجتناء الحسن واجتناب القبيح ، فقد أحسن من قال : تعلمت من كل شىء أحسن ما فيه . حتى من الكلب حمايته على أهله . ومن الغراب بكوره فى حاجته — وقد أشار تعالى إلى ذلك فى وصف النحل فقال : «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا » فنبه سبحانه على أن من حق الإنسان أن يقتدى بالنحل فى مراعاته لوحى الله وإلهامه ، فكما أنها لا تخطئ وحى الله فى تحرى المصالح طبعاً ، كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختياراً .

ولا ريب أن الله تعالى أوجد الإنسان « وهو الغنى » ليعرف له تعالى كمال الألوهية . ويعبده . وينصره . ويعمر أرضه ، كما نبه جل شأنه على ذلك بآيات فى مواضع مختلفة حسبما اقتضت الحكمة ذكره ، قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[1] » أى أنه تعالى خلقهم مستعدين لها أتم استعداد ومتمكنين منها أكمل تمكن ، مع كونها مطلوبة منهم . واللام للغاية والثمرة . ولا نزاع أن أفعاله تعالى تستتبع غايات جليلة وثمرات عظيمة ، كيف لا وهى رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وهو عنهم غنى « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أى أن شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم . وقال تعالى : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » وهو من يخلف غيره وينوب منابه . والمراد آدم عليه السلام ، لأنه كان خليفة الله فى أرضه وكذلك كل نبى استخلفهم الله فى عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجته تعالى إلى من ينيبه ، بل لقصور المستخلف

(١) جوز كثير من أهل السنة تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد وعلى رأى النافين (المعتزلة) ينزل ترتب الغاية على ما هى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له — فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لم أقدم عليها مما لا نزاع فيه .

عليه عن قبول فيضه وتلق أمره بغير وسيط ، ولذا لم يستنبىء ملكا ، وقال تعالى . « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى يعلم علم مشاهدة من يجاهد لنصر دينه و إعلاء كلمته وتأييد دعوة الرسل . وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » وقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » أقدركم على عمارتها وأمركم بها — وكل ذلك إشارة إلى تولية النوع البشرى أموراً لم يستصلح لها سواه كما نبه عليه تعالى بقوله للملائكة « إنى أعلم مالا تعلمون » .

وفى هذا المقام يذكر أن الناس فيما أمروا به أقسام ثلاثة « قسم » أخل بالأمر وانسلخ عما خلق لأجله واتبع خطوات الشيطان وسلك سبيله وائتم به واقتفى أثره و إليه الإشارة بقوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً . إن يدعون من دونه إلا إناثا و إن يدعون إلا شيطاناً مريداً » إلى غروراً « وقسم » أذعن للأمر وجد فى وظائف العبودية حتى وقف بغاية جهده حيثما وقف كالموصوفين بقوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً » الآيات « وقسم » تردد بين الطريقين كما قال تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو موعود بالإحسان إليه — وعلى الأقسام الثلاثة دل قوله تعالى « وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » ثم ذكر مآل كل فريق إجمالا فى آخر السورة فقال : « فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان » استراحة ورزق طيب « وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم » .

وجملة القول أن من وفق لفضل ما وهبه الله تعالى وهدى لما أعده له وعرف نفسه وربه ثم استقام فقد أوتى خيراً كثيراً . والله الهادى إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثالثة عشرة

مَن الإنسان ؟ — ضرورة الشرع لسعادة البشر — فضيلة الشرع — من لم يتقيد به فليس بإنسان .

مقـــدمات

١ — لا ريب أن الإنسان إنما صار إنساناً بالعقل ، الذى لو فرضناه خلواً منه لخرج عن كونه إنساناً ، ولم يكن — إذا قطعنا النظر عن الشبح الماثل — إلا بهيمة مهملة أو صورة إنسان وليس به ، والعقل لا يكمل بل لا يكون عقلا حقيقة إلا بعد تقييده بالشرع واهتدائه به — ذلك أن العقل البشرى كثيراً ما يخطىء فى تقدير الأشياء والحكم عليها كما تخطىء الحواس والمشاعر . فالعين مثلا ترى الكبير على البعد صغيراً ، واللسان حالة المرض يذوق الحلو مرًّا ، وقد يهمل الإنسان استخدام جوارحه وعقله فيما فيه سعادته وفلاحه ، ويسلك بهذه المواهب العظيمة مسالك الغى والضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته ، منقادة لشيطانه وهواه ، حتى يورده موارد الهلاك والخسران ، ومنشأ ذلك الخطأ وهذا الإهمال ، وقوع العقل فى قبضة الهوى والشهوة وخضوعه لسلطانهما . ولا سلامة له من خطرهما إلا بتسليم نفسه لقيادة الشرع وتحصنه منهما بحصنه المنيع ، ووقوفه عند حدوده واهتدائه بهديه ولذا نفى العقل عن الكفار لما تجردوا عن الاهتداء بالشرع فى مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم .

٢ — الإنسان مهما أوتى من قوة فليس فى استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج ؛ ومسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس ومعاشرتهم لتبادل المنافع التى لا بد منها ، إذن فاجتماع بنى الإنسان ضرورى لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم فى هذه الحياة ، ولكن محال أن تكمل لهم سعادة أو ينتظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل يردع الظالم عن ظلمه وينصف المظلوم من ظالمه ، ويقف الجميع عند حد الاعتدال فى جميع مرافق الحياة ،

و إلا فكيف يتسنى للإنسان أن يعيش سعيداً هادىء البال إذا خلى وعقله وهو عرضة للخطأ ومنازعة الهوى والشهوة وحظوظ النفس التى لا حد لها ، وكثيراً ما تتطاول به تلك الحظوظ إلى ما فى يد غيره ، وذا يفضى إلى أن يبغى بعض الناس على بعض فيتنازعوا و يتدافعوا ، و يتواثبوا و يتناهبوا حتى يفنى بعضهم بعضاً . فكان من رحمة الله تعالى ببنى الإنسان أن حماهم بنور الشرع من السقوط فى ظلمات الأهواء والشهوات ، وأنقذهم منها إذا هم رجعوا إليه ، و بين لهم بالدين حدود الأعمال ليقفوا عندها و يكفوا عما وراءها .

٣ — إن مما جعل فى غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية ، لها السلطان الأعلى على سائر الأكوان ، و إليها وحدها يرجع كل ما لا يعرف له سبباً ، و إن لهم حياة وراء هذه الحياة المحدودة يلقى فيها كل إنسان جزاء ما عمل إن خيراً فخير و إن شراً فشر ، فهل يستطيع العقل وحده أن يصل إلى تحديد ما يجب عليه من أنواع العبادة والخضوع لصاحب تلك السلطة الذى خلقه فى أحسن تقويم ، ووهبه من القوى والمشاعر ما يكفى لسعادته فى العاجل والآجل ؟ وهل يستطيع العقل وحده — بدون هداية الشرع — أن يعرف أحوال هذه الحياة الثانية وماأعد للإنسان فيها من سعادة أو شقاء ؟ كلا ! إنه فى أشد الحاجة إلى هداية الدين فى ذلك ، كما أنه فى أشد الحاجة إليه فى بيان ما ينبغى له أن يعمله ، وما ينبغى له أن يتركه . فالعقل وحده قليل الغناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها ، كأن يعلم إجمالا حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، واستعمال العدل ، والتزام العفة ، وقبح أضدادها من غير أن يعلم ذلك فى كل شىء تفصيلا — والشرع يعرّف كليات الأشياء ، و يبين ما الذى يجب أن يعتقد ، وما الذى ينبغى أن يفعل ، وما الذى ينبغى أن يترك تفصيلا فى كل شىء — فالعقل لا يعرّفنا مثلا أن لحم الخنزير والدم والخمر والميسر محرمات لمضارها ، وأن لا تنكح المحارم لإفضائه إلى الامتهان وانقراض النسل ، وأن لا تجامع النساء فى حال الحيض لما فى ذلك من الأذى بالرجل والمرأة معا . فهذه الأشياء وأشباهها لا سبيل إليها إلا بالشرع — فالشرع نظام الأعمال القويمة والأخلاق

الكريمة . والدال على مصالح الدنيا والآخرة . من تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن انحرف عنه وركب هواه فقد ضل سواء السبيل : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . ومن أجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك وحده قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقال : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » .

واعلم أن الشرع من وجه هو دواء مفروغ منه تولى عمله الحكيم العليم الذى له الخلق والأمر « حقاً » إنه لدواء مفيد لحفظ الحياة الأبدية ، والسلامة الدائمة كما قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه » أى ضالا فهديناه . وقال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » فجعل ذلك روحاً لإفادة الحياة السرمدية وقال تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . دواء لهم من الشكوك ، وسوء الاعتقاد — ومن وجه هو سراج مزيل لظلمة الحيرة والجهالة كما قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ومن وجه هو الصراط القويم : « وأن هٰذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » — ومن وجه هو النعمة التى لا تقاس بها نعمة . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أى جمع بين قلوبكم بالإسلام فصرتم بنعمة الإسلام إخواناً متحابين .

وبعد : فلسنا نريد من الإنسان ذلك الحيوان الناطق ، إذ كثيراً ما تحسبه إنساناً — بنى آدم — يؤنس به أو يركن إليه ويعول عليه ، فإذا عاملته أو عاشرته وجدته ذئباً أو ثعلباً أو عقرباً أو حرباء ، بل قرداً وشيطاناً رجيما تزيا بزى إنسان يظهر لك فى صورة بنى آدم — وإنما نريد الإنسان الكامل وهو الذى عرف الله جل وعلا معرفة صحيحة فآمن به إيماناً صادقا . ظهرت آثاره فى استقامة العمل

وتهذيب النفس . كما روى البخارى من حديث أنس مرفوعاً . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى النفس وصدقه العمل ، و إن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . فالإنسان فى الحقيقة هو ذلك الطاهر المهذب الذى عبد ربه وقام بالمعنى الذى لأجله خلق . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . خلقه ليعرفه و يخضع لجلاله و يحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين .

الإنسان الكامل هو الذى يتقى الله فى سره وعلانيته وفى شدته ورخائه ، هو ذو الشفقة والرحمة إن زاده سعة فى الرزق عرف لله تعالى فضله وشكر له نعمته ، و عطف على مسكين ، و إغاثة ملهوف و إعانة مكروب — الإنسان الكامل هو المخلص فى المعاملة إذا قال صدق ، و إذا وعد وفى ، و إذا أوتمن أدى و إذا ولى عدل هو الذى يوقن أن الدنيا مزرعة الآخرة يغرس فيها أصول الخير ليجنى ثماره فى الدار الباقية جنة ونعيما وملكا كبيراً كريماً .

ومعلوم أن كل شىء أوجد لغاية فلم تحصل عنه تلك الغاية كان فى حكم المعدوم ولذا كثيراً ما يسلب عن الشىء اسمه إذا وجد نفعه أو فعله ناقصاً ، كقولهم للفرس الردىء هذا ليس بفرس ، وللإنسان البذىء : هذا ليس بإنسان ، و يقال : فلان لا عين له ولا أذن إذا بطل نفع عينه وأذنه ، و إن كان شبحهما باقياً . وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عمى » . فيمن لم ينتفع بهذه الأعضاء . فالإنسان يحصل من الإنسانية بقدر ما يكون منه من المعانى التى لأجلها خلق ، فمن قام بها حق القيام فقد استكمل الإنسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ منها وصار حيواناً أو دون الحيوان كما قال تعالى فى وصف الكفار : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » وقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . فلم يرض عز وعلا أن يجعلهم أنعاماً ودواب حتى جعلهم أضل من الأنعام وأشر من الدواب . و إنما كانوا أضل سبيلا من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتحبه ، وتميز من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ماينفعها . وتنفر مما يضرها . وهؤلاء لاينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه

من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون رضاه وهو أعظم المنافع . ولا يتقون غضبه وهو أشد المضار . ولأن الأنعام إن لم تعتقد حقاً ، ولم تكسب خيراً لم تعتقد باطلا ، ولم تكسب شراً . بخلاف هؤلاء . ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذنب لها ، وهؤلاء مقصرون مستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم . ولأن جهالتها لا تضر بأحد ، وجهالة هؤلاء تفضى إلى إثارة الفتن ، وصد الناس عن الحق وكانوا شر الدواب لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من نعمة العقل والتمييز .

لا يقال : فعلى هذا لا يصح أن يقال للكافر إنسان مع أن الله تعالى سماهم بذلك فى عامة القرآن — لأنا لم نقل لا يسمى به عرفا ، بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضى أن لا يسمى به إلا مجازاً مالم يكن فيه العقل المختص به — أما إذا سمى به فى عرف العامة ؛ فليس ذلك بمنكر — فكثير من الأسماء يستعمل على وجه فيبين الشرع أن ليس على ما استعملوه ، كالغنى فإنهم استعملوه فى كثرة المال ، و بين الشرع أنه ليس به ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس » . رواه البخارى من حديث أبى هريرة ، ولكن مشدداً ومخففاً — و إنما كان الغنى الحقيقى غنى النفس لأن من ملكه الطمع ، واستولى عليه الجشع بعيد أن يكون فى راحة ؛ فهو فى كل وقت مفتقر للمزيد ، كلما حصل على مرغوب تطلعت نفسه لسواه ، فلا يهنأ بما جمع ، ولا يكف عن طلب المزيد مما فيه عناؤه وبلاؤه — وجملة الأمر أن الحكيم إذا أطلق اسماً على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى : « و إنه لذكر لك ولقومك » . وقوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » . و إن كان الذكر يقال للممدوح والمذموم .

وما أحسن قول بعضهم فى هذا المقام : الإنسان هو الناطق الحى الميت . فإنه كلام صحيح وليس معناه ما يبدو منه من أنه من الحياة الحيوانية ؛ والموت الحيوانى والنطق الذى هو فى الإنسان بالقوة ؛ و إنما المراد بالحى من كانت له الحياة المذكورة فى قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » . و بالنطق البيان المذكور فى قوله : « علمه البيان » و بالميت من جعل قوتيه الشهوانية والغضبية مقهورتين لسلطان الشرع ،

كما قال الإمام على رضى الله عنه : « من أمات نفسه فى الدنيا فقد أحياها فى الآخرة » فمعنى الآية الكريمة : « لينذر » القرآن أو الرسول من كان مؤمناً مهذباً ، فإن الحياة الحقيقية إنما هى بالإيمان الصادق الذى وقر فى النفس وصدقه العمل الصالح الذى تقومت به أخلاقه وتهذبت به نفسه « ويحق القول » وتجب كلمة العذاب : « على الكافرين » . وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وعدم تأملهم أموات بالحقيقة . و بالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الرابعة عشرة

عبرة خُلقية من سيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه

وهى المحاضرة الحكيمة القيمة الناطقة بالحق التى ألقاها بدار جمعية مكارم الأخلاق حضرة صاحب الفضيلة والأدب الأستاذ العظيم الشيخ عبد الوهاب خلاف بك مدير عموم المساجد بوزارة الأوقاف سابقاً ، فاسترعت الأسماع وأخذت بمجامع القلوب — جعلناها ختام المحاضرات لنفاستها وعظيم نفعها فى الدعوة إلى الله تعالى وحث الأمة على التعلق بهذه الرحمة المهداة والتأسى به فى أفعاله وأخلاقه — و إن الناظر إليها يرى منها مبلغ رقة شعوره ، وسلامة ذوقه . فى جزالة معانيها ورصف مبانيها ، ومقدار توخيه الحق فى ذكر سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتحريه فى نشر شمائله ما أقره الشرع وصدقه الحس . قال أحياه الله حياة طيبة للعلم والفضيلة بهذا العنوان السابق .

أحمد الله الذى أتاح لى هذه الفرصة ، ووفقنى أن أقوم فى اليوم التالى ليوم ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم أذكر مثلا من مكارم أخلاقه ، ومحاسن شمائله وما أحوجنا — وقد أصبحت حالنا الخلقية من أشد أمراضنا الاجتماعية — أن نرجع إلى إلى سيرة العظماء من الرجال نتعرف أخلاقهم التى كونت عظمتهم ، وشمائلهم التى يرجع إليها نجاحهم ، أولئك الذين هداهم الله وهدى بهم ، وأولئك الذين يجب أن يكون لنا فيهم أسوة حسنة وعبرة بالغة — و إن فى سيرة الصادق الأمين صلى الله

عليه وسلم من آيات الأخلاق الكريمة والفضائل النفسية ما فيه عظة وذكرى — ونحن موجزون القول فى أمثلة من هذه الخلال الحميدة ليكون لنا فى رسول الله أحسن أسوة . وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

عاش رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة : قضى منها أربعين قبل أن يُبعث رسولا ، وقضى الباقيات نبياً ورسولا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا . وهذا العمر المبارك لم يبلغ سن المعمرين ولكنه كان أطول الأعمار أثراً باقياً وحركة مباركة ، وأعمار الرجال لاتقاس بعدد السنين . وإنما تقاس بما تثمر من جليل الأعمال وحميد الآثار . ورب ابن أربعين كان فى نظر التاريخ أطول عمراً من كثير من المعمرين . وقد كانت هذه الحياة فى كل أطوارها عامرة بالخير والهدى . وكان الرسول فى كل سنيه مثالا حسناً للفضائل والكمالات . وكان فى حربه وسلمه وفى دعوته وعبادته وفى أسرته وبين صحابته . وفى فصله الخصومات وقسمته الغنائم وفى كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله فيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق » وقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

رحمـــة كله حزم وعزم ووقار وعصمـــة وحياء

لا تحل البأساء منه عرى الصبـ ـر ولا تستخفه السراء

كرمت نفسه فما يخطر السو ء على قلبه ولا الفحشاء

مُثل من أخلاقه قبل البعثة : ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول نشأته آيات الخلال الحميدة والشمائل الطيبة ، وكذلك كل ناشىء كتب الله أن يترقبه المستقبلُ السعيد تلمح فى نشأته دلائلَ سعادته وتقرأ فى مقدمة حياته ما ينم عن نتائجه . وكان أظهر شمائل الرسول قبل البعثة ثلاث خصال تحلت بها نفسه الكريمة وجعلته خير أهل لأن يكون مهبط وحى ربه ، ورسولا بينه وبين خلقه « فأولى » تلك الخصال تباعده من أول نشأته عن الأوثان وقرابينها وحفلاتها ، وكل ملاهى

السوء التي كان أهل الجاهلية يلهون بها . قال صلى الله عليه وسلم : « لما نشأت بغِّضت إلى الأوثان و بغِّض إلى الشعر ، وما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين . كل ذلك يحول الله بيني و بين ما أريد من ذلك . ثم ماهممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : « لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى إذا جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست أنظر ، فضرب على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك . ثم لم أهم بعد ذلك بسوء . وكما بغِّضت إلى الأوثان والشعر وملاهى أهل الجاهلية حبب إلى الخلوة والوحدة والنظر والتفكير » وكذلك الإنسان الكامل ، إذا نشأ فى بيئة ورأى الناس يولون وجوههم قبلة لا يرضاها ولا سبيل له إلى تحويلهم يربأ بنفسه عن مجتمعاتهم و يؤثر الوحدة على مجالستهم ، لأن كمال النفس ينأى بها عن مظان السوء وجلسائه

ألف النسك والعبادة والخلـ ... وة طفلا وهكذا النجباء

و إذا حلت الهداية قلباً ... نشطت فى العبادة الأعضاء

الخصلة الثانية : صدقه صلى الله عليه وسلم : شهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه ففى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه أباسفيان ابن حرب قبل أن يسلم أبو سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس و يكذب على الله ، ولقى رجل أبا جهل ألد أعداء الرسول فسأله : يا أبا الحكم ! ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا . فخبرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط . وفى هذا يقول الله تعالى لرسوله : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به . قلتم ساحر والله ما هو بساحر .

الخصلة الثالثة : أمانته صلى الله عليه وسلم . كان لقبه فى الجاهلية الأمين وكانوا يستحفظونه أماناتهم ويودعونه ودائعهم . قال ابن إسحاق : ما كان بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عند محمد صلى الله عليه وسلم لما يعلم من صدقه وأمانته . ولما اختلفت قريش فى الجاهلية عند بناء الكعبة فى من يضع الحجر الأسود اتفقت كلمتهم على أن يحكِّموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا محمد أول داخل ، فقالوا : هذا محمد هذا الأمين . قد رضيناه حَكَماً . وكانوا لما عرفوه من صدقه وأمانته ، يتحاكمون إليه فى الجاهلية يفصل فى خصوماتهم ويحسم منازعاتهم ، ويرضون بحكمه وعدله ، ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقى لأن يكرمه الله برسالته . وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل ، أفضل منبت طيب لنمو الفضائل والكمالات . ولذلك صادف منه التأديب الإلهى نفساً كريمة تكملت بما أدبها الله به من الأدب الحسن . فنال صلى الله عليه وسلم من كمال الخلق وشرف الفضيلة ، حتى رأى الناس من حلمه وعفوه وتواضعه وصبره ما جمع قلوبهم حوله ، واستحق ثناء الله عليه فى كتابه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

مُثل من أخلاقه فى الدعوة : لما بعث صلى الله عليه وسلم ، وقام يدعو الناس إلى التوحيد ، تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الفاضلة فيما احتمله فى سبيل الدعوة من الشدائد ، وما عامل به المدعوين من صبر على أذاهم وإحسان فى مقابلة إساءتهم مما كان طريقاً لهداهم وعلاجاً لقوتهم . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قام فى مكة — وهى حصن الأصنام ومهد الوثنيين — يدعو إلى عبادة الله وحده وتنكيس الأوثان . قام وهو يتيم لا يعتمد فى دعوته على جاه أو عصبية ، وهو فقير لا يستعين بمال ولا ثروة ، وهو وحيد يخذله أدنى الأقربين إليه ، وليس له من دون الله ناصر ولا معين . قام يدعو قوماً أشداء أخذتهم العزة بالإثم ، وألفوا ما وجدوا عليه آباءهم واستعزوا بما لهم من حول وسلطان . فوضعوا فى سبيله كل عقبة ، وسدوا فى وجه دعوته كل طريق ، وآذوه ومن تبعه بكل ضروب الإيذاء ، كل هذا ورسول الله

لا يزداد إلا ثباتاً على إيمانه وتمسكا بدعوته ولا يتسرب اليأس إلى قلبه ، ولا الفتور إلى عزيمته . حتى غلب الحقُّ الباطل وأصبحت كلمة الله هى العليا ، وأبدل وحدته أمة قوية ، ويتمه أفضل عصبية .

قام هذا النبي يدعو إلى الله ... وفى الكفر نجدة وإباء
أيما أشربت قلوبهم الكفر ... فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا ... وإذا الحق جاء زال المراء
رب إن الهدى هداك وآيا ... تك نور تهدى بها من تشاء

ولنا فى هذا النجاح عبرتان (الأولى) أن الرسول صلى الله عليه وسلم احتمل فى دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد ، وصنوفاً من الأذى . وما كان شىء من ذلك يضعف من عزيمته ، أو يسبطه عن دعوته . وكذلك الداعى إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ، ويواصل السير فى سبيله ، مهما لاقى من صعاب ونال من أذى : استهزؤوا بالرسول فكان إذا مر عليهم يقولون — سخرية منه — هذا ابن أبى كبشة يُكلّم من السماء . هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء وكان عمه أبو لهب جاراً له ويتعمد رمى القذر على بابه ، فكان رسول الله يلقى القذر ويقول يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ وعقبة بن أبى مُعَيْط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على رسول الله وهو فى صلاته ساجداً ، ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت بنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره . وبينما كان يصلى فى الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى مُعَيْط ووضع ثوبه فى عنقه واشتد فى خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ وما زالوا يبتلونه ومن تبعه بضروب الكيد والمحن حتى ائتمروا على قتله ، واضطُر فراراً بدينه ودعوته أن يخرج من داره ومولده . ولم تزلزل هذه الشدائد من إيمانه ولم تزده إلا ثباتاً على دعوته . وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويصده عن سبيله ، ويحاول إطفاء نور الحق الذى يدعو إليه . ولكن الإيمان القوى واليقين الثابت والغاية السامية تهون الصعاب وتحبب إلى النفس المكاره . والفوزُ للحق والعاقبة

للمحقين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

العبرة الثانية : من نجاح رسول الله فى دعوته أن الفضل الأكبر فى هذا النجاح يرجع إلى أخلاقه وشمائله لأنه أقام من صفاته براهين عدة على صدقه وأن مايدعو إليه حق ، وكان أعداؤه كلما زين لهم مطعن فيه وجدوا من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ماينفى طعنهم ويرد كيدهم * ولما اجتمعوا فى دار ندوتهم يتشاورون فيما يرمون به محمداً فى موسم الحج ليقطعوا عليه طريق الدعوة ، وينفروا منه القبائل ويحولوا بينهم وبينه ، كانوا كلما افترى كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من خلال الرسول التى تفضح مفترياته وتنتج نقيض قصده . وهذا هرقل لما قال له أبو سفيان : إنا لم نتهم محمداً بالكذب قط . قال : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وكثيراً ما كان حلمه عند الغضب وعفوه عند القدرة وإحسانه إلى المسيىء سبباً فى الإيمان به ، وإجابة دعوته ، واجتماع القلوب حوله : جاء يهودى اسمه زيد إلى رسول الله يتقاضاه ديناً فجذب الرسول من ثوبه وأغلظ فى القول وقال : يابنى عبد المطلب أنتم قوم مطل . فهمّ عمر بالانتقام منه ومقابلة الغلظة بالغلظة ، فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر « إنا وهو كنا أحوج منك إلى خير من هذا يا عمر : تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء » . ثم قضى للدائن دينه وطيّب خاطره على ماروعه عمر . وكان هذا سبباً فى إسلام اليهودى . ولما جاء نصر الله والفتح ودخل رسول الله المسجد الحرام جاءه أشراف قريش وسادتهم بعد أن أظهره الله عليهم وحكّمه فيهم فقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم . قال أقول لكم ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

جهلتْ قومُه فأغضى عليهم　　　وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وكان عمر يبكى رسول الله بعد وفاته ويقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً »

ولو دعوت علينا لهلكنا ، ولقد وُطئ ظهرك وشج وجهك وكسرت رباعيتك فما زدت على أن قلت : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وهكذا كان رسول الله داعياً بأخلاقه وأعماله ، كما كان داعياً بأقواله . وكذلك فليكن الدعاة فإن القول لن يبلغ فى تأثيره مبلغ العمل ، والداعى إذا لم يكن عمله برهاناً على قوله لا يستجيب الناس لدعوته ، ويرتابون فى صدق مقالته . وكانوا قديماً يقولون :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

ولكن أثبتت التجاريب أن هذا سبيل للإرشاد غير قويم ، وأن المدعو لا يمكنه أن يغض النظر عما عليه الداعى ، والمريض إذا وجد الطبيب عليلا بذات مرضه يشك فى نفع علاجه . ولهذا ترى القدوة الحسنة أبلغ فى التذكير من أى مقال . قال شعيب لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت » .

عبرة من الهجرة

لما أسرفت قريش فى محاربة الدعوة إلى الإسلام . والكيد للداعى ، واستحجرت قلوبهم وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » أراد صلى الله عليه وسلم أن يولى وجهه بلداً غير مكة وقوماً غير قريش ، علّه يجد أرضاً خصبة صالحة لنمو دعوته ، وقلوبا سليمة تتقبل الحق وتعمل على نصرته ، فأخذ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم ، يكلم كبارهم ويقول : لا أكره أحداً منكم على شىء ، وإنما أريد أن تمنعوا عنى من يؤذينى حتى أبلغ رسالات ربى ، وما كان يجاب من هؤلاء إلا بالرفض ، وأقبح أنواع الرد ، ولكن الله جعل من العسر يسراً ، ومن الشدة فرجا : فعرض نفسه على نفر من الخزرج أتوا من يثرب لزيارة البيت الحرام فأسمعهم كلام الله ودعاهم إلى عبادته وحده ، فاستجابوا دعوته ، واستشارهم فى أن يهاجر إليهم حتى يفتح طريقاً

للدعوة ويؤدى رسالة ربه . فقالوا : يارسول الله دعنا حتى نرجع إلى عشائرنا ندعوهم إلى ما دعوتنا إليه ، فعسى الله أن يجمعهم عليك ، فإذا اجتمعت كلمتهم عليك ، واتبعوك فلا أحد أعز منك ، وموعدك الموسم القابل . وأراد الله أن يظهر دين الحق على الدين كله ، فبايعه فى الموسم من العام التالى نفر من أهل المدينة ، وخرج من أهله وداره ، ومن بين عشيرته وأهله . فخرج خفية يسير فى طريق وعر مخوف ليس معه إلا صاحبه أبو بكر والله ثالثهما ، ينتابه الحزن على فراق وطنه ؛ والخوف من هؤلاء الأعداء المجدين فى طلبه ، وما هو إلا أن فرج الله كربه ، وشد بالأنصار والمهاجرين أزره . وأشرق نور الحق على القلوب ، وفتحت السبل للدعوة « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

والعبرة من هذه الهجرة فى مظاهر عديدة أبلغها أن الدعوة إذا كانت للحق وبالحق فإن اضطهادها يكون فى الغالب من وسائل نشرها وإعلاء شأنها ، لأن الداعى ما دام موقناً أنه على الحق لا يرجع عن دعوته ، واضطهاده يحمله على إمعان النظر وتقليب وجهه فى كل جهة ، وهذا قد يوجد لنجاح الدعوة أسباباً ووسائل ما كانت تتيسر لولا الشدة فى محاربته والإسراف فى إيذائه . (وثانيها) : أن الداعى كالغارس يتخير أطيب الأرض لنمو غرسه وإذا صادفته صخرة لا يمنعه ذلك أن يتطلب الأرض الخصبة ، لأنه موقن بجودة غرسه وطيب بذره ، وأنه إذا وجد المنبت الطيب نما وآتى أكله كل حين بإذن ربه . فالدعوة إلى الحق إذا صادفت قلوباً غلفاً وآذاناً صما لا يمنع ذلك الداعى أن يتلمس قلوباً غير هذه القلوب ، وآذاناً غير هذه الآذان . والحق لابد أن يظهر والخير لا يعدم نصيراً . وجملة القول أن الرسول قبل مبعثه وفى دعوته وفى هجرته أظهر آيات بينات من كرم النفس وأسمى الفضائل وكان من أظهر شمائله صلى الله عليه وسلم اليسر والقصد والاعتدال فى كل شيء . قالت عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شيء ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدّه فى ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً »

« ودخل على عائشة فوجد عندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تقوم الليل ما تنام . فقال عليه السلام : عليكم من العمل بما تطيقون » . وقال لمن قام الليل حتى غارت عيناه : « فأوغلْ فيه برفق ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهله وصحابته متواضعاً لين الجانب يقدّر آراءهم ولا يستبد بالأمر دونهم ، يرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم . وبهذا لانت له القلوب . ونوه الله بشأنه فقال عز من قائل : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وإن فى سيرة الرسول لعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

نماذج من أشهر مواعظ السلف

وفاء بما وعدناك أول الكتاب نسمعك شيئاً من مواعظ السلف الصالح فاستمع لما قالوا فإن فيه الخير الكثير فاغتنمه فقد قال الفضيل : نعمت الهداية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها إلى أخيه . وقال حكيم : اجعل ما فى الكتب بيت مال وما فى قلبك للنفقة . وقال آخر : يكتب الرجل أحسن ما سمع ويحفظ أحسن ما كتب .

فمن المأثور أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال : طوبى لك ياطائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ، ياليتنى كنت مثلك ، والله لوددت أنى شجرة إلى جنب طريق فمر على بعير فأخذنى فلاكنى ثم ازدردنى ثم أخرجنى بعراً ولم أك بشراً * وقدم عليه وفد من أهل اليمن فقرأ عليهم القرآن فبكوا فقال أبو بكر : هكذا كنا حتى قست القلوب . ثم قال : طوبى لمن مات فى نأنأة الإسلام — أى فى بدئه حين كان ضعيفاً قبل أن تكثر أنصاره والداخلون فيه ، تقول نأنأت عن الأمر نأنأة إذا ضعفت عنه وعجزت . وقال لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة : احرص على الموت توهب لك الحياة . وهى من بدائع الحكم وجوامع الكلم . عمل عليها المجاهدون فى سبيل الله فظفروا بحياة سعيدة ليس وراءها حياة . وقال : إياكم والعملَ بالمعاصى

وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم — وروى الحسن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الناس طالبان طالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره ، فأنه ربما أدرك الذى طلب منها فهلك بما أصاب منها ، وربما فاته الذى طلب منها فهلك بما فاته منها . وطالب يطلب الآخرة فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه . وعنه أيضاً أنه قال : أيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ماعند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإنا كنا نعرفكم إذا الوحى ينزل و إذا النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحى وذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم ، ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه . اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طُلَعَة و إنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مرىء ، و إن الباطل خفيف وبىء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلا . اقدعوا : امنعوا . يقال قدع نفسه إذا قمعها وقهرها . وطُلعة . كهُمَزَة كثيرة التطلع إلى الأمور . ومرىء محمود العاقبة . والوبىء المهلك . وعالج الشىء حاوله — وقال يوما لرجل : لايلهك الناس عن نفسك ، فإن الأمر يصير إليك دونهم ، ولا تقطع النهار سادراً فإنه محفوظ عليك ما عملت ، و إذا أسأت فأحسن فإنى لم أر شيئاً أشد طلباً ولا أسرع دركا من حسنة حديثة لذنب قديم — سادراً لاهياً ، والسادر أيضاً المتحير ، والذى لايهتم ولا يبالى ما صنع — وقال ابن عمر : لما حضرت الوفاة عمر غشى عليه فأخذت رأسه فوضعتها فى حجرى فقال : ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى . فمسح خديه بالتراب وقال : و يل لعمر إن لم يغفر له . فقلت : وهل فخذى والأرض إلا سواء يا أبتاه ، فقال : ضع رأسى بالأرض لاأم لك كما آمرك ، فإذا قضيت فأسرعوا بى فى حفرتى ، و إنما هو خير تقدمونى إليه أو شر تضعونه عن رقابكم . ثم بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال خبر

السماء لا أدرى إلى جنة ينطلق بى أو إلى نار — وكتب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبى وقاص : يا سعد سعد بنى وهيب إن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل الذى لله عندك .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول : إنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله — يعنى المصحف — وكان رضى الله عنه حافظاً وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف فقيل له فى ذلك ، فقال : إنه مبارك جاء به مبارك .

ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المقابر فقال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت . فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذى نفسى بيده لو أذن لهم فى الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى — ومن كلامه : ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم ، وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم وَوَلَهٍ من قلوبهم ، لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد — والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد — ولما ضربه ابن ملجم دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فقال : أوصيكما بتقوى الله ، والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال بلى . قال فإنى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه . ثم قال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الصديق والعدو ، والعدل فى النشاط والكسل ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء : يابنى ماشر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية : يا بنى من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ، ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيه ، ومن هتك

حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومَن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال احتقُر ، ومن جالس العلماء وُقِّر ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحباً صالحاً يغنم ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن لا يملك نفسه ندم ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . — يا بنى الأدب خير ميراث ، وحسن الخلق خير قرين . يا بنى العافية عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله تعالى ، والواحدة فى ترك مجالسة السفهاء . يا بنى لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعلى من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة لا لباس أجمل من العافية — الحرص مفتاح التعب ، ومطية النصب . التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم . بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد ، فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله ، وحبه وبغضه ، وأخذه وتركه ، وكلامه وصمته ، وقوله وفعله .

وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغتبطهم فيه . الثواء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم ، فماذا تنظرون ؟ ألمعاينة فكأن قد ، هيهات هيهات ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة — أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم . وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . رفع له عَلَم فشمر إليه ، فالوحاء الوحاء النجاء النجاء . علام تعرِّجون ؟ أتيتم ورب الكعبة . قد أُسرع بخياركم وأنتم كل يوم تنظرون . إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه السلام على علم منه ، اختاره

لنفسه ، و بعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه . وكان صفوته من خلقه ورسوله إلى عباده ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض وآتاه منها قوتاً و بلغة . ثم قال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضى له ربه فأبعدهم الله وسحقهم — يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر فأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام ولم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم اذكر قوله : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفو الدنيا وادرءوا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدراً ، ولا الكدر ما عاد صفواً . دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم . ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور . ولقد رأيت أقواماً كانوا لحسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها مالى أسمع حسيساً ولا أرى أنيسا ؟ ذهب الناس ، و بقى النسناس . لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب: « رحم الله امرءا أهدى إلينا مساويئا » . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون. المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكنه أخذه عن ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله وحال بينهم و بين شهواتهم ، ما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه ياابن آدم الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وكان إذا قرأ : «ألهاكم التكاثر» قال : عم ألهاكم ؟ عن دار الخلود وجنة لا تبيد ؟ هذا والله فضح القوم وهتك الستر وأبدى العوار ، تنفق دينارك فى شهواتك سرفا ، وتمنع فى حق الله درهما ، ستعلم يالكع أن الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف وقومه ذكر ا

العرض . وأما الكافر فقد قمعه السيف ، وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففى الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ، و يضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة . ويلك قتلت وليه ثم تتمنى عليه جنته . وكان يقول : رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتب وأناب ورجع من قريب رحم الله رجلا وعظ أخاه وأهله فقال : يا أهلى صلاتكم صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده فقال : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » يا ابن آدم كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس . وكان يقول: لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد فى نفسه عيباً آخر ينبغى له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر ، فإنك إن رأيته سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئا من الشر وإن صغر فإنك إن رأيته ساءك مكانه — وكان يقول : رحم الله عبداً كسب طيبا وأنفق قصداً ، وقدم فضلا وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها فلا والله ما وجد ذو لب فيها فرحا . فإياكم وهذه السبل المتفرقة التى جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون خدودهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم — يا ابن آدم ان كان لا يغنيك ما يكفيك فليس ههنا شيء يغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك . يا ابن آدم لا تعمل شيئا من الحق رياء ولا تتركه حياء .

وكان يقول : إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا مالا يقضى أهل الدنيا بدنياهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبة فى علمهم ، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة فى دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم وزهدوا فى علمهم لما رأوه من سوء موضعه عندهم — وكان يقول : لا أذهب إلى من يوارى عنى غناه ويبدى لى فقره ويغلق دونى بابه ، ويمنعنى ما عنده ، وأدع من يفتح لى بابه ، ويبدى لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده . وكان يقول : يا ابن آدم لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مهتم وعلج أغتم ، وأعرابى لا فقه له ، ومنافق مكذب ، ودنياوى مترف . نعق بهم ناعق فاتبعوه ، فراش نار وذباب طمع . والذى نفس الحسن بيده ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله . الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه — أى قوم إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه . وقال فى يوم فطر — وقد رأى الناس وهيئاتهم — إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون فخسروا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون . أما والله أن لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسىء بإساءته عن ترجيل شعر أو تجديد ثوب — وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه — ودخل يوماً على رجل يعوده فقال : كيف تجدك ؟ قال : أفرَق من الموت . قال : فمن أصبت الخير كله ؟ قال من الله . قال : فلم تفرَق ممن لم تصب الخير كله إلا منه ؟ — وكان يقول : أبغض الناس إلىّ أن أظلمه من لا يستعين على بأحد إلا بالله — وكان يقول : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها

وعظ العلماء للأمراء

لا ينبغى للمرشد أن يتهاون مع ذوى السلطان فيما يخالف الدين و يضاد الحق ، موافقة لرأيهم ومتابعة لهواهم ، فربما زلت أقدام المتزلفين فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة ، وقبح الأحدوثة . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ، ولم يترك صلحاؤها فجارها ، ولم يمار أخيارها أشرارها ، فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفقر والفاقة ، وملأ قلوبهم رعبا » . علم هذا علماء السلف وأردفوا العلم بالعمل ، فكان لهم مع الأمراء وذوى السلطان مواقف مشرفة ، خلدت لهم أحسن الذكرى وأجمل الآثار ، أعانهم على ذلك ما امتلأت به قلوبهم من الثقة بالله مع ما يعلمونه من سلطان الدين على نفوس الأمراء وذوى السلطان . وإليك شيئاً من آثارهم فى ذلك ينفعك فى حياتك ومهمتك .

قال الزهرى : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين اسمع منى أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك . قال لا تَعِد أحداً عِدة وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرنك مرتقى سهل إذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر تارات فكن على حذر — وروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن البصرى والشعبى، وجعل يحادثهم فذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه فنال منه ، وجاراه من معه تقرباً له ، وأمنا من شره ، إلا الحسن البصرى فصمت على مضض وعض على إبهامه إذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال : يا أبا سعيد مالى أراك ساكتاً ؟ قال : ما عسيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب . قال : سمعت الله جل ذكره يقول : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى

الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم » فعليّ ممن هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه و بينها ، وأقول : إن كانت لعلى هنات فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا . فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتاً خلفه ، وخرج الجمع . فقال عامر الشعبى : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره . فقال : إليك عنى يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت أو سكت فسلمت . قال الشعبى : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذاك أعظم فى الحجة عليك ، وأشد فى التبعة . و بعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذى تقول : قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم . قال : ماحملك على هذا ؟ قال : ماأخذه الله على العلماء من المواثيق « ليُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه » ، قال : يا حسن أمسك عليك لسانك و إياك أن يبلغنى عنك ما أكره ، فأفرق بين رأسك وجسدك — هكذا تكون قوة الإيمان ، وهكذا تكون الثقة باللهوهكذا تكون الشجاعة فى نصرة الحق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ودخل ابن السماك يوماً على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب ، فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلا . فلما وضع الماء قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك مُنعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكى . قال : اشرب هنأك الله ، فلما شرب قال : أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟ قال بملكى كله ، فقال : يا أمير المؤمنين إن ملكا تربو عليه شربة ماء لخليق ألا ينافس فيه ، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته . فقال الفضل ابن الربيع — وكان واقفاً بين يدى الأمير — مهلا يا ابن السماك فأمير المؤمنين أحق من رجا العاقبة عند الله بعدله فى ملكه وحسن قيامه بحق ربه . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين والله إن هذا ليس معك فى قبرك غداً ، فانظر لنفسك فأنت بها أخبر

وعليها أبصر ، وأما أنت يافضل فمن حق أمير المؤمنين عليك فى تقريبه إياك وبره بك ، أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته ، فذلك أكفأ ما تؤدى به حقه عليك والسلام — وقدم هشام بن عبد الملك حاجا أيام خلافته فقال : إيتونى برجل من الصحابة . فقيل قد تفانوا . قال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليمانى ، فلما دخل عليه خلع نعله بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ، بل قال : السلام عليك . ولم يكنه ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً وقال يا طاووس ما الذى حملك على ماصنعت ؟ فقال : وما صنعت ؟ فازداد غضباً وقال : خلعت نعلك بحاشية بساطى ، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ، ولم تكننى وجلست بازائى . فقال طاووس : أما خلع نعلى بحاشية بساطك فإنى أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يغضب على لذلك ، وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك لم تكننى فإن الله تعالى سمى أولياءه فقال : يا داود يا يحيى ، يا عيسى . وكنى أعداءه فقال : « تبت يدا أبى لهب وتب » . وأما قولك جلست بإزائى فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظنى . فقال طاووس : سمعت من أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن فى جهنم حيات كالتلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته ، ثم قام عنه وانصرف .

حلم أمير وثبات امرأة

فى العقد الفريد عن سهل بن أبى سهل التميمى عن أبيه قال : حج معاوية رضى الله عنه فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجىء بها فقال : ما جاء بك يابنة حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبتنى ، أنا إمرأة من

كنانة . قال : صدقت ، أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتيني ، وواليته وعاديتيني ؟ قالت : أو تعفيني ؟ قال : لا . قالت : أما وقد أبيت فإنى أحببت علياً على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ماعقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك فى القضاء ؛ وحكمك بالهوى . قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك ، قلت . بهند أمك والله كان يضرب المثل فى ذلك لأبى . قال معاوية . يا هذه أربعى على نفسك ، فإنا لا نعنى إلا خيراً ، أنه إذا انتفخ بطن المرأة فقد تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها . فسكتت وسكت . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت عليا ؟ قالت : إى والله قال فكيف رأيته ؟ قالت . رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك . قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطسوت . قال : صدقت . فهل لك حاجة ؟ قالت : أو أنت قاضيها ؟ قال : نعم قالت : أريد منك مائة ناقة حمراء ، فيها فحلها وراعيها . قال : ماذا تصنعين بها ؟ قلت : أغذوا بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر . قل فإن أعطيتك إياها فهل أحل عندك محل على ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ؟ فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم ... فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم
خذيها هنيئا واذكرى فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان علىّ حيا ما أعطاك منها شيئا . قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من بيت مال المسلمين . فقال اعطوها ما سألت ، وردوها إلى أهلها مكرمة .

وقال القطبى فى تاريخ مكة المكرمة : إنه لما حج المنصور كان يخرج من

دار الندوة — وكانت خلف المكان الذى أعد لصلاة الإمام الحنفى ، وكان ينزل فيها الخلفاء والملوك — إلى الطواف آخر الليل فيطوف و يصلى ، ولا يعلم به أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجىء المؤذنون ، و يسلمون عليه و يؤذنون للفجر و يقيمون الصلاة ، فيخرج يصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة فى السَّحَر ، وشرع يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور فى مشيته حتى ملأ سامعيه من كلامه ثم خرج من الطواف إلى ناحية المسجد ، ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه ، فصلى ركعتين وقبل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على المنصور ، فقال له المنصور : ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى وأشغل خاطرى . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن آمنتنى على نفسى وأصغيت إلى بأذن واعية أنبأتك بالأمور بأصلها ، و الا احتجبت بقدرة الله تعالى فلا تصل إلى ، واقتصرت على نفسى ففيها لى شغلٌ شاغل عن غيرى . فقال : أنت آمن على نفسك فقل فإنى ألقى إليك السمع وأنا شهيد بالقلب . فقال : إن الذى داخله الطمع حتى حال بينه و بين الحق ، ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغى فى الأرض هو أنت . فقال : أيها الرجل ، كيف يداخلنى الطمع والصفراء والبيضاء بيدى ، والحلو والحامض فى قبضتى ؟ ومن يحول بينى وما أريد من ذلك ؟ فقال : هل داخل الطمع أحداً من الناس ما داخلك ؟ يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأنفسهم وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك و بينهم حجابا من الحجر والطين ، وأبوابا من الخشب والحديد ، وحجَّابا معهم السلاح ، واتخذت وزراء فجرة ، وأعوانا ظلمة ، إذا نسيت لا يذكرونك ، و إذا أحسنت لا يعينونك ، وقوَّيتهم على ظلم الناس بالسلاح والأموال والرجال ، وأمرت ان لا يدخل عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإيصال المظلوم إليك ، ومنعت من إدخال الملهوف عليك ، وحجبت الفقير والجائع والمحتاج عنك ، وما أحد منهم

إلا وله حق فى هذا المال ، فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرتهم أن لا يحجبوا عنك يقولون فى أنفسهم : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه فاتفقوا ألا يصل إليك من أخبار الناس شىء إلا ما أرادوه ، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعدوه ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وأكرموهم وهادُوهم ، وكان أول من داراهم عمالك بالأموال والهدايا والرشا ، فتقووا بها على ظلم رعيتك ، وتبعهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيتك ليظلموا من دونهم ، فامتلأت بلاد الله تعالى بالظلم والغشم ، وزاد بغيهم وطمعهم ، وكثر فسادهم وإفسادهم ، وصار هؤلاء شركاءك فى سلطانك وأنتَ غافل ، فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول إليك ، وإن أراد رفع قصته إليك وصرخ بين يديك ضُرب ضربا مبرِّحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك ، فإن سألتهم عنه قالوا : أساء الأدب فأدبناه ، أو جهل مقامك فضربناه ، فما بقاء الإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام ، وإنى سافرت إلى أرض الصين فقدِمتها ، وقد أصابت ملكهم آفة أذهبت سمعه فجعل يبكى ، فقال له وزراؤه : مالك تبكى لا بكت عيناك ؟ فقال : إنى لا أبكى على فقد سمعى ، ولكن أبكى على المظلوم يصرخ ببابى يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته ، وحيث ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب ، فنادوا فى الناس أن لا يلبس أحمر إلا مظلوم لأميزه بالنظر وأعينه ، وكان يركب كل يوم ليرى المظلومين ، ويستدنيهم ويرفع ظلمهم . أنظر يامسكين ، هذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على رأفتك بالمسلمين . أنت مؤمن بالله وابن عم نبيه صلى الله عليه وسلم وإن الأموال لا تجمع إلا لواحد من ثلاثة أمور : فإن قلت أجمعها لولدى فقد أراك الله عبراً فى الطفل يخرج من بطن أمه عُريانا ما له على وجه الأرض مال ولا مال إلا دونه يد شحيحة به تحويه وتصونه عن كل أحد ، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى يسوق إليه ما قدره له من المال ، فيملكه ويحويه كما حواه غيره ، ولست الذى يعطى ، بل الله يعطى من يشاء ؛ لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع — وإن قلت أجمع المال

ليشتد به سلطانى فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضــة ، وما أعدوا من السلاح والـكُراع ، وما ضرك ما كنت فيه أنت وولد أبيك من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد . و إن قلت أجمع المـال لطلب غاية هى أعلى ممـا أنت فيه ؛ فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تدرك إلا بالعمل الصالح — واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيتك إذا عصاك بأعظم من القتل ، و إن الله يعاقب بالخلود فى العذاب الأليم : « والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . فكيف يكون وقوفك غداً بين يدى الله وقد نزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ، فهل يغنى عنك ما كنت فيه شيئا ؟ قال : فبكى المنصور بكاء شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال : كيف إحسانى فيما خُوِّلْتُ ولم أر من الناس إلا خائناً ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام الراشدين قال : ومن هم . قال العلماء العاملون . قال : فإنهم فروا منى . قال : نعم فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك ، فإذا فتحت الأبواب وسهلت الحجاب ، ونصرت المظلوم ، ومنعت الظالم ، وظهرت بالعدل ، ونشرت الفضل ، فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك . وجاء المؤذنون وسلموا عليه وأذنوا للفجر وأقاموا فقام المنصور وصلى بالناس ، و إذا بالرجل غاب من بين أيديهم .

وروى أن الخليفة المنصور العباسى كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعاً ، وأن الأوزاعى دخل عليه يوماً فقال له : عظنى . فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله . يا أمير المؤمنين إن المُلْكَ لا يدوم لمخلوق ، و إنما الملك لله وحده ، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك . يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه دعا للقصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابياً وهو غير متعمد ؛ فقال لأعرابى : بأبى وأمى قد أحللتك ، وما كنت لأفعل ذلك أبداً . يا أمير المؤمنين إن خير الـكرم عند الله التقوى ، ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبها بمعصية الله وضعه وأذله . فلما انتهى من عظته أمر له المنصور بال فاعتذر واستعفى من قبوله وقال يا مولاى ما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا

فأحرم ثوابها ، وأقلل من نفعها ، ومادام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل فنحن فى خير الله ثم فى خيره . — هكذا كان العلماء لا يخافون فى الله لومة لائم ، ويرون أن الدنيا مزرعة الآخرة وسبيل إليها ، فلم يجعلوها أكبر همهم ، وجل مقصودهم ، فقالوا الحق ولو كان مُرًّا ، فقبله منهم الكبير والصغير ، والأمير والحقير ، وكيفما تكونوا يول عليكم .

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويحميها من أذى البرد والحر . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلا تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وبدد ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه . يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك عنده أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه

وصاحبته و بنيه . واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر مافى القبور وحُصّل ما فى الصدور فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، فتنوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، و يأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم . إنى يا أمير المؤمنين و إن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولوا النهى من قبلى فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسلام عليكم ورحمة الله .

وعظ الفضيل بن عياض لهارون الرشيد

قال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم إذ سمعت قرع الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك . فقال : و يحك ، قد حاك فى نفسى شىء لا يخرجه إلا عالم ، انظر لى رجلا أسأله . فقلت : ها هنا الفضيل بن عياض . فقال : امض بنا إليه . فأتيناه و إذا هو قائم يصلى فى غرفته ، يتلو آية من كتاب الله و يرددها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : مالى ولأمير المؤمنين . فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أو ليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس للمؤمن أن يُذِل نفسه » . ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زواية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى

إليه . فقال : أوّاه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى . قال : فقلت في نفسي : ليكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي . فقال : جدّ لنا ما جئنا له ، يرحمك الله . قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصاً من ذنب مافعلوا ، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك . ثم قال : إن عمر بن عبدالعزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على . فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة . فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها على الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم ولداً . فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإني لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام . فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ! . فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه . فقلت ارفق بأمير المؤمنين . فقال : يا بن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق فقال : زدني . فقال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه فقال : يا رسول الله أمّرني على إمارة . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عباس عم النبي نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال : زدني يرحمك الله . قال : ياحسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم دين لربي لم يحاسبني

عليه ، فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى إنما أعنى دين العباد قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا وأمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أُريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . فقال له : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك . فقال : سبحان الله أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت . فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فقال هارون الرشيد : هذا سيد المسلمين اليوم .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فجلس فى مجلس وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى إذا أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن العبث به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين . فكشف هارون السجاف — الستر — بيده وقال : لبيك يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامرى قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يمضى على جمل وتحته رحل رثٌّ » فلم يكن ضربٌ ولا طردٌ ، ولا إليك إليك . وتواضعك فى سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك . فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض وقال : زدنا يا بهلول يرحمك الله . فقال بهلول :

هب أنك قد ملكت الأرض طراً ... وأن لك العبادَ فكان ماذا
أليس غداً مصيرُك جوفَ قبر ... ويحثو الترابَ هذا ثم هذا

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول هل غيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين رجلٌ آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف فى جماله كُتب فى خالص ديوان الله من الأبرار . فقال هارون له : أحسنت يا بهلول . ثم أمر له بجائزة فقال بهلول : أرْدُدْ الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لى فيها . قال : يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا يُقضى دينٌ بدين ، اردد الحق إلى أهله ؛ واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين بنفسك ، قال : يابهلول فنُجرى عليك مايكفيك

فرفع بهلول رأسه إلى السماء وقال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمحال أن يذكرك وينسانى ، فأسبل هارون السجاف ومضى إلى شأنه — والمقصود من هذا بيان استماع هارون لعظة العلماء وقبوله الحق ، لطهارة قلبه وعلو همته ؛ وقلب كهذا لايخرج منه إلا الأخلاق الكريمة ؛ شأن القلوب الحية والنفوس الطيبة

وقال سفيان الثورى : لما حج المهدى قال : لابد لى من سفيان ، فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذونى بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدنانى ثم قال : لأى شىء لا تأتينا فنستشيرك فى أمرنا ، فما أمرتنا من شىء صرنا إليه ، وما نهيتنا عن شىء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هذا ؟ قال : لاأدرى ، لى أمناء ووكلاء قلت : فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما حج قال لغلامه : كم أنفقت فى سفرنا هذا ؟ قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً . قال : ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين — ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد قال له : عظنى . قال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته فى عباده غيرك ، فلا ترض لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به ، فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته فى مهلة من أجله كان خليقاً أن يُعْتِق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك وأنك لا تُقْدم إلا على نادم مشغول ، ولا تخلف إلا مفتونا مغروراً ، وإنك وإيانا فى دار سفر وجيران ظعن .

ولما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم الأعرج وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال له : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى الخروج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا بحقها ، ولا تضعها إلا فى أهلها قال : ومن

يقوى على ذلك ؟ قال من قلده الله من الأمر ما قلدك . قال : عظنى يا أبا حازم قال : يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك . ثم قال : يا أمير المؤمنين نزه ربك فى عظمته عن أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . قال : يا أبا حازم أشر علىّ . قال : يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق فما نَفَق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاعتبر لنفسك أيهما شئت . قال : فمالك لا تأتينا ؟ قال . وما أصنع بأتيانك ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أحزنتنى ، وليس عندى ما أخافك عليه ، ولاعندك ماأرجوك له . قال : فارفع إلينا حوائجك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت . يقول الله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فمن ذا الذى يستطيع أن يَنقُص من كثير ما قسم الله ويزيد فى قليل ما قسم الله ؟ . فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال رجل من جلسائه : أسأت إلى أمير المؤمنين قال أبو حازم : أسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء « لَيبيننُنّه للناس ولا يكتمونه » ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسى ؟ .

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ « والفجر وليال عشر » حتى بلغ « إن ربك لبالمرصاد » لمن فعل مثل فعالهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن ببابك نيرانا تأجج ، لا يُعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم إلا بفساد آخرتك ، أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده ، فقال له سلمان بن مجالد : اسكت فقد غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : ويلك يا ابن مجالد ! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه ؟ اتق الله أميرَ المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سُلما إلى شهواتهم ، فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب وإن هؤلاء لن يُغنوا عنك من الله شيئاً . ويروى أن الحسن ابن محمد بن الحسين رضى الله عنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : ياعمر ثلاث

من كن فيه فقد استكمل الإيمان . فقال له عمر : إيه أهلَ بيت النبوة ومعدنَ الرسالة ، وجثا على ركبتيه ، فقال الحسن : من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له . ولما ولى عمر بن عبد العزيز وفَدَت الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم للكلام — وكان حديث السن — فقال له عمر : لينطق من هو أسن منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام . وعرف فضله من سمع خطابه . ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان فى الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال : صدقت قل ما بدالك . فقال الغلام : أصلح الله الأمير نحن وفد تهنئة لا وفد مرزأة ، وقد أتيناك لِمَنِّ الله الذى منَّ علينا بك ، ولم يُقدِمنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا ، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك . فقال له عمر عظنى يا غلام . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهَوَوْا فى النار ، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحى هذه الأمة . ثم سكت . فسأل عمر الغلام عن سنه فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . فتمثل عمر عند ذلك فقال :

تعلم فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

وفى مثل هذا قيل للعتابى — وكان لا يبالى ما لبس — مالك لا تجيد الملبوس؟ فقال : إنما يرفع الرجلَ أدبُه وعقله لا حِلْيته وحُلته ، لَحَى الله أمراً يرضى أن ترفعه هيئته وجماله . لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ، ويعلو به أكبراه همته ولبه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : أما بعد ، فلو كان لك عمر نوح وملك سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، فإن أمامك هول الموت

ومن ورائه داران إن أخطأتك هذه صرت إلى هذه — ودخل عليه محمد بن كعب القرظى وهو مكتئب حزين ، فأقبل عليه وقال : عظنى . فقال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من خلقه فوقك ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك ، واجعل الناس أصنافاً ثلاثة : الكبير بمنزلة الأب ، والأوسط بمنزلة الأخ ، والصغير بمنزلة الولد ، فبر أباك وصل أخاك واعطف على ولدك ، واعلم أنك أول خليفة يموت — ومن شجاعة عمر بن عبد العزيز فى قول الحق عند الخلفاء قبله : أن الوليد بن عبد الملك راوده على أن يخلع سليمان فقال : يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما فى عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ؟ — ودخل على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه وهو يومئذ ولى عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن فى العقار شيئاً . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله وأين كتاب الله ؟ فقال : يا غلام اذهب فأتنى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتب فى ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف ؟ قال أيوب والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه . فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا . فقال سليمان لأيوب : مه ، لأبى حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا ياأمير المؤمنين ما حلمنا عنه — ومن كلامه : ما كذبت منذ علمت أن الكذب يَشين صاحبه — ولما حج هارون الرشيد بعث إلى مالك بن أنس رضى الله عنه بكيس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه ودخل المدينة بعث إلى مالك : إن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام . فقال للرسول : قل له إن الكيس بخاتمه . وقال : الرسول عليه الصلاة والسلام والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون — ودخل محمد بن صبيح بن السماك البغدادى الواعظ على هارون الرشيد فقال : ياأمير المؤمنين إن تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك . فقال : ما أحسن ماقلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن امرأ

أتاه الله جمالا فى خلقته وموضعاً فى حسبه ، وبسط له فى ذات يده فعف فى جماله ، وواسى فى ماله ، وتواضع فى حسبه ، كتب فى ديوان الله من خالص عباد الله . فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتب له بيده — وروى صاحب الحلية قصة أخرى لابن السماك مع الرشيد تشبهها . قال : بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك فدخل وعنده يحيى بن خالد البرمكى فقال يحيى : إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح عنك فى نفسك ، وكثرة ذكر منك لربك عز وجل ، ودعائك للعامة . فقال بن السماك : أما مابلغ أمير المؤمنين من صلاح عنا فى أنفسنا ، فذلك بستر الله علينا ، فلو اطلع الناس على ذنب من ذنو بنا لما آقدم قلب لنا على مودة ، ولا جرى لسان لنا بمدحة ، وإنى لأخاف أن أكون بالستر معروفا ، وبمدح الناس مفتونا وإنى لأخاف أن أهلك بها وبقلة الشكر عليها . فدعا بدواة وقرطاس فكتبه الرشيد — ولما دخل محمد بن واسع سيد العبّاد فى زمانه على بلال بن أبى بردة أمير البصرة — وكان ثوبه إلى نصف ساقه — فقال بلال : ما هذه الشهرة يا بن واسع ؟ فقال له بن واسع : أنتم شهّرتمونا . هكذا كان لباس من مضى ، وأنتم طولتم ذيولكم فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة ، وأما أنا فلما دخلت على ملك مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد السلام على نحو ماسلمت رداً جميلا ، وأكرم إكراماً جزيلا ، وأمرنى بدخول مجلسه وأمرنى بالجلوس فيه . فقلت : أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلا شريفاً باذخا ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك . وإن الله تعالى قد ألزم الورى طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله منك ، وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال والإحسان . قال الله تعالى (اعملوا آل داود شكراً) واعلم أن هذا الملك الذى أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ماصار إليك . فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فان الله سائلك عن النقير والقطمير

والفتيل . قال الله تعالى : « فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الأنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » فوالله ماعدها نعمة كما عددتموها . ولا حسبها كرامة كما حسبتموها : بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به ، فقال : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ماقلدك ، وجعلك كهفا للملهوف وأمانا للخائف .

مايجب أن يراعى فى وضع خطب المنابر

لما كان الغرض من الخطابة الدينيـة دعوة الناس إلى الهـدى ودين الحق وإحياء الفضيلة وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد القلوب وتطهيرها من الأمراض ، كانت الخطب المجملة لاتفيد الجمهور شيئاً ، لأنها لم تلمس مواضع الداء ولم تهتد الى الدواء — فمثلُ من يقول إن المعاصى تزيل النعم ، وإن التعلق بالدنيا مبعد من الله تعالى وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد فى البر والبحر ، ولو استقمنا ما انتُقِمنا ، مال المساجد خربت وبيوت اللهو والفسوق عمرت . مال القلوب قست . مال العيون لا تبكى ، مال النفوس لا تتألم . قد انتهكتم الحرمات وتعديتم الحدود ، وأغضبتم الجبار ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما إلى ذلك من مجمل القول ، مَثلُ الطبيب الذى يخطب الجمهور فى قواعد الصحة العامة وفيهم المسلول والمحموم والمجذوم والمبطون ، وذو الرمد الصديدى والبول الدموى ، والمصاب بالسيلان أو الزهرى ، وما شاكل ذلك من الأمراض الخبيثة المعدية ، التى تحتاج إلى دواء خاص وعلاج خاص ، وحميـة خاصة ، ويقول : نظفوا غرف النوم ، قللوا من الغذاء . احترسوا من الرطوبة ، لاتأكلوا المغلظات . لا تبصقوا فى أماكن الاجتماع . وما أشبه ذلك أيضاً من الـكليات العامة التى تصلح للسليم كما تصلح

المريض . فهم لا يلتفتون إليها لأنها أصبحت لديهم فى حكم المعلوم بالضرورة ، لاتؤثر فيهم أدنى تأثير ، لأنها لم تلمس موضع الألم فيحس المريض ، ولم تصف دواء فيعلق عليه الأمل وينشط فى العمل — لذلك يجب على الخطيب الدينى أن يتكلم على الموضوع الخاص ويحلله تحليلا دينياً خلقياً اجتماعياً ، فيتكلم مثلا على قتل النفس ظلماً ، مبيناً مافيه من الأضرار المادية والاجتماعية كتولد الأحقاد والضغائن ، وبقائها بين الأسر ، وتربص الدوائر من كل منها بالأخرى ، وانتقال ذلك الشر من الأصول إلى الفروع . وكالاخلال بالأمن والراحة : هذا إلى مافى هذه الجناية الشنيعة الأثيمة من تعريض النفس للاعدام ، والأموال للاتلاف ، والأولاد للضياع ، فضلا عن غضب الله ومقته . ذاكراً الآيات والأحاديث الواردة فى التحذير من جناية القتل . ويقبح أيضاً جريمة الانتحار مبيناً أنه نتيجة السفه وقلة الإيمان ، وعدم الثقة بالله تعالى والرضاء عنه فى قضائه وقدره . وأن المنتحر قد باء بإثمه ولقى الله وهو عليه غضبان ، تاركا وراءه الخزى والعار وسوء الذكرى وقبيح الأحدوثة — ثم يأتى بما يناسب المقام محذراً من هذه البدعة السيئة غاية التحذير .

ومن يخطب فى الزنا يذكر أضراره البدنية والخلقية والمالية والاجتماعية ، من اختلاط الأنساب وتمزيق الوحدة ، وأن زوج الزانية يضيع ماله على أولاد الأجانب . وأن الزانية والزانى قد هتكا حرمة الزوج ، واعتديا على حقه الشرعى وهتكا حرمة الأسرة ، وسجلا عليها عاراً لا يمحى ، وخزياً لا يزول ، وتشبهاً بالحيوان الأعجم الذى ينزو ذكره على أنثاه بلا قيد ولا شرط ، وأن من اجترأ على الله بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء يجترىء فى سبيل شهوته على ضرر العباد ، والسعى فى الأرض بالفساد ، فضلا عما فى الزنا من التعرض لغضب الله ومقته . ثم يأتى بآيات وأحاديث الزنا وفظاعة عقوبته حيث كان فاحشة وساء سبيلا — وينفر الناس من الزانى والزانية بأنهما وباء على المجتمع لأن من استحكم فيه مرض يود أن يكون الناس مثله ، والتنفير باب عام ينبغى دخوله فى كل المهلكات . ومثل

الزنا اللواطة ، وقريب من الزنا السفور وتبرج النساء فى الأسواق والطرقات ، واختلاط الجنسين — ومن يخطب فى التحذير من الربا يذكر مافيه من الأضرار المالية والاقتصادية والأدبية ، وأنه ما انتشر فى أمة إلا ذلت بعد عزها ، وافتقرت بعد غناها ، وفقدت قوتها واستقلالها ، ووقعت فى قبضة الاستعباد . هذا إلى مافى الربا من المحق وذهاب البركة ، ومحاربة الله والتعرض لغضبه وعقوبته فى العاجل والآجل . ويستدل على هذا كله بالأدلة النقلية والمشاهدات الحسية — وإذا خطب فى التحذير من تناول المسكرات وتعاطى المخدرات ذكر مافيها من الأضرار المالية والصحية والخلقية والاجتماعية ، وأردف ذلك بما جاء فيها من الوعيد الشديد — وبالجملة إذا تكلم فى المنكرات يحللها على هذا النحو مبتدئا بأشدها خطراً وأكثرها وقوعا فى الأمة التى يخطب فيها . وإذا خطب فى باب الأوامر الآلهية والفضائل النفسية عمد إلى شعب الإيمان شعبة شعبة ، وتكلم على كل شعبة منها على حدة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء والأمانة والحياء ، مبينا حكمة مشروعيتها وآثارها التى تعود على صاحبها وعلى الجمعية البشرية ، ومافى تركها والاتصاف بأضدادها من الخسارة عليه وعلى الحياة الاجتماعية ، مشفوعا ذلك بالأدلة النقلية والعلقية والحسية ، مراعياً أيضاً أكبرها خطراً وأكثرها شيوعا فى الناس . ويخطب فى المواسم الشرعية بما يناسب الحال فيتكلم فى رمضان مثلا على وجوب الصوم حتى على الأمم السابقة ، مبينا سر مشروعيته من ضبط النفس وإضعاف شهوتها ، وكونه وسيلة إلى تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها على الإرادة ، فإنها إذا انقادت للامتناع عما لاغنى لها عنه من الغذاء ، فأولى أن تنقاد للامتناع عما لا حاجة لها فيه من الحرام . فكان سببا فى قوة العزيمة واتقاء المحارم ، وأنه يبعث فى الإنسان فضيلة الرحمة بالضعفاء والعطف على البائسين ، وأنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية ، وما إلى ذلك من المزايا الصحية والخلقية والاجتماعية . ثم يبين ما للصائم عند الله من عظيم المثوبة على هذا الجهاد العظيم ، ذاكرا ما ورد فى الصوم من أحاديث الترغيب . ويتكلم فى العيدين على الأعمال المطلوبة شرعاً من صدقة

وأضحية وتهليل وتكبير وصلة رحم . وعطف على بائس وأرملة وإكرام يتيم ، مرغبا فى العفو عن الهفوات والصفح عن الزلات ، وترك الخصومات ، وإصلاح ذات البين — ويحذر الناس من العادات المحرمة والبدع السيئة التى تقع فى العيدين — وينبغى أن يتكلم على صدقة الفطر فى الجمعة التى قبل العيد ليحسن الناس أداءها فى الوقت الأفضل على الوجه المطلوب . ويتكلم فى ربيع الأول على سيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بذكر نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته ، وأخبار مولده وتربيته وصفة معيشته فى نفسه ، وزواجه وسيرته فى أهله ، تمهيداً لبيان المقصد الأعظم وهو نبأ بعثته التى كانت رحمة للعالمين ، مبينا ما كان عليه من الأخلاق الكريمة ، والآداب العالية ، وما تم على يديه من الإصلاح وجلائل الأعمال ، وما قاساه من الأهوال والمتاعب الشديدة فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، مستمدا ذلك كله من الكتاب المبين ، وصحيح السنة ، وما تمس الحاجة إليه مما أثبته ثقات المؤرخين ، مجتنبا كل مالم تثبت صحته مما يتعلق بسيرته الشريفة ، مبينا أن الفائدة المقصودة من ذلك هى تذكير الناس بخلاصة تاريخ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ليتذكر المسلمون منة الله تعالى عليهم ببعثته ، وتتغذى أرواحهم بزيادة الإيمان به وكمال محبته ، ويزداد تعلقهم بهذا الرسول العظيم ، ويحرصوا على اتباعه والاقتداء به وإحياء سنته والتحلى بآدابه — ولا يكفى ذكر نسبه الشريف مجردا عن ذكر مآثر آبائه ، ولا ذكر أوصافه الجسمية كما يفعله بعض خطباء اليوم فذلك لا يفى بالغاية المقصودة من ذكر حياته الشريفة . وإذا تكلم على وفاته فلا يذكرها مجردة عن بيان ما فيها من العبر ، وإنما يتكلم عما لاقاه من الشدائد فى مرض الموت وسكراته مع الصبر والرضا ، وأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذا كان قد لقى مثل تلك الأهوال وهو المغفور له والمعصوم ، فكيف بنا ونحن المذنبون المقصرون ؟ ولا ندرى ما يفعل بنا — ثم ينبه العقول إلى الاحتفاظ بسيرته وتعظيمه ومحبته ، والعمل على إحياء سنته ، وإطعام الطعام شكراً لله على نعمة وجوده العظمى ؛ ويحث الناس على

الإكثار من الصلاة والسلام عليه ، لتكون قلوبهم دائماً معمورة بمحبته . ويبين لهم أن المحبة دائماً تقتضى الجري على ما يهوى المحبوب ، وأن العاصى كاذب فى دعواه حب الله ورسوله . ويبين أيضاً حقه على أمته ، وأن هذا الخير العظيم وتلك السعادة التى فيها العالم كانت كلها على يديه صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك شرعت الصلاة والسلام عليه قياما له ببعض حقه على الناس . وهكذا يتكلم فى كل وقت بما يناسبه مراعيا حال السامعين وأمراضهم واستعدادهم ، ويتكلم على القرآن الحكيم مبينا شيئاً من هدايته وفضائله . وأنه رحمة وشفاء ، وما يجب على التالى والسامع له ، وأن القارىء نائب عن الله تعالى فى إسماع الناس ما شرع لهم فيه ، وأن من أعرض عن القارىء فقد أعرض عن الله ، وأن من أخل بالأدب عند سماعه فقد أخل بالأدب بين يدى ملك الملوك ورب الأرباب . وإجمالا يذكر للناس ما فى القرآن من المقاصد وأنواع الهداية التى تكفل لمن سلكها سعادة الدين والدنيا ، وأن تلاوته عبادة وسماعه عبادة ، عندها تنزل الرحمات ، وأن الخضوع عند سماعه والتأثر به خضوع لله ولجلاله ، وآية الفلاح والهداية . ويحض الناس على احترام مجلس القرآن [1] وتدبره لتتسع عقولهم وتستنير بصائرهم ؛ فإن من فتح قلبه لهدايته وكان على استعداد تام للتأثر به كفاه فى الرجوع إلى الله تعالى استماعه له بسلامة ذوقه وفطرته ، فسليم الفطرة والذوق يكفيه أقل منه إذا عرضت له الغفلة ، شأن الإنسان الحى فكيف بأعظم هاد وأكبر مؤثر « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وصفوة القول أن أفضل الخطب الدينية ما كان مطابقا لمقتضى الحال ، ملائما لما تدعو إليه حاجة السامعين . وقد جرت عادة الخطباء بالتزام صورة واحدة فى الخطبة الثانية للجمعة سموها « خطبة النعت » وتلك عادة غير معروفة عن السلف الصالح ، فهى محدثة وغير لائقة بهذا الموقف العظيم الأسبوعى ، بل اللائق به العناية بالخطبة الثانية كالأولى ، وباب الإرشاد واسع وميدانه فسيح ، وللناس حاجة إلى الإصلاح من وجوه شتى ، فلا يصعب

(١) راجع كتاب الابداع ص ٢٤٠ من الطبعة الرابعة .

على الخطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات أو الأحاديث أو الآثار أو الحكم البالغة ما يناسب موضوع الخطبة الأولى كما سترى ذلك فى أكثر النماذج الآتية إن شاء الله تعالى . هذا ما يجب أن يراعى فى وضع الخطب المنبرية ، وقد سبقت الإشارة إليه إجمالا أول الفصل الثانى عشر ، وهذا داؤها ودواؤها ، كما هدتنا إليه التجربة وكثرة المران والممارسة ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — وإليك نماذج تطبيقية من الخطب العصرية لتكون لك نبراساً تهتدى به ، ومثالا حسناً تنسج على منواله . والله الهادى إلى سواء السبيل .

نماذج من الخطب المنبرية بروح عصرية

فى أهم حوادث الوقت الحاضر

أدى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول حفظه الله فريضة الجمعة فى الجامع الأزهر يومى ١١ شوال سنة ١٣٥٥ و ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ فخطب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيهما خطبة الجمعة فكانت خطبته الأولى فى وراثة الأرض بالعمل الصالح ، وخطبته الأخرى فى الحكم الصالح . ولما تضمنته الخطبتان من عظات قيمة وإرشاد حكيم ، رأينا تسجيلهما فى هذا الكتاب ليكونا نبراساً تهتدى به الطلبة فيما يضعونه من الخطب المنبرية .

خطبة يوم ١١ شوال سنة ١٣٥٥ بالجامع الأزهر الشريف

أحمد اللهم حمد من أخلص النية لوجهك الكريم ، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك ، وابتغاء رضوانك العميم . وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالعزة والسلطان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بعثه الله رحمة للانسان . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار ، وصحبه الطيبين الأخيار . قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . هذا وعد الله الصادق، ولن يخلف الله وعده . أمور ثلاثة أيها المؤمنون هى أسمى ما يتصوره الإنسان، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الإيمان : استخلاف العاملين فى الأرض، وتمكين دينهم الذى ارتضاه لهم، وتبديلهم بعد الخوف أمنا وطمأنينة — والاستخلاف فى الأرض خلافة عن الله فى عمارة الكون، وتوزيع العدل والإحسان بين عباده، وهو يعتمد على القوة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة، وهو مطلب تتفانى الأمم فى سبيله، وتضحى بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول إليه . وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان، ولا وُجد مجد وسؤدد، ولا شَعرت أمة بالعزة إلا إذا حمتها القوة و بسطت عليها أجنحتها، وهذه المُثل قائمة، وشواهد الماضى حاضرة فى الذهن ماثلة . وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة، ومقصد رفيع، يتبعه استقرار النفوس، وراحة الضمائر، والشعور بالعزة والكرامة، ليس أشهى إلى النفس، ولا أمتع للقلب، ولا أهنأ للروح، من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ فى نفوس الناس أجمعين . والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة، وللخوف آثار تفسد العقل، وتذهب بالتفكير، وتجعل العيش مريرا، والحياة مضطربة . وما أحلى الأمن يستقر بعد الفرق، وما أعذبه يتدفق بعد القلق ! عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافى القلب متجهاً إلى الله ملتمساً الخير والنفع للعباد . وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجرى عباراتها على اللسان، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أولئك هم الصادقون » . ومن آثار العقيدة الدفاع عنها بالنفس، والاستهانة فى سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدى بالحركات، أو صيام يؤدى بالحرمان من اللذات، أو ذكر يجرى على اللسان ألفاظا ميتة خالية من الخشية والرهبة . إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الإسعاد : من إخلاص لله، ومحبة لخير الفرد

والجماعة ، وأداء للحقوق كاملة لله ولعباد الله . « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » . إن أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق : من الوفاء بالعهد ، والصدق فى القول ، والشجاعة فى الحق ، والصبر على احتمال المكاره ، والعدل مع الأفراد ، بأداء حقوقهم ، وحب السعادة لهم ، وإرشادهم إلى الخير ومعاونتهم فيه ، ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة ، وما يفرضه الحاكم ، مما ليس فيه معصية للخالق ، ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعية ، والدأب والسهر على مصالحها وحياطتها من الانزلاق فى الشرور والتهاون فى الدين ، وإن قوام العمل الصالح مهما تعددت شعبه ، العدل ، وهو مطلوب من الحكام ، ومطلوب من الرعية ، والعدل هو اتباع السنن الإلهية ، والأوامر الدينية ، والنواميس الوضعية التى لا تتنافى والدين إن الأمة الصالحة التى تستحق الخلافة أيها المؤمنون كما يجب أن تقوم على العدل يجب أيضاً أن تؤدى للأرض حقها من عمران ، وأن تستخرج مافيها وما حولها من قوى ومنافع ، لتحقق الإرادة الإلهية من خلق تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الإنسان « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . عباد الله : لا تسعد أمة تتفرق أهواؤها وتصبح شيعاً وأحزابا ، رائدها الهوى وقائدها المصالح الخاصة ، لا تسعد أمة لا تعتصم بحبل الله المتين ، ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين ، لا تسعد أمة تحتكم إلى الشهوات ، وتتعامى عن الآيات ، وتدع النذر ، وتعمى عن العبر ، لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراءها ظهريا ، وتزدرى بالأخلاق الفاضلة حباً فى الاستمتاع بالشهوات ، وما فى الحياة من لذات ، لا تسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها فى الترف ، ويستعذبون الراحة ، ويأنفون العمل ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . أيها المؤمنون ، نحن بين أمرين . إما أن نستضىء بنو

العقل ونهتدى بهدى الشرع فنصير فى الدنيا إلى عزة نعلو بها فى أجواز الفضاء ، ونخترق بها أطباق الأرض ، ثم فى الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، إلى مغفرة الله ورضوانه ، و إما أن نعمى عن هدى الله ، ونغمض عما حل بالأمم السابقة أعيننا ، ونُغلى مراجل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا ، فنصير فى الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم فى الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة ، إلى خزى من الله وخذلان . « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ؛ وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة ، وهدانا إلى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته . روى البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

خطبة يوم ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ بالجامع الأزهر الشريف

الحمد لله العلى القادر ، العزيز القاهر ، الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا ينسى ، سبحانه هو الكبير المتعال ، نحمده حمداً به نستأهل غفرانه ؛ ونستمنح عطفه ورضوانه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله توحد بالربوبية المطلقة ، وتفرد بالجلال والعزة ، وبرأ الخلق بقدرته ، وأمدهم بإحسانه ورعايته ؛ ونصلى أفضل الصلوات وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم ، من ختم الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ؛ الذين حملوا من بعده علم الهداية ، فدانت لهم الأمم ، وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيما ؛ أما بعد فيقول الله تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول الله تعالى

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . على هذا الأساس شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل كريماً لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة ، رفعوا لواء عزه وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به فى الآفاق نافذ السلطان ، رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمر مغانم تقسم ، وأسلاباً توزع ، ودنيا مملوءة باللذات فيها دعة وسكون ، وترف ومجون وطال عليهم الأمد فى ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهى ، فساءت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه . تحللوا من أصول الإسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس ، وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يتمسك بها الرجل المتمدين الذى عرف معنى الحياة وما فيها من لذة ومتعة سول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الخمر والميسر والاسترسال فى الشهوات والانغماس فى الإباحية نوع من الحرية ، خاصة من خواص المدنية . سول لهم أن التدين عار فتركوا دينهم ، ونبذوا كتابهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح والخلق الفاضل فصاروا نهباً للأمم ومثلا للذلة ، توالت عليهم النذر فلم يتدبروا ، وتتابعت أمامهم العبر فلم يعتبروا فحقت عليهم الكلمة ، وأذيقوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . بهذا أصبح الإسلام فى ناحية والمسلمون فى ناحية ، و بينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : « إن الإسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة و الرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله فى ذلك قوانين تنظمها ، وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور والرشوة والفجور ، والفوضى فى النظام ، والجور فى الأحكام . دين يتفنن

فى الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والإلحاد .
بهذا ونحوه من الآثام والرذائل التى صارت بين المسلمين معروفة مألوفة — وهى عند العقلاء وفى دين الإسلام منكرة ممقوتة — يصور الإسلام أخذاً من حالة جمهور يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام . أليس هذا أيها المسلمون جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقضاً لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ؟ ولا يحسن بأمة تريد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟ « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » أيها المسلمون ، اسمعوا فى دينكم قول الله الحق وقول رسوله الكريم . يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ويقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » يقرر القرآن نفى الإيمان عمن لم يرض بأحكام الله ، رضا يزيل الحرج عن صدره ، ويملأ قلبه استسلاما وطمأنينة ، ويصف بالنفاق من يصد عن الداعى إلى الله ورسول الله . ويقول فى آية أخرى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه ، وتأول فيه المتأولون ، فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه الإباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حد ، وإنما يحتمل مدنية فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزينة الله وما هيأ لعباده من طيبات : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات

ويحرم عليهم الخبائث . هذا هو الإسلام أيها المؤمنون ، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وأنقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة ، واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام . خطوا للفضيلة طريقاً واضحاً ، وضعوا لها نهجاً مستقيما ، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوة السلطان . إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . أيها المسلمون إن الله وضع قواعد الحكم الصالح فى هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » والأمانة ما تجب المحافظة عليه فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالم أمانة ، وقول الحق فى الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمانة والعدل فى الأحكام والأفعال والأقوال أمانة . كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصا فى الكتاب ولا فى السنة قانون ، والرد عند التنازع إلى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون ، وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ، وأنزل عليكم فى محكم كتابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . أيها المسلمون ؛ اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمته « شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع » ، — الهالع : المحزن ، والخالع الذى يخلع القلب من الخوف — « لن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار ومن كتم شهادة دعى إليها كان كمن شهد الزور ، الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى هٰهنا » — يشير إلى صدره — « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً حاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا حتى لا يدخله النار . اتقوا

الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم و يستحلوا محارمهم . و إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة . من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن التمس رضا النـاس بسخط الله وكله الله إلى الناس . اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وفقنى الله و إياكم إلى التمسك بدينه والعمل على مرضاته والتخلق بأخلاق نبيه الـكريم .

الدين وأثره فى تهذيب النفس

الحمد لله شرعَ الدينَ هداية للمؤمنين ، ووفق مَن شاء للتمسك به والتحلى بآدابه ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله كتب رحمته للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوثُ رحمة للعـالمين ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله — أما بعد فقد قال الله تعـالى : « وما أُمرُوا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصين له الدين حنفاء و يقيموا الصـلاة و يُؤتوا الزكاة وذلك دين القَيِّمة » أيها النـاس — الدين يأمرنا بتوحيد الله تعـالى و إخلاص العبادة والخضوع له ، واعتقاد أن واجب الوجودِ إله واحد قادر مريدٌ عليمٌ حكيمٌ ، سميعٌ بصيرٌ ، متصفٌ بكل كمال ، منزهٌ عن كل نقص أبدعَ الـكائناتِ بقدرته ، ودبرها بحكمته وعلمه ، فهو الذى يحيى و يميت ، والذى يعطى و يمنع ، والذى يضر و ينفع ؛ ذلـكم الله ربكم لا إله إلاهو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهوعلى كل شىء وكيل . هذا هو الاعتقاد الحق الذى يُخرج النفس من ظلمة الجهل ، و يَرْفَعُها من وَهْدة الشرك ، و يُطهِّرها من دَنَس الخرافات والأوهام ، فلا تَنْحَط إلى عبادة جماد أو إنسان أو حيوان ، ولا تَخْضعُ إلا لِمَن له غايةُ العظمةِ ونهايةُ الأنعام : الله الذى جعل لـكم الأرضَ قراراً والسماء بناءً وصوَّركم فأحسن صُوَرَكم ، ورزقـكم من الطيبات ، ذلـكم اللهُ ربكم فتبارك الله رب العالمين : والدينُ بعد ذلك قد فرض على الناس عبادات كلُّها ذو أثرٍ حسنٍ فى إصلاح القلوب وتهذيب

النفوس : فرض الصلاة خمساً فى اليوم والليلة ، وجعل مفتاحها طهارة البدن والثوب والمكان فيقف العبدُ فيها فارغاً من الشواغل ، موجِّهاً قلبَه إلى مولاه نظيفَ الظاهر طاهرَ الباطن ، يُناجى ربَّه ويُثنى عليه بما هو أهله ، خائفاً من عذابه طامعاً فى رحمته ، طالباً منه العون والهداية ، فيؤَثِّر فى نفسه ، ويُعوِّدُه مراقبةَ الله وخشيتَه ، فيجتنب ما يُغضب مولاه ، ويمتنع عما حرم الله عليه : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ، وفرض الزكاة فى أموال الأغنياء سداً لحاجة الفقراء ، وتفريجاً لكربة الغارمين وتيسيراً لأبناء السبيل ، وعوناً على المصالح العامة ، كذلك تَغْرِس فى المؤمن فضيلة السخاء ، وتطهر نفسه من رذيلة الشح ، وتخرج الأضغان من قلوب البائسين ، وحِقْدَهم على الأغنياء المترفين ، وتملأ قلوبَهم بمحبتهم ، وتمنعُهم من الإساءة إليهم ، وبذلك يسودُ الأمْن ، وبذلك تكون الألفة والأخاء . قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » وفرض الصيامَ ليُرَبى فى الإنسان فضيلةَ الصدق والوفاء ، والصبر عند الشدائد وقوةِ الإرادة وضبط النفس عند هيجان الشهوة والعفةِ والقناعةِ والأمانة والعطف على الجائعين ، ويُعرّفه مقدار النعمة ليشكر مولاه على التفضل بها « ولِتُكمِلوا العِدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » . وأما الحج فالناس فيه أشبه بالموتى يفارقون أموالَهم وعيالَهم ، وينتقلون إلى غير ديارهم مُتجردين عن زينة الحياة الدنيا ، ليس على الواحد منهم إلا إزارٌ ورداء ، والكل خاضع لعظمة الله ، خاشعٌ لجلاله ، لا فرق بين صغير وكبير ، وغنى وفقير ، هنالك تَتطامَن النفوس وتعلم أن زخْرفَ الحياة باطل ، وهناك تشعرُ بالتواضع والمساواة ، وأنه لا يليق الاستعلاء والاستكبار بجاه ولا مال ، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . كذلك الدين حرم ما يُفضى بالناس إلى الفناء ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، أو يفسد العقل ويَحط من كرامة المرء ويَذْهب بحيائه وماله : كالقتل والزنا والقذف ، وشرب الخمر والمقامرة ، والربا والرشا وأكل أموال الناس

بالباطل ، والغيبة والنميمة والخيانة والغدر ، والضغينة والحسد ، وكل ما فيه إيذاء للناس . قال صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه »

أيها النـاس — الاعتصام بالدين يهذِّب النفس ويطهرها من الرذيلة وسوء الخلق ، ويَظهر أثر ذلك فى المعاشرة والمعاملة ، فمن كان متمسِّـكاً بدينه واقفاً عند حدوده حسُنَت معاشرته ، واعتدلت معاملته ، فيبَرَّ بوالديه وأقاربه ، ويواسى إخوانه ، ويقوم بحقوق أهله ، ويربى أولاده ، يثقِّف عقولَهم ، ويهذب أخلاقهم ، لا يؤذى جاراً ولا أحداً فى نفس أو عرض أو مال ، ولا يكون لعَّاناً ولا سبَّاباً ، ولا نماماً ولا مغتاباً ، ولا حقوداً ولا حسوداً — والمسلم المتدين لا يغُش إذا باع أو اشترى ، ولا ينقص مكيالاً ولا ميزانا ، ولا يكذب إذا حدث ، ولا يُخْلِف إذا وعد ، ولا يخون إذا أوتمن ، ولا يكون مختالاً ولا فخوراً ، ولا جباراً ولا عنيداً ، ولا يماطل فى حقوق الناس — والمسلم المتدين إذا وُكلَ إليه عمل أتقنه وأداه على الوجه الأكمل من غير تسويف ولا تأخير ، وإذا ولِّى على الناس عدل فيهم ونظر فى مصالحهم ، ليس لغير الحق سلطان على نفسه فلا يحابى قوياً ، ولا يضيع حق ضعيف ، فهو ملاك كريم فى صورة إنسان رحيم « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اصلحْ لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، واصلح لى آخرتى التى إليها مَعادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

ويقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس اعلموا أنه لا ينفعنا فى دنيانا وآخرتنا إلا الاستقامة وصالح العمل مع صدق الإيمان . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وفى الحديث القدسى عن رب العزة : ما أقلَّ حياءَ من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى » فالذين يهملون طاعة الله تعالى اتـكالاً على كرمه وسعة رحمته قد لعب الشيطان بعقولهم

وغرهم بالله . نعم إنه كريم واسع الرحمة ، ولـكنه حكيم جعل كرمه ورحمته لمن امتثل الأوامر واجتنب النواهى . قال تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » الآية .

أهملنا ديننا فساءت حالنا

الحمد لله كتب العزة والـكرامة لمن أطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، وهو العزيز الحـكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أنعم علينا بالـكتاب المبين والرسول الصادق الأمين « لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الـكتاب والحـكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » فهذب بالـكتاب أخلاقنا ، وأصلح به أعمالنا ، وهدانا إلى وسائل الرقى والسعادة فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، والداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، ووقفوا عند حدوده فخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وأسقطوا عروش الأكاسرة ، وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين . أما بعد : فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أيها الناس : لقد كانت الأمة الإسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله ، عاملة بسنة نبيها ، صحيحة فى عقائدها ، صالحة فى أعمالها ، حسنة فى معاملاتها وعاداتها ، كريمة فى أخلاقها ، بصيرة فى دينها ودنياها ، راقية فى آدابها وعلومها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة مهيبة ، صاحبة السلطان والصولة على من عداها . واليوم تغير أمرها ، وتبدل حالها ، اختلت عقائدها ، فسدت أعمالها ، ساءت معاملاتها وعاداتها ، تَدَهورت أخلاقها ، جهلت أمر دينها ودنياها ، تأخرت فى علومها وصنائعها ، فصارت ذليلة الجانب ، ضعيفة الشوكة ، ساقطة الـكرامة ، فاقدة الهيبة ، مغلوبة على أمرها ، متأخرة فى مرافق حياتها ،

تتخبط فى ظلمات الجهل ، وتنقاد للخرافات والأوهام « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وما ذلك إلا لأنها خالفت كتابها ، وانحرفت عن طريق الهادى نبيها ، وسارت وراء هواها ، وفُتنت بزخارف الحضارة المزيفة ، والمدنية الكاذبة ، وظنت الإباحية حرية ، والخلاعة رقيا ، فتعدت حدود العقل والدين ، وأغضبت خالق الأرض والسماء ، فساءت حالها ، وسُلِّط عليها عدوها « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » أيها الناس : لقد ذاقت الأمة وبال أمرها ، وعوقبت بشر أعمالها ، وتجرعت مرارة الذلة والهوان ، والتفرق والانحلال . كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتنا وانحرافنا عن الصراط المستقيم « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » كل ذلك نازل بنا وواقع علينا ونحن لا نُفيق من سكرتنا ، ولا ننتبه من غفلتنا ، ولا ننزجر بالمحن والبلايا ، ولا نعتبر بحوادث الأيام ، لو كان لنا نفوس حية وقلوب يقظة . لو كان لنا شعور حى وإحساس قوى ، لنبهتنا البلايا ، وأيقظتنا المؤلمات . أيها المسلم : الدين عقيدة صحيحة ، وعبادات قويمة ، ومعاملات حسنة عادلة ، وأخلاق كريمة . فهل أنت صحيح العقيدة ، قويم العبادة ، حسن المعاملة ، كريم الأخلاق ؟ هل أنت سائر فى كل أعمالك وأحوالك فى طريق الدين ؟ أم أنت تسير منحرفا عن الطريق القويم ؟ هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتهتك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين ؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذبا محتالا ، أو مرائيا مختالا ، أو مداهنا منافقا ؟ هل من الدين أن يكون المرء نمّاماً أو مغتابا ؟ أو لعانا أو سبابا ، أو غاشا أو خائنا ؟ هل من الدين أن يكون المرء ناقضاً للعهد ، مخلفاً للوعد ، متكبراً جباراً عنيداً ، مماطلا فى حقوق الناس ؟ هل من الدين أن يكون مهملا لأولاده ، عاقا لوالديه ، قاطعاً للرحم ، مسيئا لزوجه ، مؤذياً لجيرانه ؟ هل من الدين أن يكون قاسى القلب : لا يرحم مسكينا ، ولا يكرم يتيما ، ولا يعطف على ذى عاهة أو أرملة ؟ كلا . أين هذا من قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » الآية . كلا ! أين هذا من قول رسول الله صلوات الله

وسلامه عليه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أيها الناس : ما هذا الفساد فى أمة شعارها الإسلام ، وأساس دينها القرآن ؟ ما هذا التدهور الخلقى فى أمة رسولها سيد ولد عدنان ؟ أتحكمت الشهوات فى النفوس فأفسدتها ؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة ؟ « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » أرأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرقى والسعادة . فاتبعتم دينا غيره ينهض بكم ويُسعدكم ؟ كلا والله ، لا رقى إلا به ، ولا سعادة إلا به ، ولا فلاح إلا به ، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء فى الدنيا والآخرة إلا به « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » قال صلوات الله وسلامه عليه : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما » رواه أبو داود — واشرح فى الخطبة الثانية قوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » ثم تختمها بقولك : أيها الناس لا خلاص للأمة من هذا الشقاء ، ولا نجاة لها من هذه البلايا ، إلا بإصلاح القلوب واستقامة الأعمال ، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتابَ الله وسنةَ رسوله »

بدعة خروج النساء إلى المقابر فى المواسم

الحمد لله الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الطريق القويم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله ، وصحبه ومن تمسك بالدين ووقف عند حدوده . (أما بعد) فيأيها المسلمون إن الله تعالى قد جعل علامة محبة العبد له اتباع نبيه الكريم ، وطاعة رسوله الصادق الأمين حيث قال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم

ذنوبكم والله غفور رحيم » . فمن لم يتبع الرسول فيما جاء به وادعى أنه يحب الله تعالى فهو كذاب ، وكتاب الله يكذبه ، إذ لو كان صادقا فى دعوى محبته لأطاع رسوله ، فإن طاعة الرسول طاعة لمولاه ، وعصيانه عصيان لله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » . وإن الله تعالى جعل محبته ورضاه ورحمته وإحسانه فى اتباع نبيه والاهتداء بهديه . فالخير كله والهدى فى الاتباع ، والشر والضلالة فى المخالفة والابتداع ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وإن من البدع القبيحة والعادات السيئة زيارة النساء للقبور فى المواسم والأعياد على الحال المعروفة : من تهتك النساء واختلاطهن بالرجال ، مع فساد الأخلاق وانتشار الفساد فى هذا الزمان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل — وأى بدعة أكبر قبحاً وأعظم وزراً من بدعة جمعت مفاسد جمة وشروراً كثيرة ؛ من انتهاك الحرمات وابتذال الأعراض ، وإضاعة الأموال ، وإيذاء الموتى ، وغضب الله المنتقم الجبار . أيها الناس : لقد أصبحت نساء اليوم من أشد الأمراض الاجتماعية التى أعيت الأطباء الناصحين ، وكلت منها ألسنة الخطباء المرشدين ، وصرن أكبر عون للشيطان على تنفيذ كل ما يأمرهن به من عادات الجاهلية ؛ فى الندب والنياحة وشق الجيوب ولطم الخدود وصبغ الوجوه والأيدى بالسواد ، ورسول الله صلوات الله عليه يقول : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . يجىء رجب أو عيد الفطر أو الأضحى فتصبح النساء ولا همّ لهن إلا ما يُعِدُّونه للقرافة من ألوان الأطعمة والفواكه المتنوعة ، فالغنى ينفق عن سعة والفقير يضيع ما فيه حاجة عياله ، وقد يقترض لذلك أو يرهن متاع بيته لدى المرابين . ويكثر النزاع ويشتد الخلاف بين المرء وزجه ، وقد يؤدى الأمر إلى الفراق ، أو دوام النكد والشقاق، وإذا جاءوا إلى المقابر رفعت النساء أصواتهن بالبكاء ، وأظهرن الحزن والجزع ، ووقعن فى كلمات الكفر بالتسخط على القدر ، والاعتراض على الله تعالى فى حكمه وقضائه ، وهو الفاعل

المختار ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . هذا : و بعد قليل توضع الموائد فوق المقابر ، وعلى رءوس الموتى ، ومنها يأكلون و بها يتنعمون ، ناسين الموت وسكراته غافلين عن الموتى وما هم فيه من ظلمة ووحشة وكروب وأهوال . فإذا طعموا انتشروا فى الصحراء يتبادلون الزيارات كأنهم فى منازل الأحياء لا فى مقابر الأموات أماكن الخشية والاعتبار : « ذلك هو الضلال البعيد » . أيها الناس ! أعن هذا يرضى الرب أبهذا ترحم الموتى ؟ أبهذا تؤدى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ هل جاء فى كتاب الله أو فى سنة رسول الله أن أول جمعة من رجب أو أيام الفطر والأضحى جعلت لزيارة المقابر ؟ هل سمعتم أن أحداً من الصحابة أو الأئمة الأربعة كان يخرج هو أو نساؤه فى هذه المواسم لزيارة الموتى ؟ نعم ! كان السلف الصالح يغتسلون و يتطيبون يوم الجمعة و يطعمون الطعام فى رمضان ، و يكثرون من الصدقات فى أيام الأعياد . أما زيارة الموتى فلم يكن لها فى عهدهم جمعة أولى من جمعة ، ولا يوم أفضل من يوم — ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخرج مع الصحابة إلى الصحراء لصلاة العيد ، وكان يذهب من طريق و يرجع من طريق أخرى ، ولم يثبت أنه زار قبراً فى ذهابه أو إيابه ، مع وقوع المقابر فى طريقه ، بل قال فى عيد الأضحى : « أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، من فعل ذلك فقد أصاب سنتنا » . أما حمل الأطعمة إلى المقابر فلم يعرف عن رسول الله ، ولا عن أحد من الصحابة ، بل هو شاغل عن العبرة والاتعاظ ، مبطل لثواب الصدقة ، لما فيه من الرياء و إيذاء الفقراء ، و إهانة القرآن . ولو تصدقتم بها فى البيوت على العجزة والمصابين والأرامل واليتامى لكان أرجى للقبول ، وأقرب إلى الوصول ، ولكفيتم حملها وحمل أوزارها معها : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . رواه أبو داود والترمذى وحسنه . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس

على قبر » . رواه مسلم — وتقول فى الخطبة الثانية : أيها الناس إن رفع الصوت بالبكاء والنياحة يضر بالأحياء ويؤذى الأموات ، روى البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول : واجبلاه وا كذا وا كذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلتِ شيئاً إلا قيل لى : كنتَ كذا ؟ فلما مات لم تبك عليه » . وهذا توبيخ شديد ، وإيذاء عظيم ، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم فى قبورهم ، توبوا إليه وسلوه لهم الرحمة والعافية عسى ربكم أن يتقبل منكم ويرحمهم : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

سبب الشقاء مخالفة الدين

الحمد لله الذى جعل السعادة للسالكين سبل الهداية ، وقضى بالذلة والشقاء على من مال عن طريق الرشَد إلى الغَواية . لا إله إلا هو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين وأشهد ألا إله إلا الله نبه بالقرآن كل غافل ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أظهر الحق من الباطل . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أى لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية ، إلى نقمة وبلاء ، حتى يغيروا ما بأنفسهم : من طاعة وشكران ، إلى عصيان وكفران . تلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . أيها المسلم ، تراكمت عليك الكروب من الذنوب ، وأنت فى غيك تسرح وتمرح . أحاطت بك البلايا من كل جانب . ولست لإصلاح نفسك تجنح ، كلما أوضح لك المرشدون طرق الهداية تعاميت وفى جسم الإسلام بالمخازى تجرح . فلا أنت بالكروب معتبر ، ولا من البلايا منزجر . أما سمعت قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين » قلِّب نظرك فى نفسك هل تجدها عاملة بمقتضى الدين ؟ . فتِّشْ قلبك هل تجدُ فيه حياء من الله بيقين ؟ تأمل فى الناس هل تجد إخلاصاً بين اثنين من إخوانك المسلمين . إذا قلت أن رابطة الإسلام لا تجد إلا متفرقين مختلفين ، وهل تصلح حال الأمةِ

والعالِمُ بينهم عن غير الطلاق ورؤيا المنام لا يُسأل ؟ وهل ترقى الأمة والشرير عن شروره لا يتحول . والتاجرُ والصانعُ عن غير جمع المال لا يَسأل ، والغيور على الدين مُتَألِّمٌ مسكين ؟ نحن فى مستقبل أمرنا لا نتدبر . نحن فى تأخرنا وتقدم أسلافنا لا نتفكر . نحن من ضياع حاصلاتنا وسوء أحوالنا لا نتأثر . نحن فى اللذات والشهوات أصبحنا هائمين . نحن من غيبة مسلم إلى احتقار فقير ، إلى ظلم أجير ، إلى مخالفة القرآن . نحن من موضع لهو إلى حانة خمر إلى بيت فاحشة إلى إهمال دين الديان . نحن من تهتك نساء إلى تطرف شبان إلى فساد أخلاق إلى ضياع حق الإيمان . نحن من نقص ميزان ومكيال إلى نصب واحتيال . إلى مكر وخداع . إلى تجسس على عورات المسلمين . نحن نتفكه فى المجالس بحسد زيدٍ وانتقادٍ على عمرو . ونسعى بين بعضنا بالأذى والفساد ونتعامل بالغش والخيانة والغدر . الغنى فينا جبار شحيح . والفقير منا متكبر قبيح . حتى عم البلاء وزاد الشقاء وفسد الأمر . نحن إذا اتفقنا افترقنا فى أقرب حين . شهدنا الزور بلا خجل . أكلنا الربا بلا مبالاة . فى الأسراف والتبذير أضعنا الأموال * الحق أضعفناه ، الباطل قويناه ، الصدق تركناه ، الكذب روجناه ، لا يخطر لنا الحساب على بال . خاصمنا القريب ، وهجرنا البعيد ، كل منا على الآخر شديد ، قلوبنا أصلب من الحديد ، ولسنا بعيوبنا عن عيوب غيرنا مشتغلين . أضعنا الصلاة بلا خشية ، منعنا الزكاة بلا رحمة ، أسأنا الجوار بلا حياء ، لسنا من بطش الجبار خائفين . وإذا نهى عن المنكر غيور سمعناه وخالفناه ، وإذا عاهدنا عهداً نبذناه ، وإذا جاء المسلمَ خير حسدناه ، وإذا حلفنا يميناً كنا كاذبين . أهكذا تكون أمة يتلى بينها القرآن ، أهكذا تكون أمة رسولها المصطفى سيد ولد عدنان ، أهكذا تفعل أمة سيحاسبها الملك الديان ، أهكذا الدين ، أهكذا العقل ، أهكذا المروءة ، أهكذا يكون عمل المسلمين ؟ فيأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، اتقوا الله وتمسكوا بالكتاب والسنة ، فلا حياة لكم إلا بالرجوع إلى كتاب الله ، ولا سعادة إلا بإحياء سنة رسول الله ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ

المبين * عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يغار و إن المؤمن يغار وغَيْرة الله أن يأتى المرء ما حرم الله عليه » — ومعناه ينتقم ممن عصاه — متفق عليه ، وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : منْ أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » رواه البخارى .

التحذير من الربا

الحمد لله أعز من أطاعه ، وأذل من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله شديد البطش بالظالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا مانهاهم عنه فعاشوا أعزة أقوياء (أما بعد) : فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله و إن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » أيها الناس ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، ومن رحمته تعالى بهم بين لهم النافع والضار ، والحلال والحرام ، فأحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث ، وأباح لهم التوسع فى كسب المال من طريقٍ حلال ، وحرَّم عليهم الربا لأنه من أكبر أسباب الفقر والدمار ، وأقوى عوامل الذل والاستعباد الأمم والشعوب ، لهذا شدَّدَ اللهُ الوعيدَ عليه ، وجعله من أخش الخبائث ، وأكبر الكبائر ، ونفرَّ الناسَ من تعاطيه بأبلغ الزواجر . فقال تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وأى زاجر أبلغ من جعل المرابى محاربا من الله ورسوله ، لأنه شوّه وجهَ المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله بغير حق ، وقطع يد التعاون الذى أمر الله به فى قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فوا عجباً كيف يُقدم المرء على معاملة من يُصيِّرُه عرضة للفقر والخراب والذل والهوان ، حيث يسلب ماله شيئاً فشيئاً حتى ينتزع منه جميع أملاكه ، و يُصبح

ذليلا محزوناً ، ملوماً محسوراً . فيأيها المقترض بالربا ! أما تدرى أنك أوقعت نفسك في يد ذلك الكفار الأثيم ، الظالم الذى لا يرحم ، الذى يأكل مالك وهو مادة حياتك ، وقوام عيشك ، فإن كنت تظن أنه بالإعطاء قضى حاجتك ، وفرج كربتك ، فقد أوقعك فى ضيق شديد تسوء مغبّتهُ ولا تُحمد عقباه ، قل لى بربك أى ضرورةٍ تدعوك إلى الاقتراض بهذه الزيادة المشئومة ، والرزق عند الله مضمون ، وأبوابه كثيرة ؛ وما دام الإنسان حياً لا يَعدِم قوته — أيها الناس : إن ذل السؤال أهون من أخذ المال بالربا . فذل الربا أشنع عند تعذر القضاء ومجىء الدائن مطالباً أيها المقترض بالربا ، إن كنت ممن يرضى بما قسم الله له كفاك فى دنياك ما يدفع عنك ضرورة الحياة ، وإن كنت تحب المظاهر الكاذبة والتفاخر بكثير المال ، فاعلم أن الربا يوقعك فى دين ثقيل ، وهم دائم ، وذل مهين ، وعذاب عظيم ، وفقر أليم . قال لقمان لابنه : يا بنى إياك والدين فإنه همٌّ بالليل وذل بالنهار . أترضى لنفسك أن تشقى فى جمع مالك ، وتنصَبَ فى تحصيل ثمرات أرضك وعقارك ، ويفوز به المرابى وهو هادىء البال مستريح الضمير ، بين أهله وعشيرته ، وتعينه على أكل الربا فتشاركه فى اللعنة وتعرض نفسك لمقت الله وغضبه . « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فينة أو يصيبهم عذاب أليم » . يا هذا : السعيد من اتعظ بغيره واعتبر بحوادث الأيام ، وإن كثيراً من أمثالك تعاملوا بالربا فعاد عليهم بالضرر والوبال ، وعما قليل قد أحاط بهم الخطر وصاروا فقراء أذلاء ساقطين ، لا يعطف عليهم قريب ؛ ولا يواسيهم بعيد ، وتقطعت بهم الأسباب ، وأصبحوا حملا ثقيلا على كاهل الأمة ، هذا يحتقرهم ، وذاك يتألم منهم ، وآخر يشمت فيهم ، ويرميهم بالسفه وسوء التصرف « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فاتقوا الله أيها المسلمون فى أنفسكم وأولادكم وأموالكم وأمتكم ، خافوا الله وتباعدوا عن الربا إن كنتم مؤمنين « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء »

رواه مسلم وغيره — وآكله هو الآخذ للزيادة ؛ وموكله هو الدافع لها ، وتقول فى الخطبة الثانية : أيها الناس — إن المال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقى الأمم والشعوب ؛ به تكون الأمة عزيزة قوية ، جليلة مهيبة ، محترمة فى نظر الأمم فإذا خالطه الربا ذهب من يدها فصارت ضعيفة ذليلة فاقدة الهيبة ، ساقطة الكرامة وأصبحت فريسة للأقوياء ، وعرضة لطمع الطامعين وجشع المستعمرين . وذلك جزاء الظالمين ، ومآل المسرفين الذين يتعرضون لحرب الله ورسوله . يا قوم يكفى لقبح الربا والتنفير منه أن الله تعالى يجعل من علامات المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون من قبورهم على هيئة المصروعين المجانين ، الذين تسلط عليهم الشيطان فضربهم فى عقولهم . قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . المس الجنون . نسأله تعالى السلامة من جميع المكاره والعافية من كل بلية ، إن ربى لسميع الدعاء ، قريب مجيب .

المحافظة على الصلوات والخشوع فيها

الحمد لله الذى أنزل الشريعة هدى للناس ورحمة . وجعلها طريقاً واضحاً إلى سعادة الدارين . والشكر له تعالى هدانا للإسلام وفضلنا على جميع الأمم . وأشهد ألا إله إلا الله أعز الطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل المصلين و إمام الخاشعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . عباد الله : إن الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام . من حافظ عليها فهو السعيد الرابح ومن أضاعها فذلك الخاسر الشقى . و إن الخشوع فيها مع الإخلاص لله آية الإيمان وسبيل الفلاح ، وأمان من وساوس الشيطان الرجيم ، فإن العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدى مولاه فى اليوم والليلة خمس مرات خاشعاً متواضعاً فارغ القلب من الشواغل ، متدبراً ما يتلوه من آيات الله . انغرستْ فى نفسه خشية مولاه فى جميع أعماله ، وحضرته هيبة خالقه فى عموم أحواله . فإذا سولت له نفسه أمراً ، أو زين

له الشيطان سوءاً تبرأ منهما قائلا : إنى أخاف الله رب العالمين . فكن فى صلاتك خاشعاً ، وفى مناجاة ربك صادقا . فلا تقل الله أكبر وأنت تظن أن هناك من يساويه أو يدانيه فى عظمته . لا تقل الحمد لله رب العالمين وأنت بالحلال لا تقنَع . ومن الحرام لا تشبع . لا تقل الرحمن الرحيم وأنت شديد البطش قاسى القلبِ على الضعفاء والمساكين . لا تقل مالك يوم الدين وأنت لا تذكر الوقوف بين يدى أحكم الحاكين . لا تقُل إياك نعبد وأنت تعبد هواك ودنياك . لا تقل و إياك نستعين . وأنت تلتجئ فى الشدائد إلى المخلوق وتترك باب مولاك . لا تقل اهدنا الصراط المستقيم وأنت منحرف عن طريق المهتدين . لا تقل صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وأنت سئ الأخلاق حقودٌ حسود ، نمَّامٌ مغتاب ، غشاش كذاب واقع فيما يغضب الله والملائكة والناس أجمعين . لا تقل ولا الضالين . وأنت فاسد الاعتقاد شر فى الأعمال ، تدبِّرُ الأذى وتكيد لإخوانك المسلمين — يا هذا — إن من حافظ على الصلوات فى الأوقات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، وأداها بخشوع وخضوع ، استنار قلبه ، وتهذبت نفسه ، وحسنت مع الله والناس معاملته ، وحيل بينه و بين المحرمات ، وكان على البؤساء عطوفا ، و بالضعفاء رحيما ، وأفلح فى دينه ودنياه ، وكان من المحبوبين لدى الله والناس أجمعين . النفس أمارة بالسوء ، والشيطان أيضاً يأمر بالفحشاء والمنكر ، ليُضل المرءَ عن سواء السبيل ، ويقذِف به فى مهاوى الشقاء والخسران . والسيف القاطع ، والدواء النافع ، الذى جعله الله تعالى لوقاية الإنسان من شر النفس والشيطان إنما هو الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » . أيها الناس الله تعالى يقول : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » أولئك هم الذين خلت صلاتهم من التذلل والخضوع ، فتراهم يُسرعون فى أدائها وهم عنها غافلون . لا يعرفون لها معنى ، ولا يعقلون لها سراً ، ولم تشعر قلوبهم بحلاوة الطاعة ، ولذة المناجاة . نعم لهم الويل . ملكتهم الوساوسُ ، وامتلأت قلوبهم بشواغل الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له

شيطاناً فهو له قرين » . ومن الناس من عميت بصائرهم وتحجرت ضمائرهم ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأهملوا أوامر الله ، وغفلوا عن واجب شكره ، ولم يخافوا سطوة جبروته ، ولا سوء الحساب ، ولا نار العذاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » فيأيها المسلمون اتقوا الله ربكم وحافظوا على صلواتكم ، وقوموا لله خاضعين خاشعين لتفوزوا برضوان الله ، وتكونوا من المفلحين الذين شملهم الله بإحسانه ، وغمرهم فى بحار رحمته . « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » فى الحديث القدسى عن رب العزة — « ما أقلَّ حياءَ مَن يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى » . وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحسن الرجلُ الصلاةَ فأتمّ ركوعَهَا وسجُودَها قالتِ الصلاةُ حفِظَكَ الله كما حفظتنى فترفعُ ، وإذا أساء الرجلُ الصلاةَ فلم يُتم ركوعَها وسجودَها قالتِ الصلاة ضيّعَكَ الله كما ضيّعتنى .فتلُفُّ كما يلف الثوبُ الْخَلَقُ فيُضرَبُ بها وجهه » .

الحث على تأليف الجمعيات التعاونية والزراعية

الحمد لله الذى أمر بالتضامن والتعاون ، ونهى عن التفرق والتخاذل ، وهو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا إلى سبل السعادة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله بين لنا وسائل الرقى والسيادة . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين صفت نفوسهم ، واتحدت كلمتهم . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » أيها المسلمون إن التعاون على طرق الخير ، والتآزر فى الأعمال النافعة ، أساس الرقى ، وأصل الفلاح والنجاح . فما من أمة جعلت التعاون شعارها ، والتآزر عنوانها ، إلا عمها الخصب والرخاء ، وشملها اليسر والهناء . ففى التعاون والتضامن التقدم والرقى ، وفى التخاذل والتفرق الانحطاط والتأخر . لهذا أمر جل وعلا عباده المؤمنين

بالتعاون والتضامن ، وحذَّرهم أن يكونوا كالذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فأذاقهم في الدنيا ذلاً وهوانا ، وفي الآخرة أنكالا وجحيما ذا غصة وعذاباً أليما . قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وها هي مضار التفرق بيننا حتى أصبحت جلية ، وآثاره السيئة فينا صارت بينة واضحة . فما تأخَّرْنا بعد تقدمنا ، وضَعُفْنَا بعد قوتنا ، وذَلِلْنا بعد عزنا إلا من تفرقنا وتخاذلنا — حتى تحكم الأجنبي في موارد حياتنا ، وأساس ثروتنا . فاشترى محصولاتنا بأبخس الأثمان ، وباع لنا بضاعة بلاده بأفحش الأسعار — فأصبحنا كما تعلمون لا مالا جمعنا ، ولا دِينا اتبعنا : التاجرُ منا مُهدَّد بالإفلاس ، والصانع فينا خائف من بوار صناعته ، والزارع أمسى في ضيق مُستحكِم ، ونكد مستمر — وصرنا إلى حال سيئة تذوب منها الأفئدة ، وتتفطر لها القلوب : كل ذلك من سوء تصرفنا ، وعدم التعاون والتضامن في أعمالنا ، فَجَلَبْنَا على أنفسنا البلاء ، وأغضبنا بتفرقنا ربَّ الأرض والسماء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أيها الناس — إن الأجانب قد أدركوا مزايا التعاون الذي أمر به ديننا فتمسكوا به ، واتخذوه أساساً لهم في سائر الأعمال الحيوية النافعة ، فسعِدوا وسعدت بهم بلادُهم — ونحن أهملنا نصائح ديننا ، وتخاذلنا في شئون حياتنا ، فشقينا وشقيت بنا بلادنا ، وأصبحنا وراء الأمم قوة ومدنية — عباد الله أتظنون أن تنالوا السعادة والرقي بغير التعاون والتضامن في الأعمال النافعة للأمة ؟ إن كنتم تظنون ذلك فاعلموا أنكم تبغون محالا ، وتطلبون بعيداً — انظروا إلى ذلك الزارع المسكين وما يعانيه في حياته من ضروب الشقاء ، وما يقاسيه من أنواع الشدائد والمتاعب ، حتى يظهر زرعه . انظروا إليه وهو يمد يده إلى المرابين للإنفاق على أرضه وعياله ، فلا يُقرضونه إلا بالربا الفاحش ، فإذا ظهرت الثمرة أتاه الدائنون من كل مكان ، واستولوا على محصولٍ تعبَ فيه طول العام ، وكأنه لم يشق إلا لسعادة هؤلاء المرابين ، ولم يتعبْ إلا لراحة أولئك الفجرة الآثمين . وياليتهم يتركونه يبيع حاصلاته عند تحسين الأسعار . بل يأخذونه أخذ القوى الجبار . وإذا لم يف

المحصولُ بالمطلوب باعوا منقولاته ، وحيواناته ، وعقاره ، فيُصبح فى ضيق شديد وذل أليم . وعند ذلك ينظر إلى الأغنياء نظر الحقود الحسود ، ويصير وبالاً على نفسه وبلاء على أمته . فياقوم أرأيتم لو أن كبار الزارعين رحموا ذلك الزارع الصغير فألفوا جمعيات تعاونية وزراعية تضمه وتضم أمثاله ، ويكون مقصود تلك الجمعيات مدَّ يد المساعدة للمحتاج من الزارعين — أرأيتم لو تم هـذا أما كان يستطيع الزارع حفظ محصوله إلى الوقت المناسب فيبيعه ويسدد ما عليه من ديون ، وينفق ما فضل له بقية عامه ، ويُنقَذ من همِّ الدين وذل المرابين ، ويعيش فى سَعَةٍ ورخاء ، بعد أن كان فى ضنك وبلاء . فيأيها المسلمون اتقوا الله فى أمتـكم ، وبادروا إلى ما فيه عزكم ورقيـكم ، وألفوا الجمعيات التعاونية والزراعية تسعدوا وترتقوا ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

مواساة البؤساء

الحمد لله الذى أمر بالإحسان ونهى عن الامتنان ، الـكريم الذى جازى الإحسان بالإحسان ، لا إله إلا هو أرحم الراحمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ذو فضل على العالمين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام المحسنين وملجأ البائسين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الرحماء المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . أيها الأغنياء . إذا كان الله تعالى قد تفضل عليكم ورزقـكم من الطيبات ، وأغناكم عن الحاجة ، وصان وجوهكم عن مذلة السؤال ، فقد وجب عليكم أن تشكروه تعالى على ما منحكم وأولاكم ، وأعزكم وأغناكم ، وبذلك يحفظ عليكم نعمتكم ، ويتفضل عليكم بالمزيد منها ، والبركة فيها « لئن شكرتم لأزيدنـكم ولئن كفرتم

إن عذابى شديد » وليس الشكر قولا باللسان ، وإنما الشكر امتثال أوامر الله بالطاعة والإحسان إلى البؤساء الذين أصابتهم شدة ، والفقراء المحتاجين من أرباب العيال . ومن القسوة أن تمنعوا المعونة ، وتقبضوا أيديكم شحاً وبخلا ، (والشدائد) تميت البائسين ، والضيقُ يقتل إخوانكم المحتاجين . أَمِنَ الرحمة أن تكونوا فى رغد من العيش ، وسَعَة من الرزق ، ومن أخنى عليهم الزمان فى شدة من الضيق ، وألم من الإعسار ! ؟ أمِنَ المروءة أن تتمتعوا بأصناف الغذاء وأخوكم المسلم يتألم من الجوع فى الصباح والمساء ! ؟ أمِنَ المروءة أن تتمتعوا بملابس الزينة وأخوكم فى الإنسانية يُحْرِقه الصيف ، ويقرُصُه برد الشتاء ؟ ! اللهم إن الغنيَّ الذى لا يُحِس بأن عليه للبؤساء والفقراء حقوقا وواجبات ، لقاسى القلب ، خال من الشفقة ، بعيد من رحمة الله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أيها الناس ! إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، قد وعد من أنفق شيئاً فى سبيل الله أن يخلفه عوضاً ، إما عاجلا وإما آجلا ، فقال جل شأنه « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » فليس البخل والإمساك بعد هذا الوعد الكريم إلا من ضعف الإيمان ، أو سوء الظن بالله الغنى الحميد . إذا كان الله تعالى قد مدح الأنصار من الصحابة بأنهم كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من أسباب المعاش ، ولو كانوا هم فى أشد الحاجة ، حيث قال عز وجل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . فإن لم تقدموا الغير على أنفسكم ، فاعطفوا على البائسين والمحتاجين ببعض ما يزيد عن حاجتكم ، وإن هذا لهين على من عنده أدنى رأفة ورحمة منكم ، إن هذا لهين يسير على من حفظه الله من رذيلة الشح : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » أيها الناس . صنائع المعروف من علامة الإيمان وعلو الهمة ، وعُنوانُ الشهامة والمروءة ، وإنها تقى صاحبها مصارعَ السوء ، وتحفظه من المِحَن والبلايا ، وتجلُب رضا الله وإحسانه . لا تكلفكم الإنسانية من الإحسان إلا اليسير ، ولا تطالبكم المروءة إلا بالشىء القليل ، فاصنعوا المعروفَ فى أهله ما استطعتم ، وافعلوا الخير لعلكم

تفلحون ، وإن ما يُضيعه الواحد منكم فى الـكماليات لـكثير ، ولقد يُنفق الغنى منكم فى جلسة قصيرة ما يكفى البائسَ الفقيرَ زمنا طويلا ، فأدخِلوا السرور على المساكين بالبر والإحسان ، لعل الله يرحمنا ويكشف عنا ما نحن فيه من ضيق وشدة وذل وبلاء . اسألوا عن المحتاجين فى بيوتهم ، وعن المصابين فى أماكنهم ادخُلوا عليهم وهونوا عليهم الشدائد والآلام ، وخففوا عنهم ما هم فيه من الأسقام والأحزان ، وتصوروا أنـكم مثلُهم فماذا كنتم تحبون أن يُصنعَ بكم ؟ اتقوا الله وأعطوهم من مال الله الذى أعطاكم وجعلـكم نوابا عنه ، ووكلاء فيه ، يعطـكم أجراً عظيما ، وثوابا جزيلا « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » أعطوهم بعض ما يفضُلُ عنكم ، فبذلك تملـكون قلوبهم ، وتـكتسبون محبتهم ، وبذلك تتحد القلوب ، وتـكون الألفة والإخاء ، فتُنصرون على أعدائـكم ، وتبلغون غايتكم ، وتعيشون فى بلادكم آمنين مطمئنين ، ويعمكم الله برحمته ، ويشملـكم بإحسانه « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « انفق يا بن آدم يُنفَق عليك » متفق عليه من حديث أبى هريرة — وروى مسلم عنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَن نفَّس عن مؤمن كربة من كُرَبِ الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على مُعْسرٍ يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . وتقول فى الخطبة الثانية : أيها الناس — فينا مَن لا يئن لمتألم ، ولا يتوجع لمستصرخ ، ولايحن لبائس . فتجردوا من العاطفة الانسانية ، وحنان الأخاء الإسلامى ، وفقدوا الرابطة الدينية . وقد قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينهُ اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله » رواه مسلم . فينا من يقع أمامه من الحوادث مايؤلم القلب ويدمى العيون ، فلا يتأثر ولا يلين ، بل تجدُه كالصخرة الصماء : كالحجارة أو أشدّ

قسوة . . . والذى نشاهده من أمثال هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ، دليل واضح على انحطاط نفوسهم ، وخبث أرواحهم . المال مال الله ، والفقراء عيال الله ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ومالك الملك وخالق الخلق قادر على أن ينزع عن الغنى لباس غناه ، ويعطى البائس الفقير كل مايرضيه من متاع الحياة « قل اللهم مالك الملك . . . » الآية . فاللهم أصلح أحوالنا . وهبنا قلوبا رحيمة ونفوساً عالية وأرواحا طاهرة يارحمن .

المحافظة على الصلاة وآثارها فى الفرد والمجتمع

الحمد لله الذى جعل رضاه ورحمته لمن أطاعه ، وغضبه وعذابه لمن عصاه ، وهو الغنى القوى الكبير المتعال . وأشهد ألا إله إلا الله فرض على المؤمنين خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وجعلها فى خمسة أوقات رأفةً بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل العابدين ، وإمام المخلصين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الراكعين الساجدين . الخاشعين الصادقين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » أيها الناس : أمرنا الله تعالى بالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها ، والقيام فيها خاشعين لجلاله ، خاضعين لعظمته ، وجعلها طريق الفوز والسعادة فى العاجل والآجل بقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ذلك أن الصلاة الكاملة تنير القلب ، وتهذب النفس ، وتعلم العبد آداب العبودية ، وواجبات الربوبية ، بما تَغرِسه فى قلبه من جلال الله وعظمته ، والتحلى بمكارم الأخلاق : كالصدق والأمانة ، والقناعة والوفاء والحلم والتواضع ، والعدل والإحسان ، وتُوجهه إلى مولاه : فتكثر له مراقبته وخشيته ، حتى تعلو بذلك همته ، وتزكو نفسه ، فيبتعد عن الكذب والخيانة ، والشره والغدر ، والغضب والكبر ، ويترفَّعَ عن البغى والعدوان ، ودناءة الفسوق والعصيان « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ماتصنعون » بالمحافظة على الصلاة تقوى النفس على احتمال الشدائد ، وتثبت عند نزول البلايا

والمحن ، و يسهل عليها البذل حالة الغنى واليسار « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (أيها الناس) ماذا كان من آثار ترك الصلاة فى المدن والقرى ؟ كان من آثاره فى المدن انتشار الفواحش والمنكرات : ترى حانات الخمر والميسر ، و بيوتَ الدعارة والبغاء ، ودور الملاهى والخلاعة ، مملوءة بخاصة الناس وعامتهم ، حتى فى ليالى رمضان ، شهر الطاعة والقرآن . عبد الناسُ المال فلا يبالون من حلال أكلوا ، أم من حرام أكلوا ، وشغلوا بنعم الله عن الله . وهو تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » قلّ فيهم الصدقُ والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، فَقَلَّت الثقة من أفراد الأمة بعضهم ببعض ، فلا يكاد المسلم يثق إلا بالأجنبى ، وانحلت الروابط الدينية ، والوحدة الاسلامية ، فزال منهم التضامن فى المصالح الاجتماعية ، والتعاون على المشروعات الاقتصادية التى تحفظ وحدة الأمة واستقلالها ، وتضمن رقيَّها وعزتها « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وأما آثار ترك الصلاة فى القرى فاستباحة أهلها لإتلاف المزروعات والآلات ، وسرقة الحاصلات والبهائم ، ونقل الحدود ، و إساءة الجوار ، بل انتهاك الأعراض و إزهاق الأرواح . حتى كثرت بينهم القضايا والمنازعات . ولو أن المسلمين حافظوا على الصلوات فى الأوقات ، وأقاموها على وجهها كما أمر الله ، لانتهَوْا عن الفحشاء والمنكر ، واستراحوا من هذا البلاء والشقاء ، وعاشوا آمنين مطمئنين « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا ، و إذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطاً مستقيما » المحافظ على الصلاة لا يكون زانياً ولا مرابياً ، ولا حقوداً ولا حسودا ، ولا مماطلا فى حقوق الناس . المحافظ على الصلاة لا يُضيع حقوق أهله وعياله ، وأقاربه وجيرانه ، ولا يَقْهَرُ اليتيمَ ، ولا يقسو على المسكين . ولا يمنع الماعون عن إخوانه ، الذى يقيم الصلاة على وجهها يحب الحق وأهله ، ويكره الباطل وحزبه . ولا يرضى بالذلة

والهوان لنفسه وأمته ، ولا يركن لأهل البغى والعدوان ، ولا يطغى عند النعمة ، ولا ييأس عند النقمة ، ولا تعبث به الخرافات والأوهام ، فهذا هو الإنسان الكامل الذى يؤمن شره ، ويرجى فى الناس خيره . فاتقوا الله أيها المسلمون واشكروا نعمه عليكم بالطاعة والاستقامة . حافظوا على الصلاة فى الأوقات تحفظوا من بلايا الدنيا ، وتأمنوا من فزع الآخرة . وأحسنوا أداءها يُحسن اللهُ حالكم ، ويغفرْ لكم ذنوبكم . قال تعالى : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « يابن آدم خلقتك بيدى ، وربيتك بنعمتى ، وأنت تخالفنى وتعصينى ، وإن رجعتَ إلى تبتُ عليك ، فمنْ أين تجد لك ربا مِثلى ، وأنا الغفور الرحيم » ؟ وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم . وتقول فى الثانية : أيها الناس . الصلاة رياضة بدنية ، وصلة بين العبد وربه ، وإقامتها من أكبر علامات الإيمان ، وأعظم شعائر الدين ، وأجلى مظاهر العبودية لله ، وأظهر آيات الشكر له على نعمه التى لا تحصى . فأضاعتها انقطاعٌ عن الله تعالى وحرمانٌ من رحمته ، وإهمالها من ضعف الإيمان وهدم الدين ، وتكبر على الله وكفران بنعمته . وقد قال تعالى : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الصلاة الصحيحة هى الدواء الشافى من أمراض القلوب ، وفساد النفوس ، والنور المزيل لظلمات الذنوب والآثام . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسلُ منه كل يوم خمسَ مرّات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال فذلك مَثلُ الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » . متفق عليه — اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا أرحم الراحمين .

الاعتبار بالموت والاستعداد له

الحمد لله المبدىء المعيد . المحيي المميت . الفعال لما يريد . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . وأشهد ألا إله إلا الله سبق بالآجال علمُه ، ونفذَت فيها إرادتَه ، « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كانت حياته المثلَ الأعلى فى مكارم الأخلاق ، وجلائل الأعمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين أيقنوا بالموت فعملوا ، وخافوا الحسابَ فأمنوا العذاب (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » أيها الناس — إن أكبر واعظ هو الموت الذى قدره الله على خلقه : وكتبه على عباده ، وانفرد جل شأنه بالبقاء والدوام ، فما من مخلوق مهما امتد أجله ، وطال عمره ، إلا وهو نازل به ، وخاضع لسلطانه . « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » ولو جعل الله الخلودَ لأحد من خلقه لكان ذلك لأنبيائه المطهرين ، ورسله المقربين ، وكان أولاهم بذلك صفوةُ أصفيائه . وخيرتُه من خلقه ، سيدُ ولد آدم على الإطلاق ، محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه — كيف وقد نعاه إلى نفسه ، وأخبره بأنه سيموت كسائر الناس ، فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فالموت حتم لامحيص عنه ، ولا مفر منه ، يصل إلينا فى بطون الأودية ، وعلى رءوس الجبال ، وفوق الهواء ، وتحت الماء ، وبين القلاع المنيعة . والحصون المتينة « أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروج مشيدة » ولو نجا أحد من الموت لبسطةٍ فى جسمه ، وقوة فى بدنه ، أو وفرة فى ماله ، أو سَعة فى سلطانه وملكه . لنجا من الموت كثير من الناس . وإلا فأين عاد وثمود وفرعون ذوالأوتاد ؟ أين الأكاسرة والقياصرة ، أين الجبابرةُ والصناديدُ الأبطال .. فالموت لايخشى أحداً

ولا يُبْقِى على أحد : ينتزع الطفل من حضن أمه . ويهجُم على الشاب الفتى ، والفارس القوى ، و يأخذ الشيخ الهرم ، والشيخَة الفانية . أيها الناس : الموت عَلَى وضوح شأنه ، وظهور آثاره ، سر من الأسرار التى حيرت الألباب ، وأذهلت العقول ، وتركت الفلاسفةَ مبهوتين ، والأطباء مدهوشين ، فهو يتعلق بالروح التى قد استأثر الله بعلمه « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ترى الشاب الممتلىء صحة وعافية ، والشجاعَ الذى يصرَع الأبطال ، فى لحظة يسيرة قد استحال جثة هامدة ، وصار جسما لا حراك به . فذهب ذلك الشباب ، وتلاشت تلك القوة ، وتعطلت حواسه : تعطل سمعه و بصره وشمه ، وخرس لسانه . وقد يكون عالماً ضليعاً . أو أديباً بليغاً ، أو طبيباً ماهراً ، أو مخترعاً بارعاً . ولكن هيهات أن يمنع ذلك قبضَ أرواحنا ، إذا انقضت الأعمار وحضرت الآجال : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ما أقرب الموت ! ما أقرب الموت . . كل يوم يدنو منا ونحن ندنو منه ، وليس بيننا و بينه إلا أن يبلغ الكتاب أجله ، فإذا نحن فى عداد الموتى : فما الأعمار فى الحقيقة إلا أزهار تتفتح ثم تذبل . أو مصباح ينير ثم يطفأ . أو شهاب يضىء ثم يصير رماداً . . . أيها الناس . الموت كلمة ترتج لها القلوب ، وتقشعر منها الجلود ، ما ذكر فى قوم إلا ملكتهم الخشية ، وأخذتهم العبرة ، وأحسوا بالتفريط ، وشعروا بالتقصير . فندموا على ما مضى ، وأنابوا إلى ربهم : « ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » . فنسيان الموت ضلال مبين ، و بلاء عظيم ، ما نسيه أحد إلا طغى . وما غَفل عنه إنسان إلا غوى . و إن لنا فى السلف الصالح أسوةً حسنةً . وقدوة طيبة فقد كانوا يُكثرون من ذكر الموت حتى فى أوقات الصفاء ، وأيام السرور . وكان ذلك يبعثهم دائماً على الجد فى طاعة الله ، والبعد عن مساخط الله ، استعداداً للموت وما بعد الموت . و إذا كنت موقناً بأنك ستموت وتلقى مولاك . فكن على تمام الاستعداد له ، فإنك لا تدرى متى ينزلْ بك ، ولا تعلم فى أى ساعةٍ تُقبض ، حتى تتفرغ للعمل قبله ولو مدة قصيرة : « ولو كنت أعلم

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »
ولـكن الغفلة قد استحوذت علينا ، واشـتغلنا بحطام الدنيا ، حتى نسينا الموت
وأهوالَ يوم القيامة ، وغرنا بالله الغرور . والله تعالى يقول : « يا أيها الناس اتقوا
ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ؛
إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيـاة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرور » وليس أدلَّ
على الغفلة وقصر النظر من أن الانسان يجـدُّ و ينهمك فى جمع المـال ، من حلال
أو حرام ، ليتمتع به أياماً معدودة ، لاهياً بذلك عن الحياة الباقية ، والنعيم الأبدى :
« فى جنـة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء
والضراء والـكاظمين الغيظ والعـافين عن الناس والله يحب المحسنين » ولو أنا إذا
متنا تركنا لـكان الموت راحة كل حى ، ولكنا إذا متنا بعثنا . ونسأل بعد ذا عن
كل شىء ، لم يخلق الناس فى هذه الدنيا هملا ، ولم تنزل الشرائع وتبعث الرسل إلا
لحكمة : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » وُجدنا فى هذه
الحياة لنتزود منها ، ثم نموت لنستأنف حياة ثانية هى أعلى من هذه الحياة : « و إن
الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » ؛ فاتقوا الله ربكم واعلموا أن الدنيا
غرَّارة غرورٌ ما فيها ، فانيةٌ فانٍ ما عليها ، كما حكم عليها ربها بقوله : « كل من
عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ؛ اعملوا للحياة الباقية ، والخلود
الأبد . واعلموا أنكم ميتون ، وأنكم على رب العزة ستعرضون : « ليجزى الذين
أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ؛ فى الحديث القدسى عن رب
العزة يقول الله تبارك وتعـالى . « وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين
ولا أجمع له أمنين . إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيـامة ، و إن خافنى فى الدنيا
آمنته يوم القيامة » . رواه الحاكم وغيره . وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما
قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار
مَن أكيسُ الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : أكثرُهم ذكراً للموت
وأشدهم استعدادا له .. أولئك هم الأكياسُ ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » .

وتقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس ، إن السعادة والشقاءَ فى الآخرة منوطان بأعمال المرء فى الحياة الدنيا — و إن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير و إن شراً فشر ، وكل ما عمل المرء مسطور فى صحيفته . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : يومئذ تحدث أخبارها، ثم قال : أتدرون ما أخبارها ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عملتَ كذا وكذا فى يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

التحذير من التبرج

الحمد لله جعل السعادة لمن أطاعه ، والذلة والشقاء على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا بالإسلام إلى طرق الأدب والكمال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليخرج الناسَ من ظلمات البدع والضلالات ، وينقذَهم من سيىء الأخلاق ، وقبائح العادات . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى: « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » أمر الله تعالى نساء النبى صلى الله عليه وسلم بالاستقرار فى البيوت ، ونهاهن عن التبرج وإظهار الزينة للرجال الأجانب ، كتبرج النساء فى جاهلية الكفر قبل الإسلام — أمرهن بلزوم البيوت ، ونهاهن عن ذلك التبرج ، ليُزِيلَ عنهن ما يدنّس العِرض ، ويطهرَهن من أدران الخزى والعار ، صوناً للشرف ، ومحافظة على العفاف والكرامة . وإذا كان ذلك فى أمهات المؤمنين — وهُنَّ على ما تعلمون من العفاف والصيانة والتقوى والاستقامة — فنساء المسلمين بهذا أحق وأولى . أيها الناس : مِن أقبح المنكرات وأكبر البلايا تبرجُ المرأة وإظهارُ زينتها للرجال الأجانب ، فى الطرقات والأسواق ، وبيوت التجارة وأماكن اللهو والفسوق . فيراها الكبير والصغير ،

والفقير والغنى ، والمسلم والنصرانى ، لا دين يردعها ، ولا حياء يمنعها ، ولا قانُون يَقفُهَا عند حدها . . فهى كل يوم تزداد فى تبرجها ، تتفنَّنُ فى أشكال ملابسهَا ، حتى خَشِيَ أهلُ الدين سوء المغبة ، وخاف العقلاء وخامة العاقبة . إن تهتك المرأة و إظهارَها مواضعَ الزينة منها واختلاط الشبان بالفتيات لَمِنَ السيئات الممقوتة ، والبدعِ القبيحة . التى لا يصح التغاضى عنها ، ولا يجوز السكوت عليها ، بعد ما بين رجال الدين سوء عاقبتها ، وأدرك ذوو العقول السليمة خطرَ التهاون فيها ، وضررَ التساهل فى مقاومتها . فإن الساكت على الجريمة شريك الجانى . و إذا نزل العقابُ أصاب الصالح والطالح ، وعَمَّ البرىء والمسىء ، قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » أيها الناس : إن صغائرَ المعاصى تجر إلى كبائرها ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، فمعصية التبرج والاختلاط تؤدى إلى افتتان الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وتجرُّ إلى الزنا والأذى واختلاطِ الأنساب ، وانتشارِ الفاحشة فى أفراد الأمة ، وكلُّ هذا وبالٌ علينا وشَرٌّ فى العاجل والآجل « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فلا يليق بمسلم يغار على الآداب والأعراض أن يستصغر هذه المعصية ، و يتهاون بتلك البدعة ، فيترك النهىَ عنها ، وينام عن القضاء عليها ، وزجرِ المفتونين والمفتونات بها ، بعد أن علم ما فيها من المفاسد الجمة ، ورأى ما يترتب عليها من الشرور الكثيرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « والذى نفسى بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتَنهَوُنَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم » بهذا التبرج الذميم قد خرجت المرأة المسلمة من السنن الإسلامية ، والآداب الدينية ، ودخلت فى عادات الكافرين ، و بدع المتفرنجين ، وألقت بنفسها فى وهدة التهتك والخلاعة ، وطرحت عنها ثياب الحشمة والصيانة ، وخلعت عن وجهها برقع الحياء ، وصارت لا تراعى حرمة الآداب وَلا تبالى بهتك الحجاب ، وأصبحت حال المرأة اليوم أسوأ من حالها أيام الجاهلية ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل . أيها الناس : كل هذا كان من تقليد المرأة الشرقية للمرأة الغربية ، واستحسان عاداتها ، والافتتان بزينتها ، والتشبه بالأجانب فى عاداتهم القبيحة ، من غير عقل ولا روية . وبذلك ضاعت الأموال ، وبذلك فسدت الأخلاق ، وبذلك ساءت الظنون ، وبذلك انعدمت ثقة الشبان بعفاف الفتيات ، فأعرضوا عن الزواج الشرعى ، وأقبلوا على بيوت البغاء والدعارة ، وأوقعوا أنفسهم فى الأذى وغضب الله المنتقم الجبار . نعم قلدت المرأة المسلمة المرأة الكافرة فى تلك العادات القبيحة ، والبدع السيئة ، فخسرت نفسها ، وأضاعت كرامتها ، ولوثت سمعتها ، وأزالت الثقة منها ، وصارت حملا ثقيلا ، وعاراً على أهلها وذويها ، وكانت من أقوى العاملين على رواج البضائع الأجنبية ، وإماتة المصنوعات الوطنية وبذلك صارت شراً على البلاد ، ووبالا على العباد . وأنتم يا معشر الرجال المسئولون أمام الله عز وجل عن فساد المرأة ، وأن العذاب واقع على من قَدَرَ على منعها ، وتهاون فى زجرها وردعها ، أو قصر فى تربيتها وتهذيبها « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء) وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) ، وتقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس . كأن القوم فى هذا الزمان فقدوا الأباء والشمم ، والحمية والغَيْرَة . ترى الرجل على ما به من الوجاهة وجمال المظهر يتقهقر ضعفاً وجبناً فى مثل هذه المواقف التى تتطلب رجولة وثباتاً ، فليس فينا من يغار على الآداب والأعراض ، ليس فينا من يتألم لسير النساء والفتيات فى الشوارع والطرقات : كاسيات عاريات متبرجات متهتكات ، فلا أب تحركه نخوة الرجولة

فيهذب زوجته أو ابنته ويراقبها ، ولا أخ يهتم لصون عفاف أخته ، وحفظ شرف أسرته ، ولا زوج تدفعه الغيرة فيكبح جماح امرأته . حتى عم الفساد وساء الحال « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

التحذير من تقليد الأجانب فى عاداتهم السيئة

الحمد لله أمر بالتحلى بالفضائل ، ونهى عن الوقوع فى مهاوى النقائص والرذائل لا إله إلا هو الحكيم العليم . نشكره تعالى ميز لنا القبيح من الحسن . ونلجأ إليه سبحانه مما نزل بنا من البلايا والفتن . ونعوذ بالله من التقليد فى سيىء الأخلاق وقبائح البدع والعادات . وأشهد ألا إله إلا الله هدانا بالإسلام إلى خير وسائل السعادة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله فتح لنا بسنته أبواب الرقى والسيادة ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين تأدبوا بآداب الدين فبلغوا ذروة العزة والكمال (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » المعنى : دين الإسلام هو طريقى الذى أسلكه فاسلكوه مثلى ، ولا تسلكوا الطرق المخالفة له ، وهى طرق البدع والضلالات ، فإنها تبعدكم عن الدين القيم الذى اختاره الله طريقاً لسعادة الدنيا والآخرة أيها الناس : أمامنا طريق السعادة مفتوح فلماذا لا نسلكه ؟ أمامنا سبيل الرقى والفلاح واضح ، فلماذا نعدل عنه ونتركه ، ونسلك طريق التأخر والشقاء والخسران . أرأيتم أن دينكم قصر فى إرشادكم إلى سبيل الفلاح فعدلتم عنه ؟ أم قرأتم فى تعاليمه ما يصدكم عن جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق فهجرتموه ؟ كلا! إنه دين الله الذى يبقى طريقاً للسعادة والرقى إلى يوم تبعثون : إذ ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ، وما من رذيلة إلا حذر من قبحها وبين سوء عاقبتها . فما لنا نسير على غير هدى ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين ، ولا يتفق مع آداب المسلمين . أيها المسلمون . لقد جلب علينا تقليدنا للأجانب شرًّا وبيلا ، فقد أهمل كثيرٌ من كبرائنا أمر الدين ، واستهانوا بحقوقه ، وعَبَثُوا بواجباته ، بل صار الكثير من الشبان إباحياً لا دين له ، جريئاً

على انتهاك حرمات الله ، لا يُبَالى بارتكاب مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح . سائراً كلٌّ واحد منهم وراء شهوته وهواه « ومن أضلّ مِمّن اتّبعَ هَواه بغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إنّ اللهَ لا يَهْدِى القَوْمَ الظالمينَ » ويا ليتنا قلدنا الأجانب فيما يفيد وينفع من الأخلاق الفاضلة ، والعادات الحسنة . كالصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والاقتصاد وعدم الإسراف ، وكلٍّ ما يرقى شئوننا من الفنون والصنائع ، ولكنا قلّدناهم فيما يضر ولا ينفع : قلّدناهم فى الربا ولعب القمار ، ولم نبال بما يلحقنا من المضار المالية . قلّدناهم فى تناول المسكرات والمخدرات ، ولم نبال بمضارها البدنية والعقلية ، قلدناهم فى التبرج والتهتك وقلنا حرية . أخذنا عنهم أنواع اللهو والخلاعة وقلنا إننا بذلك نكون متمدنين : ربينا بناتنا على عاداتهم فنشأن عاريات من الفضائل . جاهلات بأمور الدين . طرحن ثياب الحشمة ، وخلعن برقع الحياء ، وبرزن فى الشوارع بالأزياء الافرنجية . فإذا رأيت المسلمة رأيت منها امرأة افرنجية فى ملابسها وحركاتها وسكناتها ، وهى ابنةُ أو زوجةُ من يعدّ نفسه من جماعة المسلمين وأقبح من هذا أن يذهب المسلم بأهله وأولاده إلى أماكن اللهو ، وبيوت الخلاعة والفجور ، وبدل أن ينفق أمواله فى الأعمال النافعة يضيعها فى النقائص والرذائل . والله يعلم أن هذه الأماكن ما أقيمت إلا لسلب ماله ، وإفساد أخلاقه ، والقضاء على البقية الباقية من دينه . وبذلك يجنى على نفسه ، وعلى أولاده وعلى أمته . ويكون لبناء الدين والفضيلة من الهادمين . أيها الناس : إن لكل أمة محاسن وقبائح يعرفها الأعمى والبصير ، وإن لنا دينا قويما كله آداب وفضائل . فمن العار بل من الحرام أن نترك محاسن ديننا ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين . ويغضب علينا اللهَ ربَّ العالمين . أتدرون ماعاقبة تقليدنا الأجانب فى بدعهم السيئة ، وعاداتهم القبيحة ؟ تالله إنها لعاقبة وخيمة : فإننا بهذا التقليد نندمج فى غيرنا ، ونهدم بناء ديننا . إننا بهذا التقليد نقضى على آدابنا وقوميتنا وعاداتنا ، ونمحو معالم حياتنا ، ونصبح بين الأمم ضائعين أذلاء مستضعفين . كفى هذا التقليد قبحاً أنه يسلب صاحبه فضيلةَ الإنسان ، كفاه ذما أنه يقطع الصلة بيننا وبين الخلفاء الراشدين ،

يقطع الصلة بيننا و بين الأئمة الأربعة المجتهدين . أولئك الذين سادوا العالم ونشروا لواء العلم والدين . أيها المسلمون : إن الأجانب أنفسهم عرفوا ضرر كثير من عاداتهم كالخمر والميسر والزار ، فنبهوا شعوبهم وأممهم فأقلعوا عنها . وإن دينكم والحمد لله ما ترك التنبيه على ضررها . ولطالما حذّر من شرها وخطرها ، فارجعوا إلى دينكم وكونوا بهديه متمسكين . اتقوا الله يا قوم واحذروا هذا التقليد الأعمى ، فإنه يضر ولا ينفع ، وأمامكم كتاب الله وسنة رسوله ففيهما كل خير وسعادة « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » .
فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموهم . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارَى ؟ قال فمن غيرهم ؟ » . وتقول فى الخطبة الثانية : أيها الناس : مما ابتلى به المسلمون وفشا بين الخاصة والعامة فى هذا الزمان تقليد الأجانب فى كثير من عاداتهم ، من غير تمييز بين النافع منها والضّار . وسبب هذا ما يرونه من قوة الأجنبى وضعفهم ، وتلك سنة الله تعالى فى أمة أهْمَلَت أمر دينها ، واتبعت أهواءها حتى ذهبت ريحها وضعفت قوتها ، فذلت واستكانت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره موافقة الأجانب فى كل أحوالهم حتى قالت اليهود إن محمدا يريد ألا يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه وكان يقول : « من تشبه بقوم فهو منهم » رواه أبو داود من حديث ابن عمر . وكان أيضاً يقول : « ليس منا من تشبه بغيرنا » رواه الترمذى . ويا ويل من تبرأ منه الحبيب المصطفى وذلك لا شك يفيد حرمة تقليد المسلمين للأجانب فيما هو من خصائصهم . ولذا كان عمر رضى الله عنه يُوصى قوادَّه الفاتحين لبلاد الأعاجم وعماله فيها بالمحافظة على عادات العرب وزيها ، وينهاهم عن التشبه بالأعاجم فى عاداتهم وملابسهم ، لتبقى الأمة العربية متميزة عن الأجانب بعاداتها وأزيائها ، وكل ما يحفظ قوميتها . وفق الله الأمة الإسلامية إلى ما فيه الخير والسعادة إنه الجواد الكريم الرحيم الرحمن .

أثر الدين فى سعادة الفرد والمجموع

الحمد لله شرع الدين هدًى للناس ورحمة . وجعل العزة والسعادة لمن تمسك به وتحلى بآدابه . وأشهد ألا إله إلا الله العزيز الحكيم ، الديَّان الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه . أولئك هم المفلحون . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أيها الناس — إن لدين الإسلام أثراً عظيما فى حياة الفرد وحياة الأمم ، بما يأمر به من صالح الأعمال والفضائل ، وما ينهى عنه من الآثام والرذائل . فإذا تمسك كل فرد بدينه ، وتحلى بآدابه ، فإنه يحيا حياة طيبة ، حياة سعادة وهناءة . فيعيش صحيح الجسم ، سليم العقل ، مصون العرض ، موفور الكرامة ، غيرَ كلٍّ على الناس . يسعى فى طلب الرزق من طريقه الحلال « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » يعيش المتمسك بدينه صادقا فى قوله وعمله ، وفياً بعهده ووعده ، أميناً فيما يؤتمن عليه من الأسرار والأموال ، وما يوكَلُ إليه من الوظائف والأعمال . متوسطاً فى الانفاق على نفسه وعياله . فلا يُسرف ولا يقتر شاكراً عند الرخاء ، صابراً على البلاء ، راضياً بالقضاء ، شريف النفس ، عالى الهمة ، شجاعا فى الحق ، لا يبالى ما يصيبه فى سبيله ، ولا يخاف إلا الله . قال أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله : « أوصانى خليلى بخصال من الخير : أوصانى ألا أخافَ فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقولَ الحق وإن كان مراً » يعيش المتدين براً بوالديه وأقاربه ، قائماً بحقوق زوجه وأولاده ، حَسَن الجِوار ، عطوفاً على المرضى ، رحيما بالضعفاء لا جباراً ولا عنيداً ، ولا مختالاً ولا فخوراً ، ولا حقوداً ولا حسوداً ، ولا مماطلا فى حقوق الناس . يرضى الله ويغضب لله ، وينفق ماله فيما ينفع نفسه وعياله ويفيد أمته . — هكذا يكون أثر

الدين فى نفوس المتمسكين به ، وهكذا تكون حياة المؤمنين المخلصين — أيها الناس : هذا أثر الدين فى سعادة الفرد وجعله إنساناً كاملا مهذبا . وإن أثره فى سعادة المجموع لظاهر جلىّ إذ من الفرد تكون الأسرة . وقد أوجب الدينُ على كل فرد منها حقوقاً للآخر : أوجب على الزوج احترامَ الزوجة والرفقَ بها . والانفاقَ عليها بحسب حاله غِنًى وفقراً . وحمايتها من الاعتداء عليها ، وإجمالا معاشرتها بالمعروف. كما قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وأوجب عليها أن تحترمه ، وأن تطيعه إذا أمر ، وأن تصونَ عرضَها ، وتحفظَ مالَه فى غيبته ، وأن تقومَ بتدبير المنزل . وعليهما أن يعتنيا بتربية الأولاد تربية حسَنَة لينشؤا على الصحة والكمال . وعلى الأولاد أن يُحسنوا بالوالدين . فإذا أدى كلّ فرد من الأسرة ما عليه للآخر اجتمع شملُها ، وانتظم أمرُها ، وحسُنَ حالها ، وعاشت عيشة راضية . والدين كما أوجب على فرد حقوقا لأهله وعشيرته ، أوجب عليه أن يحترم أعراضَ الناس وأنفسهم وأموالهم : فلا ينتهك حرمةَ عرض ، ولا ينال أحداً بأذى فى نفسه ، ولا يتعدى على ماله . كذلك الدين أمر بالتعاطف والتراحم : فجعل للفقراء والضعفاء ، حقاً فى مال الأغنياء ، وجاه الأقوياء . قال تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ولا ريب أنه إذا قام كل إنسان بواجبه نحو أخيه وكانت الأفرادُ والأسَر مستقيمة مهذبةً تكوّن من ذلك مجموعٌ صالحٌ راقٍ مهذبٌ هو الأمة . وكان الفضلُ فى تهذيبها ورقيها لهذا الدين القويم . فلا يكون بين أبنائها تباغضٌ ولا تحاسد ، ولا تفرق ، ولا تنازع ، وحل بينهم الوئام محل الخصام ، والاتحاد مكان التفرق ، والتعاون على الخير محل التخاذل . فارتقت وقويت ، وعزت وسادت ، وكانت أمة جديرة بالبقاء . فيأيها المسلمون اتقوا الله فى دينكم : تمسكوا به ، واعتصموا بحبله ، وتحلو بآدابه . ليعود للإسلام عزه وللمسلمين مجدهم . « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما » عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك » . قال : « قل آمنت بالله . ثم استقم »

رواه مسلم . وتقول فى الخطبة الثانية . أيها الناس : إن حال العرب قبل الإسلام، وما وصلوا إليه بعده أصدق شاهد على ما قلنا من تهذيب الدين للنفوس ، و إصلاحه حال الفرد والجماعات ، فقد كانوا قبائل تعبد الأصنام ، وكانوا فى خصام دائم وتنازع مستمر ، فلما جاء الإسلام وجه قلوبهم إلى عبادة الله خالق الخلق ومدبر الكائنات ونزع مافى صدورهم من العداوة والبغضاء ، وصاروا بفضل الإسلام إخواناً متحابين متحدين . قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » — اللهم وفق الأمة للتمسك بالدين ، والتحلى بآدابه يا رحمن يا رحيم .

التحذير من المسكرات والمخدرات

الحمد لله حبب الإيمان إلى نفوس الموفقين ، وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفرَ والفسوق والعصيانَ أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله جعل السعادة فى الطاعة ، والذل والشقاء فى العصيان وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين خافوا فأمنوا ، وأحسنوا ففازوا — أما بعد — فقد قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » — أيها الناس : إن الدين الإسلامى لم يدع سبيلا إلى الخير إلا أرشد إليه ، ولم يترك طريقاً إلى الشر إلا حذر منه ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ما تركتُ شيئاً يُقَرِّبكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه » ؛ و بذلك قد وضح الأمر ، وتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، ولم يبق بعد ذلك حاجة لطالب الرشد ؛ ولا عذر لمن وقع فى الغواية ، ولكن فريقاً من الناس قد أعرضوا عن هدى الدين ، واتخذوه وراءهم ظهرياً ؛ ووضعوا عقولهم تحت أقدامهم ؛ واتبعوا الشهوات فعميت بصائرهم وأسقطوا أنفسهم من درجة الكمال الذى أعدهم الله له وأنزلوا أرواحهم إلى مرتبة الحيوان ،

فكانوا بذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، ذلك بأنهم رضوا بأن يكونوا معاول فى هدم بنيان الفضيلة ، ويداً عاملة فى إقامة الشر والرذيلة ، وهؤلاء التعساء قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . نعم ! قد لعب الشيطان بعقولهم : زين لهم تناول المسكرات ، وتعاطى المخدرات ، وأوقعهم فى وَهْدَةِ الذل والدمار ، ولبئس ما كانوا يصنعون فقد أضعفت هذه المخدرات أبدانهم ، وأفسدت تلك السموم عقولهم ، وأضاعت عليهم أموالهم ، وعيالهم فى أشد الحاجة إليها ، وأقعدتهم عن العمل فى مرافق الحياة والسعى فى وسائل العيش . وبذلك قضوا على حياتهم وعقولهم ، وجنوا على أولادهم وأهليهم ، و بذلك أوقعوا أنفسهم فى الذلة والمهانة ، وعار التسول وجريمة السرقة . و بذلك كانوا وبالا على أنفسهم ، وشراً على ذويهم ؛ وعالة على كاهل الأمة « ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » . أيها الناس : عجباً أن يبيع الإنسان حياته وماله ، ويُضيعَ شرفه وكرامته ، ليربح موته وفقره ، واحتقاره وإهانته . عجباً لعاقل يسعى فى جنونه ، وقوى يعمل على إضعاف جسمه ، والقضاء على حياته . وذى مال يَعْمَل على إضاعته وموت عياله . كلُّ ذلك بمحض اختياره ورضاه ، بلا فكر ولا روية ، ولاشفقة ولارحمة . عجباً لمن يضَعُ الأغلال فى عنقه بيده ، وَيَنقُل ثروة بلاده إلى جيوب الأعداء ، فيَسْتَعْبِد أمَّته التى يغنى بغناها ، ويقوى بقوتها ، ويسعد بسعادتها . ولكن « مَن يهدِ اللهُ فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » أما يدرى ذلك السفيه الأحمق أنه بعمله هذا قد جنى على ذريته ، وأساء إلى نفسه و إلى أمته ، فهو بضَعْفِ جسمه وفساد عقله وأخلاقه لا يُعْقِبُ إلا ذرية ضعافا ، جبناء فاسدى العقول سيئ الأخلاق ، عالةً على المجتمع ، وعارا على الأمة . « قال نوحٌ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يُضلوا عبادَك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » ألا فلْيَخْشَ الله هؤلاء فى أنفسهم وذريتهم ، وأزواجهم وأمتهم ، ولْيُقارنوا بين حالهم قبل تناول هذه السموم وحالهم بعد الوقوع فى خطرها ، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى عزمهم . فقد كانوا

فى قوة وعافية ، ويسار ورخاء ، وشرف وكرامة ، وهناءة وسعادة . فأصبحوا فى ضعف وبلية ، وضيق وشدة ، وضَعَةٍ وإهانة ، وكدر وشقاء « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أيها الناس — إن الأمة هى جماعة تتكون من الأفراد ، فإذا تكونت أمةٌ من الأقوياء الأصحاء ، سليمى العقول ، مهذبى الأخلاق كانوا خيراً لأنفسهم ، وسعادةً لأمتهم . كانوا أساس عزها ومجدها ، وأركان رُقيها ونهوضها — أما إذا تكونت أمة من أمثال هؤلاء السفهاء المرضى ، ضعاف العقول ، فاسدى الأخلاق ، كانوا شراً على أنفسهم ، وشقاء على أمتهم . كانوا سبب ذلها ومهانتها وعلة تأخرها وانحطاطها « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » روى أبو داود فى سننه بإسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مُسْكرٍ ومُفْتر » : والمفتر كل شراب يورث الفتور والضعف فى الأعضاء — وتقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الظالم لنفسه ، المسىء إلى عشيرته وأمته ، إن كانت بلايا الدنيا وعقوباتُها هيِّنةً فى نظرك لا تَرْدَعُك عن ضلالك وغيك . فاعلم أن الله تعالى محاسبك على عملك ، وسائلك عن عُمُرك فيم أفنيته ، وعن شبابك فيم أضعته ، وعن مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته . فماذا يكون الجواب وأنت فى كل ذلك قد أسأت ، وفى كل ذلك قد أسرفت ، ماذا يكون الحال والحساب عسير ، واللسان معقود ، والموقف رهيب ، يوم يعض الظالم على يديه نادما على ماجناه « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

التحذير من خروج النساء إلى المقابر وخلف الجنائز

الحمد لله الذى جعل لحفظ الشريعة أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ووفق أولياءه للتمسك بالدين ، وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى طريق الصواب ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله أمر بالتمسك بالسنة

والكتاب . اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، فكانوا هم الفائزين الغالبين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أيها الناس : إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وإن من أطاع نفسه فى شهواتها ذلّ ، ومن اتبع هواه فى أعماله ضل « ومن أضلُّ ممن اتَّبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين » فمن لم يزن عمله بميزان الشرع وسار فيه على مقتضى العادات ، وجعلها عذراً لهفواته وزلاته ، فقد خدع نفسه ، وتقرب إلى الله بما يبعده عن الله ، وحاول أن يتخلص من سخط مولاه بالباطل ، والله سبحانه لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » أيها الناس : ماعذركم فى التمادى على عادات سيئة ، وبدع ممقوتة يأباها العقل السليم ، ويحرمها الدين الحنيف . أنسيتمُ أن مَن راقبَ اللهَ صانه اللهُ وهابتْه العيون ، ومن ارتكب البدع وتركَ السنن سُلط عليه من لا يعرف الله ، ووقع فى الذل وعذاب الهون ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه لابن عمه العباس : « احفظ الله يحفظْك ، احفظ الله تجدْه تُجاهَك » خلق الله لكم العقول لتميزوا بين النافع والضار ، وتكونوا على بصيرة من أعمالكم ، وأرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة ، فعطلتم العقل ، وخالفتم أمر الدين ، ونبذتم الفضيلة ، وتمسكتم بالرذيلة ، حتى ساءت الحال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم — ألم تعلموا أن الشارعَ الحكيم قد حرم على النساء زيارة القبور والخروج خلف الجنائز ؟ إذ قال صلوات الله وسلامه عليه : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجدَ والسرُج » وقال لنساء خرجن فى جنازة « أتحمِلنَه فيمن يحمله ؟ قلن : لا . قال : أفتَنزِلْنَه قبرَه فيمن يُنزِله ؟ قلن لا . قال أفتَحثِينَ عليه التراب فيمن يَحثِى ؟ قلن لا . قال فارجعن مأزورات غير مأجورات » وهذا منع لنساء الصحابة فما ظنكم بزيارة نساء اليوم التى اشتملت على التبرج والتهتك وأنواع المفاسد والمنكرات ؟ ! ألم تعلموا أن دينكم ينهى عن اختلاط النساء بالرجال ، فكيف استبحتمْ من دينكم

وأعراضكم أن تُحشر النساء مع الرجال الأجانب فى صعيد واحد ، وقد أرْخى عليهم الليل سُدُولَه ، وسترهم بظلامه ، وليس بين النساء والفساق من الحوائل ما يمنعُ من الوقوع فى الفحشاء . « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : إن الشرع لم يُبح زيارةَ القبور إلا للعظة والاعتبار به ، رتذكّر الموت وشدتِه ، والقبر ووحشتِه ، فتخشعُ القلوب ، وترجعُ عن غيها النفوس ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » فكيف جعلتمُ مواضع العبرةِ والخشية مكانا للهو واللعبِ ، وارتكابِ البدعِ والمنكرات . فاتقوا الله أيها المسلمون وارجعوا عما أنتم عليه ، واعلموا أن الشارع الحكيم أجاز للرجال فقط زيارة القبور ، وحرمها على النساء . وأن السنة فى زيارة الموتى أن يقول الزائر : « السلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا سَلَفٌ ونحن لكم تبع ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ويستغفر لهم ، ويسألَ الله تعالى أن يرحمهم ويفرجَ كربَ المكروبين منهم ، ويُشْعِرَ قلبه بأنه عما قريب يكون فى عدادهم ، ويذهبُ عنهُ أهلُه ومالهُ وولده ، ويبقى وحيداً فريدا ليس معه سوى عمله ، وهو الآن يُسأل فماذا يجيب ، وماذا يكونُ حاله ، ويملأ قلبه بهذا الاعتبار ، ويتعلق بمولاه فى الخلاص من هذه الأمور الخطيرة ، التى لا يُخلّصُ منها إلا الاستقامةُ مع إحسان الله ورحمته . هذه سنةُ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى زيارة الموتى وما عداها فهو بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ضلالة فى النار — فى الحديث القدسى عن رب العزة : « من لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر لنعمائى فليطلب له ربا سواى » — وعن رسول صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث : « اعلم . قال أعلمُ يا رسول الله . قال اعلم يا بلال : قال أعلمُ يا رسول الله . قال : من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل من عمل بها لا ينقص ذلك من آثام

الناس شيئا » رواه الترمذى وحسنه . وتقول فى الثانية : أيها الناس : الله تعالى يقول « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ومحبةُ العبد لمولاه رغبته فى طاعته ، واختصاصه بالعبادة دون سواه ، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ، ويحسنَ إليهم .. فمعنى الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للناس : إن كنتم تريدون طاعةَ الله تعالى وعبادتَه حقا ، فاتبعونى فيما جئتُ به ، حتى يصح ما تدعونه من محبتكم له تعالى ؛ وحينئذ يرضى عنكم ويحسنُ إليكم ويتجاوز لكم عما فرط منكم ، والله كثير الغفران ، واسع الرحمة لمن يتحبب إليه بطاعته ، ويتقرب إليه باتباع نبيه ، نسأله سبحانه التوفيق والهداية بمنه وكرمه .

ذم الكبر والتحذير منه

الحمد لله الذى خضع لعظمته كل شيء ، وهو الكبير المتعال . أحمده حمد من عرف نفسه فتواضع لله فرفعه . وأشهد ألا إله إلا الله تفرد بالكبرياء والعظمة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كان فى تواضعه خير مثال . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، ففازوا بجميل العقبى وحسن المآل . أما بعد : فقد قال الله تعالى : ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » . عباد الله . إن الكبر داء منشؤه جهل المرء بنفسه ، وحكمة الله فى أمره ، والكفرُ بنعمة ربه — فما عرف فرعون حينما قال : أنا ربكم الأعلى قدر نفسه . وما عقل إبليس اللعين حينما قال : أنا خير منه سرَّ حكمته ، وما أدى قارون حينما قال : إنما أوتيته على علم عندى ، شكر نعمته . فيامن يتقلب فى ظلماته ، ويرتع فى شهواته ؛ إن الكبرياء لمن فطر السموات والسلطانُ الأعظم لمدبر الكائنات ، من شاركه فيه غلبه ، ومن نازعه فيه قصمه ، فإن كنت ملكاً فسلطانك لا يعلو سلطان ربك ، وإن كنت ذا مال فإنما هو من مواهب مولاك ، أغرّك من ربك أيها المتكبر أن خوّلَك مُلكاً تجولُ فيه؟

أو غرّكَ منه أن منحك مالاً تصول به ؟ أو الذى حملك على بغيك هذا نبأ المستكبرين . تالله ما جاء نبؤهم إلا بسلطان الله ، فطرد إبليس من رحمته ، وأهلك فرعون على جرأته ، وخَسف الأرض بقارون لكفره بنعمته ، فباءوا بالنكال و بئس مثوى المتكبرين — ابن آدم . مالَكَ والكبرَ وأنَّى يكون لك . ألم تقم بك مراسم العبودية ؟ ألم تقم بك مبادىء الطفولية ؟ أم أنت فى غَشيتِكَ وسكرتك لا تُفيق . انظر بقلبك قبل بصرك ، إذ أنت لم تُدرك حكمة خلقك ، فهلا أبصرت عيوب نفسك التى بين جنبيك ، وهلاَّ شممْتَ نتْنَ إبطيك . أولا تزيل بيدل خَبث فرجيك ، فما أجهلك بنفسك وما أظلمك . والله لا يحب كل كفار أثيم ، اتَّضِع أيها المتكبر ولا ترتفع ، فما أنت إلا عبد أخرجك ربك من العدم ، ورعاك فى ظلمات الأرحام وقوَّمك فى أحسن الصور ، والنطفة المذرة بدايتك ، والجيفة القذرة نهايتك ، وأنت بينهما مورد الأدران ، ومجمع الأقذار ، يجاورك الطيب فيستحيل خَبثا ، فما أقدر من أحكمك ، والله على كل شىء قدير . عجباً لك أيها المتكبر ، ما أنت بنافع الحِكَم اهتديت ، ولا بمراسم العبودية اقتديت ، وفى جهلك وظلمك تماديت ، فما أفلح الظالمون وخاب كل جبار عنيد — فيا من يجر ذيل الكبرياء والخُيَلاء ، ويكفر بنعمة الله و يزدرى الضعفاء ، قد وضح أمرُك ، وتمَّ نُصْحَكَ ، فمالك لا تبالى بمهاوى الوبال ، ولا ترجع عن سيئات الأعمال وأنت على نفسك بصير . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » — روى مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حسنا ، ونعله حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبرُ بطْر الحق وغمْطُ الناس » . بطْر الحق رده على قائله ، وغمطُ الناس احتقارهم — وروى أيضاً عن أبى هريرة قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزَّ وجل : العز إزَارى، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعُنى فى واحدٍ منهما فقد عذَّبتُه » .

مضار شهادة الزور

الحمد لله العليم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، السميع البصير الذى يطلع على ماتكنه النفوس وتخفى الصدور : لا إله إلا هو أعز الصادقين ، وأذل الكاذبين . وأشهد ألا إله إلا الله أوجب الحق وحرم الكذب والضلال . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصدق والاخلاص فى الأقوال والأعمال : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه القويم (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » أيها الناس : إن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد اختار لكم الاسلام ديناً ، ووعدكم سعادة الدنيا والآخرة إذا اعتصمتم بحبله المتين ، واهتديتم بنوره المبين . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أما إن أهملتم دينكم القويم ولم تسمعوا نصائحه الغالية ، وإرشاداته الحكيمة ، واتبعتم أهواءكم ، ولم تراقبوا الله تعالى فى أقوالكم وأعمالكم ، ولم تخافوا شدة غضبه ، وأليم عذابه ، منع عنكم معونته ، وسلّطَ عليكم من لا يرحمكم وخسرتم الدنيا والآخرة : « وما ربك بظلام للعبيد » وإن الله تعالى جل شأنه قد حرّم فى هذا الدين قول الكذب وشهادةَ الزور ، وأمر باجتنابها والبعد عنها وقرنها بعبادة الأوثان ، لينبه الناس إلى فظاعة الزور وشدةِ قبحه . قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » والرجس : النجس القذر . والأوثان : الأصنام التى كانت تُعبد من دون الله سبحانه . وعبادة الأصنام شرك ، وقول الزور معه من أكبر الكبائر — أيها الناس : أيدرى شاهد الزور إلى من أساء ، أساء إلى نفسه ، أسقط مروءته ، أضاع منزلته وكرامته ، وسجل على نفسه عاراً لا يزول ، وخزياً لا يمحى ، وألقى بنفسه فى نار حرها شديد ، وعذابها أليم : « ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله

يفعل ما يشاء » . وأساء ؛ إلى من شهد عليه ، أهانه وأضاع حقه . وقطع صلة الإخاء التى تجب بين المسلم والمسلم . وظلمه وخذله ، وخالف فيه قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يَخْذُله ولا يَحقِره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . وأساء إلى من شهد له وأضر به ، حيث يريد أن ينفعه . أعانه على الظلم ، وأوقعه فى الحرام ، وعرضه لمقت الله وغضبه ، وصيره ذليلا بين يدى المنتقم الجبار ، الحكيم العادل ، الذى يأخذ من القوى للضعيف ، وينصر المظلوم من ظالمه ، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين ، يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « يوم ترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » وأساء إلى القاضى : أتعبه وأضاع عليه وقته ، وطمس عليه معالم الحق ، ولو صدَقه لأراحه وأراح الناس أجمعين . بل أساء إلى الأمة كلها : لوّث سمعتها ، وأضاع الثقة بها . وكل أمة فشا فيها الزور والكذبُ سقطت من عيون الأمم ، وأصبحت فى عداد الهالكين . أيها الناس : ما الذى يحمل شاهد الزور على هذا الوصف الذميم ، وذلك الموقف المخجل المَعيب . إن كان مالا يأخذه ممن شهد له فهو سحت لا بركة فيه ، بل هو وبال عليه فى الدنيا ، وعذابٌ له فى الآخرة ، وكل لحمٍ نبت من حرام فالنار أولى به — وإن كان الحامل له على الزور صحبتَه للمشهود له أو طلب رضاه ، فبئست هذه الصحبة التى تؤدى إلى سقوطه وخسرانه ، وتُوقعه فى سخط الله وغضبه . قالت عائشة رضى الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤْنةَ الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكَله الله إلى الناس » وشاهد الزور قد أرضى صاحبه وأغضب مولاه ، فخَذَله وقطع عنه رحمته وإحسانه — وإن كان الباعث له عليها خوف ضرر يناله إذا قال الصدق وشهد بالحق ، فالصدق ينجيه ، وتقوى الله تحميه : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . قالت عائشة رضى الله عنها لمعاذ : « اتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً . فاتق الله أيها المسلم فى نفسك وفى أمتك

اتق الله واجتنب قول الزور والزم الصدق ، وانصر الحق ، واشهد بما رأيت، بلافرق بين القريب والبعيد والصديق والعدو : « يا أيها الذين آمنوا كونو قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » — عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ! قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس — فقال : ألا وقول وقول الزور ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » متفق عليه .

وتقول في الثانية : أيها الناس : واجب المسلم أن يعدل في كل شيء ، وأن ينصر الحق أينما كان . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » الآية . أي كونوا مواظبين على العدل في جميع الأمور ، مجتهدين في إقامته ، لا يصرفكم عنه صارف ، شاهدين بالحق لله : بأن تقيموا شهاداتكم لوجه الله تعالى ، لا لغرض دنيوي ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على والديكم وأقاربكم لأن الشهادة بيان الحق سواء كان عليه أو على غيره ، إن يكن كل من المشهود له أو عليه غنياً يرجى خيره ويخشى ضره ، أو فقيراً يترحم ويحنى عليه ، فلا تجوروا فيها ميلا أو ترحماً ، ولا تشهدوا للغني طلباً لرضاه ، ولا تمتنعوا من الشهادة عليه خوفا منه ، أو على الفقير شفقة عليه ، فإن الله تعالى أولى بالغني والفقير وبالنظر لهما منكم ، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما مصلحة لما شرعها . فراعوا أمر الله تعالى فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

التحذير من إيذاء المسلمين

الحمد لله العليم بما كان وما يكون ؛ المدبر الحكيم فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . واشهد ألا إله إلا الله الكبير المتعال ؛ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صفوة الخلق وعين الكمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيل الهدى إلى يوم يبعث الله فيه الخلائق ليجزي الذين أساءوا بما عملوا

ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » أيها الناس . اقتضت حكمة الله عز وجل أن يخلق هذا العالم على أكمل نظام وأبدع إحكام ، واختار من بينه هذا النوع الإنسانى للخلافة فى الأرض ، والقيام بالعدل ، ليكمل العمران ويتم النظام — خلق الإنسان فسواه وعدله وأبدع خلقه ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه فتبارك الله أحسن الخالقين . — أودع فيه العقل ليميز بين النافع والضار ، ويفرق بين الحق والباطل ، والقبيح والحسن ، وركب فيه من القوى والحواس ما يستعين به على أمور دينه ودنياه ، ونصب له من دلائل وحدانيته ، وآيات علمه وقدرته ما يخضعه لعظيم سلطانه وجلال ربوبيته ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ليقوم بشكر نعمته ، ويمتلىء قلبه بمحبته ، وسخر العوالم كلها لمنافعه وخدمته « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » فمن امتاز بهذا التكريم العظيم يجدر به أن يكون مصدر الخير ، ومثال الكمال ، وعنوان الرحمة . من خص بهذا الفضل العظيم يجب عليه أن يكون كالملائكة فى طهارة النفس ، والوقوف عند حدود الله ، والبعد عن مساخط الله . والتحلى بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق ، يجب عليه أن يتباعد عن مظاهر الجبروت والكبرياء ، والانتقام والاعتداء ، والشر والفساد ، والأضرار بالناس . اللائق بمن عامله الله بعدله ورحمته ، ووسعه بكرمه وحلمه ، أن يكون فى معاملة الناس عادلا رحيما ، وحكيما حليما ، ومتسامحا كريما : فبعدله يكبح جماح الظالمين ، وتطمئن قلوب المستضعفين ، وبرحمته وشفقته تقل ويلاتُ الأرامل واليتامى ، وتخف آلام البؤساء والمساكين . وبحكمته وحزمه يدبر أمر نفسه ونظام عشيرته وأمته . وبحلمه وتسامحه يملك القلوب وتخضع له النفوس ، وبه

وبأمثاله يعيش الناس آمنين مطمئنين   أيها النـاس : إن من تخلق بهذه الأخلاق الـكريمة وتجمل بهذه الشمائل السامية ، وسلك سبيل الهدى والاستقامة ، وسلمت الناس من يده ولسانه ، كان عند الله وجيهاً ، وصار مَلَـكا كريماً فى صورة إنسان رحيم — أما من خبثت نفسه ، وتجرد من الأخلاق الفاضلة وعثا فى الأرض فساداً وكان مصدراً للأذى والشر ، وداعية للتفرق والتنازع ، فهو لاشك شيطان رجيم ، وبلاء عظيم . فمـا أتعسه فى الدنيا وما أشقاه فى الآخرة : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » فيا خبيث النفس أى حظ لك فى أن تكون كالأفعى لا تَنفُثُ إلا السموم ، ويا مؤذياً لعباد الله ماذا تجنى من الإيذاء لخلق الله ، وما حظك فى أن تكون شيطاناً رجيما ، وقد خُلِقت إنساناً كريماً . ويا من لا يخاف الله ولا يخشى غضبه وانتقامه ما أشقى الناس بك ، إنك على الأمة بلاء وأى بلاء ، ويا من اغتر بالدنيا وزينتها واعتمد على قوته وعشيرته ، اتق الله واجعل حظك من الدنيا نيل مرضاة الله ، وقدم لنفسك خيراً تجده عند الله ، فإنك إن عشت تعيش عزيزاً سعيداً ، وإذا مت لم يمت ذكرك وكنت عند الله والناس محموداً ، ولقيت من الله خير الجزاء بما قدمت من صالح الأعمال : « إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولايحيي . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » — أيها الإنسان — سبيل الهدى واضح فاسلكه ، وطريق الفلاح بيِّنٌ فلا تعدل عنه ، فإنك إن سلـكت سبيل الهدى فأنت الرابح السعيد ، وإن عدلت عن طريق الفلاح كنت الخاسر الشقى ، فمـا أسعد الموفقين الفائزين ، وما أشقى المخذولين المحرومين : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وروى مسلم من حديث النعمان بن بشير أنه صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى

رأسه اشتكى كله » . وتقول فى الخطبة الثانية الحديث الآتى : روى الإمام المقدسى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى بأربع كلمات هن إلىّ أحب من الدنيا وما فيها . قال لى : يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

الدين والاجتماع

الحمد لله الذى رضى الإسلام ديناً لعباده وجعل السعادة فى التمسك به ، والتحلى بآدابه . وأشهد ألا إله إلا الله الملك الديان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة . وعلى آله وصحبه ومن تمسك بالدين ، واهتدى بهديه (أما بعد) ؛ فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . عباد الله : إن لدين الإسلام محاسن كثيرة ، وفضائل جمة ، تحمل ذوى القلوب السليمة ، والعقول الصحيحة ، على التمسك به ، والتحلى بآدابه . وكلما كان المرء سليم العقل نير البصيرة اشتد تعلقه به ، لما فيه من جميل المحاسن ، وجليل الفضائل . فإنه دين قرر من عقائد التوحيد ما اتفقت العقول على صحته ، واستعدت الفطر السليمة لقبوله . فأثبت لخالق العالم أنه إله واحد ، قادر عليم ، عزيز حكيم ، جواد كريم : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . وشرع من العبادات ما يهذب النفوس ، ويبعث فيها روح الألفة والأخاء . ففرض الصلاة خمساً فى اليوم والليلة ، وطلب منا أن نؤديها فى جماعة ليكثر تلاقينا ، فتتأكد بيننا روابط المحبة ، وأوجب الزكاة لتطهر النفوس من رذيلة الشح ، وتتحلى بفضيلة السخاء ، وتكون المحبة بين الأغنياء والفقراء ، وسمى الصدقة قرضاً يرده بأضعاف كثيرة : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . كتب الصيام ليذوق المرء ألم الجوع فيعطف على الضعفاء والجائعين ، وتتعود النفوس قوة الإرادة ، وتحمل الشدائد وكبح

جماحها ، إذا هاجت عليها شهوة من شهواتها الرديئة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . أوجب الحج ليجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها فى صعيد واحد ، فيتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا على إصلاح شئونهم ، وتدبير أمورهم ، ويظهرَ خضوعُ العبد لأوامر مولاه ، وشكره لنعمائه . قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . وشرع من المعاملات ما يضمن سعادة المجتمع الإنسانى ، ويحفظ نظام العالم من الفوضى والاضطراب . فأحل البيع والشراء ، والشركة والإجارة ، والقرض والحوالة ، والرهن والعارية . تيسيراً لتبادل المنافع ، وتسهيلا لقضاء الحاجات على أحسن وجه وأكمله . كتب القصاص ، وفرض العقوبات على الجنايات والاعتداءات ، لزجر النفوس عن ارتكاب الجرائم ، وردعها عن الشرور والآثام . فحكم بقتل القاتل ، وقطع يد السارق ، محافظة على الأرواح والأموال ، ليعيش الناس آمنين مطمئنين : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون . والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله والله عزيز حكيم » . أحل النكاح وحرّم الزنا ومقدماته كالخلوة بالأجنبية والنظر إليها ، وحكم بجلد العزَب مائةَ جلدة ونَفيه سنة عن وطنه الذى فسَقَ فيه . وقضى برجم الزانى المتزوج بالحجارة حتى يموت ميتة الكلاب ، حفظاً للأنساب وصوناً للأمة عن الفناء « الزانية والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . حافظَ على العقول والأعراض فحرّم الخمر والقذف ، وحكم على من يتناول جرعة من المسكر أو يطْعُنُ فى عرض أخيه بثمانين جلدة وسقوطِه عن درجة الإنسان . « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » أيها الناس — ذلكم هو دين الإسلام الذى أخرج من العرب الأميين المتوحشين

أمة شديدة البأس، عظيمة القوة، واسعة السلطان، فأبدلهم بالخوف أمنا، وبالجهل علماً، وبالعداوة محبة، وبالتفرق وَحدة وبالضعف قوة، وبالذل عزا، وبجفاء الطباع وغلظ الأكباد رأفة ورحمة، وبالتوحش والهمجية مدنية وحضارة «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» دينٌ أنْجَبَ من العلماء والعظماء ما لم ينجبه دين من الأديان. أنجب مثل أبي بكر في وقاره وحلمه، وعمر في عدله وغيرته، وعثمان في نسكه وإخلاصه، وعلي في شجاعته وحكمته، دين يَكيدُ له حسادُه من يوم ظهر وهو كما ترى لم يطفأ له نورٌ ولم يَضعُف له برهان «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون». محاسن الدين كثيرة، وما سمعتَه قطرة من بحر، وقليل من كثير — وكفاه فضلا أنه ما من فضيلة إلا حثّ على التخلق بها، وما من رذيلة إلا نفّر من قبحها وبين سوء عاقبتها. فاتق الله أيها المسلم واعتصم بحبله المتين، واحرِص على العمل بأحكامه والتحلي بآدابه، تصلْ إلى ما وصل إليه السلف الصالح، من عزة وقوة، ونصر وفلاح، ورقى وسعادة. روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أحب الأديان إلى الله الحنيفيَّة السمْحة».

حقوق الأبناء على الآباء

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وهو الخلاق العليم، القادر العظيم. وأشهد ألا إله إلا الله المدبر الحكيم، الحنان المنان الرحمن الرحيم. وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، ورباه فأكمل تربيته، وأثنى عليه بقوله: «وإنك لعلى خلق عظيم» وعلى آله وصَحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» قال ابن عباس رضى الله عنهما ما تفسيرها: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصيَ الله.

ومُرُوا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، فذلك وقايةٌ لـكم ولهم من النار ، وقال سيدنا على رضى الله عنه : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم . أيها الناس : مَن شبَّ على شىء شاب عليه ، رمن أدب ولده صغيراً سُرَّ به كبيراً ، ومن لم يتدبر العواقب كان لا شك من النادمين . ينشأ الإنسان فى أول أمره وأيام طفولته ، على فطرة سليمة ونفس صافية ، تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر ، وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة . فإذا وجد فى هذا الوقت من يحكم تربيته ، ويحسن تأديبَه ، ويسلك به سبيل الاستقامة ، وطريق الأدب والـكمال . شَبَّ حسنَ الأخلاق ، طيب النفس ، متعلقاً بأهداب الفضيلة ، مستمسكا بحبل الهدى والرَّشَد . فيحيا حياة طيبة ، يكون بها سعيداً فى نفسه ونافعاً فى أمته . أما إذا أهمل أمره فلم ينل حظه من التربية والتأديب ، ولم يأخذ نصيبه من الإرشاد والتهذيب . نشأ سىء الأخلاق ، خبيث النفس ، فاقد الهمة ، ساقط المروءة ، محباً للشر ، كارهاً للخير ، كلاًّ على أهله وعشيرته . وكان شقاء على نفسه وبلاء على الناس أجمعين — وكان على ولى أمره كفل عظيم من تَبِعات شروره وجرائمه . لإهماله فى تربيته وتأديبه ، وتهاونه فى إرشاده وتهذيبه ؛ فهو مسئول عن ذلك أمام الله تعالى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى سائل كلَّ راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » . أيها الناس : إن تربية الأولاد فى صغرهم على مبادىء الدين الحنيف ، وتعويدهم على مكارم الأخلاق ، من أهم المسائل التى يجب على الآباء أن يتنبهوا لها ، والمصلحين أن يُعْنَوْا بها ، وأن يعلموا أن عليها تدور حياة الأمة فى مستقبلها ، وعليها وحدها يتوقف رقيها فى مدارج الرفعة والـكمال . فما الأمم إلا بالأخلاق ، وما الأخلاق إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، وإنكم لو تأملتم فى جميع ما نشكوا منه اليوم من فساد الأخلاق ، وانتشار المنكرات وانتهاك الحرمات ، وزيغ فى العقائد ، وتهاون فى تنفيذ أوامر الدين ، وتهتك النساء فى الطرقات والأسواق — لو تأملتم لوجدتم أن السبب فى هذا كله هو ترك التربية الدينية ، وإهمال التأديب فى وقته . الولد قطعة من أبيه ، وأمانة فى عنقه ، فاتقوا

الله يا قوم فى ثمرات قلوبكم ، وأفلاذ أكبادكم . ولا تلقوا بأيديكم فى نار جهنم التى وقودها الناس والحجارة . يا قوم اتقوا الله فى أبنائكم وذريتكم ، والأطفال الذين ألقيت إليكم مقاليد أمورهم ، وصارت رعاية شئونهم فى أيديكم . هذبوا أخلاقهم . ثقفوا عقولهم . علموهم ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم . اغرسوا فى قلوبهم حب الدين وآدابه ، والعمل بأحكامه وشرائعه ، مُرُوهم بأداء الصلوات فى الأوقات ، وشهود الجمعة والجماعات ، وعودوهم الأخلاق الحسنة ، وجنبوهم الأخلاق السيئة ، وباعدوا بينهم و بين قرناء السوء وفاسدى الأخلاق . قال صلوات الله وسلامه عليه: « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » أدبوهم بالرفق واللين ، وإياكم والعنف والشدة . فى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه » . أيها الناس : إنكم إن فعلتم ذلك بأولادكم والأولاد اليتامى منكم . فقد قمتم بما وجب عليكم من الحق لهم ، فإن أحسنوا بعد ذلك أحسنوا لأنفسهم . وإن أساءوا أساءوا على أنفسهم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » : روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . فكلكم راع ومسئول عن رعيته » — وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إلزَموا أولادكم وأحسِنوا أدبهم » واشرح فى الخطبة الثانية قول الإمام على رضى الله عنه : ثلاثة هى أفضل ما يورثه الآباء الأبناء : الثناء الحسن ، والأدب الصالح ، والأخوانُ الثقات ، وحديث الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم .

حقوق الآباء على الأبناء

الحمد لله على حلمه وكرمه ، والشكر له تعالى على فضله وإنعامه . وأشهد ألا إله إلا الله أمر بالاحسان إلى الوالدين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله حذر من العقوق وجعله من أكبر الكبائر ، وأعظم الآثام . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، الرحماء البررة . الهداة الراشدين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . أى أمر أمراً مبرماً ، وحكم حكما لا مرد له ، بأن تخصوه بالعبادة ، لأن العبادة غاية التعظيم ، فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام . وذلك هو الله وحده « وبالوالدين إحساناً » أى وبأن تُحسنوا إليهما إحساناً جميلا ، لما لهما من فضل وإحسان على الولد . (أيها المسلم) كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان ، فمن يزرع المعروف يحصد الشكر ، ومن يزرع الشر يحصد الندامة ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ وهل عاقبة الاساءة إلا الخسران ؟ . أيها الإنسانْ : إن والديك أحق الناس بحسن معاشرتك وجميل برك وإحسانك ، لعظيم فضلهما عليك ، وكثرة إحسانهما إليك ، وشدة عنايتهما بك فى الصغر ، وحرصهما دائماً على راحتك وسعادتك فى جميع أطوار حياتك بسببهما خرجت من العدم إلى الوجود ، وبفضل رعايتهما قوى عضدك ، واشتد ساعدك ، حتى صرت إنساناً كاملا ، ورجلا نافعاً ، قوياً على الجهاد فى معترك الحياة جاء رجل إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ (أى صحبتى) قال . « أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال . أمك . قال : ثم من ؟ قال . أبوك » . فمن أولى بالبر والطاعة والمعروف والإحسان ، من أمك الشفيقة البرة الرفيقة ؟ هى التى ذاقت أنواع الآلام مدة حملك . وقاست من الشدائد ما قاست وقت معالجة وضعك ، ثم أضعفت قوتها بإرضاعك حولين كاملين ، وأضعت راحتها بحملك تارة على الصدر وأخرى على اليدين ، كم لوثتها بالأوساخ والأقذار ، وكم أزالتهما عنك بلا ملل منها ولا ضجر —

وإذا مرضت باتت ليلها ساهرة جائعة ، حزينة باكية ، متألمة لألمك ، خائفة عليك مما ألم بك ، تسأل الله الكريم أن يمن عليها بشفائك ، ويكشف عنك ما نزل بك ، وييسرها بتمام صحتك ، ودوام عافيتك ، ويمتعها بطول عمرك فى هناء وصفاء — فكيف بعد هذا تؤثر غيرها عليها فى البر ، وتقدم عليها سواها فى الخير ، والإحسان ؟ وهى التى تعبت كثيراً فى تربيتك . وباخلاص خدمتك زمناً طويلا ولم تطلب على الخدمة جزاء ولا أجراً ، سوى أن تقر عينها بك ، وينشرح صدرها لرؤيتك ، هذا شأن الأم ، وهذا حالها مع الولد . ثم من أحق بالحنان والعطف ، والرحمة والإحسان ، من أبيك العطوف الرحيم ، الذى أحسن إليك فى ضعفك ، ومن نفائس أمواله أنفق عليك ورباك ، وأرشدك إلى ما ينفعك فى دينك ودنياك أيها الناس — إن عقوق الوالدين من أفحش السيئات . وأكبر الذنوب التى يعجل الله عقوبتها فى الدنيا قبل الآخرة ، فهو نكران للجميل وكفران بالنعمة ؛ ومقابلة الإحسان بالإساءة . قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامه إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات » . وإن البر بالوالدين لمن أوجب الحقوق وأقدس الواجبات وطاعتهما من أفضل الطاعات . لهذا قرن الله حقهما بحقه ، وشكرهما بشكره ، فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » . فمن حقوقهما عليك أن تكرمهما ، وتحسن إليهما ، وتبذل نفسك ومالك فى سبيل مصلحتهما ، وتسعى جهدك فى كسب رضاهما ، وإن بلغا عندك الكبر فلاطفهما ، واحتمل أذاهما ، ولا تضجر من حوائجهما ، وأحسن إليهما فى حال الضعف والكبر ، كما أحسنا إليك فى حال العجز ، والصغر ، وكن بهما رءوفاً رحيما ، وعليهما عطوفاً حليما ، قال تعالى : « إما يبلغن عندك الكبرَ أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » واعلم أنك مهما فعلت فى بر الوالدين والإحسان إليهما ، فلست قائماً بواجبهما ولا موفياً حقوقهما ، فسل الله تعالى أن يكافئهما عنك بواسع الرحمة ، وجزيل

الرضوان . قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » . فاتقوا الله أيها الأبناء واحرصوا على رضا الوالدين ، فإن رضا الوالدين سعادة فى العاجل والآجل ، واحذروا غضب الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاء فى الدنيا ووبال فى الآخرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد » أخرجه الترمذى . والمراد بالوالد : الأب والأم . وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما بأسناد حسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبرُّكم أبناؤكم . وعِفوا تعف نساؤكم » . وتقول فى الخطبة الثانية : روى أن ولداً اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا . فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنى ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنى ، و يبخل علىَّ بماله . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالُك لأبيك » مرتين . وشكى إليه آخر سوء خلق أمه ، فقال : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرْت ليلها وأظمأت نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حَجَجْتُ بها على عاتقى — قال : ما جزيتها ولو طلقةً » .

إرشاد الصائم

الحمد لله الذى أذاق الطائعين حلاوة الطاعة ، وعلّق قلوب الموفقين بالمساجد والجماعة . لا إله إلا الله جعل السعادة للصائمين القائمين الخاشعين — وأشهد ألا إله إلا الله وفق من شاء للتجارة معه فكانوا هم الرابحين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الصائمين الصابرين المتواضعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله

وأصحابه الذين صانوا صيامهم عن اللغو والكذب فكانوا هم الفائزين . أما بعد :
فقد قال الله تعالى : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور » أيها الصائمون : إن التجار ينتظرون المواسم لعظيم الرواج فيها ، فإذا جاءت تلك المواسم شمروا عن ساعد الجد في أعمال التجارة ، واستحضروا من الأصناف أجودها وأعلاها ، واختاروا من الألوان أجملها وأحسنها ، يسوقهم إلى هذا رجاء الربح ، وقد تحملهم شدة الحرص عليه إلى تضحية راحتهم ، ومفارقة أهليهم وأوطانهم ، ويركبون البحار ويتعرضون للأخطار والمخاوف ، ويقطعون وعر المفاوز ، وليس فيها إلا سبع مفترس ، أو قاطع طريق أو لصٌّ محتال ، يرتكبون ذلك غير مبالين بما ينالهم من مشقة وعناء ، بل يستسهلون في سبيل الربح جميع الصعاب ، مواصلين في ذلك الأيام والليالي . ولا عجب في تحمل التجار هذه المشاق ، فإن من ذاق لذة الربح هانت لديه جميع الشدائد ، وسهلت عليه كل المتاعب . هذه يا قوم حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحاً غير مضمون . فقد يكون ، وقد لا يكون — وعلى فرض أنهم ربحوا الدنيا بأسرها فالفناء مآلُهم ، والزوال مصير ما يربحون ، وكما أن للدنيا تجاراً مُجِدِّين منهمكين ، فإن للآخرة تجاراً أمناء صادقين ، أوفياء رحماء مخلصين « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيَهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » . فلا هُمْ بتجارة الدنيا يُفْتَنُون ، ولا هم عليها وحدها يُعَوِّلون ، وإنما عولوا على التجارة بخالص الأعمال مع الغنى الكريم ، الجواد الرحيم الذى لا غش في التجارة معه ولا خسارة ولا كساد . بل هى تجارة مأمونة رابحة رائجة لن تبور . أيها الناس : هل سمعتم أو رأيتم أن المشترى يعطى التاجر أكثر من الثمن ؟ لا ، ولكن الله الغنى الكريم البر الرحيم يأخذ عمل العبد ويعطيه على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما لا يحصيه عدّاد « والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ

عليم » . ومن واسع كرمه أنه يكافىء من اتقاه فى التجارة معه ، وأحسن المعاملة مع خلقه ، بدار لا يفْنى نَعيمُهَا ، ولا يُنَغّصُ عيشُهَا ، بجنةٍ « عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ومن رحمته أن حفظ أهل الاستقامة فى التّجارة معه من خَطَر السقوط والخسارة . وكتب لهم الأمنَ من كل المخاوف ، والسلامة من جميع المكاره ، فى هذه الحياة وفى تلك الحياة « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فاتق الله أيها الصائم ولا تنْهمك فى تجارة الدنيا وتُقصر فى تجارة الآخرة فما عندكم ينفد وما عند الله باق . اتق الله ولا تُضيّع العظيم الباقى بالحقير الفانى « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . واعلم أيها الصائم أنك الآن فى موسم ربح عظيم ، لا يتيسر لتجار الآخرة فى العام إلا مرة واحدة . موسم مَن اتّجَرَ فيه مع مولاه الكريم كان ربحُهُ أن يُعتقَ رقبتهَ من النّار ، ويَغْفر له ما تقدم من ذنبه — موسم من تقرب فيه من ربه بالبر والطاعات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، فاز بعظيم الخير وعميم الرحمة . موسم من صدقَت فيه نيته ، وطابت فيه سريرته ، وصان عن اللغو والفحش صيامه ، وكفّ عن الحرام عينيه وأذنَيْه ولسانه ، وتهذبت بالصيام نفسه فكان صابراً متواضعاً تقياً ، صادقا أميناً وفياً ، على البؤساء عطوفا ، وبالضعفاء رحيما ، نال من الله جزيل الاحسان وجميل الرضوان ، وكان من المحبو بين لدى الله والملائكة والناس أجمعين . فشَمّرْ فى هذا الموسم عن ساعد الجد واجعل صالح الأعمال بضاعتك ، والتواضع شعارك ، والحلم واللين شيمتك ، والرأفة والرحمة حليتك فالسعيدُ المرحوم من اتجر فيه بمرضاة المنان والشقى المحرومُ من خرج منه بالخيبة والخسران . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « كل عملِ ابن آدم له إلاّ الصيام فإنه لى وأنا أجْزى به ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى » متفق عليه أى أن الصيام سر بين العبد

ور به . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يَدَعْ قولَ الزور والعَمَلَ به فليسَ لله حاجةٌ فى أن يَدَعْ طعامَه وشرابَه » . رواه البخارى — أى فلا ثواب له .

سر مشروعية الصوم

الحمد لله أعظم المِنّةَ على عباده بما دفع عنهم من غوائل النفس والشيطان . جعل الصيامْ حصناً للمخلصين وجنّة . وفتح للمتواضعين فيه أبواب الجنة . وأشهد ألا إله إلا الله عرَّف الطائعين أن الشهوات وسيلةُ الشيطان إلى القلوب . وبقمعها تطمئن النفس وتقوى على قهر الشيطان الرجيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله قائدُ الخلق إلى الحق ، والهادى إلى طريق السعادة . اللهم صَلّ وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ذوى البصائر الثاقبة ، والعقول الراجحة (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتِب عليكم الصيامُ كما كتِب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات » أيها الناس : إن الله تعالى فرض الصيام فى شهر رمضان الذى أنْزل فيه القرآن ، لما له من آثار حسنة ، وَمنَافع جمة ، وفوائد عظيمة فى الدنيا والآخرة . فهو يضبطُ النفس ويُطفِىء شهوتها ، فإنها إذا شبعت تمرَّدت وسعت وراء شهواتها ، وإذا جاعت خضعت وامتنعت عما تهوى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فلْيتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج . ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ذلك أنه يكثر من شهوة الشباب حتى لا تطغى عليه الشهوة ، فيصير إلى العنتِ والفاحشة . فكان الصوم ذريعة إلى كف النفس عن المعاصى ، فسبحانه من إله عليم حكيم ، وإن الصيام وسيلة إلى إصلاح النفوس وتهذيبها : يربى فى الإنسان فضيلة الصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والصبر عند الشدائد ، لأنها إذا انقادت للامتناع عن الحلال من الغذاء الذى لا غنى لها عنه طلباً لمرضاة الله تعالى ، وخوفا من أليم عذابه ، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام الغنيّةِ عنه . فلا يكذب الصائم ولا يَغدِر ، ولا ينقض عهداً ولا يُخلِفُ وعداً ، ولا يكون

مرائياً ولا خائناً . فكان الصومُ سبباً فى اتّقاء المحارم ، وقوةِ العزيمة ، والتحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل ، و إلى هذا كله أشار جل وعلا بقوله : « لعلكم تتقون » أيها الصائم : الصوم يدعو العبد إلى شكر النعمة : إذ هو كف النفس عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، وكل هذا من جلائل نعم الله على خلقه . والامتناع عن هذه النعم من أول اليوم إلى آخره يُعرِّف الإنسانَ قدرَها ، إذ لا يُعرف فضلُ النعمة إلا بعد فقدها . فَيَبْعثُه ذلك على القيام بشكرها ، وشكر النعمة واجب . و إلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » وإن الصيام يَبعثُ فى الإنسان فضيلةَ الرحمةِ بالفقراء ، والعطفِ على البائسين . فإن الإنسانَ إذا ذاق ألم الجوع فى بعض الأوقات ، تذكر من هو جائع فى جميع الأوقات . فيسارعُ إلى رحمته والإحسان إليه . قيل ليوسف عليه السلام — وكان كثير الجوع — لم تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ فقال : « إنى أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » أيها الصائم : الصوم ينقى الجسم من الفضلات الرديئة ورطوبات الأمعاء ، ويشفى كثيرا من الأمراض ، وفيه من المزايا الصحية ما شهد به العدو قبل الصديق . فسبحانه من إله عليم حكيم ، و بخلقه رءوف رحيم . وعلى الجملة فإن إمساك الإنسان عن الطعام والشراب ، وكفَّ نفسِه عن شهواتها ، ومخالفتَه لعاداته فى ذلك يوماً كاملا مع صَوْن الجوارح عن اللغو ومساخط الله ، فيه كسرٌ لغائلة شهواته النفسية ، وتذليلُ جماحِها عن ميلها إلى غاياتِها البهيمية ، والقُرْبُ بها إلى أفقِها الأعلى ، والأخذ بزمامها إلى سُمُوِّها ورفعتها ، والبعدُ بها عن طبيعتها الأرضيه إلى عالم الملائكة . وإن جسم الإنسانِ عُرضةٌ للنمو والزيادة ، فكان فى حاجة إلى تخفيف شىء منه فى كل سنة حتى يقوى وَيَنْشَط ويسلَم من الأذى ، ولا يكونُ ذلك إلا بمنع الغذاء عنه جزءاً من الزمن . والصومُ بإجماع الأطباء حِمْيَةٌ منظَمة ، والطبيبُ الحاذِق يأمرُ المريضَ بالاحتماء لتُصَفَّى عروقه ، وتنفعَ فيه الأدوية . كذلك الصوم تُصَفَّى فيه عروقُ الإنسان من المعصيةِ فتنفع فيها الرحمة .

فسبحانه من إله عليم بخلقه ، حكيم فى شرعه وصنعه . قال صلوات الله وسلامه عليه عن رب العزة : يقول الله تعالى : « كلُ حسنة بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضِعْفٍ إلاَّ الصيام فإنه لِي وأنا أجزِى به » وتقول فى الخطبة الثانية : أيها الناس : إن الله تعالى قد رفع منزلة الصيام وميَّزه على سائر العبادات بالانتساب إليه . وعدمِ تحديد ثواب الصائمين حيث قال : « إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » وحَسْبك فى الإيمان بفضله قوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذى نفسى بيده لَخَلُوف فمِ الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل : إنما يَذَر شهوته وطعامَه وشرابَه لأجلى فالصوم لى وأنا أجزى به » . فيأيها المسلمون هذا شهر الإخلاص والصبر ، والصبر ثوابه الجنة . شهر التوبة والإنابة ورجوع العبد الآبق إلى مولاه . فتوبوا إلى الله وكفوا جوارحكم عن المعاصى تفوزوا برضوان الله « فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

سر مشروعية الصلاة والجماعة فيها

الحمد لله فرض الصلاةَ وجعلها أفضلَ الطاعات وأعظمَ القربات ، وأشهد ألا إله إلا الله العلى الكبير ، اللطيف الخبير ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله إمامُ الطائعين وأفضلُ الخاشعين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والذين هم على صلواتهم يحافظون (أما بعد) فقد قال الله تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » أيها الناس الصلاةُ عمادُ الدين ، وأعظم أركان الإسلام ، ومدارُ السعادتين ، وأساسُ الفوز فى الدارين « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » فرضها الله على عباده المؤمنين لتكونَ صلةً بحضرته ، وتذكيراً بعظمته وجلاله ، وشكراً له على جلائل نَعمائِه . ومن رحمته بعباده جعَلَها فى خمسة أوقات تيسيراً عليهم ، وتذكرةً لمن ينسى ، وتزكيةً لمن يخشى . تُقوِّى ما ضَعُفَ منهم ، وتزيدُ المستيقنَ يقينا ، والمؤمن إيمانا ، فسبحانه من إله حكيم عليم ، رءوف رحيم . تُعلِّم المرء بما فيها من الركوع والسجود ، والثناء والتعظيم ، كيف يتواضع لخالق الله ، وكيف يشكرُ من أحسن إليه ، ويكافىء مَن أسدى إليه معروفا ، تورثه

من الرحمة والقناعةِ مايجعلهُ رحيما بالضعفاء ، راضياً عن الله فى الشدة والرخاء . وتَغْرِس فى نفسه من هيبة الله وخشيته مايحول بينه و بين مايُغْضِب مولاه من الذنوب والآثام ، وكيف لايقنع بما قسم الله ، أو يقسوعلى بائس ، أو يكسب إثما ، بعد ماقال فى كل ركعات الصلاة : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ؟ كيف يعبد دنياه أو يسأل غير مولاه بعد ماقال وهو بين يديه : إياك نعبد و إياك نستعين ؟ كيف يطلب منه أن يهديه الصراط المستقيم من يسعى فى الأرض فساداً أو يكيدُ لأخوانه المسلمين ؟ كيف يجترىء على ارتكاب مايغضبُ الله مَن امتلأ قلبه خوفا أن يكون من المغضوب عليهم المطرودين أو من الضالين الخاسرين ؟ (أيها الناس) : إن من أقام الصلاة فى وقتها واستنار بها قلبه وتأثرت نفسه بما فيها من جلال وكمال ، سارَعَ إلى الخيرات ، وصبر فى البأساء والضراء ، وتباعد عن كبائر السيئات وصغائر المحرمات ، وكان بَرًّا نقيا ، متواضعاً تقيا « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون » أيها الناس : عليكم بتأديتها فى جماعة فإنها تزيد عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كل درجة منها لايعلم قدرها إلا علام الغيوب . قال صلوات الله وسلامه عليه : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة » . فبالاجتماع فيها تذهب الضغائن وتزول الأحقاد ، وتتآلف القلوب وتتحد الكلمة ، وتظهر عظمة ملك الملوك ورب الأرباب ، و يعم الفيض وتنزل الرحمة — نادى منادى الصلاة ودعا داعى الفلاح ، فأجابه الفقير والغنى ، والكبير والصغير ، والأمير والحقير . فإذا اجتمعوا فى صعيد واحد وراء إمام واحد ، إلى قبلة واحدة ، يعبدون ربا واحداً خاشعين خاضعين ، خائفين من عذابه ، طامعين فى رحمته . فلاجرم أن تنزل عليهم البركات ، وتحيط بهم الرحمات « وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » فاتقوا الله أيها المسلمون و بادروا إلى الصلاة فى أوقاتها تكونوا من المفلحين ، وفرّغوا قلوبكم من الشواغل فيها تصيروا من الفائزين . « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » فى الحديث

القدسى عن رب العزة « عبدى أخذك الشيطان منى لا لعجزى ولـكن لضعفك أنت » وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أىّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت ثم أىّ ؟ قال بر الوالدين . قلت ثم أىّ ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » . وتقول فى الثانية : أيها الناس : يقول الله جل وعلا : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » فهو تعالى غنىّ عن العبد وعن عمله ، لاتنفعه طاعة ولاتضره معصية . وإنما العبد هو المحتاج إليه تعالى فى جميع أحواله . أليس هو الفائز بالأجر إذا أحسن الصلاة ، أليس هو الظافر بالقبول إذا أخلص فيها لمولاه — ماعذر تارك الصلاة إلا الـكسل أو التكبر على طاعة الله ، والتشبه بالـكافرين الهالـكين ، والله تعالى يقول : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » تارك الصلاة يمحق الله البركة من عمره ورزقه ، وماله وولده ، ويذهب نور وجهه ، ويُحرَمُ من نعمة التوفيق للخيرات ، ويجترىء على جميع المحرمات . هذا فى الدنيا ، ويوم القيامة لايجيب الله له سؤالا ، ولايتقبل منه أعمالا ، وتغلق فى وجهه جميع أبواب الرحمة ، ويذوق أنواع الذل والهوان — اللهم إنا نعوذ بك من غضبك وعذابك ، ونسألك رضاك ورحمتك ، بمنك وكرمك يا أكرم الأكرمين .

وداع رمضان

الحمد لله الدائم فلا يزول ، البـاقى فلا يتغير ، وأشهد ألا إله إلا الله أجزل الخير للطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل الصائمين الراكعين الساجدين ، اللهم صل وسلم على سـيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » الذين اتقوا هم الذين عظَّموا أمر الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته ، والذين هم محسنون هم أهل الشفقة على خلق الله : باحترام الحقوق وحسن المعاملة . ومعنى أنه سبحانه مع هؤلاء أنه يتولاهم بالحماية والرعاية ،

والإحسان والهداية . ومن كان الله معه فقد ربح كل شيء . ومن طرده الله من معيَّته فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

أيها الصائم — ها هو رمضان قد مضى ولم يبق منه إلا القليل ، فهل اتقيت الله فيه وقمت بحقوقه ، وحافظت على آدابه ؟ هل أحسنت فيه المعاملة مع خلق الله ، واحترمت حقوقهم ؟ الصيامُ يُنورُ القلب ، ويهذب النفس ، ويقوى العزيمة ، ويُعرّفُ العبد مقدار النعمة ، ويملأ قلبه رحمة بالضعفاء . فهل استنار قلبُك فى رمضان بعد ظلمة العصيان ؟ هل تهذَّبت بالصيام نفسُك وقويت عزيمتك ؟ هل عرفت مقدار النعمة بفقدها فشكرت عليها مولاك ؟ هل امتلأ قلبك رحمة فعطفت على الأرامل واليتامى ؟ تالله لو كان قد استنار قلبُك وتهذبت نفسك ، لظهر ذلك فى أقوالك وأفعالك ومعاملاتك للناس أجمعين — وكيف يتهذب إنسان كانت نفسه وقت الصيام فى ملل وسآمة ، وهذا شأن من لم يذق حلاوة الطاعة ، ولم يخلص فى العمل لمولاه . أما كان البعض منا ينتظر انقضاء الشهر باليوم والساعة ، وذلك من علامات الغافلين ؟ وكيف يرجو أجرَ الصيام من يضجر منه لطول اليوم أم كيف يطمع فى الإعتاق من النار من يستكثر عليه صيام شهر فى السنة ؟ كيف يفوز بالعفو والغفران من كان فظا بذىء اللسان غليظ القلب قاسياً ، لم يرأف بالضعفاء والبائسين ؟ ياهذا كيف تستطيل أيامه وهو يصلح القلب ويهذب النفس كيف تستثقل صيامه وهو يصحح الأبدان ، ويجلبُ الغفران والرضوان ، أم كيف تسأم من شهر أنزل فيه القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين — أيها الصائم : انقضى شهر العبادة فهل أحييته بالعبادة ؟ انقضى شهر القرآن فهل اشتغلت فيه بتلاوته ؟ انقضى شهر البر والإحسان فهل أكرمت فيه يتيما أو أرملة أو سائلا محروماً ؟ انقضى شهر صلة الأرحام فهل وصلت فيه قريباً أو جبرت بعيداً ؟ انقضى شهر العفو والصفح ، فهل عفوت فيه عمن ظلمك أو صفحت عمن أساء إليك ؟ انقضى شهر التوبة والقبول فهل صرت من التائبين المقبولين ؟ وكيف يُحسَب من المقبولين من أطلق لسانه بالكذب والغيبة والنميمة ولم يستح من خالق الأرض والسماء ؟ كيف يُحسب من

المرحومين من إذا جن عليه الليل اشتغل باللعب عن الطاعة واستماع القرآن ، أو أمضاه فى بيوت اللهو وأماكن الفسوق ؟ وكيف يرجو القبول من ساءت أخلاقه فى الصيام ولم يكن من الخاضعين المتواضعين . أيها الصائم : هذا يوم الوداع فبأى شىء تودعه وأنت لم تحسن إليه مدة الإقامة ؟ وبأى وجه تقول الوداع ، وأنت تودعه بالكراهة والسآمة ، وكيف تفرح بالرحيل وهو عليك من الشاهدين بين يدى أحكم الحاكمين — فيا أيها الصائمون : اتقوا الله وتداركوا ما فرط منكم بالتوبة وصالح العمل ، وصلوا الأرحام وواسوا الأرامل واليتامى « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » وأحيوا ليلة القدر بالطاعة والعطف على البائسين والضعفاء ، وأخرجوا صدقة الفطر فإن الله أوجبها عليكم جبراً لخاطر المساكين ، وكفاً لهم عن السؤال والذل فى هذه الأيام ، ووسيلة لقبول الصيام ، واسعوا فى إصلاح ذات البين ، وليستحلَّ كل منكم مَن ظلمه ، ويستعطف من أساء إليه ، وطهروا قلوبكم من الغل والحسد ، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرّج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » — وتقول فى الخطبة الثانية — « أيها الناس » إن عزة الأمم وسعادتها منوطان بأخلاقها وآدابها ، واعتناقها للفضيلة ، وابتعادها عن الرذيلة ، فالأخلاق الفاضلة روح الأمم والشعوب لا حياةَ لها إلا بها ، ولا رقى لها إلا معها ، وعلى مقدار اعتناء الأمة بالتربية الصحيحة ، وتمسكها بالأدب والفضيلة يكون رقيُّها وفلاحها ، وهناؤها وصفاء عيشها ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

خطبة عيد الفطر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — الله أكبر (تسعاً) الله أكبر وهو الكبير الذى عَنَت الوجوه لكبريائه وعظمته . الله أكبر وهو الحى القيوم الذى دبر الكائنات بحكمته . الله أكبر وهو القادر الذى أبدع الموجودات وعمها بإحسانه ورحمته . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله على الدوام . وأشهد ألا إله إلا الله جعل فى تعاقب الأعياد عبرة لأولى الألباب . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الهدى والصواب . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله ، العاملين بأحكام الدين « أما بعد فيا أيها المسلمون » إن يومكم هذا يوم سرور لمن صحت نيته ، وقبل صيامه وقيامه . يوم فرحٍ وتهانٍ لمن طابت سريرته وحَسُنَ فى رمضان خلقه وكلامه . يوم عفو وإحسان لمن عفا عمن هفا وأحسن إلى من أسا وأصلح بين الأنام . هذا يومُ عيد ولكن العيد فى الحقيقة لمن تمسك بالدين . هذا يوم الفلاح والنجاح لو كان المسلمون فيه مؤتلفين متحدين . هذا يوم سعيد لو كنا لمستقبلنا عاملين . فى هذا اليوم المبارك يتجلى المولى على المخلصين بمزيد الإنعام . ينظر فيه إلى أهل الصدق والوفاء والمودة والمحبة . ينظر فيه إلى من تاب وراقب فى السر والعلانية ربه . ينظر فيه إلى من تغافل عن عيوب الناس ولعيوب نفسه تنبه . يعز فيه من طهّر قلبه من الحقد والحسد وتأدب بآداب الإسلام . فليس العيد لمن تمتع بالشهوات ولبس الثوب الجديد . ليس العيد لمن عق والديه فحرم الرضا فى هذا اليوم المبارك السعيد . ليس العيد لمن يحسد الناس على ما آتاهم مولاهم من فضله العميم المزيد . ليس العيد لخائن غشاش كذاب يسعى بالأذى والفساد بين الأنام . وكيف يسعد بالعيد من تجمل بالجديد وقلبه على أخيه المسلم أسود . كيف يهنأ بالعيد من استقام فى رمضان وبعده عدل عن الطريق القويم الأحمد . كيف يفرح بالعيد من أضاع أمواله فى الملاهى وبيوت الفسوق والفجور ، ويمنع حق الفقراء والضعفاء ولا يخاف يوم البعث والنشور . هيهات هيهات أن يحظى بالفلاح والقبول من أصر

على العداوة والخصام . إنما العيد لمن خاف يوم التناد . إنما العيد لمن اتقى مظالم العباد إنما العيد لمن فاز بالقبول وحسن الختام . أيها الناس : كم أموالٍ فى هذه الأيام تضيع على الملاهى والملاعب . كم تتعدى فيها أهل الغرور حدود الأدب بأفعال الهمج وتقليد الأجانب . كم تخرج فيها أهل البدع عن الشرع القويم فيكونون فى جانب والدين فى جانب . كم تَتَبهرَجُ فيها أبناء الشهوات بما اكتسبوه من الشبه والحرام أين من كان لا يفرح بعيد ولا بسواه إلا بما قدمه من الخير أمامه ، أين من كان يزجر نفسه عن اللذات خوفا من ألم العتاب والملامة . أين من كانت عيناه تفِيض عند ذكر أهوال يوم القيامة . أين أهل الشفقة والرحمة على الأرامل واليتامى فى هذه الأيام . أولئك قوم كانت قلوبهم مملوءة بالتقوى عامرة بالهدى ، أخلاقُهم كريمة ، وقلوبهم سليمة ، قانعون صابرون لا يجزعون لحال من الأحوال . تعرفهم بسيماهم . وأثنى عليهم مولاهم بقوله « من المؤمنين رجال » . علموا أن الدنيا وزخرفها ظل زائل كأنها أضغاث أحلام . فاتقوا الله أيها المسلمون وتباعدوا عن النفاق والشقاق فإنه يوقع فى الوبال والبلاء . وطهروا قلوبكم من الحقد والحسد وكونوا عباد الله إخوانا فى صفاء . وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، واعطفوا على الأرامل واليتامى ، تنالوا غاية القبول والإكرام . فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صُورِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » . وروى مسلم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

فى التحذير من العودة إلى المعاصى بعد رمضان

الحمد لله الدائم الباقى فلا يزول ولا يتغير . الحكيم الذى جعل فى انقضاء الشهور وتقلب الليل والنهار عبرة لمن تفكر . لا إله إلا هو جعل الفلاح لمن عمل بأحكام الدين . وأشهد ألا إله إلا الله فتح أبواب رحمته لمن داوم على طاعته . وحجب أنوار هدايته عمن انقاد لشهوته . وانغمس فى حمأة رذيلته . وأشهد أن

سيدنا محمداً رسول الله إمام المتقين . وسيد الأنبياء والمرسلين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه « أما بعد فيأيها المسلمون) إن كان رمضان قد مضى كأنه طيف خيال . وعزمتم على العود إلى التفريط والتقصير فى شوال . فالله حىّ أبدى سرمدىّ لايدركه زوال . ولا يفنيه تداول الأوقات وتعاقب الأهلة هلالا بعد هلال . فلا تقولوا الآن ذهب رمضان وتستهلوا شوالا بالفسوق والعصيان . فإن الله تعالى يرضى عمن أطاعه فى أى شهر كان . ويغضب على من عصاه فى كل وقت وأوان . أيها المسلم : عهدناك فى شهر رمضان منيباً إلى ربك ، تائباً من ذنبك ، راغباً فى رحمته وثوابه ، خائفاً من نقمته وعذابه . عهدناك فى رمضان محافظاً على أداء الصلوات فى الأوقات . حريصاً على شهود الجمعة والجماعات . مقبلا على مجالس العلم ومستعداً لقبول النصائح والعظات . عهدناك فى رمضان مهذباً نقياً ، متواضعاً تقياً . فعلى أى شىء عزمت بعد انقضاء شهر الصيام . أتراك بعد ما ذقت حلاوة الطاعة تعود إلى مرارة العصيان ؟ أتراك بعد ما صرت من حزب الرحمن تنقلب على عقبيك فتنضم إلى حزب الشيطان ؟ أتراك بعد ما حُسبت فى عداد المصلين تترك الصلاة وهى عماد الدين وشعار الإيمان ؟ وهل يليق بك بعد ما كُتبت فى جملة الطائعين المرحومين ، أن تصير فى زمرة العاصين المحرومين ؟ أيليق بك بعد ما كنت فى رمضان براً نقياً ، أن تصير فى الإفطار جباراً شقياً ؟ أيليق بك بعد ما كنت فى رمضان ملكا كريماً ، أن تصير بعده شيطاناً رجيما ؟ « كلا » ما هكذا تكون المؤمنون . بل ما هكذا تكون العقلاء المتبصرون ، ولا السعداء الموَفقون . أيها الناس : الصلاة نور للقلب ، وشكر للنعمة ، وصلة بين العبد وربه ، فما الذى يستفيده ذلك الشقى من ترك الصلاة سوى ظلمة القلب ، وكفران النعمة ، وقطع الصلة بينه وبين مولاه . بل ما الذى يجنيه العاصى من وراء معصيته غيرَ إتلاف ماله والإضرار بعقله وصحته ، وضياع شرفه وسقوط كرامته ، وإغضاب ربه واستحقاق مقته وعقوبته ؟ « تالله » إن المعاصىَ لَشهوة قصيرة عاجلة ، تعقبها حسرة طويلة

دائمة وشِقْوة ملازمة ونار حامية . وذل شديد . وعذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

فيأيها المسلم : اعلم هداك الله أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل . فاتق الله وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لمرضك ، ومن غناك لفقرك . وتزود لسفر طويل ، واستعد لحساب عسير ، وهول عظيم . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . يوم يعض الظالم على يديه نادماً على ما جناه . « يوم تُبـدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحسـاب . هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحـد وليذكر أولوا الألباب » — فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » وروى الحاكم عن ابن عباس . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتَك قبل موتك ، وصحتَك قبل سقَمك . وفراغَك قبل شغلك ، وشبابَك قبل هرَمِك . وغناك قبل فقرك » . الهرم كبر السن . وبابه طرب .

الحث عَلَى الاتحاد والتعاون والتحذير من التفرق والتنازع

الحمد لله الذى جعل الدين رباطاً متيناً بين قلوب المؤمنين . وأمر بالاتحاد والتعاون ، ونهى عن التفرق والتنازع فى كتابه المبين . لا إله إلا الله الحكيم العليم وأشهد ألا إله إلا الله القوى المتين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ذو القلب الرحيم ، والخلق الكريم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين طابت نفوسهم وصفت قلوبهم فكانوا هم السادة الغالبين ؛ (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أيها المسلمون : إن دين الإسلام هو حبل الله المتين ، والحق المبين ، من وقف عند حدوده نجا ، ومن تحلى بآدابه سعد ، ومن

تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم . وإن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد أوجب عليكم فيه أمراً عظيما ، إن أنتم أطعتم الله فيه نلتم من الخير ما تحبون ، وبلغتم من الفلاح والرقى الغاية التى تطلبون ، ذلكم هو أن تتحد قلوبكم ، وتتآلف نفوسكم ، وتتعاونوا على الخير فيما بينكم فإن الاتحاد والتعاون أساس كل خير وسعادة وعماد كل تقدم ورقى ، فما نالت أمة من الأمم نصيبها من رغد العيش ، ولا فاز شعب من الشعوب بحظه من التقدم والرقى ، إلا باتحاد القلوب واجتماع الكلمة ، والتعاون على الأمور النافعة ، والتضامن فى تنفيذ كل عمل مفيد . وشعور كل فرد بأنه عضو من جسم أمته ، عليه واجب يؤديه ، وله وظيفة يقوم بها لخير المجموع بأمانة وإخلاص . أيها الناس — إن التفرق والشقاق والتنازع والاختلاف لمن الجنايات العامة والجرائم الكبرى ، التى تهدم بنيان الأمم وتضعف قوتها : حتى لا تقوى على الثبات أمام أعدائها ، وتغلق فى وجهها أبواب كل خير ، وتنذرها بوخامة العاقبة وسوء المصير . لهذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التنازع والاختلاف ، وحذرهم من عواقبه السيئة ونتائجه المؤلمة . قال تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . تفشلوا : تجبنوا — تذهب ريحكم : تضيع قوتكم ولا تنصروا على أعدائكم — إننا إذا قلنا لكم إن الاتحاد والتعاون يثمران كل خير وسعادة ، فلا نستشهد على هذا إلا بما كان للسلف الصالح والخلفاء الراشدين من الشرف الرفيع ، والعز المنيع ، والقوة التى قهروا بها الجبابرة ، وأسقطوا عروش الظلم والاستعباد ، ونشروا لواء العدل والمساواة بين الناس فى كل مكان ، والله يعلم أنهم ما نالوا ذلك بكثرة عددهم ، ولا بتوفر عددهم . ولكنهم نالوه بفضل الاتحاد والتعاون والصدق والوفاء ، والإخلاص والإخاء . قال تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » . أيها الناس : إن فى حوادث الأيام لعبراً جمة ، وعظات كثيرة ، يستفيد منها الرجل الرشيد أكثر مما يستفيده من خطب الوعاظ ونصائح المرشدين — وها هى الحوادث تمر بنا فى كل يوم فهل آن لنا أن نعتبر ونتعظ . هل آن لنا أن نفيق

من سكرتنا ونتنبه من غفلتنا ، ونعلم أن فلاحنا موقوف على اتحادنا وتعاوننا ، وصفاء قلوبنا و إخلاص بعضنا لبعض ؟ أم نحن سنظل فى التفرق والتخاذل والشقاق والنفاق والغل والحسد والضلال القديم ؟ أيها الناس : اتقوا ربكم وتمسكوا بدينكم ، واعملوا بهدى نبيكم ، واقتدوا بأسلافكم الصالحين ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وتعاونوا على الخير وخير العمل ، يشملكم الله برحمته و يعمكم بإحسانه ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . رواه البخارى .

أخرى فى الاتحاد وأثره فى نجاح السلف

الحمد لله الذى ألّف بالإسلام بين قلوب المؤمنين . وأوجب الاتحاد وحرّم التفرق فى كتابه المبين . وأشهد ألا إله إلا الله هَدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسولُ الله خير داع إلى الطريق القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تهذبت نفوسهم واتحدت قلوبهم ، فكانوا السادة المنصورين (أما بعد فيا أيها المسلمون) لا ريب أن أقوى عامل على رفع منار الأمم ، وأفضل معين على نهوضها ونيلها منتهى المجد والشرف . هو اجتماع القلوب ، واتحاد الكلمة فما تمسكت به أمةٌ إلا ظهر سلطانها ، وقويت شوكتُها ، ودامت دولتُها ، و بلغت فى الرقى ورغد العيش أقصى الغايات ، وأرفع الدرجات . وما تفرقت أمةٌ واختلفت كلمتُها ، وتنازعت فى أمرها إلا اضمحل سلطانُها ، وضعفت قوتُها ، ودالت دولتُها وتبدل عزّها ذلا ، ورفعتُها ضعة وانحطاطا. وكان من نصيبها الفشل والخسران المبين لهذا أمر الله بالائتلاف والاتحاد ، ونهى عن التفرق والتنازع . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وقال تعالى . « ولا تنازعوا فتفشلوا ،

وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . أيها الناس : إن العاقل من بغيره اتعظ . و إن التاريخ لعبرة وعظة ، أنظروا إلى ما كانت عليه الأمة العربية أيام الجاهلية ، تروها كانت على أسوإ حال : حرب متواصل ، وتفرق دائم ، وعداء مستحكم ، وهمجية ممقوتة . يعتدى بعضهم على بعض ، و يبطش القوي بالضعيف ، لا دين يمنعه ، ولا قانون يردعه ، ولا إنسانية تحجزه ، ولا منصف يقفه عند حده ، إلى أن سطع نور الإسلام فأضاء بلاد العرب ، واستنارت به أرجاء نجد وتهامة ، وارتجت لأجله بلاد فارس والروم . ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره على يدى هذا الرسول الكريم ، والسيد الصادق الأمين ، فانضم إليه العقلاء ، والتف حوله السعداء ، فنزع الله من قلوبهم داء العداوة والبغضاء ، وطهرها بدواء الإخلاص والمحبة ، وألف بينهم فصاروا روحاً واحدة فى جسم واحد ، ففازوا بربح جسيم ، وظفروا بخير عميم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» . وكان لدولة الإسلام العز الذاتى الذى لا يدانى ، والسلطان الذى لا يضاهى . فقهروا الجبابرة ، ودوخوا الأكاسرة ، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها ، وأدركوا باتحادهم على قلة عددهم ، وضعف عددهم ، ما لم تدركه الجيوش على كثرتها وقوة عدتها ، فلقد التف الناس حول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واتحدت كلمتهم ، وخلصت نيتهم . فقهروا دولة الفرس والرومان ، وفتحوا الشام ومصر ، وانتصروا فى كل الوقائع ، ولم تنكس لهم راية ، ولم ينهزم لهم جيش ، وكان كل واحد منهم يعمل بإخلاص لإعلاء الدين ورفع شأنه ، ناسياً حظ نفسه وكل مأرب شخصى . لما بويع عمر بالخلافة بادر بعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش . فعل ذلك عمر لأمر أدركه ، ومصلحة رآها . فحينما بلغ خالد أمر العزل سلم عن طيب نفس قيادة الجيش إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح ، ولم يجد فى نفسه حرجا مما رآه أمير المؤمنين ، ودخل فى صفوف المجاهدين كجندى عادى ، وأصبح مرءوساً بعد أن كان رئيساً . وكل ذلك لم يثن من عزيمته ، ولم يصرفه عن الإقبال على العمل

بصدق وإخلاص (هذا) وقد أصبح كل منا يعمل لحظ نفسه ، ويسعى وراء مصلحته ، ولو كان فى ذلك مضرة لأخيه . حتى وقع الكل فى قبضة الذل والهوان وعم الجميع طوفان البلاء . ولو أنهم ثابوا إلى رشدهم ، وعملوا بتعاليم دينهم ، واتحدوا وكانوا على قلب رجل واحد ، لرجعوا إلى مجدهم ، وعادوا إلى عزهم ، ولكن لله فى خلقه شئون ، وللشقاء قوم وللسعادة قوم آخرون . روى الجماعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلمون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

فى التحذير من الغش فى المعاملات وسوء عاقبته

الحمد لله الذى كرّم الإنسان وأمره بالصدق والنصيحة والأمانة ، ونهاه عن الكذب والغش والخيانة ، لا إله إلا هو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله الشديد البطش بالخائنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله تبرأ من الغش وحذّر منه جماعة المسلمين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله . أما بعد فيا أيها المسلمون : إن الأرزاق لا تكون بالخداع ولا بالمقدرة ، وإنما هى كالآجال مقررة عند الله ومقدرة ، فلا يفوت العاجز رزقه ، ولا يُحصِّل فوق ما قُسم له القادر القوى ، فيا أيها الغاشّ هل يأتيك الغش برزق غير المقسوم ؟ ويا أيها الحالف بالأيمان الكاذبة هل يأتيك الحلف المكذوب بشىء سوى ما أراده لك الحى القيوم ؟ « كلا » والله لا يصيبك فى الدنيا إلا ما قضاه الله عليك ، ولا ينالك منها إلا ما قسمه الله لك . فما هذا التدليس الذى لا يكسبك إلا شكاً فى قضاء الله تعالى ، وما ذاك الغش الذى لا يفيدك إلا الوزر والخزى والعار ، وما عاقبة ذلك كله إلا ضياع الثقة وغمّ المصائب وهمّ الخسائر — فوالله ما تقدم عامل خان فى عمله ، ولا نجح صانع دلس فى صناعته ، ولا ربح تاجر غش فى تجارته ، وما هى إلا أيام معدودة ثم تنصرف الناس عنه وتغلق فى وجهه أبواب الربح ، وتذهب البركة من عمل يديه ، وربما دارت عليه أو على ذريته الدوائر .

أيها الناس : إن الغش لذنب كبير ، ولا يكون إلا من نفوس خبيثة طاغية ، وإن الأيمان الكاذبة لا تصدر إلا عن قلوب مظلمة قاسية . وكلاهما تغرير بالناس وتلاعب بالدين ، وخسران مبين . لقد أغضبت ربك أيها الحالف كذباً لترويج الصنعة أو البيع والشراء ، وأما أنت أيها الغاش فقد تبرأ منك الحبيب المصطفى لأكلك أموال الناس بالباطل ، وإهمالك لدينه ، وخروجك على ملته . برعْت فى ضروب النصب والاحتيال ، وتفننت فى أنواع الغش والخداع ، لا تراعى مخلوقاً ولا تخشى خالقاً . فلا حول ولا قوة إلا بالله — يدخل الإنسان على الصانع ، أو يقف المشترى أمام البائع ، فيسمع من الأيمان الكاذبة ما يخدعه به ، ويوهمه أن هذا الشيء لا نظير له ، وأنه أجود من صناعة أو بضاعة فلان وفلان ، وأرخص مما يباع فى جميع الحوانيت ، والله يعلم إنه لكاذب « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون » ولقد صار الغش فى كل شيء حتى اللبن فى ضرع الحيوان ، ولو أمكنهم أن يبيعوا التراب ذهباً لفعلوا بلا مبالاة ولا حياء . ألا فليعلم الغاش أن كسبه سحت وحرام ، وأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وليعلم الحالف كذباً أن حقوق الذى خدعه محفوظة يستوفيها من حسناته فى يوم لا درهم فيه ولا دينار . أيها الناس : إن الصناع والتجار من أكثر الناس اعتماداً على الله ، يفتحون محلاتهم كل يوم يبتغون من فضل الله ، لا يعتمدون على وظيفة ولا مرتب ، فما أحسنَهم إذا كانوا أمناء صادقين . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وما أسعدهم إذا هم قاموا بواجبهم نحو الله والناس ، ولم تشغلهم أعمالهم عن الله « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » فيا أيها المسلم اتق الله وارض بما قسم الله لك ، واحفظ نفسك من الإفلاس فى الدنيا ومن خزى يوم القيامة ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » . فى الحديث القدسى يقول الله تعالى :

« عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحت نفسك و بدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركُضُ فيها ركْضَ الوحش فى البرِّية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك وكنت عندى مذموماً » . وفى صحيح مسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : ماهذا ياصاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يارسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ! ! من غشنا فليس منا » . وفيه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم وكثرة الحلف فى البيع فإنه يُنفِق ثم يَمْحَق » . أى يروج السلعة ثم يُذْهب البركة من كسب البائع .

فى مضار الزنا — مسجوعة

الحمد لله الذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور . الحكيم الذى أعز من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى والفجور . لا إله إلاهو له الملك و إليه مرجع الخلق أجمعين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن محمداً رسول الله جاء بالحق الواضح والشرع القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » (ابن آدم) عمرك فى الدنيا و إن طال فأيامه قصيرة . لذَّاتك مهما حلَت لك فى الحال فستورثك فى المآل حسراتٍ كثيرة . ارتكابك للزنا بلا حياء دليلٌ منك على انطماس البصيرة إذ لو كنت من الراشدين ماسلكت مسالك الزناة الفاجرين . وكيف تقرب الزنا وقد أباح الله لك أربعاً من النساء ؟ كيف تتسبب لنفسك فى الذل والمرض وأنواع البلاء . مالكَ تُنْفِقُ مالك فيما يغضب ربك و يرضى الشيطان وهو لك عدو مبين . الشيطان يُزين لك الفحشاء ويجرك إلى الأذى والفساد . والله يدعوك إلى الفلاح والهدى والرشاد . فلماذا تركت الرشاد إلى الفساد . وهجرت الهدى إلى الضلال المبين . أيليق بك أن تطيع من يدعوك إلى مافيه ضياع المال وخيبة الآمال ، وتعصىَ من يأمرك بما فيه لك العزُّ فى الحال

والسعادة فى المآل ؟ أما تستحى ممن يراك وأنت لاتراه قبل أن تصبح من النادمين .
يا هذا : كيف تُمزِّقُ العفاف وتكشف عن عورة أختك المسلمة ، وكيف تخون أخاك وتعصى مولاك بهذه الجريمة الشنيعة المحرمة ؟ ويلك أيها الزانى فقد تجرأت على هتك الأعراض وكنت من الفاسقين . ألم تعلم أن الزنا يعود عليك فى الدنيا بالفقر والوبال . ويوقعك فى الحسرة والندامة يوم لاينفع أهل ولامال . ويورث العداوة والبغضاء والتفرق بين المسلمين . أما تدرى أن الله مطلع عليك وأنت على هذه الحالة الشنعاء . أما تخشى أن تنزل عليك وأنتَ تزنى صاعقةٌ من السماء .
أما سمعت قوله تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » فالزنا ياقوم عين الهلاك ورأس كل فساد . ومَضْيَعَة الأموال والأعراض والأولاد . ومخل بالشرف والمروءة ومؤَدّ إلى المرض والخزى والعذاب المهين . فهلا زجرك عنه الحياء إن لم يزجرك عنه باعث الدين . هلا منعك منه شرفك الذى تدعيه إن لم يمنعك الخوف من رب العالمين .
أم رضيت أن تكون فى الدنيا من الفاسقين وفى الآخرة من الخاسرين . فالخيبة كل الخيبة لمن استعبدته شهوته لامرأة زانية . والندامة كل الندامة لمن أضاع نصيبه من الجنة واستبدل به ناراً حامية . والذل كل الذل لمن جاء يوم القيامة والصديد يسيل من فرجه كما ورد عن سيد المرسلين . فيا أيها المؤمنون اتقوا الله وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم . راقبوا الله ولا تُضَيِّعوا بالزنا أولادكم وأنسابكم . وتوبوا إلى الله واستغفروه إن ربكم كريم يقبل التائبين . فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . (وفى رواية) : « فإذا فعل ذلك خلع ربقة الإسلام من عنقه . فإن تاب تاب الله عليه » . وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه من رأسه » .

التحذير من الزنا وعواقبه الوخيمة — مرسلة

الحمد لله الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولافى السماء ، يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، وأشهد ألا إله إلا الله جعل الإحسان للطائعين والذل والعقاب للفاسقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله دعا إلى الخير والصلاح وحذر من الشر والفساد ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين غضوا أبصارهم عن الحرام ، وحفظوا فروجهم عن الفحشاء ، فعاشوا فى صفاء وماتوا سعداء .

(أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » أيها الناس : نهانا الله العليم الحكيم عن الاقتراب من الزنا وما يدعو إليه من النظر واللمس ، والاختلاط والخلوة بالأجنبية ، لأنها تؤدى إلى الزنا ، كالراعى يرعى حولَ الحِمى يوشِك أنَ يقعَ فيه . وإذا كان الله تعالى قد حذّرنا من مقدمات الزنا ودواعِيه فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد . لم يحرم الله علينا الزنا عبثا ، ولم ينهنا عنه إلا لحكمة وفائدة تعود علينا ، فإن الزنا من أفحش الفواحش ، وأكبر القبائح ، وأعظمِها خطرا على المجتمع الإنسانى : يبدِّد الأموال ، ويهتِك الأعراض ويقتل الذرية ، ويؤدى إلى اختلاط الأنساب ، ويُفضى بالأمة إلى الفنَاء . والزنا يُفسد الأخلاقَ ويدعو إلى الشقاق والفساد ، ويوقِع فى البلايا والأمراض الخبيثة القاتلة ، وما الزهرىُّ (التشويش) والسيلان والسلُّ الرِئَوِى إلا مِن آثاره السيئة ، وعواقبه الوخيمة « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير » . عجباً للزانى يتفضل عليه مولاه بالمال الحلال ، فيُضِيعه فى مبارزته بالتمرد والعصيان ، فكان مثَله مع سيده مثَلَ من أنعم عليه السلطان بسيف فحارَبه به . وهذا لؤم لا وفاء ، ودناءةٌ لا مروءة ، وكفران لا شكران . أمَا كان ينبغى أن يُنفِقَه على أهله وعياله ؟ أمَا كان الأولى أن يَبذله فيما يرقى أمته التى يعز بعزها ويسعد بسعادتها ؟ أيها الناس : يستتر الزانى عن الأعين عند ارتكاب هذه الفاحشة ، ويخاف أن يراه الناس على تلك الجريمة الشنيعة ، أفلا يخاف اللهَ المنتقمَ

الجبار ؟ أو لا يَستحى من علام الغيوب « يَستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً » يا هذا أترضى أن يعتدى أحدٌ على حرمة أمك أو ابنتك ، أو اختك أو زوجتك ؟ إذا كنت لاَ ترضى ذلك لنفسك فكيف ترضاه لأخيك المسلم ، ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » فهل انحلَّت الروابط الاجتماعية بين الناس ؟ هل انقطعتْ الصلة الدينية بين جماعة المسلمين حتى صار المسلم لا يَشْعر بألم أخيه ، ولا يبالى بحقه وحرمته ؟ « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : لقد جاب الزانى الأذى لنفسه ، وجنى على أبنائه وبناته وزوجه ، فقد سَنَّ لهم سنةَ سيئة ، وجرأهم على الفاحشة ، فسرت عدْواهُ إليهم ، وكان عليهم وبالا وشراً مستطيرا ، ألاَ فليتق اللهَ الزناةُ وليعلموا أن من زنى زنىَ به . ومن هتك أعراضَ الناس لا بد من هتك عرضه ، ألا فليتقوا الله وليعلموا أن الزنا وبالٌ عليهم فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ، وبالٌ على أسرتهم ، وبالٌ على أمتهم . وأن الزانى مطرود من رحمة الله ، ممقوت لدى الله والناس أجمعين « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه » . وتشرح فى الثانية ما يأتى : روى البخارى عن سهل ابن سعد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَضْمَن لى ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه تضمنت له بالجنة » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذابٌ أليم : شيخٌ زانٍ ، ومَلكٌ كذاب ، وعائلٌ مستكبر » والعائل : الفقير . رواه مسلم .

خطبة عيد النَّحر

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . الله أكبر (تسعاً) الله أكبر ما لاحت إمارات الفلاح على من

قصد بيته الحرام . الله أكبر ما تجلّت عليهم أنوار الهداية لإقامة شعائر الإسلام .
الله أكبر ما ساروا فى البر والبحر تحرُسُهم عنايةُ الملك العلام . الله أكبر
ما فارقوا أموالَهم وعيالَهم لينالوا الرضوان الأكبر . الله أكبر (ثلاثا)
الله أكبر ما جَدُّوا فى المسير حتى شاهدوا الكعبة البهية . الله أكبر ما علت
أصواتهم بالتلبية إجابة لنداء الخليل فى البريَّة . الله أكبر ما صلّوا فى مقام
إبراهيم ونالوا المواهب السنية . الله أكبر ما طافوا وسعوْا وشربوا من ماء زمزم
المطهر . الله أكبر (ثلاثاً) الله أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات .
الله أكبر ما ابتهلوا فيه إلى الله وغُفِرَتْ لهم جميعُ السيئات . الله أكبر ما وقفوا
بالمشعر الحرام شاكرين الله على ما هداهم إلى معالم السعادات . الله أكبر ما وصلوا
منىً ونحروا هداياهم وحلَق كلٌّ أو قصَّر . الله أكبر (ثلاثاً) سبحان من أغدق
عليهم سحائب الرحمة والغفران ، سبحان من متّعهم بزيارة الحبيب سيد ولد عدنان ،
سبحان من أسعدَهم بالسلام على المختار وصاحبيه وأجزل لهم الإحسان ، سبحان
من هنأهم بنيل المأمول ، وبلوغ المقصود وتم لهم الحظ الأوفر . الله أكبر (ثلاثاً)
سبحان الله والحمد لله وهو أهل التنزيه والثناء . سبحان الله والشكر لله ، وهو
ذو الفضل العظيم واسع الكرم والعطاء . لا إله إلا الله لا رب غيره ولا معبود سواه
وأشهد ألا إله إلا الله جعل الأعياد مواسم الإحسان والرضوان . وأشهد أن سيدنا
محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان ، أللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه
الصادقين المخلصين (أما بعد فيأيها الناس) هذا يوم العيد الأكبر لمن وقف بالأمس
بعرفات فمحيت سيئاته وغفرت ذنوبه . هذا يوم السعد وبلوغ القصد لمن كرمت
سجاياه وخبثت نواياه . هذا يوم الفرح لمن تملّى بأنوار حبيب الله وخاتم أنبياه .
هذا يوم الهنا لمن بلغ المنى وصلى بالروضة بين القبر الشريف والمنبر . كان هذا يوم
الوفاء وصدق الاخاء بين جماعة المسلمين ، كان يوم تلاقى الإخوان بنفوس صافية
وقلوب سليمة . كان يوم صلة الأرحام والسعى فى إصلاح ذات البين . لكننا جعلناه
يوم لهو ولعب وإسراف فى اللذات والشهوات ، وإضاعة الأوقات فى كل عمل غير

مفيد ولا حميد . تركنا فيه محاسن الآداب إلى بدع وعادات لا يقرها دين ولا يقبلها عقل سليم . لو كان لنا قلوب لذابت أسفاً على حال المسلمين من بين العباد . لو كان لنا شعور حى لتألمنا لما حل بالإسلام من إذلال واضطهاد واستعباد . والله لو استقمنا كما أمرنا ما نزلت بنا المصائب ولا تحكمت فينا يد الأجانب . لو تمسكنا بديننا لنصرنا على أعدائنا وعاد لنا عزُّنا ، لو تحلينا بالصدق والوفاء والإخلاص والأمانة لتقدمنا على جميع الأمم « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . ما أجمل هذا اليوم لو كان المسلمون فيه متحدين ، ما أحسنه لو كانوا فيه أوفياء أمناء صادقين . ما أسعده لو كانوا إلى إصلاح القلوب ملتفتين . ما أهنأه لو كانوا فيما يرقى الأمة متضامنين متعاونين . فاتق الله أيها المفتون واسرع إلى حسن المآب ، اتق الله أيها المغرور ولا تفرح بزينة الظاهر والباطن من الحياء خراب : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

فى الحديث القدسى : يا ابن آدم خلقتك بيدى وربيتك بنعمتى وأنت تعصينى وإن رجعت إلىّ تبتُ عليك ، فمن أين تجد لك رباً مثلى وأنا الغفور الرحيم ؟ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا زلتم منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتى فإن خرجتم عن سنتى سلط الله عليكم من أعدائكم من يخيفكم ، فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتى)

وفى الخطبة الثانية بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله والتكبير سبعاً تقول : فى هذا اليوم تذبح الضحايا فمن الذى يطعم منها المساكين ويُهدى أرحامه وجيرانه ؟ فى هذا اليوم يكثر الخير فمن الذى يمنح المحتاجين بعض ما تشتهى أنفسهم وعيالهم ؟ من الذى يعطف على الأرامل واليتامى بقليل من مال الله الذى عنده ؟ من الذى اعتبر بحوادث الأيام وتقلبات الزمان ؟ من الذى أيقن بالموت وفى وحشة القبر وأهوال القيامة تفكر . فاتقوا الله وتقربوا إليه بالضحايا ، وتوددوا إلى بعضكم بالهدايا ، واسعوا فى إصلاح ذات البين ، وليصفح كل منكم عمن أساء إليه ، وصلوا الأرحام وأكرموا الأيتام ، ومن جاء من طريق فليرجع من آخر لتكثر لكم

الشهادات ، وكبروا الله أيام التشريق عقب الصلوات « واذكروه كما هداكم ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » . روى الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ضحى طيبةً بها نفسُه محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار) .

فى الاقتصاد والتحذير من الإسراف والتبذير

الحمد لله الذى دبر شئون خلقه وأرشدهم إلى ما فيه الخيرُ والسعادة ، وأشهد ألا إله إلا الله الرحيم بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الفضـــيلة ، الناهى عن الرذيلة ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، ومن سلك طريق الحزم والـكمال . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . أيها الناس : مالنا يأمرنا الله بالتوسط فى أمورنا ، والاعتدال فى قضاء مآربنا ، ونحن عن ذلك معرضون ، وفى الإسراف والتبذير واقعون ، وإلى الفقر والذلة صائرون ، مالنا يرشدنا الدين إلى السعادة فلا نهتدى بهديه ، وينصح لنا فلا نعمل بنصحه ، مالنا أخطأنا الصواب وضللنا سبل النجاح ، فأصبحنا من الإفراط فى صرف الأموال والتمـادى فى رهن المتاع والعقار على شفا جُرُفٍ هار ، فانهار بنا فى نار الفقر وعذاب الهون . تركنا ديننا فجهلنا نظام حياتنا وتدبير شئوننا والرَّوِيّة فى أعمالنا . فلا يعرف أحدنا لنفسه ميزاناً يزن به عمله ، ولا حسابا يضبط به مورده ومصرفه ، كى يتسنى له أن يقتصد بعض ماله ، ليسد به عوزه إذا ألمت به ملمة ، أو نزلت به نازلة . فهل فينا من تنبه لذلك وتدبر عواقب الإسراف ؟ هل فينا من سلك طريق الاقتصاد فنفع نفسه وأمته ؟ هل منا من اعتبر بمن أوقعهم سوء التصرف فى ذل الدين ، وساقهم التبذير إلى هوة الفقر فأصبحوا نادمين ، وعلى ما جنت أيديهم ملومين محسورين ؟ أيها العامل أو الموظف المسرف ! ويا أيها الزارع المبذر ، ماذا تصنع إذا استدنت اعتماداً على عملك أو وظيفتك ، أو حاصلاتك ، فانقطعت عن العمل ، أو نزلت جيوش العاهات والآفات بالحاصلات فأهلكتها ؟ . قل لى ماذا تصنع ؟ أترهن متاعك

ولباسك ، أم تبيع عقارك ودارك ، أم تماطل دائنك ؟ أم تعلن بين الناس إفلاسك ؟ كل هذا شر عليك فى العاجل والآجل ، ووبال عليك فى الدنيا والآخرة ، فاتعظ بغيرك أيها العاقل ، واعتبر بحوادث الأيام . فالسعيد من بغيره اتعظ ، والشقى من كان عبرة للناس . أيها المسلمون : قبيح بنا أن ننقاد لهوانا ، ونركن إلى الطيش ، والغرور فنستدين لنتطاول فى البنيان ، ونتفاخر بتشييد الدور . وقبيح بنا أن نضيع أموالنا فى حانات الخمور و بيوت الملاهى والفجور ، وحرام علينا والله أن نمد أيدينا إلى المصارف الأجنبية ، ونحمل أنفسنا مالا طاقة لها به ، ونوقعها فى ذل وهم لاخلاص لها منه ، ولا نبالى بحرمة الربا وعواقبه الوخيمة . ونتائجه السيئة . قبيح بنا أن تكون أعمالنا كمعاول الهدم ننقض بها ما بنى الآباء والأجداد من الثروة ، وجمعوا لنا من الأموال . لم يكفنا جهلنا بوسائل الثروة ، بل أضعنا ما فى أيدينا ، ومكّنا المرابين من أساس حياتنا وموارد أرزاقنا ، وجعلنا للأجانب يداً علينا ، كل هذا من إسرافنا وسوء تصرفنا ، « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولـكن الناس أنفسهم يظلمون » . هذه أفراحنا ، هل وقفنا فيها عند حدود الشريعة الغراء ، وكلها حكمة ورحمة ؟ هل وقفنا فيها عندما يرضاه العقل السليم والرأى السديد ! هل تركنا فيها الإسراف والتبذير رياء وافتخاراً ! هل تركنا نصب السرادقات وتعليق الرايات ، والمصابيح و إحضار المغنين والمغنيات والمطربين والمطربات ؟ وتلك مآتمنا هل اتبعنا فيها سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وسنة السلف الصالح من بعده ؟ . هل منعنا منها نوحَ النائحات وندب النادبات ، « كلا » بل ضللنا سواء السبيل ، وتجاوزنا حد الاعتدال فى جميع أمورنا ، واستحوذ الشيطان من ضعفنا على عقولنا ، وكل هذا و بال علينا ، وعلة ضعفنا ، وسبب تأخرنا « وما ظلمناهم ولـكن كانوا هم الظالمين » . فلا تستسلموا يا قوم لهواكم . ولا تنقادوا لشهواتـكم فتضيعوا الأموال فيما لايجدى نفعاً ؛ ولا يجلب خيراً ؛ وأمامكم المشروعات النافعة ، والأعمال المفيدة فذلك خير لأمتكم ، وأبقى لذكراكم . اتقوا الله واحذروا الإسراف والتبذير فإنه شر عليكم فى دنياكم ، وو بال عليكم فى آخرتكم . اتقوا الله والزموا التوسط المأمور به

فى كتابكم ، وسيروا فى أعمالكم سيرة سلفكم ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » رواه مسلم . ويقول فى الثانية . روى البيهقى والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الاقتصاد نصف المعيشة » . ومعنى كونه نصف المعيشة أنها لا تقوم إلا بأمرين : الكسب والاعتدال فى الانفاق فإذا انعدم أحد الركنين انهدمت المعيشة وساء حالها . وقال لقمان لابنه : يا بنى إياك والدَّينَ فإنه همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار .

الدين ضرورى للحياة الاجتماعية

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام دينا ، ورفع قدر من تمسك بآدابه ، ووقف عند حدوده . وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تحلَّوا بآداب الدين فكانوا هم الفائزين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » عباد الله : إن الإنسان مهما وتى من قوة ليس فى استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ، ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج . وإنه مسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس لتبادل المنافع التى لا بد منها . إذن فاجتماع أفراد الإنسان ضرورى لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم فى هذه الحياة . ولكن محال أن تكمل لهم سعادةٌ أو ينتظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل ، يردع الظالم عن ظلمه ، ويُنصف المظلوم من ظالمه ، ويَقِفُ الجميعَ عند حد الاعتدال فى جميع شئون الحياة ومرافقها . هذا القانون الذى يقمع النفوس عن الشر ، ويكفها

عن العدوان ، هو الدين لا سواه — الدينُ هو الذى يقوِّمُ الطباعَ ويهذبُ النفوسَ ويطهرُها من أدران النقائص والرذائل . فيحرِّم عليها الحقدَ والحسد ، والغش والنفاق ، والتقاطعَ والبغى والإضرارَ بالناس ويوجبُ العدلَ والمساواة ، والصدقَ والأمانة ، والإخلاصَ والوفاء . وينهض بالمتمسكين به ، والمهتدين بهديه ، إلى منازل الرفعة والكمال . وإذا كانت الأديانُ السماويةُ قد اتفقت على الدعوة إلى الله تعالى ، والحثِّ على التحلى بالآداب العالية والخلال الحسَنة ، فان الدين الحنيف قد اختص من بين سائر الأديان بأنه أكملها معنًى وأجملها صورة ، وأوضحها بياناً ، وأقواها حجة وبرهانا ، وأوفاها بمصالح البشر الدنيوية والأخروية . بل هو الصراط السوى والمنهج القويم . من سلكه فقد اهتدى ، ومن انحرف عنه ضلَّ وغَوى « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتَّبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . دين يخاطب العقول ويألف الأفهام ويمتزج بالأرواح ويتغلغل فى أعماق القلوب حتى يأخذ له منها مقرًّا ، ولا تجد مما أراده منها مفرا — دين يبهر العقول بآيات لا تشتبه بأعمال الساحرين ، وحيل الماكرين ، ولكنه الحق اللامع ، والنور الساطع ، والذهب الإبريز ، جميل له منه عليه شواهد — دين أساسه التوحيد ، وروحه الإخلاص والمحبة ، وشعاره العدل والمساواة ، والتسامح والإحسان ، والطهارة والرحمة . فلا عبادة فيه إلا ما يطهر النفوس من ظلمة الرجس والعصيان ، ويغرس فيها روح التعاون والاجتماع ، ولا معاملة فيه إلا ما يحفظ نظام العالم من الفوضى والاضطراب ، ويكفل راحة المجتمع فى تبادل المنافع الحيوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . أيها الناس : هذا قبس من أنوار دينكم القويم ، ونبذة من أخلاقه الكريمه ، وآدابه الراقية ، ذكَّرناكم بها لتعملوا عليها ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين . فاتقوا الله ربكم وتمسكوا بدينكم وجدُّوا فى إماتة الجهل والابتداع ، وعليكم بكتاب الله وسنة رسول الله . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . « فإن توليتم فاعلموا

أتما على رسولنا البلاغ المبين » . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام إنى أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، و إذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، و إن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذى .

فى وجوب الاعتصام بالدين

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، وأعز من تمسك بآدابه ووقف عند حدوده ، وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ماأمرهم الله به ، واجتنبوا مانهاهم عنه . فأورثهم مشارق الأرض ومغاربها . وماعند الله خير للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . قال الله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . (عباد الله) إن الله تعالى قد وهب للناس عقولا : وأكرمهم بتكليف شرعى ، وقانونٍ محكمٍ سماوىٍّ . ينقادون لأحكامه فلا تختلف بهم الآراء ، ويخضعون لأوامره فلا تلعب بهم الأهواء ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » . فإن العقول البشرية وحدها لا تهتدى إلى كل ما فيه صلاحها في العاجل فضلا عن الآجل . فالمجتمع الإنسانى لابد له من الدين ، وإلا كان الناسُ كالسباع الحيوانية والوحوش البرِّية — وقد كان المسلمون سادة أقوياء ، أعزاء أصفياء . يوم كانوا متمسكين بدينهم ، مهتدين بهديه واقفين عند حدوده . وقد تبدَّلت قوتهم ضعفاً ، وانقلب عزهم ذلا من يوم تركوا العمل به ، وأعرضوا عن هديه ونصائحه . يا قوم إن فلاح الأمة وسعادتها فى العاجل والآجل موقوف على شيء واحد ، ألا وهو التمسك بالدين الذى أمِرت أن تدين به ، وتقِف عند حدوده ، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه . فإن الدين

ما شرع إلا لتهذيب النفوس ، ومنعها من الشهوات الرديئة ، وحفظ النظام من الفوضى والاضطراب . فلا صلاح للناس إلا به . ولا سلامة لهم من مخاطر الشقاء إلا به . الدين أكبر زاجر للضمائر ، وأعظم مصلح للسرائر . رقيبٌ فى الخلوات ، نصوحٌ فى الملمّات . الدين أحكم قانون لإصلاح الحياة واستقامتها ، وأنفع وسيلة لانتظامها وسلامتها . بما أرشد إليه من سعادة الدنيا والآخرة ، وما كان به سعادة الدنيا والآخرة لحقّ العاقل أن يكون به متمسكا ، وعليه محافظاً . وإجمالا ! إن الدين الحنيف أساس العمران ، والسبيل الوحيد إلى سعادة الدارين ، وما بلغت الأمة الإسلامية فى إبان نشأتها تلك الدرجة العليا : من العز والقوة ، إلا بالوقوف عند حدود الدين . فكانت عاملة بوصاياه ، محافظة على نصائحه ؛ ناشرة للفضيلة ؛ محاربةً للنقيصة ، حاكمةً بالعدل فى الصديق والعدوّ ، صادقة فى الأقوال والأفعال ، مخلصة فى جميع الأحوال . ففتحت فى أقل من ثمانين سنة أكثر مما فتحه أكبر دولة فى عدة قرون . فيا أيها المسلمون : اتقوا الله وخافوا عواقب ما أنتم عليه من التهاون بأمور الدين ، فإنه لاحياة إلابالدين ، ولاسعادة فى الآخرة والأولى إلابالدين . ياقوم راقبوا الله وتمسكوا بدينكم وأحيوا سنة نبيكم تفلحوا وتُنصروا : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله وسنة رسوله » .

الإنسان — مآله ومصيره

الحمد لله الذى جعل الدنيا دار كسب وعمل ، والآخرة دار ثواب وعقاب ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، وأشهد ألا إله إلا الله الدائم الباقى بعد فناء خلقه . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الله بإذنه . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده فعاشوا أعزة وماتوا سعداء . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « كل شىء هالك

إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » . أيها الناس — كل مدة فى الدنيا إلى انتهاء وكل حى فيها صائر إلى الفناء . وكل شىء ماخلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل « كل من عليها فانٍ و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فبينما الإنسان يجرُّ فى ثياب صحته ، متمتعاً بنعمة العافية ، فرحاً بقوته وشبابه ، لا يخطر له الضعف على قلب ، ولا الموت على بال . إذ هجم عليه المرض ، وجاءه الضعف بعد القوة ، وحل الهم من نفسه محل الفرج ، والكدر مكان الصفاء ، ولم يعد يؤنسه جليس ، ولا يريحه حديث . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قد سئم ما كان يرغبه فى أيام صحته ، وصار لا يشتهى الغذاء ، ويكره تناول الدواء ، على بقاء فى لبه ، وصحة فى عقله . يفكر فى عمر أفناه ، وشباب أضاعه ، ويتذكر أموالا جمعها ، ودوراً بناها وقصوراً شيدها ، وضياعا جدَّ وكدَّ فى حيازتها . ويتألم لدنيا يفارقها ، ويترك ذرية ضعافا يخاف عليهم الضياع من بعده ، مع اشتغال نفسه بمرضه وآلامه ، وتعلق قلبه بما يعجل شفاءه . ولكن ما الحيلة إذا استفحل الداء ولم يفد الدواء ، وحار الطبيب ويئس الحبيب : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » . عند هذا يستشعر الندم على ما مضى ، ويحس بعواقب التفريط والإهمال ، وقد تغير لونه ، وغارت عيناه ، ومال عنقه وأنفه ، وذهب حسنه وجماله ، وخرس لسانه ، وصار بين أهله وأصدقائه ينظر ولا يفعل ، ويسمع ولا ينطق . يقلب بصره فيمن حوله من أولاده وأهله ، وإخوته وأقاربه ، وأحبابه وجيرانه : ينظرون ما يقاسيه من كرب وشدة . ولكنهم عن إنقاذه أو تخفيف كربه عاجزون . وبعد أن كانوا يحبون حياته وبقاءه صاروا يتمنون موته وراحته . وهو يعلم نه عما قليل مأخوذ من بينهم ؛ حيث لا يقدرون على منعه ، ولا يستطيعون رد روحه إلى بدنه : « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » . ثم لا يزال يعالج سكرات الموت ويشتد به النزع وقد تتابع نَفَسُهُ واختل نبضه ، وتعطل سمعه وبصره ، كما تعطل قبل ذلك لسانه حتى إذا جاء الأجل ونفذ القضاء ، وفاضت روحه إلى السماء . صار جثة هامدة ،

وجيفة بين أهله وعشيرته ، قد استوحشوا من جانبه ، وتباعدوا من قربه ، ومات اسمه الذى كانوا يعرفونه ، كما مات شخصه الذى كانوا يأنسون به ، وأصبحوا يقولون (الميت) بعد أن كانوا ينادونه باسمه حياً إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم أخذه الغاسل فجرده من ثيابه ، وصار يقلبه بين يديه عرياناً ، ويضع يده فى سوءته وعورته وقد كان يستحى من ذلك ويخجل منه حال حياته . ثم أدرج فى أكفانه كما يدرج المتاع فى لفافته ، وبعد الصلاة عليه يحملونه إلى حفرة عميقة ضيقة . مظلمة موحشة . وتركوه فيها وحيداً فريداً ، لا أنيس له ولا رفيق سوى عمله ورحمة مولاه ، فيضمه القبر وتحضره الملائكة ، يسألونه عن اعتقاده فى الله ورسوله وكتابه ، وعن طاعته وعبادته ، وكيف كانت معاملته للناس . أما المؤمن الطائع فلهم موفق مكرم مرحوم وأما المنافق العاصى فمضطرب مخذول مهان معذب . والقبر بعد ذلك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار . فياعباد الله كفى بالموت واعظاً فأكثروا من تذكره ، وأطيلوا التفكر فيما بعده من مخاوف القبر وأهوال يوم القيامة . فإن تذكر الموت يحمل على الاستعداد له ، ويكف المرء عن الشرور والغواية ، ويهون عليه كثيراً من هموم الدنيا ، والدنيا كلها متاعب وهموم ، والآخرة راحة وصفاء : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر لنعمائى كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين . ومن لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر لنعمائى ، فليطلب له رباً سواى » . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

وتقول فى الخطبة الثانية : (أيها الناس) الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل . والناس فيها أقسام ثلاثة ، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، والسابقون المقربون ، ولكل قسم منها جزاء مناسب لعمله ، فإن كان المرء من السابقين

المقربين فله بعد الموت راحة ورحمة ، وإحسان عظيم ، ورزق كريم ، ونعيم يفوق الوصف . وإن كان من أصحاب اليمين فله أنس وتحيات من إخوانه أصحاب اليمين ، مع تكريم الملائكة له : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وإن كان من أصحاب الشمال فله ماء شديد الحرارة ، يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ، يتناوله بعد أن يأكل من الزقوم طعام الأثيم ؛ يغلى فى البطون كغليان الماء على النار . قال الله تعالى فى هذه الأقسام الثلاثة إجمالا بعد الموت : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ، إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » . وأما العاصى الذى مات على غير توبة فيعاقب على جريمته ، ثم يتفضل الله عليه بدخول الجنة آخر الناس . فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتوبوا إلى الله قبل ألا تتوبوا .

فى فضل بناء المساجد

الحمد لله الذى أضاف المساجد لنفسه تشريفاً لقدرها فقال تعالى : « وأن المساجد لله » وحث على عمارتها تسهيلا للعبادة وعناية بأمرها . وأثنى على من أحياها ببناء أو عبادة ، وجعلها موضع التجلى والتحلى . لا إله غيره ، ولا معبود سواه . وأشهد ألا إله إلا الله يسجد له من فى السموات والأرض . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء والشفيع يوم العرض . اللهم صل وسلم على هذا النبى البهى ، أول من أسس المساجد فى الإسلام . وعلى آله وصحبه الذين أثنى الله عليهم بقوله : « رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » عباد الله : المساجد بيوت الله ، فيها يعبد ، وفيها يذكر اسمه . حقا إنها بيوت الله ، وإن من شأن الكريم أن يكرم من زاره فى بيته ، وأن المساجد فى الأرض مزار الملائكة فى السماء . منها تصعد الأعمال ،

وإليها تنزل الرحمة — وإذا كانت العلماء حماة الدين ، ومصابيح الهدى . فالمساجد حصون الأمان لمن تعلق بها قلبه وأخلص لله فى عمله . يَعمُرُ المساجد أهل الغيرة على الدين . والحب للاسلام ، والصدق فى الإيمان . تُبنى المساجد لإقامة الشعائر وإظهار أعلام الدين ، لا لنوم فلان ولا للتحدث مع فلان ، تبنى المساجد فيفرح ببنائها أهل السماء والأرض ، ويجعلها الله مهبط الرحمة والرضوان . تبنى فتُدْعى بيوت الله . فطوبى لمن شيدها ، وطوبى لمن فيها تعبَّد . المساجد فيها تقام شريعة المصطفى ومنها تصدر فضائل الأمة — أيها الناس : إن المساجد تشهد يوم القيامة لمن بناها أو أحياها بالذكر والطاعة . وإن المساجد من أعلام الدين إذا بُنيت ، ومن علامات النصر والخير إذا عرف حقها المؤمنون . عَرَف هذا أهل الخير قبلكم : فبنوا المساجد مثلكم ، ولم يتركوها عرضة للضياع ، بل وقفوا لها من الغلات مايصون حياتها ، ويضمن بقاءها ، وقد فرحوا بها يوم افتتاحها ، وفرح معهم بها أهل الأرض والسماء . وقد فارقوا الدنيا وتركوا آثارهم ومساجدهم شاهدة لهم بصدق الإيمان وقوة العزيمة . وإن إقامة هذا المسجد العظيم للسانٌ ناطق ، وشاهدٌ صادق ، على حب من أقامه للخير ، وغيرته على شعائر الدين . فلئن دعونا للأولين السابقين ، وشكرنا لهم حسن صنيعهم ، فلن يفوتنا أن نضرع إلى الله الكريم أن يتقبل أعمالكم ، ويجزيَكم أحسنَ الجزاء وأعظمَ الأجر . فى الحديث القدسى : « عبدى إذا لم تشكر من أجريت الخير على يديه لم تشكرنى » . اللهم كما أكثرت المساجد فى البلاد أكثر للمساجد من أهل الغيرة والإصلاح ، وأكثر فى المساجد من أهل الهدى والاستقامة ، حتى يبقى الدين وتبقى الشعائر يارب العالمين . فى الحديث القدسى عن رب العزة : « إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإن زُوَّارى فيها عُمَّارها ، فطوبى لمن تطهر فى بيته وزارنى فى بيتى ، وحقٌّ على المزور أن يكرم زائره » . وفى الصحيحين « من بنى لله مسجداً بنى الله له كهيئته فى الجنة » — وفى رواية : بنى الله له بيتاً فى الجنة .

عظات متنوعة

يذكرها المرشد فى المناسبات ، من الحكم والأحاديث النبوية والقدسية ، وآثار السلف ، وملح تاريخية ، وفكاهات أدبية ، فى الشئون الاجتماعية — فمن الحكم المأثورة : إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض سمع الأذن لاينفع مع غفلة القلب . شيئان لايعرف فضلهما إلامن فقدهما الشباب والعافية . حلاوة الظفر تمحو مرارة الصبر . ومن الحكم قول الحارث ابن كَلَدَة طبيب العرب : المعدة بيت الداء ، والحِمْية رأس الدواء ، وعوّدوا كل جسم ما اعتاد . غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه . فى الدنيا عمل ولاحساب ، وفى الآخرة حساب ولاعمل . للشدائد تدّخر الرجال . وقال الإمام على رضى الله عنه : عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالانعام عليه . من وضع نفسه مواضع التُّهمه فلا يلومن من أساء به الظن . لاينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى ، ولايستفيد يوماً من عمره إلابفراق آخر من أجله . السكوت عن الأحمق جوابه . إن لم تكن مِلحا تصلح ، فلا تكن ذُبابا تُفْسد . من غَربل الناس نَخَلوه . خير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير مالك مانفعك . لا تعُد نفسك من الناس مادام الغضب غالباً عليك . من أطاع غضبه أضاع أدبه . من عُرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عُرف بالكذب لم يجز صدقه . آفة المروءة خلف الوعد . من اتكل على زاد غيره طال جوعه . إذا ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك . وقال عيسى عليه السلام : ألا أخبركم بخيركم مجالسة ؟ قالوا بلى قال : من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ، ويشوّقكم إلى الجنة عمله . وقال للحواريين : عجباً لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لاترزقون فيها إلا بعمل . وفى الحديث القدسى عن رب العزة : ياابن آدم لاتخف من سلطان مادام سلطانى باقياً ، وسلطانى لاينَفْد أبداً . يا ابن آدم لاتأنس بغيرى وأنا لك ، فإنك إن طلبتنى وجدتنى ، وإن أنست بغيرى فُتُّك وفاتك الخير كله ، يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب ؛ وقسمت لك رزقك

فلا تتعب . إن كثر فلا تفرح ، و إن قل فلا تجزع . وفيه : عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، و إن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندى مذموماً . وفيه أحب ثلاثاً وحبى لثلاث أشد : أحب أهل السخاء وحبى للفقير السخى أشد ، وأحب المتواضعين وحبى للغنى المتواضع أشد ، وأحب التائبين وحبى للشاب التائب أشد — وأبغض ثلاثاً و بغضى لثلاث أشد : أبغض البخلاء و بغضى للغنى البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين و بغضى للفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفساق ، و بغضى للشيخ الفاسق أشد . وفيه : عبدى أخذك الشيطان منى لا لعجزى ولكن لضعفك أنت . وفيه : عبدى كم أتحبب إليك بالنعم وتتبغض إلى بالمعاصى . خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد . وفيه يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطالبك بعمله ، فإنى لم أنس من عصانى فكيف من أطاعنى . وفيه يقول الله تعالى : من استسلم لقضائى وصبر على بلائى ، وشكر لنعمائى ، كتبته صديقاً و بعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر لنعمائى ، فليخرج من تحت سمائى وليطلب له ربا سواى وفيه يا ابن آدم خلقتك بيدى ور بيتك بنعمتى ، وأنت تخالفنى وتعصينى ، و إن رجعت إلىّ تبت عليك ، فمن أين تجد لك ربا مثلى ، وأنا الغفور الرحيم ؟ . وفيه : ماأقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى . وفيه : إنى أهمّ بعذاب عبادى ، فانظر إلى عمار المساجد وجلساء القرآن ، وولدان الإسلام ، فيسكن غضبى . وفيه : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم لأقبلوا ، هذا بالمدبرين عنى ، فكيف بالمقبلين علىّ وفيه : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، و إن خافنى فى الدنيا آمنته يوم القيامة . آمنته بالمد جعلت له الأمان . رواه ابن حبان فى صحيحه . وفيه ياعبادى إنى أوجدتكم من العدم بقدرتى ورزقتكم من الطيبات ، وأتممت عليكم نعمتى ، وأرسلت لكم الرسل الكرام لتعرفوا

أحكام شريعتى ، فلماذا تعرضون عنى وأنا الغنى الكريم ؟ فوعزتى وجلالى لئن أطعتمونى لنصرتكم على أعدائكم ، وإن سألتمونى كنت قريباً منكم ومجيباً لدعائكم ولكن عصيتمونى فوقعتم فى الذل والعذاب المهين ، ومن كلام ابن مسعود رضى الله عنه : إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة ، وأعمال محفوظة ، والموت يأتى بغتة ، فمن زرع خيراً يوشك أن يزرع رغبة ، ومن زرع شراً يوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مثل مازرع ماقل وكفى خير مما أكثر وألهى ، خير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى . والخمر جماع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان . والشباب شعبة من الجنون ، والنوح من عمل الجاهلية . إنى لأبغض الرجل أراه فارغا ليس فى شىء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة . من لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً ، أطلب قلبك فى ثلاث مواطن : عند سماع القرآن ، وفى مجالس الذكر ، وفى أوقات الخلوة . فإن لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب ، فإنه لا قلب لك ، قيل لبعض الحكماء : أى شىء أنفع للإنسان ؟ . قال : عقل يولد به ، قيل فإن فاته ذلك ؟ قال كرم يستره — قيل فإن فاته ذلك ؟ قال أدب يقوّمه . قيل فإن فاته ذلك ؟ قال صمت يلزمه . قيل فإن فاته ذلك ؟ . قال قبر يحويه . وقال بعض الحكماء : اعمل للدنيا بقدر مُقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر مُقامك فيها ، واعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها . ثلاثة يضيع المعروف عندهم : اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبِخَة ، والشرير فإنه يرى الذى أسديت إليه مخافة شره ، والأحمق فإنه لا يدرى مقدار ماصنعت إليه . ثلاثة يستأنس بهم ، الصديق المصافى : والولد البار ، والزوجة الصالحة ، جليس الخير غنيمة ، وجليس الشر شيطان ، جليس السوء كالقين إن لم يحرق ثوبك دخنه ، خير المال ما أخذ من الحلال وصرف فى النوازل ، وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف فى الآثام . وجه تشبيه الدنيا بالماء (١) أن الماء جار بالطبع ، يجرى ولايستقر كذلك الدنيا لا تستقر (٢) قليل الماء يكفى وكثيره يُهلك (٣) الماء إذا طال حبسه تغير وفسد واستحال فى حق متناوله سقماً ، كذلك الدنيا لممسكها أذى وبلاء

من الحكم : إذا لم يكن من الموت بد ، فمن العجز أن تكون جباناً ، وإذا كان بيتك من زجاج ، فلا ترم الناس بالحجارة . قيل للعباس بن مرداس فى الجاهلية : ألا تشرب الخمر ؟ . فقال : ما أنا بآخذ جهلى بيدى فأدخله جوفى ، ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وأمسى سفيههم . وقال : ألا إن شارب الخمر عدو عقله ، ومن عادى عقله فقد عادى نفسه ، ومن عادى نفسه فهو عدو الناس أجمعين ، شبه الشيء منجذب إليه ، روى أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء ، وكان بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية ؛ فدخلت على عائشة رضى الله عنها فأضحكتها فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبتها ، فقالت : صدق الله ورسوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . رواه الحسن بن سفيان فى مسنده ، وهو عند البخارى تعليق مختصر . ودخل عبد الله بن جعفر مكة ومعه أصحابه فلما أصبح قام فى أهل مكة خطيباً فقال : يا أهل مكة عرفناكم فى ليلة واحدة . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : جئنا وفينا أخيارنا وأشرارنا فنزل أخيارنا على أخياركم وأشرارنا على أشراركم فلذا عرفناكم فى ليلة واحدة ، ولو أن مجلساً فيه تسعة وتسعون مؤمنا ومنافق واحد لجلس المنافق على مثله وبالعكس ، فشبه الشيء منجذب إليه : والطيور على أشكالها تقع . كان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان فى عِشرة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر يناسبه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا فى الطباع والأوصاف فلا بد أن يفترقا « راجع الإبداع الطبعة الرابعة صفحة ٤٣٣ » * وقال بعض الحكماء يعدد مرافق الدنيا : تُطلب الدنيا لثلاث : للغنى والعزة والراحة ، فمن قنع استغنى ، ومن زهد فيها عز ، ومن قل سعيه استراح . وقال المأمون فى تقسيم الإخوان : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً . وقال الإمام على رضى الله عنه : الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل . فأما الرجل فذو الرأى والشورى ، وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور . وأما الذى ليس برجل فالذى لا رأى له ولا يشاور .

دل البحث على أن المدنية الحاضرة قامت على العلم والمال والنظام والقوة . فما عظم سلطان أمة وسادت العالمَ لأنها تلبس زيا خاصاً ، أو لأن المرأة فيها متهتكة ، أو لأن أبناءها تمردوا على دينهم ، وفسقوا عن أمر ربهم ، وخرجوا على تعاليمه ورفضوا العمل بوصاياه . فبالعلم اكتشاف النافع واختراع المفيد ، والوقوف على أسرار الطبيعة ، واستخدامها فى اقتصاديات المرء وفى شئونه الحربية ، ليتمكن من نشر* نفوذه على الأمم ، ومد سلطانه على الشعوب . وليس يكون شيء من ذلك بتهتك المرأة ولبس القبعة . ولولا المال ما انتصر فى حروبه ، واستقام له الأمر فى داخليته ، وتم له تحقيق رغباته . ولو تجرد من النظام لما تهيأت له تلك المشروعات والشركات والجمعيات والمجالس والحكومات ، وما إلى ذلك مما يضمن السعادة والعظمة فى شئونه الداخلية والخارجية . وبالقوة تنشر الدولة نفوذها وتخضع الشعوب لأمرها ، ولو تجردت منها ولبس شخص منها ألف قبعة وقبعة لما تم له امتلاك شعب أو إخضاع أمة أو مد سلطان أو نشر نفوذ . وإجمالا إذا تجردت أمة من العلم والمال والنظام والقوة ثم وجد فيها مائة ألف مليون من فاسدى الأخلاق والمتمردين على الله تعالى ما تم لها سعادة ولا كان لها رقى تفاخر به — للأمم أن يقلد بعضها بعضاً فى وسائل القوة وأسباب النظام فى المناهج الاقتصادية والوجوه الحيوية والأدبية لأن المعارف البشرية مشاعة بين الأمم ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها الأمم الحاضرة بعضها بعضاً ، ولا عار فى ذلك ، فتلك سنة الله فى خلقه ؛ من سماحة الدين أنه لو أتلف مسلم خمر الذمى أو خنزيره يضمنها بالقيمة . ويحكى أن نصرانياً مرَّ بفرس له على عَاشِر عمر رضى الله عنه فعَشَرَه . ثم مر به ثانياً فهمَّ أن يَعْشُره فقال النصرانى . كلما مررت بك عَشَرْتَنى إذاً يذهب فرسى كله . فتركه عنده وذهب إلى عمر رضى الله عنه . فلما دخل المدينة أتى المسجد فوضع يده على عتبة الباب فقال : يا أمير المؤمنين أنا الشيخ النصرانى . فقال أمير المؤمنين : أنا الشيخ الحنيفى ؛ فقص

النصرانى القصة . فقال عمر رضى الله عنه : أتاك الغوث . فنكّس رأسه ورجع إلى ما كان عليه . فظن النصرانى أنه استخف بظلامته فرجع كالخائب . فلما انتهى إلى فرسه وجد كتاب عمر رضى الله عنه قد سبقه : إنك إن أخذت العشر مرة فلا تأخذ مرة أخرى . فقال النصرانى : إن ديناً يكون العدل فيه بهذه الصفة لحقيق أن يكون حقاً فأسلم . وعشره يعشُره بالضم أخذ منه العشر ، ومنه العاشر . وقفت أعرابية على جماعة فقالت لهم : ما الكرم يرحمكم الله ؟ قالوا : بذل المعروف والإيثار على النفس . قالت : هذا فى الدنيا . فما هو فى الدين ؟ قالوا : طاعة الله سبحانه و بذل المجهود فى العبادة واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده . قالت : أفتريدون بذلك جزاء ؟ قالوا : نعم . قالت : ولم ؟ قالوا : لأن الله وعد بالحسنة عشر أمثالها . فقالت : سبحان الله ! ! فإذا أعطيتم واحدة على أنكم تأخذون عشراً ؛ فأين الكرم ؟ قالوا : فما هو يرحمك الله . قالت أن يُعْبَد الله حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء يفعل بكم مولاكم ما شاء ، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم أنكم تريدون شيئاً بشىء .

إذا اشتد الكرب هان

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكدّ شياطينه فى البناء شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ؛ فقال : ألستم تذهبون فراغاً وترجعون مشاغيل ؟ قالوا : بلى . قال : ففى هذا راحة . فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين ، فشكوا ذلك إلى إبليس . فقال : ألستم تستريحون بالليل ؟ قالوا : بلى . قال : ففى هذا راحة لكم نصف دهركم . فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار ، فشكوا ذلك إلى اللعين فقال : الآن جاءكم الفرج . فما لبثوا أن أصيب سليمان ميتا على عصاه فإذا كان هذا فى نبى من الأنبياء لا يعمل إلا بأمر الله تعالى و يقف عند حده فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية هل تكون مع التناهى إلا منقرضة وعند بلوغ الغاية إلا منحسرة ؟

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن عمته أم الربيع لطمت جارية فكسرت ثنيتها . فطلبوا إليهم العفو فأبوا ، والأرش فأبوا إلا القصاص ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص . فقال أنس بن النضر : أتكسر ثنيةأم الربيع قال : والذى بعثك بالحق نبياً لا تكسر ثنيتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أنس كتاب الله القصاص » . فرضى القوم فعفوا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . متفق عليه . روى أن رجلا مرَّ بأبى الدرداء وهو يغرس شجر الجوز ، فقال : أتغرس هذا وأنت شيخ كبير وهو لا يُطْعِم إلا فى كذا وكذا عاما ؟ فقال : ما علىَّ أن يكون لى أجره ويأكل منه غيرى ومرّ أنوشروان على رجل يغرس شجر الزيتون فقال : ليس هذا أوان غرسك الزيتون ، وهو شجر بطىء الإثمار . فأجابه: غرس من قبلنا فأكلنا ونغرس ليأكل مَن بعدنا . فقال أنو شروان : زِهْ : أى أحسنت . وكان إذا قال زه يعطى من قيلت له أربعة آلاف درهم . فقال : أيها الملك كيف تعجب من شجرى وإبطاء ثمره فما أسرع ما أثمر . فقال : زِهْ ؛ فزيد أربعة آلاف أخرى . فقال الرجل . كل شجر يثمر فى العام مرة وقد أثمر شجرى فى ساعة مرتين . فقال : زه ؛ فزيد مثلها . فمضى أنوشروان فقال : إن وقفنا عليه لم يكفه ما فى خزائننا . روى أن عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية ، فقال لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية . وقام عيسى يصلى، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة . فأبطأ عليه انصراف عيسى ؛ فأكل رغيفاً ، فانصرف عيسى فقال : أين الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا رغيفين ، فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى . فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها فذكاه فأكلا منه ، ثم قال عيسى للظبي : قم بإذن الله فإذا هو يشتد ، فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية مَن صاحب الرغيف ؟ قال : ما كانا إلا اثنين . فمضيا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيده فمشى به على الماء حتى جاوزا الماء . فقال الرجل : سبحان الله ! ! فقال عيسى : بالذى

أراك هذه الآية مَن صاحب الرغيف ؟ قال ما كانا إلا اثنين ، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة و إذا قريب منها لبِنٌ ثلاث من ذهب ، فقال عليه السلام : واحدة لى وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال : أنا صاحب الرغيف ، فقال عليه السلام : هى لك كلها . وفارقه ، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن . فقال اثنان منهم لواحد : انطلق إلى القرية فأتنا بطعام ، فذهب فقال أحد الباقيين : نقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا . قال الآخر : نعم .. وقال الذى ذهب يشترى الطعامَ أجعلُ فى الطعام سما فأقتلهما وآخذ اللبن ، ففعل . فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذى جاء به فماتا . فمر بهم عيسى وهم حولها صرعى ، فقال : هكذا الدنيا تفعل بأهلها * وقال أزدشير لابنه : يا بنى إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس والملك حارس . وما لم يكن له حارس فضائع . يا بنى اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد و بشرك لأهل الدين . وسرك لمن عناه ما عناك ، ولتكن من أهل العقل ، وكان يقال الدين والسلطان توأمان . وقال بُزُرجَمْهر: سُوسُوا أحرار الناس بمحض المودة . والعامة بالرغبة والرهبة والسِّفْلة بالتهديد والمخافة * وقال معاوية رضى الله عنه : إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى لسانى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى و بين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا مدوها خليتها ، و إذا خلوها مددتها . ونحوه قول الشعبى : كان معاويةَ كالجمل الطب — وهو الحاذق بالشىء — لا يضع يده إلا حيث تبصر عينه * قال ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالها ، ولكن يعجبك إن أكرموك لأدب أو علم أو دين * من حسن السياسة : أمر عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى أن يعزل زياداً عن ولايته ، فقال زياد : أعَن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك * وقال لقمان لابنه : يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة . لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه * من دعاء عيسى عليه السلام : اللهم لا تُشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى

صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى . ومن دعاء عائشة رضى الله عنها : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تجعل عاقبة أمرى رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين * كان خالد بن الوليد رضى الله عنه مثلا أعلى فى شجاعته وطاعته وإخلاصه : روى أنه قال عند موته : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فىّ موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء * قال حكيم : موت الجبان فى حياته وحياة الشجاع فى موته فموتوا لتعيشوا فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .

البغى ونقض العهد : فى الحديث « أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لو بغى جبل على جبل لدك الباغى . وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والمكر والنكث قال الله تعالى : « إنما بغيكم على أنفسكم » ، « ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله » ، « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » * حكى أن سائلا قال لبعض العلماء : أين تجد فى كتاب الله معنى قولهم : الجارَ قبل الدار ؟ قال فى قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنى لى عندك بيتا فى الجنة » فطلبت الجارَ قبل الدار . وروى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتنى على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك . فقرأ عليه « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى » فعيسى ابن بنته . فسكت * عن محمد بن كعب القرظى قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى مرضه الذى مات فيه فجعلت أُحِدُّ النظر إليه ، فقال لى : يا ابن كعب مالك تُحِدّ النظر إلىّ ؟ قلتُ : لما نحل من جسمك وتغير من لونك . قال فكيف لو رأيتنى بعد ثلاثة فى قبرى وقد سالت حدقتاى على وجنتى ، وابتدر فمى وأنفى صديداً ودوداً ، كنتَ لى أشد نُكرة . أعِد

عليَّ حديثاً كنتَ حدثتنيه عن ابن عباس . قلتُ سمعت ابن عباس يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل شيء شرفا و إن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، ومَن أحب أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومَن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، ثم قال ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من نزل وحده ومنع رِفده ، وجلد عبده ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من لايقيل عثرة ، ولايقبل معذرة . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال : من لايرجى خيره ولا يؤمن شره . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من يُبغِض الناس و يُبغضونه » * إن عيسى بن مريم قام خطيباً فى بنى إسرائيل فقال : يابنى إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم . يابنى إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيّه فاجتنبوه ، وأمر مختلف فيه فإلى الله ردوه * إبراهيم عليه السلام — يدعى أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده ، وكانت النبوة فى فرعين من ولده : الأولى إسحاق ومنه جميع أنبياء بنى إسرائيل ، وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى عليهما السلام ودين موسى يسمى باليهودية : نسبة إلى يهود أحد أسباط إسرائيل ، أو هو السبط الأكبر الذى كان منه جلة ملوك بنى إسرائيل ، ودين المسيح يسمى النصرانية نسبة إلى الناصرة ، وهى أول قرية علم بها المسيح ، فقال العرب : ناصيرى ونصرانى . وكان هو يدعى الناصرى . والفرع الثانى كان منه إسماعيل وهو داعية العرب إلى دين ابراهيم ، ثم كان منه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة إبراهيم . مر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس عليه وقالوا : ياأبا اسحاق مالنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء (١) عرفتم الله فلم تؤدوا حقوقه (٢) زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته (٣) قرأتم القرآن فلم تعملوا به (٤) أكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها (٥) قلتم

إن الشيطان عدو كم ولم تخالفوه (٦) قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها (٧) قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها (٨) قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له (٩) انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم (١٠) دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.
حكى عن بعض الصوفية أنه قال لتلميذه : ماتصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فان عاد ؟ قال أجاهده . قال هذا يطول ، ولكن أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماتصنع ؟ قال : أكابده وأرد عليه جهدى قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك .
والمستعاذ منه الشيطان وأعوانه والنفس والهوى والدنيا . كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول هذه الآية « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه . من حفظ الله لرسوله ماروى الكلبى عن أبى صالح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبنى أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو واحداً ، فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له ، وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش ، فحال الوادى بينه وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث بن الحارث المحاربى فقال : قتلنى الله إن لم أقتلك . ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده ، فقال يامحمد من يعصمك منى الآن ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله عز وجل . ثم قال : اللهم اكفنى غورث بن الحارث بما شئت ثم هوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب على وجهه من زلخة زلخها بين كتفيه ، فبدر سيفه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال : ياغورث من يمنعك منى الآن ؟ قال : لا أحد . قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيك سيفك ؟ قال لا ، ولكنى أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك أحدا . فاعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث . والله لأنت خير منى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا

أحق بذلك منك . فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم . قال : وسكن الوادى فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر » متفق عليه زَلَخه بالرمح يَزْلِخُه زجه وطعنه . بنى عامل للرشيد قصراً حذاء قصره فنمى به ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثرَ نعمته ، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك عليّ فأعجبه كلامه . فى التحذير من الدَّيْن : عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتى بجنازة فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ . قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليه » . لعله صلوات الله وسلامه عليه علم أنها تفى بدينه . « ثم أتى بالثالثة فقالوا صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه يارسول الله وعليّ دينه . فصلى عليه » متفق عليه ، من آداب الإسلام عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا : مالنا بد منها إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال : فإن أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر » رواه البخارى .

الإسلام دين المساواة

فى صحيح البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اتشفع فى حد من حدود الله ثم قام فخطب قال أيها الناس : إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت

محمد سرقت لقطع محمد يدها . وقال أهل التحقيق طيب العيش يكون بأمور أربعة (١) عبادة المنعم سبحانه مع أكل الحلال (٢) الرزق الحلال الطيب (٣) القناعة فى الدنيا والرضا منها باليسير كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : فى دعائه اللهم قنعنى بما رزقتنى (٤) رزق يوم بيوم فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً : والقناعة وحدها تكفى لهذا ، لأنه ألا يطيب عيش أحد فى الدنيا إلا عيش القانع ، وأما الحريص فإنه أبداً فى كد وعناء ، وعيش المؤمن فى الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه . (١) لعلمه أنه تعالى مدبر حكيم فكان راضياً بكل ما قدره وقضاه ، أما الجاهل فلا ، فكان أبداً فى عناء وشقاء (٢) إن البلايا هينة عليه لكونها فعل الإله ، فأما الجاهل فهى شديدة عليه عظيمة التأثير فى نفسه (٣) المؤمن يعلم خسة لذائذ الدنيا وسرعة زوالها فلا يغتم لفواتها بخلاف الجاهل فلا يعرف سعادة تغايرها فلا جرم يعظم حرصه بوجدانها ، وغمه بفقدانها . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ، ولا الفاحش ولا البذيء » . رواه الترمذى بإسناد صحيح . والطعان هو الوقاع فى أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة ، واللعان الذى يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة الله تعالى والفاحش ذو الفحش فى كلامه وأفعاله والبذيء الفاحش فى منطقه وإن كان الكلام صدقاً . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاثة لاترد دعوتهم الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى وجلالى لا نصرنك ولو بعد حين » رواه الترمذى بإسناد حسن من حديث أبى هريرة . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت[1] تداعي يدعو بعضها بعضاً للاجتماع على اذلالكم وسلب مافى

(١) رواه أبو داود فى سننه والبيهقى فى دلائل النبوة مرفوعا .

أيديكم — والأكلة جمع آكل ككاتب وكتبة — وغثاء السيل هو ما يحمله من الزبد والأشياء الطافية على وجه الماء مما لا قيمة له ولا نفع فيه . ضربه مثلا للمسلمين إذ أذهبت ريحتهم وتفرقت كلمتهم — والحديث من أعلام النبوة ، وقد تحقق فى هذه الأيام فلقد صار المسلمون اليوم لشدة تنازع الدول القوية عليهم بمثابة القصاع اجتمع عليهم الأكلة الجياع .

فضيلة الإحســـان

حكى أن امرأة جاءت إلى حسان بن سنان فسألته شيئاً ، فجعل ينظر إليها فإذا هى امرأة جميلة ، فقال : ياغلام ، أعطها أربعمائة درهم ، فقيل له : إنها تسألك درهما . فقال : لما نظرت إلى جمالها خشيت أن تقع فى معصية ، فأحببت أن أغنيها عسى أن يرغب فيها أحد فيتزوجها . وقال الإمام الثورى : الإحسان أن تحسن إلى المسىء ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة .

فى الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم » . ويروى أن رجلاً سب الأحنف بن قيس وهو يماشيه فى الطريق ، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا إن كان بقى معك شىء فقله ههنا ، فإنى أخاف إن سمعك فتيان الحى أن يؤذوك . وقال رجل لأبى ذر رضى الله عنه : أنت الذى نفاك معاوية من الشام ؟ لو كان فيك خير ما نفاك ، فقال : يا ابن أخى إن ورائى عقبة كؤوداً ، إن نجوت منها لم يضرنى ما قلتَ ، و إن لم أنج منها فأنا شر مما قلتَ . وقال رجل لأبى بكر رضى الله عنه : والله لأسبنَّك سباً يدخل القبر معك ، قال : معك يدخل لا معى . وقال رجل لعمرو بن العاص : والله لأتفرغن لك ، قال : هناك وقعت فى الشغل ، قال : كأنك تهددنى ، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشراً ، قال : وأنت والله لئن قلت لى

عشراً لم أقل لك واحدة . وشتم رجل الشعبي فقال له : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك . وشتم رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه فقال : يا هذا لا تغرِق في شتمنا ودع للصلح موضعاً ، فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه . ومر المسيح عليه السلام بقوم من اليهود ، فقالوا له شراً فقال خيراً ، فقيل له : إنهم يقولون شراً وتقول لهم خيراً ، فقال : كل واحد ينفق مما عنده . قيل للأحنف بن قيس : من أحلم ؟ أنت أم معاوية ؟ قال : تالله ما رأيت أجهل منكم ؛ إن معاوية يقدر فيحلم ، وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس به أو أدانيه . وقيل لقيس ابن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وقالوا : مَا قُرِنَ شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة . وقال الحسن : المؤمن حليم لا يجهل وإن جهل عليه ، وتلا قوله تعالى : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » . وقال يزيد بن أبي حبيب : إنما كان غضبي في نعلي ، فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت . وقال الإمام علي رضي الله عنه : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه . وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً ، انصرف إذا شئت . وقال الأحنف بن قيس : آفة الحلم الذل ، ولا حلم لمن لا سفيه له ، وما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولما أنشد هذا البيت للنبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يفضض الله فاك » . فعاش مائة وثلاثين لم تنفضَّ له ثَنِيَّة .

في الغيرة على الوطن

خرج أحد الملوك ذات يوم يتفقد جيشه ، وبينما هو يجوس خلال صفوفه رأى جندياً تتألق على صدره سلسلة ذهبية ، وقد ربط في نهايتها رصاصة بدلاً

الساعة ، فأراد الملك أن يعرف السبب ، فسأله باسماً : كم ساعتك ؟ فأجابه الجندى : إن ساعتى يا مولاى لا تعيِّن الزمن ، ولكنها تذكرنى دائماً بواجب الذود عن الوطن ، فسر الملك من إجابته ، ووهب له ساعته الخاصة مكافأة له .

فى ثبات الفقير وغرور الغنى

فى صحيح البخارى عن خبَّاب رضى الله عنه قال : كنت قَيْناً فى الجاهلية ، وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا أكفر حتى يميتك الله ثم يبعثك ، قال: دعنى حتى أموت وأبعث ، فسئوتى مالاً وولداً ، فأقضيك ، فنزلت : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ، كلا سنكتب ما يقول ، ونمد له من العذاب مدًّا ، ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » . القَين : الحداد . فى صحيح البخارى من حديث جابر بن عبد الله يقول : « جاءت ملائكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا : أوّلوها له يفقهْها . فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة ، والداعى محمد صلى الله عليه وسلم فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله ، ومحمد فرْقٌ بين الناس » .
* روى الإمام المقدسى عن أبى ذر الغفارى قال : أوصانى خليلى بأربع كلمات هن إلىَّ أحب من الدنيا وما فيها ، قال لى : « يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود ، واخلص العمل فإن الناقد بصير » . * وروى أن سفَّانة بنت حاتم الطائى فى غزوة الطائف حين

وقعت فى الأسر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : شكرتك يدٌ افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد اغتنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة » ترجو بذلك أن يمن عليها بإطلاق سراحها . فقال : « ياعلى جهزها على جملين وردها إلى أهلها مكرّمة » ففعل ذلك على رضى الله عنه وكرم الله وجهه * قيل لحكيم : ما السرور ؟ فقال : عقل يقيمك ، وعلم يزينك ، وولد يسرك ، ومال يسعك ، وأمن يريحك ، وعافية تجمع لك المسرات * وقالت عائشة رضى الله عنها : من شِقوتنا أن الله تعالى قدمنا حين ذكرت الشهوات : إشارة إلى قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » هذه الستة أنواع هى المشتهيات التى يحبها الناس وحبها مزين لهم ، وله مكانة من نفوسهم (أولها) النساء وحبهن لا يعلوه حب لشىء آخر من متاع الحياة ، فهن مطمح النظر وموضع الرغبة ، وسكن النفس ومنتهى الأنس ، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال فى كدهم وكدحهم ، فكم افتقر فى حبهن غنى ، وكم ذل بعشقهن عزيز . (الثانى) حب البنين فاكتفى بذكر ما كان حبه أقوى والفتنة به أعظم . (الثالث) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، أى كثرة المال وهو مما أودع فى الغرائز — ولفظ القنطار معناه العقدة المحكمة من المال وهو ما يعبر عنه التجار الآن بالصر أو الصرة — وقنطار مقنطر مكمل على المبالغة . (الرابع) الخيل المسومة وهى الراعية ، وقيل المطهمة الحسان ، وقيل المعلمة — وكل من الراعية التى تقتنى للتجارة ، والمطهمة التى يقتنيها الأغنياء للمفاخرة من متاع الدنيا الذى يتنافس فيها . (الخامس) الأنعام وهى الأبل والبقر والغنم . (السادس) الحرث : الزرع والنبات وهو قوام حياة الإنسان والحيوان (ذلك) ما يستمتع به الناس فى حياتهم الأولى ، والله تعالى عنده حسن المرجع فى الحياة الآخرة ، فلا ينبغى أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد للعظيم الباقى . من كلام عيسى عليه السلام : الدنيا مزرعة إبليس وأهلها حراثون له فيها .

دهاء صبي وشجاعته

مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً بصبية يلعبون بينهم عبد الله بن الزبير ، فلما رأوه فروا إلا عبد الله ، فقال له عمر : لمَ لمْ تفر مع أصحابك ؟ فقال : لم أكن مذنباً فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقه فأوسع لك * قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة ، وقالوا : لا نطوف فى ثياب أصبنا فيها الذنوب ، ومنهم من يقول : نفعل ذلك تفاؤلا حتى نتعرى من الذنوب كما تعرينا من الثياب ، وكانت المرأة منهم تتخذ ستراً تعلقه على حقويها لتستتر به عن الحمس وهم، قريش ، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك ، وكانوا يصلون فى ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً . فقال المسلمون : يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك . فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أى البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا — وهذا من بدع الجاهلية : التى هدمها الإسلام * قدّر الإمام على رضى الله عنه الدنيـا بثلاثة أيام يوم مضى قد عرفت ما فيه : ويوم أنت فيه فأنت فيه إن كنت من أهله ، ويوم يأتيك فلا تدرى أنت من أهله أو أنت من الراحلين * من الحكم المأثورة : إطاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال على رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخرة . وقال الشعبى : إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه — أى فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية . وقال بعض الحكماء : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال غيره : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع والصاحب رفعة فى الثوب فلينظر أحدكم بم يرَقِّع ثوبه . وقال : إذا حاججت فلا تغضب فإن الغضب يقطع عنك الحجة ويُظهر خصمك عليك . فى حسن الاستشفاع : قال ابن

المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل فقلت : يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدى الله تعالى : من كانت له عند الله يد فليتقدم فلا يتقدم إليه إلا من عفا عن مذنب . فأمر باطلاقه . وأمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل فقال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين إن الله قد فعل ما تحب من الظفر فافعل ما يحبه من العفو ، وأمر المهدى بضرب عنق رجل فقام إليه الناسك العظيم والواعظ الحكيم ابن السماك فقال له : إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق قال أمير المؤمنين : فما يجب عليه ؟ قال ابن السماك أن تعفو عنه ، فإن كان من أجر كان لك دونى ، وإن كان من وزر كان علىَّ دونك . فخلى سبيله — وروى الأصمعى قال : عزم عبد الله بن على قتل بنى أمية بالحجاز فقال له عبد الله بن حسين بن حسن بن على بن أبى طالب : إذا شرعت بالقتل فى أكفائك فمَن تباهى بسلطانك فاعف يعف الله عنك . من الأمثال السائرة « إنما أكلتُ يوم أكل الثورُ الأبيض » وأصله أن ثلاثة ثيران أحدها أبيض والثانى أحمر والثالث أسود تمردت على صاحبها وفرت إلى البادية فالتقت ببعض الوحوش فطمع فيها ، ورأى أن لا قبل له بها وجها لوجه ، فعمد إلى الحيلة ، فعقد معها صداقة بحجة أنها تأكل العُشب وهو يأكل اللحم فلا زحام بينه و بينها ، فليكن الجميع على تعاون : هو يرشدها إلى العُشب وهى ترشده إلى اللحم « صغار الصيد » فلما قدم جاء إلى الثورين : الأسود والأحمر ، وقال : إن لونى ولونكما متقارب وغير ظاهر ، ولكن الثور الأبيض مكشوف اللون يرشد الناس إلى اقتناصنا فهلا أعنتمانى عليه ليخلص لكما العشب ونأمن كشف الناس لنا بسببه ؟ فأجاباه فافترسه . ثم بعد حين جاء إلى الأسود بمثل ذلك فأحسّ الضعف فأجابه فافترس الأحمر . فلما انفرد بالأسود جاء ليفترسه فتبين له خطأ ما ارتكب أولا وثانيا وقال هذا المثل . وصار مثلا لمن يتخاذل عن نصرة إخوانه طمعاً فى النجاة من مثل مصيرهم فيعجل لنفسه فى اللحاق بهم .

فى حسن الجوار

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه . أى من علامة كمال الإيمان أن يحسن المسلم جوار أخيه

بالبشر وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وتحمل الجفا وما إلى ذلك من حسن المعاشرة . وكان من دعاء داود عليه السلام : اللهم إنى أسألك أربعة وأعوذ بك من أربعة . أسألك لسانا ذاكراً ، وقلبا خاشعاً ، وبدنا صابراً ، وزوجة تعينى فى دنياى وآخرتى . وأعوذ بك من ولد يكون علىّ سيدا ، ومن امرأة تُشيبنى قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون نعيما لغيرى ووبالا علىّ . ومن جار سوء إن رأى منى حسنة كتمها ، وإن رأى منى سيئة أفشاها . وكان لأبى حنيفة رحمه الله جار إسكافى بالكوفة يعمل نهاره كله ، فإذا جن الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك وخمر فيطبخ اللحم ويشوى السمك ويأكل ويشرب ، فإذا دب فيه السكر أنشد

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم لايزال يهذى ويردد البيت ويصيح إلى أن يغلبه السكر وينام . وكان الإمام أبو حنيفة يقوم الليل كله فى عبادة ربه ، ويسمع صياح الرجل وإنشاده . ففقد صوته فى بعض الليالى فسأل عنه فقيل أخذه العَسَسُ « رجال الشرطة » منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فى سجن الأمير . فصلى الإمام الفجر وركب بغلته وسار إلى أن استأذن على الأمير فقال : ائذنوا له وأقبلوا به راكبا حتى يطأ بساطى هذا بحافر بغلته . فلما دخل أجلسه الأمير مكانه وقال: ماحاجة الإمام؟ فقال له : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر باطلاقه . فقال : نعم وكل من أخذه من تلك الليلة إلى يومنا هذا إكراماً لجار الإمام . ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين . فركب الإمام وتبعه جاره الاسكافى ، فلما وصل إلى داره قال له الإمام : أترانا قد أضعناك ؟ فقال : لا بل حفظت ورعيت ، جازاك الله خيراً عن حسن الجوار ورعايته ، والله علىّ ألا أشرب بعدها خمراً . فتاب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه * ومن ورع عمر بن عبدالعزيز ماحدث ابن السماك قال: كان عمر بن العزيز يقسم تفاحا بين المسلمين فجاء ابن له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح ، فوثب إليه وفك يده وأخذ تلك التفاحة وطرحها فى التفاح ، فذهب إلى أمه مستعبراً (باكياً) فقالت له : مالك أى بنى ؟ فأخبرها ، فأرسلت بدرهمين فاشترت له تفاحاً وأطعمته ورفعت منه لعمر ، فلما فرغ مما بين يديه دخل إليها فأخرجت له طبقاً من التفاح . فقال : من أين هذا ؟ فأخبرته

فقال رحمك الله والله إن كنتُ لأشتهيه . وأتى بماء قد سخن فى فحم الأمارة فكرهه ولم يتوضأ منه . وقال يوماً أسخنوا لى ماء أغتسل به للجمعة ، فقيل له : يا أمير المؤمنين والله ما عندنا عود حطب نوقده به ، فذهبوا بالقمقم إلى مطبخ المسلمين ثم جاؤا بالقمقم فقالوا : هذا القمقم يا أمير المؤمنين وهو يفور ، فقال : ألم تخبرونى أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ، قالوا : نعم . قال : ادعوا لى صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمقم أمير المؤمنين فأوقدتَ تحته ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدتُ تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جمر لو تركته لخَمَد حتى يصير رماداً ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال أدّوا إليه ثمنه * فى تربية الأولاد : روى أن عتبة بن أبى سفيان أوصى مؤدب ولده فقال : ليكن أول إصلاحك بَنِيّ إصلاحُك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما فعلتَ ، والقبيح ما تركت . وعلِّمْهم كتاب الله ، ولا تُملهم فيتركوا ، ولا تَدَعْهم فيهجروا ، وروّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يُحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلّة الفهم ، وهددهم بى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء . وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسِيَر الحكماء ، واستزدنى بآدابهم أزدك . ولا تتكلن على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك * أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى إذا كنت وحدك فاحفظ قلبك ، وإذا كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، وإذا كنت على الطعام فاحفظ بطنك . فهذه تورثك السلامة والصحة * بالتمسك بالدين انتصروا على أعدائهم * قدمت الروم على هرقل منهزمة وهو بانطاكية فدعا رجالا من عظمائهم فقال : ويحكم أخبرونى ماهؤلاء الذين تقاتلونهم ، أليسوا بشرا مثلكم ؟ — يعنى العرب — قالوا بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن ، قال : ويلكم فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين يُؤتَوْن . قال : إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا صدقوا ، ونحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فمابالكم كما تصفون ، وهم كما تزعمون ؟ قال الشيخ : ما كنت أراك إلا وقد علمتَ من أين هذا ، قال له من أين هو ؟ قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ونظلم ، ونأمر بما يُسخط الله ، وننهى عما يُرْضى الله ، ونفسد فى الأرض . قال : صَدَقتنى ، والله لأخرجن من هذه القرية ، فمالى فى صحبتكم خير وأنتم هكذا * فى بر الوالدين . جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إن لى أما بلغ بها من الكبر أنها لا تقضى حاجتها (البول والغائط) إلا وظهرى لها مطية ، فهل قضيتها ؟ أى حقها ، قال ، لا ، لأنها كانت تفعل معك ذلك وهى تتمنى بقاءك وأنت تفعل معها ذلك وأنت تتمنى موتها . أى فرقٌ بين من يصنع الجميل عن رضا وإخلاص ، ومن يصنعه على خلاف هذا * ظاهرة كريمة . روى أنه حصلت مجاعة فى زمن أبى بكر وكان عثمان رضى الله عنه كثير المال ، وقد جاءه ألف راحلة من الشام تحمل قمحا وأرزا وزبيباً وزيتاً . فجاءه تجار المدينة وساوموه فى شرائه ، فقال : كم تربحوننى ؟ فقالوا : الدرهم بدرهمين . فقال : قد أعطيت زيادة ؟ قالوا : بخمسة . قال : زادونى فقال التجار : ليس فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليه أحد فى المساومة . قال : إن الله قد أعطانى بكل درهم عشرة دراهم ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا لا . قال فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . وتصدق بالأحمال جميعها إيمانا واحتسابا لوجه الله . فما بقى من فقراء المدينة أحد إلا أخذ ما يكفيه وأهله . هكذا أدبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بآداب الإسلام السمح ، وعودهم على أخلاقه الكريمة (٢) ومن محبتهم للرسول : أنه لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان بن حرب : أنشدُك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك ! فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وأنى جالس فى أهلى . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب

أصحاب محمد محمدا . وكذلك قال خبيب بن عدى صاحبه وأنشد :

وقد خيرونى الكفر والموت دونه وقد هملت عيناى فى غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنبٍ كان فى الله مصرعى

إقامة العدل ورد المظالم . قال ابن حميد : إنى لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم فكان آخر من تقدم إليه (وقد هم بالقيام) امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى وعليك السلام ورحمة الله يا أمة الله تكلمى فى حاجتك فقالت :

يا خير منتصف يُهدى له الرشد ويا إماما به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ عدا عليها فلم يترك لها سبَدُ
وابتزَّ منى ضِياعى بعد مَنْعَتِها ظلما وفُرِّقَ منى الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه إليها يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلدُ عنى وأقرح منى القلبُ والكبدُ
هذا أوان صلاة العصر فانصرفى وأحضِرى الخصم فى اليوم الذى أعدُ
والمجلسُ السبتُ إنْ يُقضِ الجلوسُ لنا نُنصفك منه وإلا المجلسُ الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال وعليك السلام ورحمة الله . أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومأت إلى العباس ابنه . فقال يا أحمد بن خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصومة ، فجعل كلامها يعلو كلامَ العباس ، فقال لها أحمد بن خالد : يا أمة الله إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وعاقب العباسَ بظلمه لها وأمر بالكتابة لها إلى العامل ببلدها أن يؤجر لها ضيعتها ويُحسن معاونتها وأمر لها بنفقة . وعن الربيع أنه قال : ما رأيت رجلا أثبت جنانا ولا أربط جأشا من رجل

رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية فأمرنى باحضاره فأحضرته ودخلت به إليه فقال له المنصور : قد رفع إلينا خبرُ الودائع التى عنك لبنى أمية فأخرج لنا منها . فقال : يا أمير المؤمنين أوارث أنتَ لبنى أمية ؟ . قال لا . قال : فوصىٌّ أنتَ لبنى أمية ؟ قال لا . قال فما سؤالك عن مافى يدى من ذلك ؟ قال : فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه وقال : إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين فى حقهم ، فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها فى بيت مالهم . فقال : يا أمير المؤمنين نحتاج فى ذلك إلى إقامة البينة العادلة على أن الذى فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين ، فإن بنى أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين . قال فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلىّ وقال : صدق الرجل يا ربيع ، ما وجب عليه عندنا شىء ، ثم بشّ فى وجهه ثم قال : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! حاجتى أن تُنفذ كتابى مع البريد إلى أهلى ليسكنوا إلى سلامتى فقد راعهم إشخاصى لديك ، وقد بقيت لى حاجة أخرى يا أمير المؤمنين . قال : ماهى ؟ قال : أن تجمع بينى و بين من سعى بى إليك ، فو الله مالبنى أمية عندى ، ولا فى يدى وديعة ، ولكننى لما مثلت بين يديك ، وسألتنى رأيت ماقلته أقرب إلى الخلاص والنجاة . فقال : يا ربيع اجمع بينه و بين من سعى به إلينا ، فجمعت بينهما فقال : ياأمير المؤمنين هذا غلامى ضرب على ثلاثة آلاف من مالى وأبق ، فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وكذب عليه خوفاً من الوقوع فى يده ، فقال المنصور للرجل : نسألك أن تصفح عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه ، وأبرأته من المال ، وأعطيته ثلاثة آلاف أخرى ، فقال المنصور : ما على مافعلت من مزيد فى الكرم * السعادة فى ترك الكذب والتزام الصدق * ورد أن أعرابيا أتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : إنى أريد أن أتبعك غير أنى علمتُ أنك تنهى عن الزنا والسرقة وشرب الخمر ، ولا طاقة لى بترك جميعها ، فإن قَنِعت منى بواحدة منها اتبعتك ، فعاهده صلى الله عليه وسلم على ترك الكذب ، فصار

كلما هم بزنا أو سرقة أو شرب الخمر : قال : كيف أصنع إن سألنى النبى صلى الله عليه وسلم فإن صدقته حدّنى و إن كذبته فقد عاهدته على ترك الكذب ، فكان ذلك سبباً لترك الفواحش كلها ، وتاب وحسنت توبته ، فقال لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسن ما داويتنى فجزاك الله ماجزى نبياً عن أمته — أو كما ورد ، وقال بعض الصوفية لأحد المريدين : إذا حدثتك نفسك بمعصية الله فاعصه حيث لايراك ، أو كلْ رزق غيره أو اخرج من داره ، ولا ريب أن أى واحد من هذه الثلاثة محال لذاته .

شهادات الأجانب للإسلام

لسنا نريد من ذكر شهادات الأجانب لذلك الدين القويم إقامة البراهين على أنه الدين الحق دين الرقى والمدنية فذلك واضح لا يحتاج إلى دليل . وقد برهن على نفسه بنفسه . وإنما نريد بهذا أن نذكر للناس أن عقلاء الأمم الأجنبية الذين نظروا إليه بالعيون الصحيحة ، والعقول السليمة المطلقة من قيود الهوى والتعصب الممقوت علموا أن القرآن الحكيم هو منبع الرقى والسعادة وأن الإسلام أساس المدنية والحضارة فى كل مكان وزمان . ولو استقصينا كل شهاداتهم لطال بنا الكلام لا سيما أن فريقاً عظيما منهم تصدى للدفاع عن دين الإسلام وألفوا فى ذلك المؤلفات القيمة الناطقة بالحق . وقد انتشرت فى بلاد الشرق والغرب ، فلذلك نكتفى ببعض شهادات أشهر علمائهم وفلاسفتهم قال : « دودیانوس الوزير الفرنسى » : جاء الإسلام مخالفاً لكثير من الأديان التى ضاعت حقيقتها ولكنه جاء منزهاً عما لا يقبل من الخرافات والأباطيل .

ومن عجيب أمره والدليل على صدقه أنه كرّم المسيح وعظمه و إن خالف المسيحيين فى تقرير أن المسيح بشر لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بإذن الله . والإسلام مكمل للإنسانية لاغموض فيه ، وهو يقرر الوحدانية . فسلم من التناقض والمعارضة العقلية .

الإسلام أمر بالمساواة والاشتغال بالعمل ، وتنزه الإسلام عن الرهبانية . أما تأخر أهله فناشىء من أنهم انحرفوا عن أصوله وتوجهوا لغير مرامه . وقال الفيلسوف (كارلايل) الإنجليزى فى كتابه « الأبطال وديانة الأبطال » أى دليل تريد على صحة قول من يدعي لك أنه بنّاء أقوى من أن يبنى لك بيتاً كبيراً يسع الملايين ، من المتانة بحيث يبقى مئات السنين ، كذلك أى دليل تبغى على صدق محمد فيما يدعيه من النبوة أكبر من أن يأتى للناس بدين يهديهم به ويدفعهم فى طريق الحياة الفاضلة ، وأن يبقوا محافظين عليه ومتحمسين له أكثر من اثنى عشر قرنا ، ألا فليعلم الناس أن مثل الباطل كمثل ورق البنك الزائف يمر من يد ويدين ثم يُضبط ويعرف أنه زائف ، فلا يرفع به أحدٌ رأساً ، ولكن الإسلام هدى العقولَ كل هذه الأجيال وأهله أشد اعتداداً وتمسكا به من أية أمة بدينها فى الأرض . وقال جوستاف لبون فى كتابه « حضارة العرب » : إن التعاليم الأخلاقيةَ التى جاء بها القرآن هى صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادىء الخلقية الكريمة . فقد حض على الصدق والإحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا إلى الاستمساك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهود ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذى القربى ورعى الأرامل والقيام على اليتامى ، ووصى فى عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة تلك هى الآداب السامية التى دعا إليها القرآن وهى أسمى بكثير من آداب الإنجيل . وإنها لشهادة رجل عرف الحق من طريق النظر الصحيح فأبت عليه مروءته أن يكتمه . وقال الفيلسوف الانجليزى « برناردشو » لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس . لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً ؛ وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم . وقد صوّر أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم ، ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصما

المسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشاً فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة الذين هو فى أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارلايل وجوت وجيبون القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوروبا من الإسلام ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى . وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد حتى ليمكن أن يقال : إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ .

ومما يلفت نظر الباحث فى حديث هذا الفيلسوف المنصف قوله : إن أوروبا ربما اعترفت بالعقيدة الإسلامية طلباً لحل مشاكلها . وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى رجل على مثل صفات محمد صل الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إليه السلام والسعادة الذين هو فى أشد الحاجة إليهما . فهذه الأقوال لاتصدر إلا من رجل عرف حقيقة الإسلام وأدرك كيف يؤثر بجماله فى القلوب ، ويتسلط بجلاله على النفوس : وليس برناردشو أول من أدرك هذا فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوت الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة (١٨٣٢ م) وهو يعتبر من أكبر رجال الألمان علماً وعقلا . يؤثر عنه أنه نظر فى الإسلام وأعجبه فقال : إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذاً فيه . وقال الفيلسوف (كيزو) الفرنسى صاحب تاريخ التمدين الأوربى : إن الدين الإسلامى يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية ، والقدح فى سيرتهم هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم ، وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء

والضلالة من نواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد ، كل منها ينفع العامة ، و يفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الأغلب . وفى القرآن من ذلك مالا يحصى كثرة ، وقلما يوجد من الأديان ، مايساويه أو يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد ، أو الوحدة فى الكثير ، وأن الواحد يكون أكثر والكثير يكون واحداً ، مما تنبذه بداهة العقل ، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل ، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ؟ ولا يهتدى لدليل عليه ، ولا مرشد إليه . يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ أحكامه ، حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل ، مع أن العقل مشرق الإيمان ، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان ، وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه لكنه يعرفه بأثره ، و بين ما يحكم العقل باستحالته ، فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده وأما الثانى فمطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ، وقال الحكيم جوستاف لوبون : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب فللدين أثر كبير فى تهذيب الأمم وتربية مشاعرها ووجدانها وترقية عواطفها . فإذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ، إذ ما كاد يتصل بالأمة العربية ذلك الإصلاح الروحى المدنى حتى انتشر العدل ، وزال النفاق والرياء والظلم والعدوان ، وأطلقت العقول من قيودها التى ظلت أدهاراً ترسف فيها ، وتبدلت حال الأمة العربية بحال خير منها . اهـ .

والحمد لله أولا وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وكان الفراغ من تأليفه صباح اليوم التاسع من ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم ؟

على محفوظ

طبع هذا الكتاب طبق خطة الدراسة ومنهجها لقسم إجازة الدعوة والإرشاد على نظام القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦

دليل كتاب هداية المرشدين

المطلب	صحيفة
النافع — أهل الدنيا فى تعلقهم بها — كيفية توزيع الجزاء على الحسنات والسيئات	
الفصل الرابع عشر : رعاية المرشد لمقتضى الحال — ما خاطب به المشركين — الرد على منكر البعث	١٨٨ — ١٩١
الفصل الخامس عشر : الطرق التى ينبغى للمرشد أن يسلكها فى إرشاد الناس — الترغيب فى جنس الطاعات — الترغيب فى أنواع الطاعات والفضائل النفسية . .	١٩٢ — ٢٠٠
الترهيب ، وإنه أربعة أضرب (الأول) ذكر الآيات والأحاديث المخوفة للمذنبين — معاصى الآباء وشؤمها على الذرية	٢٠١ — ٢٠٦
(الثانى) حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من البلايا	٢٠٧
(الثالث) كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا بسبب جناياته	٢١٠
(الرابع) ذكر ما ورد فى الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد الذنوب	٢١٥
الفصل السادس عشر : التحذير من المعاصى بالخوف من الله — ما ورد فى فضله — ما يورث الخوف — خوف العلماء — خوف عموم الخلق — القرآن كله مخاوف لمن تدبر.	٢١٩ — ٢٢٨
الفصل السابع عشر : بيان معنى سوء الخاتمة وأنه نوعان . .	٢٢٩
الفصل الثامن عشر : أحوال الأنبياء والملائكة فى الخوف . .	٢٣٤
أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح فى الخوف .	٢٣٥
الفصل التاسع عشر : الحث على المسارعة إلى صالح العمل . .	٢٤١
الفصل العشرون : سنة الله تعالى فى الهداية والإضلال . . .	٢٤٥
نماذج فى مواعظ القرآن الحكيم — الموعظة الأولى الكمالات النفسية — حكمة تعيين الجهة فى الصلاة — سر التوجه إلى بيت المقدس أولا والرجوع عنه إلى الكعبة .	٢٥٣ — ٢٦٣
الموعظة الثانية : صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق . .	٢٦٣
الموعظة الثالثة : النهى عن الانهماك فى طلب الدنيا . . .	٢٦٨

المطلب | صحيفـــة

المطلب	صحيفة

مراجع الكتاب

التى منها اقتبست ليرجع إليها من أراد الزيادة من العلم

١ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للعلامة أبى السعود .

٢ — تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا .

٣ — إحياء علوم الدين للامام الغزالى .

٤ — زاد المعاد للامام ابن القيم .

٥ — سيرة ابن هشام .

٦ — الشفاء للقاضى عياض .

٧ — تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ محمد بك الخضرى .

كتب المؤلف

١ — هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة .

٢ — الإبداع فى مضار الابتداع .

٣ — الخطـــابة .

وتطلب من نجل المؤلف الأستاذ محمد جمال الدين على محفوظ بالمنزل رقم ١٠ شارع الأمير بشير بالحلمية الجديدة بالقاهرة ومن المكاتب الشهيرة .

رقم الإيداع ٤٣١٠ - ١٩٧٩

النصر للطباعة الإسلامية
١ شارع نشاطي - شبرا - القاهرة
تليفون : ٥٥٢٢١

هذا الكتاب

هذه هي الطبعة التاسعة من كتاب «هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة» الذي تخاطفه العلماء والوعاظ والمرشدون في كل أرجاء العالم الإسلامي ، وقررته كليات الدعوة والإرشاد في مختلف الجامعات الإسلامية ، وتهافت عليه طلاب الثقافة الإسلامية من جميع الأوساط .

فالدعوة الإسلامية أمر ماض في الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة . . إحياء لأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي استحقت به أمة الإسلام أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وطاعة لله ورسوله في قوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » .

والداعية إلى الله عز وجل . . لابد أن يكون على مستوى من ثقافة الإسلام ، والخبرة بأساليب الدعوة ومناهجها منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالروابط الوثيقة التي تربط الإنسان بشريعة الله تعالى عقلياً ونفسياً ، وفي أمور المعاش والمعاد . . باعتبارها جسراً يعبر عليه الإنسان ، مزوداً بالعمل الصالح . والوجدان الإيماني والسلوك الإنساني الذي يضع صاحبه بين أصحاب النفوس الراضية المرضية .

ما هو الهدف من الإسلام ؟ ما الذي يجذب قلوب الناس نحو الاعتزاز بالإسلام ؟ ما هي وسائل الترغيب والترهيب الناجحة ؟ ما الذي يجب أن يتزود به المرشد من أساليب الدعوة ؟ ما هي الأخلاق التي يجب أن تتوافر في المرشد ؟ ما هي المواد الثقافية التي يقوم عليها الإرشاد ؟

كل تلك الأسئلة وغيرها أجاب عنها فقيد الإسلام والمسلمين فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ علي محفوظ عضو جماعة كبار العلماء الذي عاش حياته في ميدان الوعظ أستاذ للمرشدين ، وهادياً لطلاب المعرفة .. فكان هذا الكتاب خلاصة تجربته الناجحة . . بالإضافة إلى أنه زود الوعاظ والمرشدين بمادة غزيرة من المعلومات والدروس ، والخطب والقصص الديني ، والنوادر المشوقة ، والمثل الأخلاقية العليا ، وبالأساليب المختلفة التي تجذب قلوب المسلمين وتربطهم بالكتاب والسنة . . بعيدين عن البدع والأهواء فكان بحق خير هداية للناس ، وأعظم منار للمرشدين .

دار الاعتصام